سيرة روائيّة

أحمد المرزوقي

تزممارت

الزنزانة رقم 10



المركز الثقافي العربي

أحمد المرزوقي

تزممارت

الزنزانة رقم 10

المركز الثقافي العربي

أحمد المرزوقي

تزممارت

الزنزانة رقم 10

© Tarik éditions
321 Bd Brahim Roudani
Casablanca

© منشورات طارق
321 شارع إبراهيم الروداني
الدار البيضاء

الكتاب

تزممارت

الزنزانة رقم 10

تأليف

أحمد المرزوقي

الطبعة

الأولى، 2012

عدد الصفحات: 448

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-572-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى
والدي الحبيب الذي توفي بعد
اختطافي بستة أشهر فقط. وإلى أمي
الحبيبة التي انتظرت عودتي طيلة عشرين سنة
ثم انطفأت، يوم 3 تشرين الأول/ أكتوبر 2002، وهي بين أحضاني.
وإلى رفاقي في المحنة. الراحلين منهم والناجين.
وإلى كل إخواني وأخواتي. سي محمد، ثريا، عبد
اللطيف، ربيعة، عبد الوهاب، عبد العزيز ونجاة. وإلى
رفيقة عمري وصديقة دربي وأم أبنائي زوجتي
رجاء. وإلى فلذتَي كبدي ياسين وطه. وإلى
أسرتي وأصدقائي وكل المناضلين
الشرفاء المدافعين عن حقوق
الإنسان..

مقدمة لإنياس دال

التقيت بأحمد المرزوقي في الشهور الأولى من سنة 1993 في مقر الوكالة الفرنسية للأنباء عندما قَدِم إلى عندي مع بعض أصاقدئه بنيَّة إثارة انتباه الرأي العام الدولي حول عدم احترام السلطات المغربية للوعود التي كانت قد قطعتها على نفسها لتسوية وضعيتهم يوم أطلقت سراحهم في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1991.

كانوا وقتئذٍ بلا عمل ولا سكن ولا موارد مالية تمكنهم من علاج أنفسهم، مثلما كانوا يشكلون في الوقت نفسه، عبئاً ثقيلاً على أسرهم التي كانت في غالبيتها العظمى من الطبقة الكادحة. وباستثناء بعض الأشخاص الذين كانوا يتعاطفون معهم، فإن مواطنيهم كانوا يفرون منهم فرارهم من الطاعون.

وقد أبان أحمد وصديقاه عبد الله أعكاو ومحمد الرايس عن شجاعة نادرة وهم يتنقلون من وكالة أجنبية إلى أخرى، معرضين أنفسهم لخطر داهم كان من الممكن أن يقودهم من جديد إلى تزممارت، أو إلى عقاب شديد من جراء «وقاحة» خرقهم للتعليمات المخزنية التي أعطيت لهم.

أما بقية الناجين من أصدقائهم، فقد اكتفوا بوضع آمالهم الواهية في مبادرات الثلاثي الساكن في الرباط ومساعيه.

وخلال الشهور التالية، التقيت بأحمد مراراً في مقر الجمعية

المغربية لحقوق الإنسان الكائن في حي المحيط، وكذلك في مقر المنظمة المغربية لحقوق الإنسان بأكدال، وهما من الفضاءات القليلة التي كان الناجون من تزممارت ينزلون فيها على الرحب والسعة، ويتكلمون بكامل الطمأنينة والحرية.

والجدير بالإشارة أن مداوم الجمعية عبد الإله بن عبد السلام، ومداوم المنظمة إدريس بنزكري، كانا من قدماء معتقلي الرأي الذين أدوا ثمناً باهضاً من أجل نصرة أفكارهم الداعية إلى العدالة والحرية. ولهذا ربطت تجربة السجن ومعاناته بينهما وبين قدماء تزممرات بوشائج لم تزدد مع الأيام إلا قوة ومتانة.

كان سلوك المرزوقي وهو يدافع عن حقوقه مطبوعاً ظاهره بالرفق واللين، أما باطنه فقد كان كله عزماً وإرادة وتصميماً، وهو ما أثار إعجابي. ولما كانت فرنسيته ممتازة شرعت أطرح عليه ألف سؤال وسؤال حول ذلك المعتقل الرهيب، فكان يجيب باندفاع كبير مغتنماً تلك الفرصة السانحة لتفريغ عبئه الثقيل الموجع، سيما وأنه كان كسائر مواطنيه، محكوماً عليه بالصمت المطبق. لقد كان المرزوقي حريصاً على تعريف العالم بأسره والمغاربة على الخصوص، بالظروف الجهنمية التي لقي فيها اثنين وثلاثين من أصدقائه مصرعهم، وكيف نجى الباقون بأعجوبة عجيبة. ومع مرور الأيام، نمت بيننا مودة كبيرة وترسخت ثقة عميقة. فأخذ يسلمني فصولاً مما كان يكتبه ويطلب مني قراءتها. فكنت بدوري أشجعه وأحفزه على متابعة الكتابة من أجل التاريخ وحفظاً للذاكرة.

وهكذا بدأنا نلتقي في بيتي عموماً مساء كل خميس. كان هو يقوم بتحضير فصل أو يكتفي بالحديث، بينما كنت أنا أسجل ذلك على الحسوب، مطالباً إياه من حين إلى آخر، بتفصيل وتدقيق بعض النقط الحساسة. كنت أنصت مندهشاً مذهولاً إلى هذه القصة التي

كان اللامعقول يتنافس فيها من حيث الحدة مع البشاعة. وكان واضحاً أن الكلمة تنفِّسُ كثيراً عن المرزوقي وتحرره. في هذه الفترة بالذات كنت أحس وكأني أسْهمُ في عملية إشفاء. فبينما كان الطبيب الكلاسيكي يداويه من قرحة معدية بالمضادات الحيوية ومضادات الإلتهاب، كانت الكلمة تساعده على استرجاع حد أدنى من الثقة بالناس. وبفضل صداقة بعض الأوروبيين ومؤازرتهم، وحرارة بعض المغاربة وحدبهم، استطاع أحمد أن يسترجع الأمل في الحياة. وبفضل المنظمات الحقوقية والصحافة كذلك، توصل مع أصدقائه إلى انتزاع تعويض شهري مؤقت خول لهم العيش في شيء من الكرامة. ومنذ عرفت أحمد، لم آنس منه قط جنوحاً إلى الانتقام أو إلى تصفية حسابات مع أي كان. لقد كان يتمنى فعلاً أن يحاكم المسؤولون عن تلك الخروقات السافرة، ولكن الذي كان يهمه بالدرجة الأولى هو بسط الحقيقة للمغاربة حتى لا تتكرر تلك المأساة. والشيء الذي غاب عني وعنه في تلك الفترة، هو أن خبث بعض الناس ونذالتهم لم ينتهيا بانتهاء تزممارت. فقد كان على يقين بأن أحمد كان متابعاً وملاحقاً من بعض رجال الشرطة السريين، ولكن أعترف بأني كنت أبعد ما يكون عن توقع نزول الأذى به لمجرد أنه كان يفكر في تدوين هذه الفترة المؤلمة من حياته. وهذا ما حدا بي إلى عدم التكتم على هذا العمل المشترك، رغم نصيحة بعض المقربين الذين كانوا يحذرونني من حماقات جهاز القمع المغربي. فكنت أطلع عليه ثلة من أولئك الذين كنت أتوهم أنهم أهلٌ للثقة، معتبراً أنه من الطبيعي جداً ومن الضروري كذلك أن يكتب هذا الرجل مذكراته. ولهذا لم أمتثل لقانون الصمت. أصمت عن ماذا؟ ولأي سبب؟ كنت أعتقد أن منتهى الفضيحة والعار هو أن يُحرم على إنسان كوي بالحديد المحمى لإطلاق صرخة ألمه، لا سيما وأن

شهادته لم تكن بأي حال من الأحوال تصفية حساب أو تهجماً على مقدسات البلاد. ولكنه تبيّن لي مع الأسف الشديد أني كنت مخطئاً. من أجل ذلك، وجد أحمد نفسه في صيف 1995، أياماً قليلة بعد زيارة الرئيس الفرنسي جاك شيراك إلى المغرب، محتجزاً في قبو فيلا من تلك الفيلات المخصصة للاختطاف، تماماً كما كان عليه الشأن في عهدي أوفقير والدليمي، ولو أن التقاليد قد تغيّرت شيئاً ما لأنه لم يعذب جسدياً وإنما نفسانياً فقط. فطوال ستة وثلاثين ساعة من الاستنطاقات، تمحورت الأسئلة كلها تقريباً حول مشروع الكتاب وحول طبيعة العلاقة التي كانت تجمعني به. فأنا لم أكن في نظر مختطفي أحمد سوى صحفي غربي بذيء يركض خلف الربح على «ظهر المغرب». ولم يجد المرزوقي من خلاص سوى إنكار مشروع كتاب لم يكن إلا في طوره الجنيني. فهددوه بالأسوء إن هو تمادى في نشاطه، ثم أطلقوا سراحه وهو في حالة من الإحباط الشديد. وزادوا فلاحقوه بالمكالمات الهاتفية الليلية ملوحين له بالتصفية الجسدية بالترهيب والمطاردة في الشوارع.

كان صديقي مؤرقاً مضطهداً فلم أكن أطيق ذلك. فاتصلت بجان بول كوفمان أحد أصدقائي القدامى الذي كُتب لأحمد أن يلتقي به ذات ليلة في منزلي، حيث أسر كل واحد منهما لصاحبه بتجربته في الاعتقال. فنَمت بين الرجلين بعد ذلك صداقة ومودة. وكان ردّ فعل جان بول سريعاً وحاسماً، إذ اتصل تواً بالرئيس الفرنسي جاك شيراك وحكى له النازلة، فوافاه هذا بهذه الرسالة:

«إن وزيرنا في الخارجية وكذا سفيرنا في الرباط يتابعان باهتمام كبير قضية السيد أحمد المرزوقي. وقد سُلم جواز سفر للمعني بالأمر تحت اسم المرزوقي. كما أثيرت العوائق التي حالت دون سفره إلى فرنسا مع السيد محمد ميكو رئيس المحكمة العليا ورئيس المجلس

الاستشاري لحقول الإنسان عقب زيارته الأخيرة إلى باريس، وسنوافيكم لاحقاً بنتائج المساعي التي قمنا بها لدى السلطات المغربية».

مباشرة بعد ذلك، بدأ أحمد يتذوق طعم الراحة. وقبل ذلك بقليل، كنت قد رفعت القضية إلى الأستاذ محمد زيان الذي كان آنذاك وزيراً لحقوق الإنسان، فتحادثنا حول الأمر بصراحة وقال لي: (وأفتح هنا قوساً لكي أنصف الرجل في هذه النقطة على الأقل وإن كان قد عدم اللبقاقة في غيرها) «إن أجهزة وزارة الداخلية، مع الأسف الشديد، عاجزة تماماً عن فهم الضرر الذي تلحقه بسمعة المغرب وهي تتصرف بهذا النحو السخيف».

ولما انتهى مشروع الكتاب، قررنا انتظار الوقت المناسب لنشره.

وهكذا بعد اعتلاء العاهل محمد السادس على العرش، وإقصاء إدريس البصري، الرئيس المباشر للمدعو علبوش المشرف السابق على أجهزة الاستخبارات التي سممت حياة المرزوقي منذ خروجه في تزممارت، تغيّرت معطيات المشكل تماماً. ومما زاد في إبراز التحولات الإيجابية التي طرأت في المملكة في هذا المجال، السماح لمحمد الرايس في أوائل سنة 2000 بنشر مذكراته على شكل حلقات في جريدة الاتحاد الاشتراكي. واتفق في هذه الآونة أن أصبحت تزممارت يا للعجب «موضة» جارية، فاستيقظ أخيراً أحد كبار كُتاب البلاد، وجعل من هذا المعتقل موضوعاً لإحدى رواياته بعدما «استخرج» ما يكفيه من معلومات من أحد المعتقلين السابقين. أما بالنسبة إلى أحمد، فقد اتصلت به مجموعة من الصحفيين بهدف إنجاز كتاب عن تزممارت، فكان يبتسم في كل مرة وهو يسأل زائريه: «أين كنتم يوم خرجنا من السجن؟».

إن لكل سجين نظرته الشخصية عن تلك المأساة، وقد كُتبت

شهادتا الرايس والمرزوقي باللغة الفرنسية لأنه كان في حسبان كاتبيها في تلك الفترة أن نشرهما لا يمكن أن يكون إلا خارج البلاد. وسنرى في ما سيأتي أن للمرزوقي إحساساً كبيراً بالتضامن واعترافاً عميقاً بالجميل. فهو لم ينسَ أن مناضلي الجمعية والمنظمة المغربيتين لحقوق الإنسان، وكذا كريسيتن السرفاتي، وجيل بيرو، وبعضاً من صحافيي إذاعة فرنسا الدولية، والسيدة نانسي الطويل، الأميركية الأصل، ساهموا جميعاً بنصيب وافر في إبراز الحقيقة للرأي العام الدولي. كما أنه حرص على سرد معاناته بعد تزممارت، وكأنه كان يتوقعها وهو بعد في الأسابيع الأولى من الإفراج عنه حيث قال: «كان حدسي يؤكد لي بأن مشوار العذاب ما زال طويلاً وأن المخزن لن يغفر لي ولأصحابي خروجنا من تزممارت نصف أحياء». وقد اتضح مع الأسف الشديد أنه لم يكن مخطئاً، ولهذا أخذت فترة ما بعد تزممارت من كتابه عن حق، حيزاً لا يستهان به. إن ما كابده المرزوقي وأصدقاؤه بدرجات متفاوتة، يُظهر بجلاء كبير انزلاقات جهاز سلطوي نتمنى من كل أعماقنا أن يكون قد رحل برحيل إدريس البصري. فبعد مضي تسع سنوات على إطلاق سراح أحمد، فإنه ما زال كسائر أصدقائه بدون شغل وغير مسموح له بمغادرة التراب الوطني (وإن كنا نتفاءل بتغيير قريب في هذا المضمار)، إضافة إلى أنه ما زال في عيون بعض مواطنيه شخصاً مشتبهاً فيه. كل هذه محبط للغاية..

في تشرين أول/ أكتوبر 2000 قامت السلطات المغربية بالخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح، فعوضت الضحايا، وسمحت لبعض فعاليات المجتمع المدني بزيارة تزممارت، ذلك المعتقل المروع الذي ما زال قائماً بزنازينه الخاوية وبساحته التي ابتلعت في جوفها رفاة الراحلين.

لا أعتقد أن العاهل الجديد مع حاشيته وحكومته الحالية سيكتفون بالوقوف عند هذا الحد. فمتى يسرعون إذاً برفع تلك الحواجز المتبقية حتى تطوى صفحة من أشد الصفحات قتامة في تاريخ المغرب المعاصر؟

ثكنة أهرمومو

المقدم امحمد اعبابو

لكي يفهم القارئ الكريم كيف اقتحمت أطر مدرسة أهرمومو العسكرية وتلامذتها قصر الصخيرات يوم عاشر تموز/ يوليوز 1971 برئاسة المقدم امحمد اعبابو الذي كان يروم قلب النظام، لا مناص من الرجوع إلى شخصية الرجل المتميزة لتسليط شيء من الضوء على جوانبها المعقدة:

ضابط في السادسة والثلاثين من عمره، متزوج وأب لأربعة أطفال. قصير القامة، ممشوقها، فاتح البشرة، غزير الشعر، أشقره نسبياً، مقرون الحواجب بشكل يبرز حدة عينين عسليتين ثاقبَتين، رقيق الشفاه، يفتر فمه عند الانشراح عن بسمة تسحر وتخيف.

لقد كان مدير مدرسة أهرمومو العسكرية في جملة واحدة مزيجاً غريباً من الصرامة الشديدة والسحر الآسر. ازداد في قلب الريف النابض بقرية بورد، دائرة أكنول، إقليم تازة، من أب كثير الأبناء، كان في زمن ما شيخ قبيلته.

تلقى امحمد دراسته في مدينة تازة، ثم التحق بالأكاديمية العسكرية الملكية، حيث تخرج منها ملازماً سنة 1956، يوم كان المغرب وهو في فجر استقلاله يشكو كثيراً من ندرة الأطر.

ويمكن أن نذكر من بين المحطات الرئيسية التي ميّزت مشواره العسكري، رجوعه على وجه الخصوص إلى الأكاديمية العسكرية مدرباً لامعاً ترك إعجاباً كبيراً في قلوب رؤسائه، ثم تعيينه في القصر الملكي مرافقاً خاصاً، ثم التحاقه بعد ذلك بعدة وحدات كرئيس متألق ذائع الصيت، ثم رحيله إلى باريس لمتابعة دراسته العسكرية العليا في مدرسة أركان الحرب التي تخرج منها بميزة حسن، ثم تعيينه رئيساً لمركز التكوين العسكري في مدينة الحاجب، وأخيراً، مجيئه اللافت إلى أهرمومو سنة 1968 لقيادة مدرستها العسكرية المشهورة.

كان اعبابو بفضل ذكائه ودهائه وصرامته وقدرته على العمل المتواصل الدؤوب، وخصوصاً شجاعته الكبيرة وطموحه اللامحدود، أحد أبرز الضباط السامين في وقته، بدليل أن القيادة العليا كانت تشركه دائماً في فرقة الضباط المسؤولين على تهييء وترتيب المناورات الكبرى التي كانت تجرى من حين إلى آخر على صعيد الجيش كله. غير أنه بالرغم من هذه الخصال النادرة كلها فإن القلّة القليلة هي التي كانت ترغب في العمل تحت إمرته لسبب بسيط يرتبط بالهيبة التي كان يثيرها في النفوس أكثر من الإعجاب. وكيف لا وهو الصارم المزاجي العنيد؟

كانت أعصابه عبارة عن برميل بارود على أهبة الانفجار في أي لحظة مع أدنى احتكاك. إضافة إلى أنه لم يكن يرحم نفسه في العمل المتواصل حتى يرحم غيره. فكان إذا أعطى أمراً أصرّ على تنفيذه بحذافيره على أكمل وجه، وإلا انفجر البركان المستعر بكل تأججه في وجه المتهاون الكسلان. ولا فرق في أن تكون الضحية جندياً بسيطاً أو ضابطاً، فالكل عنده سيّان ما دام الضابط المخطئ يقذف به في زنازين الجنود من دون أن يجرؤ أحد على تحريك إصبع احتجاج أو استنكار.

وإذا كان المدير قد تعود في إطار معاملاته مع ضباطه ألا يدعو أحداً منهم إلى فيلته، فقد كان في المقابل يقيم من حين إلى آخر سهرات باذخة، يأمر فيها بذبح بعضٍ من قطيع الخراف التي كان يشرف جندي من المدرسة خصيصاً على تسمينها، وذلك احتفاء بضيوفه أصحاب المراتب السامية والنفوذ الكبير. غير أنه كان يأتي بين الفينة والأخرى إلى نادي الضباط ليجالس مرؤوسيه هنيهة، وليتبادل معهم أحدث النكت وأندر الطرائف بشكل تلقائي كان يبيِّن عن روحه المرحة الميالة إلى تلقي النكتة واختراعها في ساعات الاسترخاء. وفور مجيئه إلى أهرمومو انقلبت المدرسة رأساً على عقب، واستحالت إلى ورشةٍ ضخمةٍ للأشغال الشاقة. فكانت الحركة فيها لا تكاد تهدأ بالمرة نظراً إلى أعمال البناء والتشييد المتواصلة آناء النهار وجزءاً كبيراً من الليل: سريات كاملة من تلامذة ضباط الصف ومعها أطرها يخلف بعضهم بعضاً في حصص عسيرة تدوم أربع ساعات بدون انقطاع تحت مراقبة صارمة للمدير الذي كان يقوم يومياً بجولته التفقدية الدقيقة لضبط الأمور.

هكذا إذاً، وفي زمن قياسي، أصبحت المدرسة تتوفر على تجهيزات رائعة تثير في تنوعها وتعددها حسد مثيلاتها من المدارس العسكرية المتطورة:

خزان شامخ للماء يطل على مسبح جميل في مدخل المدرسة، قاعات واسعة للمحاضرات، مختبرات للعلوم الطبيعية، قاعات بتجهيزات متطورة لتعليم اللغات الأجنبية، ملعب معشوشب لكرة القدم يصان عشبه الجيد بكيفية منتظمة، ساحات معدة للرمي ليلاً ونهاراً بأهداف ثابتة ومتحركة، مسلك للمخاطر، مسلك للمحارب، مركب واسع مغطى لكل أنواع الرياضات الجماعية، ملاعب متفرقة هنا وهناك، والقائمة تكاد لا تنتهي لتعداد كل منجزاته.

ولم يكن الأمر يقتصر على أهرمومو فحسب، بل كانت تحت إمرة الرجل ملحقة أخرى في مدينة صفرو تتوفر على المواصفات نفسها تقريباً، كما كانت تعرف بدورها الشدة نفسها في الانضباط والكثافة في العمل.

وقد كان جو من الرعب يسود دائماً في المدرسة لعلم العاملين بها بأن أدنى زلة منهم أو تهاون تكون عاقبتهما شراً مستطيراً. وكيف لا والعيون والآذان كانت مدسوسة في كل مكان وزمان تسجل الشاردة والواردة إلى درجة أن أحدهم، وهو ضابط صف قدم من طوابير «الكوم»، لم يكن يتورع الإفصاحَ عن مهمته الأساسية، قائلاً بلكنته البدوية المتميزة:

ـ أنشُوف، أنكُول، مانشُوفش، أنكُول كمان. (إذا رأيت فسوف أخبر، وإذ لم أرَ فسوف أخبر على كل حال).

ونشط دهاء المدير حين أحكم سيطرته المطلقة على الأمور، وذلك حين نسج شبكة متداخلة من المعارف ذوي الأيادي الطويلة، كانت تبتدأ من بعض الضباط الصغار في الجيش وتنتهي إلى أسمى ضابط فيه.

وهكذا لم يعد يخشى أحداً، فضرب بالقانون العسكري صفحاً، وأصبح إلهه هواه، يعاقب الضباط عند الاقتضاء بالطريقة نفسها التي يعاقب بها التلاميذ والجنود. فترى إطاراً محترماً في الصباح يلقي درسه، وفي الليل تجده مسجوناً في زنزانة تحاذي زنازين تلامذته. ولم يكن بمقدور أحد أن يحرك ساكناً أو يرفع بالاستنكار عقيرة.

ولما استتب له الأمر وأصبح السيد المطلق في المدرسة، عمد إلى طريقة خاصة لاستثمار نفوذه وأمواله. طريقة لربما لم يسبقه إليها أحد قبله من مدراء مدارس التكوين: فقد أقصى الضباط من رئاسة كل المصالح الحساسة التي يجري فيها المال ويتسع هامش المناورة

كمصلحتي التغذية والمعدات، وحصر مهامهم في التدريس فقط، ثم نادى على بعض المقربين من ضباط الصف وأولاهم تلك المناصب بعد أن بسط لهم اليد وقوى النفوذ. ولم يكن من الصعب على أي كان أن يدرك سر ذلك، فهؤلاء طبعاً أطوع من أولئك في تنفيذ الأوامر المشبوعة وأسرع إلى الرضى بالفتات. ولكي تتوفر كل وسائل البناء، وتجري الأمور بوتيرة سريعة جداً، شكّل المدير سرية غريبة من ضباط صف، كنا نطلق عليها لقب «المافيا». فكانت مهمة بعضهم تقتصر على القيام باستكشافات نهارية في الطرق الرابطة بين أهرمومو والرباط وأهرمومو ومدينة تازة، حتى إذا ما عاينوا أهدافاً وجمعوا معلومات، عقدوا لقاءات مع المدير لتحديد زمان المهام وطريقة تنفيذها.

وهكذا كانت تنطلق الشاحنات متسترة تحت جنح الظلام، تسير الساعات الطوال، على متنها جنود شداد مدججين، بالأسلحة، حتى إذا ما وصلوا النقطة المحدودة، انقضوا إنقضاض العقبان النهمة على سلع البناء التي يمتلكها الخواص، وشحنوها بسرعة خاطفة ليعودوا بها غنيمة إلى المدرسة: حديد وإسمنت وحصى وقرميد وآلات ومعدات ووقود.

والويل للحارس الليلي إن سولت له نفسه الوقوف أمام تلك الصاعقة الجارفة، فهو مخير إما بالنجاة بجلده، وإما بتسليم ظهره ليأكل من العصا ما يأكله الطبل عادة في ليلة صاخبة. وبطبيعة الحال، انكشف السر مع تعاقب الأيام، ورفعت الشكاوي وحررت رسائل الاستنكار، ولكنها بقيت كلها كالصيحة الخافتة في الوادي السحيق. ولم تنفع حتى الرسائل المجهولة التي كان يرسلها بانتظام بعض الضباط إلى القيادة العليا للجيش للتنديد بما يقع من تجاوزات. فهيهات هيهات، لقد كان الضرع سخياً حلوباً، وكان الشاربون منه في

أعلى الهرم غير مستعدين للفطام، سيما وأنهم كانوا يستأثرون بقسط وافر من ميزانيات تلك المشاريع المضخمة عن قصد، بينما كان القسط الآخر يذهب لحساب المدير، أما ما فضل عن ذلك فكان يُضاف إلى الغنائم لتنجز به المشاريع في المدرسة. وهكذا كدّس المدير ثروة مهمة كانت تتنافى مع راتبه الشهري المحدود: فيلا فاخرة في حي راقٍ في مكناس، مؤسسة فندقية في المدينة نفسها، مقهى كثير الارتياد، ضيعة وأراضٍ، وسيارتان فاخرتان. فليس عجيباً أن نسمع اليوم عن تفشي وبال تحويل المال العام، فالطاعون في تلك الفترة كان ضارباً جذوره في الأعمال، والسرطان كان وقتها ينخر عظام المؤسسة العسكرية في غياب شبه كامل عن أي طبيب مداوٍ أو محاولة إشفاء. غير أنه، إنصافاً لروح الرجل وهي اليوم في دار البقاء، علينا أن نشير بأنه كان يتميّز عن غيره بكونه لم يكن من أولائك الجشعين العميان الذين كانوا يأكلون الأخضر واليابس ويذرون الخزائن وراءهم قاعاً صفصفاً، وإنما كان يوظِّف الكثير من المال والطاقة من أجل تلميع وجه المدرسة ورفعها إلى أعلى المستويات.

إضافة إلى ذلك، فقد كان بعض المقربين من الذين يعرفون حميمية الرجل يؤكدون أنه لم يكن يسعى إلى الثروة بوصفها غاية في حد ذاتها بقدر ما كان يعتبرها وسيلة تضمن له مقاماً متميزاً بين الأقوياء، وذلك لإيمانه القاطع بأن الفقير في بلدنا لا مكانة له تحت الشمس وإن كانت له أخلاق الأولياء.

وفي كلمة موجزة كانت كل الدلائل حاضرة تشهد صارخة بلسان حالها بأن المقدم اعبابو ضابط من طينة خاصة. ضابط سيكون له لا محالة مستقبل زاهر كما وعد به هو نفسه ضباطه في الحفل الذي أُقيم على شرفه في مدرسة صفرو يوم رقي إلى رتبة مقدم. حيال هذا العمل المتواصل الدؤوب، وذلك الحماس الكبير المتقد، كان بعضنا لا

يملك نفسه من الإعجاب بالرجل رغم سطوته وصرامته. وقد أسر أحدهم ذات مرة لأصدقائه بنوع من التمني فقال:

ـ آه لو أن منهاج عمله كان فيه شيء من الاعتدال ولم يكن على هذه الوتيرة الجهنمية التي لا ترحم في الناس ضعفاً، فما كان أحوج مغربنا إلى حماس في العمل كهذا لنتخلص من براثين الفقر والتخلف.

قدوم فوجنا إلى أهرمومو

سنة قبل تعييننا في مدرسة أهرمومو، سبقتنا إليها مجموعة من قدمائنا عيّنت بإجراءات تأديبية نفذها في حقها المأجور العام للقوات المسلحة الملكية آنذاك، الجنرال إدريس بن عمر.

وملخص الحكاية أنه لما تخرّج هؤلاء الضباط الشباب من الأكاديمية برتبة ملازم ثان بعد تدريب شاق طويل، فُرض عليهم البقاء في المدرسة سنة أخرى بدعوى التمرس جيداً على مهنة السلاح. ولو أنهم أرسلوا إلى وحدة غير الأكاديمية لبدا الأمر عادياً، ولكن الكيل طفح حين عُين عليهم رئيساً النقيب نفسه الذي تحملوه على مضض في السنة الفارطة بعدما كان معهم في منتهى الغلظة والفظاظة والصلف. فاستمر يعاملهم معاملة التلاميذ الضباط، وأرهقهم بدروس مملة كانت تهدف إلى تضييق الخناق أكثر مما كانت تهدف إلى الإفادة. فأثار حفيظتهم ذات مرة وهو بصدد اجترار درس مكرر معاد كان سيعقبه مشي عشرات الكيلومترات على الأرجل. فتمردوا بكل بساطة، وعادوا أدراجهم إلى الأكاديمية مستقلين الشاحنات العسكرية.

وطبعاً، نزلت العقوبة صارمة وبدون إبطاء، ولم يُبت في القضية لتوضيح الأمور ومعرفة الأسباب، وإنما أُرسلوا تواً إلى المعتقل العسكري في القنيطرة، حيث سجنوا مدة بعد أن كانوا على وشك

الطرد. ثم أرسلوا بعد ذلك إلى مدرسة أهرمومو بعد أن سبقتهم تعليمات صارمة إلى اعبابو مفادها أن اكسِر شوكتهم بلا هوادة. بيد أن المدير لم يكن من ذلك النوع الذي ينفذ الأوامر البليدة، فرجَّح في معاملته لهم أسلوب الترغيب على الترهيب، وأفهمهم في تعاطف صامت أنه يهبهم فرصة ثانية لجبر الضرر.

سنة أخرى بعد هذا الحدث، وقع لفوجنا ما وقع لفوج قدمائنا، وإن كانت إدارة الأكاديمية قد تداركت جزءاً من الخطأ وأرسلتنا بعيداً عن المدرسة في جولة عبر الثكنات والمنشآت العسكرية الوطنية.

وهكذا، وإثر وصولنا إلى مدنية الرباط، أقمنا في ثكنة اللواء الخفيف للأمن. فاستمرأنا جو العاصمة وما يحمله من ملاءٍ ومغريات، وبدأنا نتغيب تدريجياً عن بعض الدروس التي لم يكن حضورها ضرورياً أو مؤكداً. فما كان من رئيس الثكنة، وهو ضابط من فوج اعبابو نفسه عُرف بصرامته الشديدة إلا أن أخبر المأجور العام في الوقت المناسب. فقدم هذا الأخير على حين غفلة منا وعاين التغيّب الكبير بنفسه، فجمعنا ذات صباح ووجهه المتجهم يحمل بين تجاعيده وعيداً صارخاً. فألقى فينا كلمة استهلها بلمحة عن الدور البطولي الذي لعبه الجندي المغربي في الحرب العالمية الثانية وفي الحرب الهندية ـ الصينية ثم ختمها متوعداً إيانا بسحق ضلوعنا سحقاً..

وفي الأيام التالية انتظرنا حلول الصاعقة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فتابعنا جولتنا إلى مدينة تازة، حيث استقبلنا رئيس المنطقة العسكرية الجنرال بوكرين والكولونيل التيجاني رئيس اللواء الثاني (الذي سيكون في ما بعد أحد المستشارين في المحاكمة العسكرية) بحفاوة بالغة، فأقاما على شرفنا مأدبة عشاء فاخرة كانت تنم عن نبل الرجلين وسعيهما إلى التعامل معنا بالحسنى للرفع من معنوياتنا والاعتراف بنا ضباطاً. بعدها أرسلنا لمدة شهر بأكمله إلى مدينة تازة،

حيث كان يرابط الفوج الثامن للمشاة بقيادة الرائد الوسيم حسن بوطاهر (الملقب بحسنيتو)، وهو ضابط ريفي كذلك، كان يجمع في نظرنا جميع خصال الضابط المثالي، إذ كان على أخلاق عالية ولباقة كبيرة جعلانا نبذل كل طاقاتنا ونفجر كل حماسنا في العمل مخافة تخييب ظنه فينا. وقد كان مسك الختام في مدينة وجدة مناورة ضخمة ناجحة قمنا بها تحت إشرافه على الحدود المغربية الجزائرية، وحضرها من أعلى مرصد عسكري جنرالات بارزين في الجيش، كالمذبوح وبوكرين وامحارش وآخرين. وبعد تهنئتنا بحرارة على نجاح المناورة، أعطتنا القيادة إجازة مستحقة كنا في أمس الحاجة إليها بعد ذلك التدريب الشاق العسير.

غير أنه بعد عودتنا إلى الأكاديمية من أجل تسلم التعيين النهائي في إحدى وحدات الجيش، أُصبنا بالإحباط حين أُخبرنا بأنه تقرر إرسالنا إلى مدرسة أهرمومو لمدة شهر للقيام بتدريب آخر. فهل كانت لعنة الجنرال بن عمر قد حلّت بنا متأخرة؟ أم أن نجاح المناورة على ذلك النحو اللافت للأنظار أوحى إلى الجنرال المذبوح بما أوحى له به، فاحتفظ بنا إلى أجل غير مسمى لتنفيذ فكرة كانت لا زالت بعد في مرحلتها الجنينية؟

وصلنا إلى المدرسة ليلاً ونحن في تطيرنا نستشيط غضباً من كيفية الاستقبال المهينة التي خُصصت لنا. فقد أُمرنا بالنزول من شاحنات الأكاديمية الوثيرة في قرية «بئر طام طام» بدون أن نعرف لذلك سبباً. وظللنا طوال ساعة في البرد الشديد القارس ننتظر قدوم شاحنات تعمدت التأخر بتعليمات من المدير، وذلك إمعاناً في إهانتنا.

ولما وصلت أخيراً، اكتشفنا أنها بدون كراسي، وعلى متنها أكوام من الرمل المبلل. حفاوة بالغة تصدم القلب وتحبط النفس وتتحدث بفصاحة كبيرة عن الوجهة الجميلة التي نحن نقصدها. في

تلك الليلة بالذات، وبدون إبطاء، عُين فريق منا بكيفية اعتباطية وأُرسل في التو ملحقة مدينة صفرو وتُرك الباقي في أهرمومو.

وبعد مرور ذلك الشهر الكئيب الذي حسبنا فيه الأيام بالكيفية التي يحسب فيها السجين أيامه على جدار زنزانته، وقع المحذور. ارتأى المدير أن ينفث دماً جديداً في المدرسة، وذلك بتغيير عدد وافر من أطرها القدامى بأطر جديد، مرتكزاً في ذلك على ارتسامات الفئة الأولى حول كفاءة الفئة الثانية. فما كان من الضباط القدامى إلا أن بالغوا في التنويه بنا مغتنمين هذه الفرصة السانحة للابتعاد عن ثكنة كانت أقرب ما تكون إلى معتقل منها إلى مدرسة. وقد بدا ذلك جلياً من خلال الابتهاج العميق الذي أظهروه وهم يجمعون حقائبهم استعداداً للرحيل.

الجو الذي كان يسود في المدرسة

في الجهة الجنوبية لقرية أهرمومو تربعت المدرسة العسكرية على ارتفاع 1134 متر فوق هضبة تطل على منظر ساحر أخّاذ لوادي «زلول» الجميل. وفي الأفق المضبب دائماً وقف في جلال وشموخ جبل «بويبلان» المهيب وكأنه نصب عظيم عملاق، انتصب بكبرياء البرابرة ليخلد تاريخ ملاحم جبال الأطلس العريقة. على بضعة كيلومترات من القرية الصغيرة، تتراءى للزائر بنايتان ضخمتان مسقفتان بالقرميد الأحمر شاهداً على طابع الهندسة المعمارية الاستعمارية الفرنسية، كما ينتصب خزان شاهق للماء، وعمارات أرضية خرجت تصاميمها من خيال المدير امحمد اعبابو، يسطع بياضها الجيري تحت أشعة الشمس الحارقة صيفاً والصقيعية شتاء بقوة تدمع العين. إنها المدرسة العسكرية يتضاعف هديرها كلما اقترب إليها وكأنها قرية نمل أو خلية نحل تعج بالحركة وتضج بالصخب والنشاط: هنا أصوات

المدربين الصارخة بالأوامر يتشابك لغطها مع خبط أيدي التلاميذ على أعقاب البنادق، فتردد صداهما حيطان ساحة الأسلحة الشاسعة المبلطة النظيفة العاجة بفصائل المتدربين على حمل السلاح والمشي بالخطوة الموزونة:

راحة.. بالكُم.. سلام، سلاح.. حُطُّوا.. سلاح.. سلاح.. كتف.. يمين.. يمين.. أمام.. خلف.. واحد.. زوج.. واحد.. زوج.. فصيلة.. قف.

وهناك في مدخل المدرسة تتعالى كقصف الرعد أصوات غليظة رجولية لفوج متجه إلى الغابة المجاورة للقيام بمناورة وهو يغني بحنجرة واحدة: «نشيدنا على الدوام، ما قاله المولى الإمام».

وثمة في مسلك المحارب جماعات من تلامذة تسطع رؤوسهم الكبيرة المحلوقة تحت الشمس وهم يقفزون ويتسلقون ويزحفون ويتدحرجون على الأرض ليتخطوا كل الحواجز المزروعة في ذلك المسلك الوعر.. وفي ملاعب الرياضات الجماعية، ومن داخل المركب المغطى يتصاعد هرج الفصائل وهي تتبارى في صراع شرس على انتزاع ألقاب بطولات المدرسة. وعلى مقربة من هذه وتلك، تسترسل عملية البناء والتشييد بانتظام عقارب الساعة، تحت مراقبة يقظة لحراس غلاظ لا ينتظرون سوى شبح استرخاء من التلاميذ ليهووا بسياطهم على ظهور المتهاونين منهم..

وقد كانت هذه الجلبة الصاخبة تتضاعف مع اقتراب العاشرة، وهي الساعة التي كان المدير قد ألف فيها أن يقوم بجولته التفقدية التي كان يتبعه فيها على بعد ستة أمتار من الاحترام، المساعد الأول، العملاق عقا، ذلك البربري القح الذي لمع اسمه في الحرب العالمية الثانية بألف ضوء وضوء لما أبداه فيها من شجاعة وضراوة في القتال.

عقا الذي ستختاره سخرية الأقدار ليكون في نهاية الانقلاب، المجهز على رئيسه.

كانت جولة اعبابو هاته تزرع الرعب في قلوب مرؤوسيه نظراً لمعرفتهم بطبيعته العصبية الملحة على إتقان العمل وكماله. فقد كان إذا أعجبه عمل نوه بصاحبه وصافحه بحرارة ونادى عليه برتبته وهو يهبه أجمل ابتساماته:

ـ طيب، طيب مون ليوطنان، تابع عملك، أعانك الله.

أما إذا أغاظه أمر من أحد انفجر لتوه كقنبلة لسعتها نار ليصب جام غضبه عليه. غير أنه ـ إحقاقاً للحق ـ قلما ظلم أحداً أو تعمّد الظلم مجاناً كما كان يفعل بعض المسؤولين كلما أرادوا إبراز جبروتهم.

كان الضباط المتزوجون في أهرمومو يسكنون في فيلات بحدائق جميلة. وكان العزَّاب منهم يقتسمون فيلا بين اثنين أو ثلاثة. وكذلك كان الشأن بالنسبة إلى ضباط السامين. علاوة على ذلك، كان الأكل مجانياً في نادي الضباط ونادي ضباط الصف، وكانت المشروبات تُباع بثمن بخس مقارنة مع ثمنها خارج المدرسة. غير أن المتضررين حقاً كانوا هم التلاميذ. وكان ذلك راجع إلى تجاوز الطاقة الاستيعابية للمدرسة بكيفية صارخة. فقد كان يحشر فيها ما يزيد على ألف تلميذ حشراً، بينما لم تكن تتسع سوى لثلاث مائة. وأعتقد أنه لا حاجة للإسهاب في تفسير السبب، فالعارفون يدركون أنه كلما زاد عدد التلاميذ، ازداد هامش المناورة وقويت فرص التلاعب بالأرقام.

والحقيقة المخجلة هي أننا كنا في أثناء زياراتنا التفقدية لغرف التلاميذ في الصباح، نتقزز من رائحة العرق الشديدة الناتجة عن شدة الاكتظاظ، وذلك رغم النوافذ والأبواب المشرعة ورغم المجهودات الجبارة المبذولة من طرف المتدربين في الغسل والتنظيف.

هكذا كانت أهرمومو. . مدرسة كبيرة لكل التداريب الشاقة العنيفة، وقرية كئيبة مليئة بأسراب الغربان الناعقة. لم يكن فيها شيء يسر أو يغري أحداً بالإقامة. لهذا كان بعضنا يعتقد أن إجازتين قصيرتين في الشهر غير كافيتين للتسرية عن تلاميذ كانوا يفنون معين شبابهم في تلك التداريب المستنزفة.

في هذه الأجواء الحزينة، مرت السنة الأولى بدون حدث بارز يذكر. .

الانقلابات العسكرية الفاشلة

التحضير للانقلاب الأول

في منتصف السنة الثانية من مجيئنا إلى المدرسة، فطن بعضنا من ذوي الملاحظة الحادة إلى أن الحماس المتقد الذي كان يميّز المدير بدأ يخبو رويداً رويداً، وأنه شرع يكثر من التغيّب عن المدرسة ولم يعد يهتم بتاتاً بمراقبة حسن سير البرامج الدراسية، وحتى إذا ما ظهر لنا في بعض الحالات النادرة، فإنه كان يبدو شارداً مهموماً وكأن شيئاً ما قد استأثر بلبه وأرغمه على حصر تفكيره فيه.

وبمناسبة عيد العرش من سنة 1971، رُقِّي امحمد عبابو من رتبة رائد (كومندار) إلى رتبة مقدم (ليوطنان كولونيل). فاحتفلت المدرسة من أجل ذلك احتفالاً باذخاً، وجيء بمجموعة من أجود شيخات الأطلس لإحياء ليلة قلما عاش الطلبة في مدة تداريبهم مثلها. ولكي يرد له الضباط كرم الضيافة بأحسن منها، أقاموا على شرفه وليمة في ناديهم، فأهدوا له بالمناسبة شارة قبعة الضابط السامي ومعكرونات الرتبة الجديدة مصاغة كلها من الذهب الخالص. فتأثر لذلك تأثراً عميقاً وتمنى لهم مستقبلاً ذهبياً بلون وبريق هديتهم. وجاء دور مدرسة صفرو، فأقامت بدورها حفلة رائعة على شرفه، دُعي إليها جميع أطر المدرستين. فألقى خلالها بلسان فصيح كلمة مقتضبة ذات معنى،

تمنى فيها قريباً لمرؤوسيه مستقبلاً مشرقاً زاهراً. مباشرة بعد ذلك، وبدون أن نعرف لذلك سبباً، أعطيت الأوامر إلى إدارة المدرسة للإسراع بإنهاء البرامج الدراسية كلها قبل شهر أيار/ مايو، فكان له ذلك طبعاً. وفي بداية ذلك الشهر، أعلن لنا المدير عن طريق الإدارة أن المدرسة ستشارك بكيفية رمزية في المناورة الكبرى المقرر إجراؤها على مستوى الجيش كله في مدينة الحاجب. فسلّط بعضاً من الضوء على ذلك قائلاً:

ـ ولو أن مساهمتنا ستكون متواضعة جداً في هذه المناورة، علينا أن نتدرب جيداً لكي نظهر دائماً بالمظهر المشرف اللائق.

وهكذا وُزّع علينا مع المحتوى العام لمناورة الجيش الكبرى، (التي شارك فيها سلاح الطيران)، برنامج الرمي وبرنامج التمارين التي كان من المفروض أن نقوم بها في الإطار العام للمناورة.

وفي غمرة هذه الاستعدادات المكثفة، أمر المدير بدراسة وتجربة فعالية مئات من قذائف الروكيت الأميركية الصنع. شيء بسيط ومهم في آن واحد، لكنه مرّ من دون أن يثير انتباه أحد. ثلاثة أيام أو أربعة على حلول يوم المناورة، أرسل المدير تشكيلة من التلاميذ ومعها أطرها بلباسها الاستعراضي لتمثيل المدرسة في العرض العسكري الذي تقرر إجراؤه في مدينة الحاجب مباشرة بعد المناورة. وفي الثالث عشر من أيار/ مايو، أمر بتشكيل خمسة عشر «كوناندو» يضم كل واحد منها أربعين تلميذاً. كما أمر كذلك بتأليف فصيلة ممثلة للعدو (بلاسطرون) شُكِّلت خصيصاً من الضباط وضباط الصف الماهرين في الرمي، وزودت بسيارات «جيب» أقلت على متنها أسلحة ثقيلة كالمدفع الرشاش عيار 12,7مم والمدفع 75مم، بدون رجع والرشاش ف.م 29/ 24 والرشاش أأ 52. وكانت المهمة الموكولة إلى هذه الوحدات (ولم يخامرنا فيها آنذاك أدنى شك) هي

المشاركة الرمزية في المناورة الكبرى، بيد أن الحقيقة كانت كما سنرى غير ذلك.

في الساعة الثانية صباحاً من يوم الرابع عشر من أيار/ مايو، وبينما الأطر والتلاميذ على أتم استعداد للقفز في الشاحنات للانطلاق نحو الوجهة التي حددت لهم، (الكومندوهات إلى مكان يسمى عين الشكاك، الموجود بين مدينتي فاس والحاجب، وفصيلة البلاسطرون الممثلة للعدو إلى مدينة الحاجب) إذا بمدير الدراسات القبطان بلكبير، يدخل بسرعة إلى نادي الضباط ويخبرنا بأن تعديلاً طارئاً وقع في البرنامج، وأنه عوض التوجه إلى عين الشكاك كما كان مقرراً فسوف نكتفي بالقيام بتمارين حربية خفيفة في نواحي مدينة صفرو، وأنه بناء على ذلك أُخرت ساعة السفر إلى السادسة صباحاً بدل الثانية.

ماذا حدث بالضبط؟

لم نتعرف إلى تفاصيل الأمور إلا في خلال المحاكمة العسكرية في القنيطرة: فبإيعاز من الجنرال المذبوح، كان الكولونيل اعبابو يخطط لنصب كمين محكم بالكوماندوهات الخمسة عشر للموكب الملكي المتوجه يوم المناورة من قصر فاس إلى الحاجب. أما مهمة فصيلة البلاسطرون فكانت ستقتصر على محاصرة المنصة الرسمية التي تضم كل الرؤوس المسيرة للبلاد وإرغامها على التريث إلى حين إصدار أوامر جديدة. كل شيء كان معداً بدقة وإتقان إلا ما كان من طارئ واحد لم يكن متوقعاً من بين الطوارئ المحتملة: فالجنرال المذبوح، الدماغ المخطط للعملية، كان سيضغط بكل ثقله ونفوذه لإلغاء عملية الاستكشاف المسبقة التي اعتادت أن تقوم بها المروحيات للطريق الذي يسلكه الموكب الملكي. غير أن المعارضة القاطعة التي أظهرتها بعض جهات الأمن، جعلت الجنرال يتراجع عن

إصراره في آخر لحظة خوفاً من إثارة الشبهات، فأجَّل العملية بكل بساطة إلى وقت لاحق.

انقلاب الصخيرات

وجدت المدرسة نفسها بعد المناورة الكبرى التي جرت في مدينة الحاجب، في شبه عطالة. فبرامج التكوين كانت قد أُنهيت قبل أوانها، ولم يعد للأطر والتلاميذ من شغل سوى التفكير في العطلة الصيفية التي كانت على الأبواب. ولكي يلهي المدير رجاله بشيء ما، اغتنم فرصة حلول «ليلة الجيش»، وهي مناسبة احتفالية تخلد ذكرى إنشاء القوات المسلحة الملكية وتقوم خلالها بعض الوحدات العسكرية باستعراض مظاهر قوتها وعروضها المدهشة أمام الملك والضباط السامين للجيش، فأمر تلاميذ المدرسة بالتمرن صباح مساء على عرض يتمثل في تشكيل هرم آدمي شاهق في زمن قياسي.. حيلة لصرف الأنظار فقط. وما هي إلا أيام حتى سرى في المدرسة خبر الاستعداد للقيام بمناورة أخرى في ضواحي مدينة بن سليمان. ارتحنا عموماً لذلك، ورأينا فيه متنفساً لفراغنا الكبير. وهكذا قدمت إلى أهرمومو في الثامن شهر تموز/ يوليوز قافلة تتكون من شاحنات «صافييم» الفرنسية الصنع، قُدر عددها بالعشرين تقريباً. جاءت من قرية «عين حرودة»، حيث مقر فوج المعدات العسكرية، لنقل التلاميذ إلى مكان المناورة.

وفي صبيحة اليوم التالي، أي التاسع من تموز/ يوليوز، وزعت إدارة المدرسة علينا قائمة لخمسة عشر «كوماندو»، وقائمة لوحدة سُميت بالفصيلة الخاصة. كان كل «كوماندو» يضم أربعين تلميذاً شُكِّلوا من تلامذة السنة الأولى والثانية والثالثة، يرأسهم ضابط ويساعده ضابط صف. أما الفصيلة الخاصة فقد شكلت كلها من الضباط وضباط الصف.

ومرّ مساء ذلك اليوم في توزيع الأغذية المعلبة بسخاء غير معتاد، وكذلك الأسلحة والمعدات. شيء واحد أثار الانتباه وقوبل باستغراب صامت من طرف بعض القدماء منا: لقد كانت ذخيرة المناورة حية.

أيعقل هذا؟ كيف لتلامذة ما زالوا بعد في طور التدريب أن يناوروا بالذخيرة الحية مع أن ثلثهم الذي لم يكمل سنته الدراسية الأولى يجهل استعمال السلاح جهلاً تاماً؟ أسئلة قفزت إلى الذهن ثم توارت بسرعة حين وجدت لها أجوبة شافية: أو لم نناور بالذخيرة الحية عندما كنا في وجدة؟

في تمام الساعة السادسة مساءً كانت المدرسة برمتها متجمعة على نحو بديع في ساحة الأسلحة الشاسعة. كل كوماندور كان مصطفاً بجنب رئيسه ونائبه لا ينتظر سوى إشارة صغيرة ليقفز إلى الشاحنة الواقفة قبالته. أما الفصيلة الخاصة فقد اصطفت على حدة بمحاذاة سيارات الجيب المحملة بمدافع 75 مم بدون رجع، والرشاشات الثقيلة المضادة للطائرات 12,7 وكذا رشاشات ف.م 24-29 وأأ52.

كان المنظر مهيباً حقاً وكأن حرباً وشيكة سيشعل فتيلها بعد حين.

في السادسة والنصف قدم المدير من فاس لابساً بذلته العسكرية ومعه رجل قصير القامة يرتدي قميصاً وسروالاً كاكيين.

شرع اعبابو مباشرة في استعراض الوحدات بصرامته المعهودة، ثم أعطى الأمر إلى الجميع بالركوب في الشاحنات، ووقف في يقظة الهر وتحفزه يقيس السرعة التي استغرقتها العملية. ولما بدا الارتياح واضحاً على أساريره، أمر رؤساء الفِرق من الضباط بصرف جنودهم والالتحاق به.

على عتبة قاعة الشرف الجميلة المزدانة بالبنادق القديمة المعلقة والقطع الأثرية العسكرية النفيسة، وقف الرجل القصير المجهول يحملق بعينيه الواسعتين في الداخلين واحداً واحداً وعلى شفتيه الرقيقتين ابتسامة عريضة كانت تشبه إلى حد بعيد ابتسامة المدير حين يكون في منتهى رضاه.

وعندما اكتمل جمع الضباط، أجال اعبابو نظرته المتفحصة في رجاله ثم شرع يستعرض فصاحته في هذا الخطاب الغامض الغريب: (مع الاعتراف بأنني لا أدعي نقل كلماته حرفياً، غير أني أؤكد في المقابل أن بعضاً من جمله ظلّت منقوشة في ذاكرتي إلى اليوم).

«أيها السادة، لقد جمعتكم اليوم لكي أعرب لكم عن تشكراتي الخالصة وتهانيَّ الحارة للمجهودات الجبارة التي بذلتموها معي في المدرسة. لقد اشتغلنا دائماً في جو يسوده الاحترام المتبادل والتفاهم المطلق. واليوم، آن الآوان لكي تبرهنوا لي على أنكم في مستوى المهمة التي سنتشرف بإنجازها غداً.

نعم، سنرحل فجر غد إلى مدينة بن سليمان للقيام بمناورة تدوم يومين. وقد كان من المفروض أن يتكلف بإنجاز هذه المهمة لواء من أجود الألوية في القوات المسلحة الملكية، ولكني تدخلت لدى الجنرالات وأقنعتهم لكي يكون شرف تنفيذها لمدرستنا. لهذا فأنا أنتظر منكم أن تكونوا في أرقى مستوياتكم حتى لا تخيبوا ظني فيكم وتخونوا بالتالي الثقة الكبيرة التي أضعها فيكم. فإن كان من بينكم من يرى نفسه غير قادر أو غير راغب في إنجاز هذه العملية، فليصرح بذلك الآن، وتيقنوا بأني سأعفيه بدون أدنى مؤاخذة. هل من سؤال؟».

ران في القاعة صمت ثقيل، رفع بعده الأسبران (المرشح) محمد الرايس أصبعه وتجرأ فسأل:

- مون كولونيل، ما هي مهمتنا بكل تدقيق؟

أجاب المدير بهدوء كبير:

- لا أعلم أكثر مما تعلمون. إنها قضية جنرالات.. على كل حال، ستكون في انتظارنا غداً في عرض الطريق قيادة عليا متقدمة لتزويدنا بالمعلومات الكافية.

ظل الرجل القصير المجهول جامداً في مكانه وهو ينصت باهتمام بالغ إلى كلمة المدير. ولما شرع الضباط في مغادرة القاعة بعد أمر الانصراف، شيعهم بالبسمة نفسها وهو يبحلق في وجوههم. فعلمنا من بعض الضباط القدامى في ما بعد أن الرجل القصير لم يكن سوى الأخ الأكبر للمدير، اليوطنان كولونيل (المقدم) محمد اعبابو.

في نادى الضباط، تكوّنت جماعات هنا وهناك وبدأت في مناقشة الخطاب الغامض المبهم. كل أدلى بدلوه محاولاً تأويل العبارات وإعطائها معنى مقبولاً. والواقع أن الجيش على العموم ومدرستنا على الخصوص، كانت على شاكلة ما كان عليه المجتمع المغربي آنذاك، منقسماً إلى ثلاث فئات: فئة الملكيين الذين لم يتخيلوا قط بوجود من يريد إذاية الملك. وفئة الغافلين اللامبالين الذين كان ابتعادهم عن الاهتمام بالسياسة مرادفاً لجهلهم بجل أسماء وزراء حكومتهم، وفئة صغيرة من «المتسيسين» الذي كانوا يغذون كراهية صامتة للطبقة الحاكمة، كانت تظهر جلياً من خلال انتقاداتهم اللاذعة في بعض المناسبات لبعض شخصياتها المرموقة. ففي هذه الفئة الأخيرة بالذات، بدأت التأويلات تضرب أطنابها بنوع من الحذر في استعمال الكلمات. فعلق بعضهم قائلاً:

- صدقوني.. هذه المناورة المرتجلة بالذخيرة الحية في «بن سليمان» لا تبشر بخير.

فرد آخر وهو يفتعل اللامبالاة:

ـ أوف. لماذا تشق على نفسك بسؤال كهذا؟ الجندي يا رفيقي مسخر أساساً لتنفيذ الأوامر لا لطرح الأسئلة.

فعقب ثالث وهو يحاول طمأنة رفاقه:

ـ في تقديري، الأمر يتعلق بمواجهة ثوار يرومون زعزعة النظام. أتجهلون أن محاكمة بعض مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية لا زالت جارية في مدينة مراكش؟

فنطق ملازم رابع اشتهر بين أصحابه بذكائه الحاد وولعه الكبير بالتهام القصص البوليسية، فقال بهدوء:

ـ لماذا تجهدون أدمغتكم بحثاً عن الجواب المقنع؟ أيها الرفاق، أخبركم بكل بساطة أنه في الغد بحول الله سنقوم بانقلاب عسكري.

تعالت أصوات ساخرة مسفهة لرأيه:

ـ خيالك أخصب وأوسع مما ينبغي يا رفيق..

لحظات بعد ذلك، جاء وقت العشاء، فتحلق الضباط حول الطاولات يأكلون وجباتهم في صخب كان فيه وقع المعالق والشوكات يغطي أحياناً على أصوات النقاش الحاد الذي استرسل حول مناورة الغد. في إحدى تلك الطاولات، سأل طبيب المدرسة، الملازم «فورطاس»، وهو ضابط فرنسي قدم إلى المغرب في إطار المساعدة العسكرية وعُرف بين الضباط بالإنزواء الشديد، قائلاً بصوت شبه هامس:

ـ أتدرون ماذا أنتم فاعلون غداً أيها السادة؟

فرد ضابط منا بتلقائية وهو يمضغ لقمته:

ـ سنقوم بمناورة عسكرية في بن سليمان.

ظهر على وجه الطبيب الشاحب طيف ابتسامة ساخرة فرد قائلاً:

ـ لا يا سادة. غداً ستقومون بانقلاب عسكري؟

فسأله الضابط مستغرباً.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لقد تابعت في مجلة «جون أفريك» عدداً كبيراً من الانقلابات العسكرية التي وقعت في أفريقيا السوداء. ولدي الآن من المؤشرات والدلائل ما يكفي كي أدعي أنني لن أكون مخطئاً في تكهني.

فرد الضابط بابتسامة فيها مزيج من الثقة والسخرية:

ـ اطمئن مون ليوطنان، فبلدنا أبعد ما يكون والحمد للّه من تلك الحروب الأهلية التي تطحن البلدان الأفريقية.

هنيهة قبل مجيئه إلى نادي الضباط لتناول طعام العشاء، حاور الطبيب «فورطاس» ضابطاً آخر، فأكد له ما أكد للثاني، لكن الضابط استمع إليه في أدب وبدون أن يعير لرأيه اهتماماً.

في صباح الغد، ولأسباب طارئة، أقلعت القافلة الضخمة في حدود الساعة الرابعة بدل الثانية. فأخذ القبطان امحمد الشلاط (مدير الدراسات السابق للمدرسة الذي نادى عليه اعبابو لمساعدته بعد أن كان حديث التخرج من مدرسة القيادة العامة) أخذ القيادة من المدرسة إلى نقطة غير محددة من الطريق.

وهكذا، ومع تنفس الصبح الوليد، كانت القافلة الطويلة تلوب ببطئ كبير في المنعرجات العديدة كحية رقطاء تسترت ببقايا الظلام وهي تسعى لمفاجأة فأر غافل قبل خروجه من جحره الآمن:

كانت سيارات الجيب في المقدمة تمشي الهوينى بأصوات محركاتها الرتيبة وقد أطلقت كل أضوائها، تتبعها شاحنات (الصافييم) المغطاة السطوح وهي تقل على متنها التلاميذ المسلحين الذين دغدغ سمعهم زفير المحركات، وسرى فيهم دبيب الدفء سريان المخدر في العروق، فتدلت أعناقهم ليستأنفوا نوماً قطع بعنف قبل ساعات. كان كل شيء ينذر بأن حرارة هذا اليوم ستكون كاوية: ذلك البدر المكتمل الساطع بكل بهائه في سماء صافية صفاء بحيرة شاسعة هادئة، وهذا

النسيم العليل الذي تهب أنفاسه ساخنة كفرن يقذف لهباً، وتلك الفراشات الليلية الحائمة حول أضواء السيارات، يسحرها النور فترتطم صرعى على واجهات الشاحنات وكأنها تعزف مسبقاً سمفونية جنائزية لمجزرة رهيبة لا شك واقعة.

عبرت القافلة ببطء السلاحف مدينة فاس في ساعة كان أهلها لا زالوا يطردون النعاس من جفونهم استعداداً ليوم جديد. ولما وصلت إلى ملتقى الطرق الواقعة في قرية «الضوييات»، عرجت يميناً سالكة طريق مدينة القنيطرة عبر مضيق زاكوطا.

وبعد ساعات طويلة من سير بطيء تحت شمس حارقة، أدركت مدينة القنيطرة ثم مالت على جانبها الغربي لتندفع بعد ذلك في الطريق الرئيسية المؤدية إلى العاصمة. وأخيراً، توقفت في مدخل قرية «بوقنادل» الواقعة على بعد 15 كلم من الرباط.

وقف المدير امحمد اعبابو ينتظرنا وهو يرتدي لباساً كان يعتبر قمة الموضة الصيفية آنذاك: قميص ملون برسوم أزهار براقة، وسروال رمادي فضفاض الأكمام (أرجل الفيل) بصحبة أخيه اليوطنان كولونيل (المقدم) محمد وبضعة أشخاص كانوا لابسين اللباس نفسه تقريباً، (عرفنا في ما بعد أنهم الكولونيل عبد الله القادري والكومندارات المنور وميلس والمالطي والبريكي مع ضابط سام في الشرطة يدعى الفتوحي). هؤلاء الأشخاص إذاً كانوا يشكلون القيادة العليا المتقدمة التي حدثنا عنها المدير بالأمس.

عجباً! قيادة عُليا بقمصان مدنية مزهرة وسراويل بأكمام الفيل، ستوضح لنا مهمة بالغة الأهمية من المفروض أن يقوم بها لواء من الألوية الممتازة في الجيش؟

في وجوم كبير، وقف شخصان آخران لم نكن نعرف عنهما أي شيء، وهما السرجان شاف عبد العزيز اعبابو، شقيق المدير

الأصغر، المحاسب بالقيادة العليا في الرباط. والأسبران أحمد امزير صهر الجنرال المذبوح (زوج أخته).

أمر المدير باستراحة قصيرة ليسمح لرجاله بأخذ وجبة غذائية باردة تحت ظلال أشجار الأوكالبتوس الحافة بالطريق. ثم استدعى بعد ذلك إلى غابة صغيرة جميع الضباط. وبمحضر «القيادة العليا المتقدمة» التي وقفت على بُعد أمتار من الجمع المتحلق على نصف دائرة حول المدير، وقف هذا يلقي خطابه ببرودة دم المدس الواثق الذي ألف أن يكرر درسه عشرات المرات:

ـ أيها السادة، مهمتنا تقتصر في محاصرة عناصر ثورية احتلت عدة بنايات في قرية «الصخيرات».

ينبغي علينا أن نسد في وجهها جميع المنافذ وأن نخرج من بين صفوفها كل الأجانب لنقلهم على متن الشاحنات. لا تتركوا أي مهرب لأحلهم، وعند الاقتضاء، لا ترددوا في إطلاق النار على كل من سولت له نفسه ذلك.

ولكي يزيد المدير أمره «توضيحاً» أو غموضاً في هذه المهمة الغريبة، أخذ عوداً يابساً ورسم على الرمل مستطيلين وخط بينهما منافذ ومسالك، ثم تابع قائلاً بهدوئه الكبير:

ـ هاتان هما البنايتان. ستنقسم قافلتنا إلى فرقتين، سأقود شخصياً الفرقة الأولى وسندخل إلى المكان من بابه الجنوبي جهة مدينة البيضاء. أما الفرقة الثانية فسيترأسها أخي هذا وسيلج بها المكان من بابه الشمالي جهة الرباط. ولا يفوتني أن أذكركم بأن وحدات أخرى من الجيش ستتدخل في وقت متزامن في أماكن مختلفة. أنتم ضباط وعليكم أن تفهموا.. هيا، ارفعوا أغطية شاحناتكم وأمروا رجالكم بإدخال ملقمات الرصاص. أما المسؤولون عن الأسلحة الثقيلة فليهيئوا أشرطة الخراطيش والقذائف. أيها

السادة، من هنا إلى مدينة الرباط، سنتنقل في منطقة غير آمنة، لهذا استعدوا للحرب، هي انصرفوا!

باندهاش بالغ وذهول كبير، التحق الضباط بوحداتهم لتبليغ الأوامر الغامضة وقد رسم الإحساس بالخطر على محياهم نظرات قاسية، وأبرق في أذهانهم أسئلة شتى تراقصت بكل الاحتمالات السيئة.

أمر اعبابو ضابط المعدات «لاجودان شاف» أبو المعقول الملقب بالخدير بتسليم بذلة حربية وقبعة ك. ف. ورشاشة من نوع ب.م ماط 49 الفرنسية الصنع مع خزانين للخراطيش لكل ضابط سام من «القيادة العليا المتقدمة». وبعد أن أخذ هؤلاء مكانهم على ظهر سيارات الجيب، لبس هو الآخر بذلة الحرب وركب سيارته د.س سيطرويين السوداء ذات السقف الأبيض ليقود القافلة. متبوعاً عن قرب بالكولونيل القادري الذي ركب سيارته المرسديس، يليهما أخوه محمد الراكب في أول جيب للفصيلة الخاصة.

«عناصر ثورية. أنتم ضباط وعليكم أن تفهموا..».

عبارات غامضة ظلّت تغلي في رؤوس الضباط غليان النار في بركان متأجج وترمي بهم في بحر لجب من الشك والحيرة:

أي عناصر ثورية هاتة؟ وماذا علينا أن نفهم؟

المهمة العسكرية كما درسناها في الأكاديمية وكما درّسناها بدورنا لتلامذتنا ينبغي أن تكون غاية في الجلاء والوضوح، أما هذه، فقد عُرضت علينا وكأنها لعبة من التخمينات لا مجال فيها لهامش من الخطأ. أو لم يقل المدير بلهجته الصارمة الملزمة: «عليكم أن تفهموا»؟

لو كان في تاريخ المغرب المعاصر آنذاك شبح من ذكرى لانقلاب عسكري لاحتمل وقوعه آخر البلداء ولكان مسؤولاً انطلاقاً

من ذلك الظرف عن الاختيار الذي سيحدده. ولكن إلى تلك اللحظة بالذات، ونحن على بضعة كيلومترات من قصر الصخيرات، (الذي كان السواد الأعظم منا يجهله لكونه لم يكن معروفاً بالشكل الذي هو عليه اليوم) كان الجيش يشكل الدعامة الكبرى للنظام، وكان اعبابو ـ رغم جانبه المظلم الذي كان الكبار يغضون عنه الطرف بتسامح كبير ـ مضرب المثل للضابط المخلص الكفء الوفي. ثم بعد هذا، أي مصير كان سيلقاه ضابط أراد أن يكون أذكى من اللازم، فقفز فوق كل السلالم العسكرية ليخبر القيادة العليا بنشاط ظنه مشبوهاً، ثم تبين بعد ذلك أنه أقيم في إطار القانون؟

وفوق هذا وذاك، ألم يكن حاضراً معنا ليلة الانقلاب ضابط من الاستخبارات العسكرية كان يعمل في المدرسة ثم عين في المكتب الثاني قبل شهر، وجاء لترحيل أثاث بيته ليستقر في الرباط؟ لماذا لم يحرك ساكناً وقد كان على كل شيء شاهداً؟

عبرت القافلة مدينة سلا في حرارة لافحة، ثم اندفعت في قلب العاصمة سالكة شارع الحسن الثاني تحت أنظار الفضوليين الذين تجمهروا على قارعة الطريق، وبين تهاليل الإعجاب الصادرة عن أطفال الشعب الذين وقفوا يقلدون التحية العسكرية بأياديهم الصغيرة وهم يحلمون لا شك ـ كما كنا نحلم في صغرنا ـ بمستقبل «زاهر» في ثكنات المملكة. ألا تبهر مظاهر القوة كثيراً من الضعفاء؟

عندما خرجنا من الرباط عبر الطريق الشاطئية تضاعفت كثافة حركة السير نظراً إلى الإجازة الأسبوعية. فأرغمتنا اختناقات الطريق المتكررة أن نسير ببطئ شديد إلى أن وصلنا وادي «النفيفخ» الموجود على بُعد عشرين كيلومتراً تقريباً من الرباط، حيث وجدنا وحدة من الدركيين الذين تصدوا لكل السيارات فأوقفوها ليمنحونا أسبقية المرور.

قبل أن أتابع سرد هذه الأحداث، أرى لزاماً عليّ أن أوضح شيئاً بالغ الأهمية: في الصخيرات كما في تزممارت، لا يسوغ لأحد أن يزعم أنه شاهد كل الوقائع ووقف على جميع الأسرار، وذلك لسبب بسيط جداً يتمثل في أن كل شاهد لم يحضر ولم يشارك في المكان والزمان إلا في جزء معين من الأحداث. لهذا السبب تحديداً، وسعياً مني إلى توخي أكبر قدر من الموضوعية والصدق، تملي على الحقيقة أن أؤكد أن كل ما سأرويه هنا، هو خليط مما رأيته رأي العين وما سمعته محققاً من أفواه أصدقائي قبل محاكمة القنيطرة وفي خلالها وبعدها، وبالخصوص طوال مقامنا في تزممارت، حيث لم يكن يخفي بعضنا عن بعض، ونحن أقرب ما نكون إلى الموت، شيئاً لضآلة فرص النجاة. كما ينبغي أن أشير كذلك إلى أن «الكوماندو» رقم 12 الذي كنت أرأسه دخل إلى القصر متأخراً بعشر دقائق تقريباً بسبب عطب عارض وقع في الشاحنة.

فإذا قدر وحصل شيء من عدم تدقيق تسلسل الأحداث، فأرجو من أصدقائي أن يصححوه في شهاداتهم المقبلة، مساهمة منهم في بسط الوقائع كما جرت، لعلنا نوفق في تحقيق أقصى ما يمكن من صدق وأمانة.

لنرجع إذاً إلى تلك اللحظة الرهيبة، إذ كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية زوالاً إلا بضع دقائق حين تراءت لنا أسوار قصر الصخيرات المخضرة. وكما كان مقرراً، اقتحمت الفرقة الأولى القصر من بابه الجنوبي برئاسة مدير المدرسة بسرعة ألجمت الحراس دهشة. فلم يستوعبوا ما جرى إلا بعد مدة، فشرعوا يركضون في كل الاتجاهات، صارخين ملء حناجرهم بإنذارات ذهبت مع الريح سدى.

اندفعت القافلة كالسيل الجارف تحطم في طريقها كل الحواجز، سالكة طريقها عبر بساط أخضر شاسع من عشب رائق جميل، كان يشكل مع شجيرات الممرات المشذبة بعناية فائقة، ومع الورود والأزهار الزاهية الألوان، لوحة بديعة من لوحات الجنة. هنا وهناك، تناثرت جموع من لاعبي «الكولف» بقبعاتهم البيضاء الساطعة تحت وهج الشمس، يلعبون في استغراق كامل، غير آبهين بشيء.

أوقف اعبابو قافلته عند الباب الرئيس للقصر ثم قفز بخفة من سيارته وأمر رجاله بالنزول وبإطلاق النار مباشرة من دون أن يحدد هدفاً أو اتجاهاً. وكما أمر فُعل. في لمح البصر، وقع الانفجار العظيم. تساقط طوفان من الرصاص فجأة على المكان بكثافة مهولة. مئات البنادق والرشاشات الخفيفة والثقيلة شرعت تقيئ النار وتوزع الموت بكيفية اعتباطية تحت إيقاع دوي انفجار القنابل اليدوية المرمية كيفما اتفق..

بعض من التلاميذ كانوا يطلقون النار تلقائياً على جموع الناس بدون تبيان أو وعي بخطورة ما كانوا يفعلون وكأن الأمر كان يتعلق بمشاركة مرحة في لعبة أطفال ليلة عاشوراء. بعضهم الآخر، كان تحت تأثير غضب فجائي أعمى يحطم بأعقاب البنادق كلما كن يسقط في يده من زجاج وأثاث ونفائس.

وهكذا، وفي وقت وجيز، وقعت مجزرة رهيبة..

وفي لحظة من هذه اللحظات الدامية، وبينما كانت شرذمة من التلاميذ تجرد أفراداً من قوات الدرك من السلاح، ظهر في الساحة ضابط دركي برتبة ملازم وهو شاهر مسدسه في وجه اعبابو قائلاً به ساخطاً:

ـ ماذا تفعلون يا مون كولونيل؟ إنكم في قصر، ولا حق لكم في الدخول إليه بدون إذن.

فرد اعبابو مهدداً:

- تنح من هنا.

فأجاب الضابط متحدياً:

- لا. لن أتركك تمر أبداً.

فجأة، انطلقت رصاصة. ثم أعقبتها تواً رصاصة أخرى. كان الملازم هو الأسبق، فأصاب غريمه في ذراعه الأيمن حيث انبجس خيط غزير من الدم. أما الرصاصة الثانية فكانت موقعة بأصبع اعبابو الذي سدد إلى أسفل بطن الملازم فأرداه على الفور قتيلاً. وكإعصار نازل من السماء، تضاعفت كثافة النار. في الآونة نفسها، اقتحمت القافلة الثانية القصر من بابه الشمالي برئاسة الكولونيل محمد اعبابو. وما إن رأى الحراس هذا الاجتياح المباغت، حتى تهافتوا بعد لحظة من الذهول، يحاولون التصدي له عبثاً. فقد أمر اعبابو سائق سيارة الجيب بالضغط على مكبس الوقود، فانكسرت بفعل سرعة السيارة تلك السلسلة الحديدية الغليظة التي كانت تسد الباب، وفُسح المجال لكل الشاحنات بالدخول، فعبرت بساط الكولف المعشوشب الشاسع، سالكة سبيلها بين بعض جموع لاعبي الكولف الذين ظلوا في غمرة تنافسهم غارقين. أما بعضهم الآخر ممن فطن خطورة الموقف، فقد بادر بإطلاق ساقيه للريح محاولاً الالتحاق بالشاطئ أو الطريق وهو في حال من الرعب الشديد.

لما وصلت القافلة الثانية أمام مجموعة من الدور الاصطيافية (البانكلوات)، تراءت للناظر إلى اليمين زرقة المحيط اللامتناهية وهي تعانق صفرة رمال شاطئ بديع لامحدود. هناك، خرج من بين القلة القليلة من الضيوف الذين لم يبارحوا مكانهم، الكولونيل «لو باريس» رئيس لواء المظليين، ووقف بشجاعة في وسط الطريق وقد فرق يداه على شكل صليب، وكأنه يريد أن يمنع بمفرده تلك الأمواج العسكرية

العارمة من التقدم. فصرخ في وجه اعبابو الذي ظل يراقبه من فوق سيارة الجيب ورشاشته مصوبة نحوه:

ـ إلى أين أنت ذاهب يا اعبابو؟ هل تعي ما تقوم به؟ العن الشيطان وعُد إلى رشدك. . كف عن هذه الأمور التي لن تؤدي بك إلى أيٰ نتيجة. .

فرد اعبابو بلهجة حازمة:

ـ تنح عن طرِيقي يا لو باريس إن كنت تريد أن تنجو بجلدك. .

فأجاب هذا بإصرار شديد، وهو يتقدم بخطوات ثابتة نحو مخاطبه:

ـ كلا. . لن أتركك تفعل هذا أبداً.

طق. . طق. . طق. .

قدحت رشاشة اعبابو ناراً حين ضغط على الزناد مسدداً إلى أسفل البطن على شاكلة أخيه، بينما قفز الكولونيل الرياضي جانباً في ارتماءة انتحارية لينجو بأعجوبة من موت محقق، ولكن دون أن يمنع رصاصات من اختراق حوضه. فسقط على الأرض مضرجاً بدمه.

بعدها ترجل اعبابو وأمر جميع رجاله بالنزول وإطلاق النار من دون أن يحدد هو الآخر هدفاً ولا اتجاهاً. ثم أمر بعد ذلك بسد جميع المنافذ وعدم ترك أي فرصة لأحد في الفرار. مباشرة بعد صدور هذا الأمر، اندلعت عاصفة من الرصاص تزامنت تقريباً مع زوبعة القافلة الأولى.

انطلق التلاميذ في فوضى جنونية تجاوزت حدتها حدود الكارثة يطلقون النار في كل الاتجاهات، معتقدين أنها فعلاً مناورة مدبرة، غير أنها كانت مناورة في منتهى الغرابة، لم تترك للضباط سرعتها الفائقة في الواقع أي فرصة لالتقاط أنفاسهم واستعمال عقلهم لتحليل الموقف. فإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة إلى هؤلاء، فماذا يقال عن

ضباط الصف وعن التلاميذ الذين لم يحضروا أي اجتماع ولم يشاهد معظمهم وهم في الشاحنات أي حادثة مما جرى في مقدمة القافلة؟

لما أدرك المدعوون بعد مدة أن القبضة الحديدية قد أطبقت عليهم بإحكام، شرعوا يركضون بذعر أعمى في كل الاتجاهات، الذعر الذي يستبد بسرب من الطيور الآمنة حين يباغتها شراك قناص خبير فلا تجد من حيلة سوى الخبط بجناحيها لمحاولة الإفلات من بين الثقوب الضيقة. عمت الفوضى، وطغى الهلع، وانقلب المشهد الذي كان هادئاً مستكيناً قبل حين إلى مشهد مدينة أمطرها فجأة بركان عنيف مدمر بشواظ غزير من نار. اختلط الحابل بالنابل، وازدادت كثافة الغموض فأصبحت كقطع الليل المظلم. لم يستطع أحد أن يقطع الشك باليقين لمعرفة ما جرى في الواقع بدقة. مُطارِدون ومُطارَدون في حالة من الهستيريا. أُفرغت جماجمهم من أدمغتهم، ورسم الخوف من الموت على محياهم أصباغه الصفراء المقيتة، فجحظت عيونهم، وفغرت أفواههم، وانطلقت من حناجرهم اليابسة صرخات من يعيش وهو لا يصدق فظاعة كابوس مروع.

لما سمع التلاميذ الأمر بإطلاق النار مباشرة من فم الأخوين امحمد ومحمد اعبابو، سارعوا إلى تنفيذه بعنف مجنون. ولم يعد جلهم يعبأ بضابط ولا بضابط صف. ضغطوا على الزناد بكيفية آلية من دون تصويب في اتجاه معيّن وهم يخبطون خبط عشواء في فوضى حمقاء، تصيب رصاصاتهم الطائشة الهاربين حيناً فترديهم صرعى أو جرحى، وأحياناً أخرى تصيب فروع الأشجار والأثاث وواجهات السيارات فتتطاير الشظايا هنا وهناك في عنف خيالي بلغت فيه حدة النار أقصى مداها لما شرعوا يتراشقون بالنار في ما بينهم ويتقاتلون خطأ وكأن كل تلميذ كان يريد أن يتخلص من ذخيرته في زمن قياسي كي يرضى عنه مدير مدرسته..

ـ كفوا عن إطلاق النار! كفوا عن إطلاق النار!

تعالت أوامر الضباط وضباط الصف للتلاميذ في محاولة لكبح جماحهم والسيطرة عليهم، لكنها سرعان ما كانت تتلاشى في هدير تلك المعمعة الرهيبة، لأن هؤلاءِ بدوا في اندفاعهم وغليانهم على شبه بفرس جموح صادف متجراً فاخراً للبلور النفيس، فرفس وركل وحطم بدونِ وعي أو تمييز.

لاذ الخدم والموظفون والطباخون وسائقو السيارات بالفرار، وكذا شرذمة من بين الضيوف المرموقين ممن بقيت لهم بعد سيقان يقفون عليها. كل كان يسابق الريح للوصول إلى الشاطئ أو الطريق للنجاة بنفسه. أما بعضهم الآخر ممن خانتهم أرجلهم، فتسمروا في أماكنهم ووقفوا مستسلمين صاغرين وقد رفعوا أيديهم إلى أعلى نقطة في السماء في انتظار المجهول المرعب.

ولكي يذكي مزيداً من الحمية في رجاله، روى بعض الحاضرين أن اعبابو كان لا يكف عن الصراخ بجملتين زادتا فوق الغموض غموضاً:

ـ عاش الملك! لنهاجم الخونة.

وما هي إلا لحظات حتى ظهرت الطلائع الأولى للأسرى وقد سيقت جماعات بعيون زائغة برق بياضها من شدة الهلع. أما جموع أخرى فقد طُردت بأعقاب البنادق من عربتي قطار فاخر وخيمة ضخمة ملئت جميعها بكل أنواع المرطبات. وشيئاً فشيئاً بدأت العاصفة في السكون، وشرعت تتوافد من كل الجهات أسراب المستسلمين من الضيوف بالعشرات وهم في حالة من يساق إلى الموت وهو ينظر. ولما أمر اعبابو رجاله بالدخول إلى القصر، تجلى للتلاميذ منظر مثير كان بمثابة زيت صب على لهب فازداد تأججاً. فبين بساط الكولف الشاسع بخضرته النظرة، ورحابة المحيط المتماوج بزرقته اللامتناهية،

ترامى مسبح رائع فسيح كان ماؤه الصافي الشفاف يلمع بتماوج خفيف تحت وهج الشمس اللافحة. فوقه مباشرة امتدت شرفة بيضاء مستطيلة الشكل، أحاقت بها أسوار زجاجية بأقواس كانت تطل جميعها على البحر. على يمين المسبح وقفت بناية مربعة، وعلى مقربة منها انتصبت خيمة في منتهى الجمال. وفي البعيد، تراءت بنايات مستطيلة بلون كالحليب بياضاً.

فوق الشرفة المحيطة بالمسبح انتصبت ببذخ خيالي، مآدب كثيرة متنوعة الأشكال والألوان، امتلأت إلى حد التخمة بأطباق لذيذة شهية باهضة الثمن، ما تذوق التلاميذ مثلها في حياتهم أبداً ولا خطرت لهم حتى في خيال، كانت تتنافس في العبق والشذى لتغري بها من تذبذبت شهيتهم من أهل النعيم. ازداد هيجان التلاميذ ـ الذين لم يكونوا مخدرين ولا مشحونين كما روجت الصحافة لذلك كثيراً ـ فانساقوا لهواهم يفعلون ما يشاؤون. فبعضهم شرع في اقتحام الغرف والحجرات لإفراغها ممن اعتصم بها من الضيوف، وبعضهم الآخر وقف مشدوهاً أمام ما حملته تلك المآدب من أهرام الملذات، فشرع يطلق عليها النار بعنف شديد وكأن به مس من الجنون. وقد عبر عن هذا بكثير من الوضوح تلميذ هائج نطق فقال لصاحبه بحقد ومرارة:

ـ نحن نأكل «كيكي»، (نوع رديء من السردين المعلب) وانظر ماذا هم يأكلون.

كان ذلك البذخ الوقح يصفع شظف عيش التلاميذ ويلعنه في ساعة أرادت فيها سخرية الأقدار أن ترجح كفة ميزان القوى لصالحهم. فسكروا بخمرة الفوضى العارمة، وقد أتيحت لهم فرصة وحيدة في العمر للتعبير عن تلك الأحقاد والضغائن التي تراكمت في أعماقهم منذ طفولتهم نحو هؤلاء «البرجوازيين» الذين ما عهدوا منهم سوى التجاهل والإهانة والاحتقار.

وفي حمأة هذا الصخب الجنائزي الرهيب، خرج من بين الجموع المذعورة رجل لابس لباساً بسيطاً كسائر المدعوين.. لم يكن سوى الجنرال المذبوح الذي جاء للقاء اعبابو بوجه تعلوه سحنة الأموات، فكان له معه هذا الحوار الذي رواه كثير من الضباط وضباط الصف:

ـ ماذا أراك تصنع يا اعبابو؟ كف فوراً عن هذه «الفنطازيا». نحن لم نتفق على هذا قط.

فرد اعبابو بصوت فيه هدوء واحترام:

ـ طيب، طيب، مون جنرال. لقد أنجزت الشطر الأول من المهمة، وعليك الآن أن تنجز أنت شطرها الثاني.

فقال الجنرال هائجاً:

ـ أنا لم آمر قط بحمام دم. ماذا دهاك ياعبابو؟

ـ أين هو، يا مون جنرال؟

ـ إنه يوجد في مكان آمن ويريد أن يتحدث معك رأساً لرأس.

ـ هل تنازل؟

ـ أجل. ها هو ذا تنازله في جيبي.. هيا لنره..

ـ ليكن ذلك، سأذهب للقائه، ولكن صحبة رجالي.

فرد الجنرال بلهجة قاطعة:

ـ أبداً.. رجالك سيبقون هنا.

تظاهر اعبابو لحظة بالانصياع، فتبع الجنرال الذي بدا وكأن الأحداث قد تجاوزته كثيراً، خصوصاً عندما توجه إلى التلاميذ وأمرهم قائلاً:

ـ هيا.. فتشوا في كل الأماكن ولا تتركوا أي أحد في الداخل.

ثم التفت إلى اعبابو وقال له:

ـ قد يكون بالتأكيد مختبئاً في الداخل.

مباشرة بعد هذا التصريح، قدحت رشاشة طلقات متتابعة من النار، صادفت مرور الدكتور بن عيش قرب الجنرال وهو يساق مع بعض الأسرى تحت بنادق التلاميذ، فسقط الطبيب والجنرال معاً بلا حراك. مذا حدث بالضبط؟ يصعب على أي كان أن يكون جازماً في هذه النازلة. فبعض ممن كان حاضراً يؤكد أنه رأى اعبابو يعطي الأمر بغمزة من عينه لقتل الجنرال، وأما بعض آخر ـ وهو أقل تأكيداً ـ فيزعم أن الجنرال وطبيب الملك قتلا برصاصات طائشة. المؤكد فعلاً هو أنه بعد مصرع الجنرال المذبوح، وقف اعبابو ينظر إلى جثته لحظة في ذهول ثم هز كتفيه وتوارى بين الناس.

على مقربة من المسبح، كانت سيدة أوروبية تمشي بين جمع من الأسرى، فأثارت سلسلة ذهبية تحيط بخصرها العاري انتباه تلميذ كان يسير بجنبها، فما كان منه إلا أن انتزع السلسلة عن لحمها بعنف شديد. استنكر هذا الفعل ضابط كان بالقرب منهما فجاء من خلف التلميذ وركله في مؤخرته لزجره، فقفز هذا الأخير بسرعة والتفت إلى الضابط مصوباً رشاشته نحوه في غيض شديد وهو يقول:

ـ والله لو كان أحد غيرك من الضباط يا مون ليوطنان لقتلته كما تقتل الكلاب، ولكن خيرك سبق، فإياك أن تعود لمثل هذا أبداً.. نحن الآن لسنا في أهرمومو.

بلع الضابط غيظه وهو يؤجل البث في هذا التمرد إلى وقت لاحق، ثم تابع سيره بجوار السيدة الأوروبية بعد أن تظاهرت بالاطمئنان قائلة للملازم:

ـ أنت إذاً ضابط يا سيدي؟

ـ أجل يا سيدتي.

ـ هل يمكنني أن أثق بك؟

ـ بكل تأكيد يا سيدتي. لا تخافي، لن يمسك أحد بسوء ما دمت بجنبك.

ـ هل يمكنك أن تأتيني بذلك الطفل الذي يبكي هناك؟ أريده أن يكون بجنبي.

ذهب الضابط صوب الطفل المرتجف وأخذه بين ذراعيه فحمله إلى مقربة من الباب الخارجي ثم سلمه للسيدة التي كانت تمشي بجواره.

ـ شكراً يا سيدي أنا مدينة لك بهذا.

فجأة، خرج من بين الجمع الذي كانت فيه الأوروبية شخصٌ أسود البشرة يرتدي جلباباً مخزنياً أبيض وطربوشاً أحمر فقال للضابط يستجديه، وقد ابيض وجهه من كثرة الشحوب:

ـ سيدي.. سيدي.. أنا في عارك، ما نحن إلا عبيد مساكين.. لا دخل لنا في هذا الأمر.

ثم غمز الضابط بطرف عينه غمزة استعاطف وهمس:

ـ إن كنتم تبحثون عن «سميت سيدي»، فادخلوا هذا الباب وفتشوا.. أقسم لك بأنه يختبئ هناك.. لقد رأيته بأم عيني. وأزيدك.. تلك المرأة التي كنتم معها تتحدثون.. إنها مربية الأمير. وذلك الطفل، إنه الأمير بنفس.. ماذا تنتظرون إذاً للإفراج عني.

كان الضابط الشاب على جهل تام بما تعنيه عبارة «سميت سيدي»، ولكن بعدما قلبها في رأسه أدرك أنها تعني شيئاً خطيراً. ففهم ولم يرد لنفسه أن يفهم. غير أنه سرعان ما كف عن التفكير كي لا يفهم أكثر من اللازم.

تجمهر الناس في وسط القصر وقد بلغت قلوبهم الحناجر من شدة الرعب، وكأن ذاك اليوم العصيب كان يوم حشر قبل الأوان.

فمنهم من وقف مذعناً في الصفوف، ومنهم من جلس القرفصاء ويداه مشدودتان إلى قفاه، ومنهم مَن انبطح على بطنه ووجهُهُ ممرغٌ في الأرض، أما بعض الأجانب، فقد أركبهم التلاميذ في الشاحنات فوقفوا يترقبون وأعينهم تدور في محاجرها دوران عقارب ساعة طائشة حمقاء.

وزراء وسائقو سيارات، قضاة كبار وطباخون، جنرالات وخدم، رؤساء أحزاب وموظفون صغار، دبلوماسيون ومخازنية رجال أعمال أثرياء وفنانون، أطباء مشهورون ودركيون.. انهارت الجدران الطبقية بينهم في لمح البصر، وانكمشوا في استسلام ينتظرون حكم القدر.

كان اعبابو يذرع المكان جيئة وذهاباً محدقاً في الوجوه واحداً واحداً وكأنه يبحث عن شخص بعينه، بينما وقف بعض رجال النظام المرموقين في ذلة لتفادي نظراته الثاقبة، في حين بادر بعض آخر منهم بسرعة عجيبة إلى تهنئته والتهليل المنافق له.

وقد روى بعض الشهود أن اعبابو لما رأى الجنرال الغرباوي قائد لواء المدرعات، قصده وانخرط معه في حوار طويل بغية جره للانضمام إليه. ولكن الجنرال ثبت في موقفه بحزم وشجاعة. وفي لحظة آنس فيها من الكولونيل غفلة، خطف رشاشة من يد تلميذ كان بجواره، وفي اللحظة التي أراد فيها أن يجهز على غريمه، التفت هذا في الوقت المناسب فأطلق النار على الجنرال والتلميذ معاً فأرداهما قتيلين. وهكذا، انطفأ جنرال كان من أحب الجنرالات إلى قلوب الجنود.

ـ اهدأوا.. اهدأوا.. ولا تقلقوا، سنأخذ بيدكم قريباً.

هكذا هتف اعبابو مطمئناً بعض الدبلوماسيين الأجانب الذين كانوا يحتجون عليه بعنف. غير أن بعض الشهود أكدوا بأنهم سمعوا المدير يعترف لأحد مقربيه بنوع من المرارة:

ـ سأبيع جلدي غالياً . .

ضابط سام آخر، وهو اليوطنان كولونيل الخياري، ابن أخ الجنرال بوكرين، خرج من بين الصفوف وجاء للقاء اعبابو مرحباً مهنئاً وهو لا يدري أنه كان يسعى إلى حتفه بظلفه: عُرف الرجلان بعلاقة ودية طيبة كانت تجمع بينهما، إضافة إلى أنهما تخرجا من الفوج نفسه في الأكاديمية العسكرية. تعانقا عناق الإخوان، فلف اعبابو حول عنق صاحبه يداً، ودس المسدس في بطنه بيده الأخرى ثم أطلق النار، فخر الرجل في الحين صريعاً. لأي سبب فعل اعبابو ذلك؟ سر لا يعلمه إلا علاّم الغيوب.

في جانب آخر وقف أربعة جنرالات وكولونيل فوق سيارة 4×4 بوجوه شاحبة متعبة يحيط بهم التلاميذ من كل جهة وقد أشهروا في وجوههم حرب البنادق. هتف اعبابو في التلاميذ لما رآهم:

ـ أنزلوهم إلى هنا! كان أول النازلين هو الجنرال حمو بقامته المديدة وهيأته المثيرة، فتبعه الجنرالات الثلاثة الآخرين.

بوكرين. . أمحارش. . حبيبي. . وأخيراً. . نزل الكولونيل أبو الحمص، قائد الدرك الملكي بوجه انسحب منه الدم تماماً فبدا كوجه الأموات امتقاعاً. وقد كان شائعاً أن بين الرجلين كراهية ومقتاً. فقال له اعبابو برنة فيها هدوء واحترام وهو يشير بيده إلى الأمام:

ـ تفضل. تفضل، يا مون كولونيل!

ثم التفت إلى ضابط كان على يمينه، وقال له ببساطة من يطلب سيجارة:

ـ هيا. أقتله يا مون ليوطنان!

صعق الضابط لحظة وطاش عقله وهو يبحلق ببلاهة في اعبابو. أيمكن أن يُقضى بهذه السهولة على كولونيل لمجرد أمر يعطى؟

إستدرك الضابط الموقف وكأن السماء مدت له يداً فهدته إلى

سبيل نجاة، فافتعل عطباً طارئاً في رشاشته موهماً رئيسه أن عدم تنفيذ الأمر خارج عن نطاق إرادته، حدجه اعبابو بنظرة قاسية تأرجحت فيها حياة الشاب هنيهة بين الدنيا والآخرة. وفي اللحظة نفسها، تقدم تلميذ فتطوع وألصق فوهة بندقيته في ظهر الكولونيل ثم أطلق النار. خر الرجل المسكين على وجهه، وجسمه من سكرات الموت ينتفض. دقيقة بعد ذلك، هرع تلميذ آخر إلى المدير فقال له:

ـ مون كولونيل. . إنه ما زال يتنفس. . إنه لم يمت.

رجع اعبابو أدراجه، فوضع رجله وضغط بها على رأس المحتضر المسجى على الأرض، وأمر تلميذاً آخر فقال له بهدوئه الرهيب:

ـ أطلق النار هنا. هنا!

أعتقد. . أنه لا فائدة من الإسهاب في نقل هذه المشاهد الفظيعة التي انفطرت لها من الهول أفئدة من كان يحمل السلاح. . فما بالك بالسجناء العزل الذين كانت حياتهم معلقة بين رأس يومئ وعين تغمز وكلمة تُقال؟

غير أني أؤكد هنا بيقين صادق أنه لولا بعض الضباط وضباط الصف وقسط من التلاميذ الذين امتنعوا عن إطلاق الرصاص، والذين أدّوا في المقابل دوراً إنسانياً مهماً تجلى في مساعدة الناس وتسهيل الفرار لهم، لكانت الخسائر البشرية والمادية أضعافاً مضاعفة. أقول هذا غير متزلف لأحد. وبرهاني القاطع على ذلك، شهود نزهاء، كانوا من بين الأسرى في ذلك اليوم المشهود، وهم اليوم على استعداد كامل لأداء شهادتهم أمام التاريخ كما أداها بعضهم بكل شجاعة أمام المحكمة.

لما فشل اعبابو في العثور على ضالته، وضع تحت إمرة أخيه اثنين أو ثلاثة من الكوماندوهات، وطلب منه أن يبقى في القصر

لمتابعة التفتيش. أما هو فاستقل سيارته وأمر تلاميذ المدرسة جميعهم بالانسحاب الفوري من المكان.

وهكذا، في فوضى عارمة كبيرة، اندفع الجميع وراءه بتلقائية آلية وليس لأحدهم أي فكرة عن نواياه في المراحل اللاحقة. لما وصلت الطلائع الأولى إلى الرباط، اقتحمت القيادة العليا مباشرة بعد مقاومة ضعيفة من جنودها الذين أطلقوا بعض الرصاصات ثم استسلموا وانضموا. ثم جاء دور الإذاعة والتلفزة، حيث كانت ترابط وحدة عسكرية من اللواء الخفيف للأمن، أُرسلت على وجه السرعة لحماية المؤسسة. وشاءت الأقدار أن يكون رئيس هذه الوحدة هو الملازم الطيف، ابن بلد اعبابو والمدرس السابق بمدرسة أهرمومو الذي كان قد انتقل قبل عام إلى الرباط. فلما حاوره المدير وقد كانت بينهما مودة وصداقة، ثبت الملازم على موقفه وتصدى لرئيسه السابق بكل شجاعة، فما كان من هذا الأخير إلا أن أرداه قتيلاً برصاصة من مسدسه.

اقتحم المدير برجاله الإذاعة وقد كانت تعج بالموظفين وبعض نجوم الأغنية العربية كعبد السلام عامر وعبد الحليم حافظ الذي كان بصدد تسجيل أغنية مدح بالمناسبة..

لما صدحت الموسيقى العسكرية في استديوهات مؤسسة البريهي وفي أرجاء المغرب، طلب اعبابو من ملحن «راحلة» و«القمر الأحمر» أن يعلن الانقلاب العسكري لعامة الشعب المغربي ففعل. ثم جاء دور المذيع الذائع الصيت، محمد بن ددوش الذي أعلن بأمر من اعبابو أن السلطة أصبحت بيد العسكريين وأن على المواطنين أن يلتزموا بالهدوء والحذر. في اللحظة نفسها، كان «كوماندوهان» قد استوليا على وزارة الداخلية.

رجع اعبابو إلى القيادة العليا وعقد لقاء مع بعض الضباط

السامين والجنرالات الأربعة الذين سيقوا من الصخيرات بقوة السلاح محمولين على ظهر سيارة 4×4. بعد ذلك خرج إلى الجنود الذين تجمهروا في ساحة القيادة العليا وخطب فيهم قائلاً:

ـ هل تعرفونني جميعاً؟

فهتف الجنود بحماس وصرخوا بصوت واحد:

ـ أجل يا مون كولونيل.. أنتم الكولونيل اعبابو، مدير مدرسة أهرمومو العسكرية.

ـ اسمعوني جيداً! هذا الذي قمنا به هو من أجلكم. من أجل أبنائكم ومن أجل مغرب الغد. لا ظلم ولا محسوبية ولا رشوة ولا زبونية بعد اليوم. ستتمتعون بكل حقوقكم لأن العنصريين أصحاب السوالف و«القججج» الذين دأبوا على امتصاص دماء الشعب، لن يحكموننا أبداً. إني أعاهدكم بالقضاء على جميع الخونة. أعاهدكم بأني لن أعمل إلا من أجل تحقيق الرغد لشعبنا. انضموا إلى صفوفي ورددوا بعدي: عاش المغرب. عاش الشعب.

فهتف الجنود بفرحة عارمة وهم يشهرون أسلحتهم في السماء ويرمون قبعاتهم في الهواء:

ـ عاش المغرب! عاش الشعب!

ثم زادوا:

ـ عاش اعبابو!

كانت الحركة على أشدها في الساحة الداخلية للقيادة العليا. جماعة من الضباط السامين تغدو وتروح وكأنها فقدت صوابها، تعطي الأوامر شمالاً ويميناً وتتناقش في ما بينها بعصبية ظاهرة بعد قدوم أخ اعبابو الذي لم يلتزم بأوامر أخيه فترك قصر الصخيرات والتحق بالرباط. تشاجر الأخوان من أجل ذلك شجاراً عنيفاً انفلتت منه كلمات نابية وسباب جارح. الضابط السامي الذي كان أكثر نشاطاً

وأشد اندفاعاً وحماساً هو الكولونيل الشلواطي الذي استولى بواسطة التلاميذ على مستودع الذخيرة وظل يرفع من معنويات الجنود قائلاً لهم عندما قدمت الطلائع الأولى لوحدات اللواء الخفيف للأمن وبدأت في محاصرة القيادة العليا:

ـ لا عليكم. . لا زال رهن إشارتنا فوج من العسكر سيتدخل لمصلحتنا قريباً.

أما الجنرال حمو فقد بدا حزيناً شارداً مهموماً. . يغدو ويجيء في الساحة كليث أُحكمت عليه قضبان قفص حديد متين. . ظل يحرق سيجارة تلو أخرى حتى أتى على علبته كلها ثم أرسل في طلب أخرى من نوع «أولامبيك الصفراء» قبل أن يستقل سيارة ضابط ليغادر بها القيادة العليا.

أقف وقفة صغيرة هنا لأسجل ـ من دون ادعاء أو تبجح بمعرفة خبايا الأمور ـ بأنه لو طلب مني رأيي المتواضع لأكدت بأن هذا الجنرال الكبير وكذا الجنرالين البارزين بوكرين وأمحارش، (لم أكن آنذاك أعرف الجنرال حبيبي) كانوا أبعد ما يكون في مظهرهم وتصرفاتهم عن الانقلابيين المتحمسين، فقد كانوا في الصخيرات رهائن كغيرهم من الناس، حيث ضربت عليهم حراسة مشددة من طرف التلاميذ. ثم جيء بهم إلى الرباط وهم وسط غابة من حرب البنادق. وفي القيادة العليا كان فتورهم بادياً للعيان، يتصرفون به تصرف من تجاوزته الأحداث فوقف حائراً مترقباً ينتظر حكم القدر.

في الحقيقة، لم أستسغ قط إعدامهم لاحقاً على تلك الطريقة السريعة المحزنة الصادمة.

كان اعبابو قد بلغ به التعب مداه، فبدا منهوكاً خائر القوى في الوقت الذي أُخبر فيه بقدوم الجنرال البوهالي، الماجور العام للقوات المسلحة الملكية على رأس وحدة من اللواء الخفيف للأمن. فقد نزف

الدم من جرحه بغزارة، وتألم من ذلك ألماً مبرحاً من دون أن يشكو أو يلين، سيما عندما استأصل الكولونيل الطبيب «مولاي» بدون تخدير رصاصة الملازم الدركي التي استقرت في ذراعه.

أكد بعض الشهود ممن كانوا بقربه أنهم سمعوه يسر في هذه اللحظة لبعض مقربيه:

ـ ما ندمت على شيء أكثر من ندمي على مدرستي التي حشرتها في هذه القضية القذرة.

فخرج لمواجهة الجنرال البوهالي متبوعاً بجنوده، وقد كان الرجلان يكنان لبعضهما كراهية عميقة وحقداً دفيناً. وقف الجنرال على عتبة مدخل القيادة العليا ومن ورائه جنوده، فتقدم وطلب من ضابط من أهرمومو أن يسلمه رشاشته ففعل هذا من دون تردد. فلما رأى اعبابو قادماً نحوه هتف فيه مهدداً:

ـ إلق سلاحك يا اعبابو واخرج من هنا.

فرد اعبابو بهدوء وهو يحاول استمالته:

ـ تعالى معي يا مون جنرال كي نتحدث قليلاً.. أنا متأكد بأننا سنتوصل إلى اتفاق يرضينا سوياً..

فرد الجنرال بلجهة قاطعة:

ـ لن يكون لك ذلك أبداً استسلم أيها القذر وأمر رجالك بالاستسلام.

طقطقت طلقات سريعة رددت صداها حيطان القيادة العليا، فطاشت إلى العالم الآخر روحان..

في الجزء نفسه من الثانية، أطلق الرجلان على بعضهما النار وقد وقفا وجهاً لوجه على شاكلة المواجهة الدامية التي تكون بين رعاة البقر من أفلام جون وين..

وفي اللحظة نفسها كذلك، سقطا على الأرض..

لفظ الجنرال في التو أنفاسه. أما اعبابو فبقيت فيه بقية من روح، وبدت أنفاسه ضيقة حرجة كأنها تخرج من فتحة إبرة، لكنه في انتفاضة مدهشة، جمع شتات قواه وقال بصوت متهدج لمساعدة الوفي، العملاق عقا الذي لمع بألف ضوء وضوء في الحرب الهندية ـ الصينية:

ـ أجهز عليّ يا عقا.. أرجوك.. لا تتردد لحظة واحدة..

ما تبع من الأحداث، يمكن تخيله بسهولة. لما مات اعبابو وقعت فوضى عارمة، اختلط فيها الحابل بالنابل، وبدأ الأطر والتلاميذ يلوذون بالفرار، قافزين من فوق الأسوار ومنفلتين من كل المنافذ تطاردهم في الشوارع المجاورة وحدات اللواء الخفيف للأمن. وعندما نزل الظلام على زنقة البريهي حيث تنتصب بناية الإذاعة والتلفزة، شرع التلاميذ يستسلمون بالمئات، مستجيبين لنداءات الكوماندار «وايا» الذي كان معروفاً بسمعة طيبة لديهم، إذ كان قبل عام مديراً للدراسات في مدرسة أهرمومو قبل تعيينه في اللواء الخفيف للأمن. وما إن تقدم التلاميذ على ثلاثة صفوف وأيديهم مرفوعة إلى السماء، حتى أشعلت بعض المدرعات التي كانت واقفة في رأس الشارع أضواءها (والتي كانت قبل حين منضمة إلى الانقلابيين) ثم شرعت تمطرهم بوابل كثيف من رصاص سقط على إثره في وقت وجيز مائة وأحد عشر تلميذاً. كانت مجزرة رهيبة فاق عدد قتلاها مجزرة الصخيرات بإحدى عشرة ضحية. لكن، لا أحد تكلم عنها في المحكمة ومر الجميع عليها مرور الكرام.

بداية الجحيم

مر الأسبوعان الأولان في جو مشحون بالرعب والعنف وأعطانا لمحة مقتضبة عن الأهوال التي تنتظرنا في مستقبلنا الأسود القاتم.

استنطقت أولاً كسائر أصدقائي من طرف الدرك الملكي. ثم أراد الحظ العاثر أن أكون ضمن شرذمة من الضباط الذين أرسلوا إلى المكتب الثاني حيث مقر الاستخبارات العسكرية، بينما اعتقل جميع أصدقائي في ثكنة اللواء الخفيف للأمن. طُرحنا على الأرض كما تطرح البضاعة الكاسدة في قاع دهليز مظلم وقد كتبت أيدينا بحبال القنب الأحرض الذي حز فينا الجلد وتوغل في أعماق اللحم، وعصبت عيوننا بخرق شدت إلى الوراء بعنف متعمد سبب لنا ألماً فظيعاً من جراء احتقان الدم. وقد ظهر ذلك جلياً من خلال صرخات قبطان طيار اعتقل وهو يسوق ـ بدون أن يكون له أدنى علم بما حدث ـ مروحية الجنرال حمو لما لاذ بالفرار. فجيء به أسيراً ورمي به معنا:

ـ تُو صُوف سُو باندُو. . تو صوف سو باندو. . (كل شيء إلا هذه العصابة).

صراخ متحشرج كان يُقتلع على رأس كل دقيقة من حنجرة يابسة من شدة العطش، وكان الرد عليه ركلة عنيفة في الصدر أو صفعة قوية من يد عسكري. .

ـ تو صوف سو باندو. . تو صوف سو باندو.

ويستأنف القبطان المعذب صراخه بإصرار غريب وبإيقاع موزون على خبط الركالات والصفعات وكأن جسمه فقد الإحساس بالضرب تماماً ولم يعد يبالي إلا بمنطقة الرأس، حيث كان العذاب فظيعاً مبرحاً.

كانت حرارة الصيف شديدة وحرارة الرعب أشد. جفت فيها حناجرنا وابتلت أجسامنا بعرق ساخن أحياناً أخرى. وكان الماء والطعام محرمان علينا طبعاً. طيلة تلك الأيام الثلاثة التي قضيناها هناك، تعاونت على استنطاقنا جماعة من ضباط الاستخبارات العسكرية. فكنا نساق من مكتب إلى آخر لنقضي الساعات الطوال في

تعذيب مجاني رهيب، كان يهدف إلى كسر المعنويات بالإهانة والتنكيل، أكثر مما كان يهدف إلى انتزاع المعلومات. فقد تبيّن منذ البداية أننا لم نكن على علم مسبق بمخطط الانقلاب. إذ كيف يعقل أن يؤكد الرواية نفسها ما يزيد على ألف شخص بدون أن يكون هناك أدنى تعارض أو التباس؟

لقد كان لكل مستنطق طريقته وأسلوبه في العمل. فهذا كان يمازج بين السباب السوقي الساقط والضرب بالهراوة على مختلف أعضاء الجسم. وذاك كان يعجبه التعذيب بالصدمات الكهربائية على الصدغين والأعضاء التناسلية. والآخر كان يروقه البصق على الوجه وتسديد اللكمات العنيفة إلى الأنف والعين لتجريب لياقته البدنية. لكني إن نسيت أحداً من بين جلادي فلن أنس أبداً ضابطين.

الأول برتبة كومندار يدعى اليماني، ظهر لي وكأن كل ذرة من قلبه كانت تقطر خبثاً وسماً. فقد كان يجتهد كثيراً في تنويع أساليب التعذيب وهو يعلم أن ضحاياه كانوا قد أفرغوا ما في جعبتهم منذ الاستنطاق الأول لأنه لم يكن لديهم ما يخفونه.

أما الثاني فقبطان هادئ الطباع لكنه في منتهى السادية أيضاً. أغوتني مرة بسمته الغامضة، فطلبت منه شربة ماء لإطفاء عطشي الحارق، ملأ كأساً ووضع حافته على فمي بيسراه، فلما حركت شفتي لارتشاف الماء، ضرب بيمناه قعر الكأس فانكسر الزجاج بين أسناني وسال الدم غزيراً على صدري، فما كان منه إلا أن صفق يداً بيد، ثم استلقى على كرسيه مقهقهاً من أعماق قلبه الهازئ.

وعندما كنا نحشر في قاع الدهليز بعد فترة الاستنطاقات ونحن ننزف دماً وحناجرنا تحترق من شدة العطش، كان أحد حراسنا وهو جندي برتبة كبران يتحين الفرص، فيأتي متسللاً على رؤوس بنانه ليفرق علينا الركلات والصفعات بكرم حاتمي. فقد كانت تلك على ما

يبدو هدية فريدة وهبتها إياه الظروف ليفرغ حقده الدفين في الضباط. على النقيض من ذلك، كان حارس آخر برتبة جندي بسيط، يقف منتظراً في الطرف الآخر من الدهليز، وكلما آنس من جلادينا غفلة، ملأ بالماء كأساً كان يخفيها في جيبه، ثم سقانا بسرعة خاطفة على قدر ما كانت تسمح له به ظروفه. بفضل هذا الرجل شربت مرتين، وكان ذلك عتقاً لي من الهلاك المحقق.

في اليوم الثاني، جيء بضابطين سامين بلباسهما الرسمي وقذف بهما معنا في دهليز الرعب. وطبعاً، نالا حظهما وافراً من حقد الكبران المسعور. كان الأول هو اليوطنان كولونيل بلبصير، أما الثاني فلم يكن سوى الكومندار إبراهيم المنانوزي المنحدر من أسرة سوسية عريقة معارضة. في كبد الليل، سيق بهما إلى مكان مجهول، عرفنا في ما بعد أنهما أعدما مع الجنرالات المشتبه فيهم علماً بأنهما كانا بريئين في هذه القضية براءة الذئب من دم يوسف.

بعد اليوم الثالث نقلنا إلى ثكنة اللواء الخفيف للأمن، حيث وجدنا كل رفقائنا من الضباط وضباط الصف. كان مقامنا هناك في منتهى البشاعة: حشرنا جميعاً في قبو كانت نوافذه على مستوى الأرض. وكنا نطعم مرة واحدة في اليوم. وبما أن المكان لم يكن فيه مرحاض، فقد جاءوا لنا بمرحاض متنقل كان عبارة عن نصف برميل من الزنك، وضعوه في زاوية كانت تُشاهد من ثلاث جهات. فكان العسكر يحتشدون وراء النوافذ ليرمونا بأحقر الشتائم وأفحشها وليقهقهوا باستهزاء كلما لمحوا أحدنا يهرول إلى البرميل وقد أوجعه الإسهال. وقد برع في هذا المجال وتفنن قبطان من الشمال، كان يتلذذ بزرع الرعب فينا مخترعاً في كل مرة سيناريو ليوهمنا به أن ساعة إعدامنا قد دقت. من أجل ذلك، لقبناه «محامي الشيطان».

على النقيض من ذلك، والنقيض في بعض الحالات رحمة، كان

قبطان آخر لا شغل له سوى انتظار قدوم الظلام، حتى إذا ما خفت الحركة وهدأ الصخب، تسلل إلى النوافذ وشرع يرمي لنا عبرها بكل ما حملت جيوب بذلته الحربية من كسر الخبز وقطع الجبن والسكر والشكولاتة.

كم أود من كل قلبي لو أني أعرف اسم هذا القبطان وذاك الجندي لأشد على يدهما بحرارة معبراً لهما عن عميق امتناننا وعظيم عرفاننا.

بعد هذه المرحلة، نقلنا إلى الإدارة العامة للأمن الوطني بهدف استنطاقنا من جديد. وقد كانت في انتظارنا نخبة من أقسى الجلادين وأشدهم ضراوة. كانوا جميعاً يفركون أياديهم تلذذاً باقتراب ساعة البطش والتنكيل. فتلك كانت فرصة العمر بالنسبة إليهم لتنتقم الشرطة من الجيش. فرجال الأمن كما لا يخفى على أحد، لا يحملون العسكر في شغاف قلوبهم. ولكن الله سلّم. ففي اليوم الثاني من مجيئنا إلى ذلك المكان السعيد، وقع حدث غريب:

أرسل الجنرال أوفقير في طلب الأسبران محمد الرايس من أجل استنطاقه. وقد كان هذا في حالة مزرية من التعب والإنهاك، فتجرأ وطلب من الجنرال شربة ماء لإطفاء عطشه.

ـ كيف؟ ألا يسقونكم؟ ألا يطعمونكم؟

ـ لا يا مون جنرال، لم نطعَم ولم نسقَ طيلة ثلاثة أيام.

ازدادت نظرة الجنرال سواداً وحدة ـ حسب ما حكى لنا الرايس ـ ثم توجه بصوت غاضب إلى الكولونيل الدليمي مدير الأمن الذي كان مرفوقاً بالكولونيل اليوسي رئيس المخابرات العسكرية، واليوطنان كولونيل أرزاز الرئيس المؤقت للدرك الملكي:

ـ ماذا أسمع؟ هل لكم أن تشرحوا لي أسباب هذه المعاملة؟

طأطأ الضباط الثلاثة رؤوسهم في صمت، فتابع الجنرال كلامه قائلاً:

ـ أطعموهم وأسقوهم حالاً.. كما آمركم أن تعاملوهم معاملة لائقة ما داموا في ذلك المكان.

وهكذا مرت باقي الاستنطاقات بدون تعذيب، بل أكثر من ذلك، أصبحنا نتمتع بوجبتين غذائيتين في كل يوم، كان رجال الشرطة يأتون لنا بها من مطعم «نهار وليل»: ساندويتشات في منتهى اللذة، كان الجوع يزيدها لذة أعظم، تحتوي إما على دجاج أو لحم أو كبد مع قطعة جبن وقنينة من الكوكاكولا، كل هذا، بفضل الجنرال أوفقير... وطبعاً، حاولنا في ما بعد معرفة الأسباب التي حدت بوزير الدفاع آنذاك إلى معاملتنا على ذلك النحو. فقال بعضنا: إن الجنرال القوي، لما نبتت في ذهنه فكرة قلب النظام، نزع إلى استمالتنا ليستفيد من خدماتنا في اليوم المناسب. وقال بعض آخر: إنه تصرف كذلك فقط لاقتناعه العميق بأننا لم نكن على علم مسبق بعملية الانقلاب.

أما في المرحلة التالية فقد نقلنا إلى السجن العسكري في مدينة القنيطرة، حيث خضعنا طيلة ستة أشهر لعزلة قاتلة وتجويع رهيب. وأذكر هنا بالمناسبة، أنني لم أتألم نفسياً كما تألمت في هذا المكان بسبب تغلغل النزعة القبلية في قلوب حراسنا من رجال شرطة ودرك وجنود.. كانت تلك تجربة فريدة حقاً، قسنا بها جميعاً درجة حرارة الحمية القبلية التي تجمع بين أبناء المنطقة الواحدة. كان الباب يفتح خفية على أحدنا فيُسأل بصوت هامس:

ـ من أين أنت في «الخوت»؟

فيجيب الأسير وقلبه يدق بالأمل:

ـ من كذا وكذا.

ـ أممممم . .

يهز الشرطي كتفيه بلا مبالاة ويغلق الباب ثم يمضي ليبحث عن سجين آخر ينحدر من قبيلته أو مدينته، حتى إذا ما عثر عليه ساعده وحده دون سواه. غير أننا وجدنا استثناء رحيماً في الفرقة الأولى التي كانت تحرسنا والتي استقدمت من مدينة وجدة. كان رئيسها المدعو «السي محمد» رجلاً إنسانياً فاضلاً، فانعكس فضله على تصرفات رجاله. مثلما كان حازماً ويقوم بعمله كاملاً غير منقوص، ولكن مقابل هذا، كانت تصدر عنه التفاتات إنسانية نبيلة كشراء الدواء من جيبه للمرضى، وفتح الباب عليهم ليأخذوا قسطاً كافياً من التهوية، وتزويدهم بما يكفي من الماء والصابون، كل هذا كان مصحوباً بالكلمة الطيبة الرافعة للمعنويات. فأي شيء يُقال في حق هذا الرجل غير عبارات الشكر والامتنان؟ ومن أطرف ما مر بي في هذه المرحلة العصيبة أني كنت مرة أغني لأروح عن نفسي وعن نفوس أصدقائي، إذ زعموا أن لي صوتاً شجياً، والأعور كما يقول المثل، ملك في بلد العميان، فإذا بالباب يفتح عليّ فجأة، وإذا بي أمام مدير السجن، الكومندار بوعزة، وما أدراك ما هو، ومساعده وشرذمة من رؤساء الشرطة، فسألني أحدهم مستغرباً:

ـ أأنت الذي كنت تغني؟

قلت مرتبكاً:

ـ نعم.

فرد عليّ متهكماً وهو يهز رأسه:

ـ ومن سيغني إن لم تغنِّ أنت؟

وفي المساء، عاد أحد صغار رؤساء الحراس ممن كانوا حاضرين في الصباح، وكانوا يطلقون عليه لقب «بيبي» على نقيض أصحابه الذين كانوا يتنادون بينهم بلقب «الحاج». ففتح عليّ الباب

وجلس قبلتي على صندوق خشبي، وبدون أن أعرف لذلك سبباً، بدأ معي دردشة دامت أسابيع طويلة.

كان الرجل يحدثني بتلقائية غريبة ويغوص معي في حديث مسهب طويل كان يبسط لي فيه كل مشاكله كما يبسط المهموم هواجسه لطبيبه النفساني. كان يبدو لي بكثرة مشاكله شقياً بقدر ما كنت أبدو له لربما بغنائي سعيداً. وكان يطلب رأيي في نزاعاته المتكررة مع زوجته التي كانت ترى السواد في كل ما كان يراه هو بياضاً. ومع ابنته التي كانت تلح عليه في تجديد فراش البيت لاقتراب موعد خطوبتها، ومع القروض الكثيرة التي كانت تخنق أنفاسه، ومع ابنه الذي زاغ عن الطريق بعد أن أصبح يعاشر من لا يليق.. و.. و.. وبما أنني كنت له بمثابة محيط واسع يحتوي كل أنهار همومه، عاملني معاملة الكرام ولم يبخل عليّ بكل المستجدات التي كانت تطرأ على قضيتنا.

وذات ليلة، جاء مهللاً مستبشراً وقد ارتسمت بسمة عريضة على محياه المتعب. وما إن فتح عليّ الباب حتى بادرني بصوت هامس جذلان:

ـ أبشر.. أبشر.. أبشر.

قلت متلهفاً وقلبي يضرب بين ضلوعي مستبشراً:

ـ بشرك الله بالخير يا أخي، ماذا جرى؟

جلس على الصندوق الخشبي ببطء وكأنه يتعمد تشويقي، ثم نظر إليّ طويلاً وابتسامته تزداد اتساعاً ثم قال:

ـ أتعرف مقهى النهضة في شارع محمد الخامس في الرباط؟

ـ نعم.

ـ غداً في المساء سنلتقي هناك..

قلت وأنا لا أكاد أصدق:

ـ أوَتسخر مني؟

قال بثقة مدهشة:

ـ غداً سيطلق سراحكم أنتم السائقون.. لقد جاءت برقية من الأعلى تأمر إطلاق سراح كل من له رتبة دون ضابط. أعني من لاجودان شاف إلى ما تحت. أما الضباط (ومر بسبابته على عنقه مقلداً عملية الذبح) فسيعدمون عن آخرهم..

تفرقعت كلماته كقنبلة في أعماقي وأخذني ما يشبه الدوار ثم شرد لبي وأنا أتخيّل الرصاص يخترق جسمي ويطفئ الحياة من قلبي. قلت بصوت فارغ وأنا أستعرض كل مراحل حياتي بسرعة شريط فيديو يُعاد إلى الوراء:

ـ سأنتهي إذاً غداً..

قال مستغرباً:

ـ وما لك أنت والضباط؟ غداً ستكون حراً كسائر الجنود والسائقين.

ـ لست سائقاً ولا جندياً.. أنا ضابط.

فغر فاه دهشةً ثمَّ ولَّى عني مرتبكاً.

مرت تلك الليلة والليالي التالية وأنا أنتظر الأجل المحتوم، ولكن شيئاً من ذلك لم يطرأ. وبعد شهور جاء قاضيان للتحقيق وشرعا في استنطاقنا. كان الأول برتبة كومندار، رجل دمث الأخلاق، هادئ الطباع، يُشعِر مستنطقيه أنه يتفهم وضعيتهم وأنه إنما جاء ليقوم بواجبه. أما الثاني، وهو الكولونيل بن عيادة، فقد أعطانا مثالاً ناطقاً عن عدالة ذلك الزمان: صراخ هستيري، وضرب عنيف مستمر على الطاولة، وسب مقذع، وتجريح مفجع، وتهديد كان يتردد على لسانه كاللازمة:

ـ على كل حال، موعدي معكم أمام عمود الإعدام يا جماعة الأنذال.

كان من الواضح أن الوقت القصير الذي حُدد له للتحقيق مع ما يزيد عن ألف شخص يرغمه على اختصار المسافات لتمر المحاكمة في وقتها المحدد.

فقد كان المهم عنده وعندهم جميعاً هو إنقاذ المظاهر وإعطاء الانطباع بأن المسطرة قد احترمت والحمد للّه..

محاكمة الصخيرات

ابتدأت محاكمتنا في المحكمة العسكرية في القنيطرة مع مطلع شهر شباط/ فبراير 1973 وانتهت بإنهائه. وقد عُيِّن رئيساً لها القاضي عبد النبي بوعشرين مع مجموعة من الضباط السامين كمستشارين، أذكر من بينهم الجنرال عبد السلام النكرة والكولونيلات، الفاسي، التيجاني، النعيمي، خرابة، وآخرون ممن غابت عني أسماؤهم.

كان رئيس المحكمة نقيضاً صارخاً للقاضي المستقل العادل الذي يفترض أن يكون في محاكمة خطيرة كهاتة. فقد كان التهكم ديدنه والعنف طابعه، ولم يكن يهتم بشيء كاهتمامه بتوريط المتهمين وتجريمهم. وقد بدا ذلك واضحاً من الوقت الكافي الذي كان يسمح به لشهود الإثبات مقابل تشدده الواضح مع شهود الدفاع. والحقيقة أن تعيين هذا الرجل للحسم في قضيتنا كان مثيراً للاستغراب والعجب. إذ كيف لقاضٍ مدني أن يفصل في قضية كان الانضباط العسكري فيها هو قطب الرحى وهو على جهل شبه مطبق بالشؤون العسكرية فقد كان كل من في المحكمة من جنود ودرك ينفجرون أحياناً ضحكاً وهم يرون مقدار ما كان يوليه من اعتبار بالغ للأسلحة الخفيفة، بينما كان يغض الطرف عن الأسلحة الثقيلة. وقد كان الضباط المستشارون في

حرج كبير من أمرهم وهم يتدخلون في كل مرة لتنبيهه وتصحيح معلوماته. غير أن السيد بوعشرين لم يكن يكترث بشيء قدر اكترائه بسؤال واحد، كان يطرحه على كل من وقف أمامه حجةً دامغةً تؤدي بحسب رأيه إلى تجريمه، قائلاً بلهجته المتهكمة:

ـ قل لي، هل جئت لمناوغة أو مؤامغة؟

ـ جئت لمناورة يا سيدي الرئيس.

ـ إذا كنت قد جئت حقاً لمناوغة فلماذا لم تقتل اعبابو وكل الضباط المتؤامغين معه؟

ولما كان الواحد منا يجهد نفسه محاولاً إبراز الدور الجوهري الذي يؤديه الانضباط في الحياة العسكرية، ويفسّر له الغموض الشديد الذي كان سائداً في الصخيرات، كان يقاطعه بعنف، مصراً على أن ذلك لا يعنيه في شيء ما دام أنه لم يقبل الموت من أجل ملكه لتشريف شعاره: الله، الوطن، الملك. أما الكولونيل بن عيادة، فقد انقلب فجأة من قاضي التحقيق إلى وكيل النيابة، وكأن السلطات المغربية عدمت بين رجال القانون من يقوم بهذه المهمة، وهذا في حد ذاته ما جسّد بكيفية صارخة صورية المحاكمة وشجع المدعي العام ليطالب بقطف أكثر عدد ممكن من الرؤوس.

كانت الجلسات طويلة متعبة نظراً إلى العدد الهائل من المتهمين. إذ كثيراً ما كانت تدوم إلى ساعة متأخرة من الليل، الشيء الذي كان يجعل بعض المستشارين يغطون في سبات عميق مثيرين بذلك سخرية المحامين وغمزاتهم. أما نحن، فكان أغلبنا يغرق في النوم، تاركاً مصيره بين أيدي شرذمة من الناس تبث فيه كيفما شاءت. وقد تخللت تلك الجلسات لحظات خالدة وسمها بعض المحامين البارعين بميسمهم حتى إنني لا زلت أذكر في اليوم بعض المرافعات القوية لمحامين أكفاء كالأستاذ عبد الرحمن بنعمرو والأستاذ المرحوم

الفاروقي، والأساتذة محمد بوزبع وبنسعيد، وجواد العراقي، والمرحوم عمر بن جلون الذي كان من بين أكثر المحامين تعاطفاً معنا وتشجيعاً لنا والذي وصف في مرافعته المغرب ساعة الانقلاب بالقطار الأحمق الذي فقد سائقه. ووصف مسؤوليه بالمسافرين المترددين الذين وضعوا رجلاً على الدرجات وتركوا الرجل الأخرى متأرجحة في الهواء. فإن وقف القطار بأمان وقفوا معه وتبجحوا بإخلاصهم وشجاعتهم وانتظروا على ذلك أجراً وثواباً. وإن تيقنوا أنه ساقط في جرف هارٍ قفزوا في اللحظة المناسبة ليقولوا للقادمين الجدد: أو لم نكن معكم وهم في كلتا الحالتين مستفيدون. وقد كان الأستاذ المرحوم بلقزيز في منتهى الشجاعة عندما تغلغل إلى خبايا الأمور، وحلل في مستهل مرافعته انطلاقة المغرب الخاطئة، مبرزاً التضحيات الجسام التي قدّمها الشعب المغربي لنيل استقلاله وكرامته، وقارن ذلك بخيبة الأمل العميقة التي مُنِيَ بها هذا الشعب منذ فجر الاستقلال إلى تلك الفترة، ثم خلص إلى القول إن محاولة قلب النظام لم تكن سوى تعبير ناطق عن تلك الخيبة المريرة، وأن مدبريها قد أعدموا جميعاً، وأن على العدالة إن كانت حقاً عادلة ونزيهة، أن تطلق سراح من لم يكونوا سوى منفذين جاهلين لحقائق الأمور. وبينما هو في عز مرافعته، إذا به يتوقف فجأة عن الكلام، ومن دون أن يتوقع أحد ذلك، أجهش المحامي الكبير بالبكاء ورفع يديه إلى السماء مبتهلاً ربه بهذه العبارات المؤثرة:

ـ بركة! بركة! (كفى! كفى!) اللهم إنك تدري أن دماً كثيراً جرى في هذا الوطن ظلماً وعدواناً.. اللهم ابعث لنا ولياً من أوليائك لينقذ هذا البلد المسكين..

ثم غادر القاعة تاركاً وراءه صمتاً رهيباً وتأثراً بالغاً. محام آخر، كان في مقتبل العمر ولا زال بعد مغموراً، رافع بقوة وذكاء حين دافع

عن لاجودان العجوز أحمد خرخاش. فاستهل مرافعته بتسليط الضوء على شظف العيش الذي كان يعاني منه موكله في قريته الجبلية النائية قبل أن ينتشله المستعمر منها ويزج به في جيشه وهو ابن الثمانية عشر ربيعاً. ثم تطرق إلى الحروب الضارية التي خاضها بشجاعة في مختلف الجبهات الأوروبية وفي الهند الصينية، من أجل فرنسا، وبالتالي من أجل استقلال المغرب، ثم صور الإهانة التي كانت تلحقه من أطفال المدن حين كانوا يتبعونه كلما رجع إلى وطنه هاتفين في إثره:

ـ علاش علاش اجينا؟ على الصُّبة والكاميلا...

وخلص المحامي إلى الاستنتاج بأن هذا الرجل الذي وهب كل حياته للمغرب، وشقي كثيراً من أجل إعالة أسرة كثيرة الأفراد تهددها الجوع في الأربعينيات، هو اليوم، وقد اشتعل رأسه شيباً، يجرجره وطنه الجحود في المحاكم بسبب أوامر أطاعها عن حسن نيّة، وهو الذي لم يعرف طوال ما يزيد عن أربعين سنة من حياته سوى تنفيذ الأوامر.

بهذه المرافعة المؤثرة الذكية، لم يحكم على المرحوم خرخاش سوى بسنتين سجناً، فأنجاه الله من جحيم تزممارت.

كانت الأحكام التي صدرت في حقنا أشبه ما تكون بعلبة حظ، ذلك أنها لم ترتكز على أي منطق أو معقول. فبعض المتهمين ممن كان لهم محضر ثقيل حكم عليهم بعقوبة خفيفة. وبعض آخر ممن كان يعتقد صادقاً أن ذمته ستبرأ، صدم بعقوبة تتراوح بين خمس سنوات وعشر سنوات. والدليل القاطع هو ما لحق بالملازم عبد العزيز بين بين المحكوم عليه ظلماً بعشر سنوات سجناً والذي لم يشفع له أن يكون ملكياً حتى النخاع: ذلك أنه بمجرد ما إن اكتشف أن المناورة انقلبت إلى مؤامرة غادر القصر مباشرة، وقصد لواء المظليين في الرباط، ثم سلم نفسه بعد أن أخبر المسؤولين بكل ما حصل. في

مقابل هذا، ملازم آخر من أسرة «العراقي» كان والده على صلة برئيس المحكمة، حكم بسنة واحدة سجناً بينما حكم على نائبه بسنتين..

أما بالنسبة إلى التلاميذ، فقد برأت المحكمة ذمتهم جميعاً ثم طردوا كلهم من صفوف الجيش بعد أن وظفتهم الإدارة في القطاعات العمومية. وهكذا أسدل الستار على هذه المحاكمة الصورية التي حضر فيها كل شيء إلا العدل. لكننا لم نكن نعتقد قطُّ أنه سيأتي يوم يضرب فيه بعرض الحائط بكل قرارات هذه المحكمة، بل وحتى بكل الشرائع السماوية والقِيم الإنسانية والأعراف الدولية، واتخاذ قرار آخر، فاحش في جوره، بشع في جبروته، وحشي في طغيانه، يقضي باختطاف كل من حكم عليه بثلاث سنوات فأكثر لدفنهم وهم أحياء في مقبرة العار بتزممارت.

محاولة انقلاب القوات المسلحة الجوية

ليلة 15 آب/ غشت 1972، التقى ثلاثة رجال في بيت السيدة آسية الأزرق، زوجة أحد الوزراء الذين تورطوا في قضية تحويل المال العام واعتقلوا في سجن لعلو في الرباط من أجل تقديمهم إلى العدالة. لم يكن الرجل الأول سوى الجنرال القوي محمد أوفقير، وزير الدفاع والماجور العام للقوات المسلحة الملكية الذي التجأت إليه السيدة آسية من أجل التدخل لمصلحة زوجها. أما الرجل الثاني فكان هو اليوطنان كولونيل محمد أمقران، الرئيس السابق للقاعدة الجوية في القنيطرة ونائب المفتش العام للقوات المسلحة الجوية الذي رسم مع الجنرال أوفقير خطة الانقلاب الثاني. أما الرجل الثالث فكان هو الكومندار كويرة الذي خلف أمقران في رئاسة قاعدة القنيطرة، والذي كان واحداً من أصدقائه الحميمين. كانت الغاية من هذا اللقاء هو استدعاء الكومندار كويرة وإقحامه في ذلك المخطط

بوصفه منفذاً لعملية إسقاط الطائرة الملكية القادمة في اليوم التالي من فرنسا. لم يجد الرجلان أي صعوبة في إقناع كويرة، الضابط المعروف بالاستقامة والنزاهة والتدين، سيما بعد أن كشف له أوفقير بعضاً من أسرار القصر، وحكى له تفاصيل مستفيضة عن قضايا لا يعلمها إلا هو. قبل الكومندار العرض بدون تردد وهو يتميز غضباً واستنكاراً لما سمع، ووعد بتقديم نفسه قرباناً في حال تعذر إسقاط الطائرة، وذلك بالقيام بعملية «الكاميكاز»، أي بالتوجه الانتحاري إلى طائرة البوينغ التي تقل الملك وتفجيرها بمطاردته.

كان أوفقير يعتقد أن طائرة واحدة تكفي للقيام بهذه المهمة، لكن أمقران لم يكن يشاطره هذا الرأي، فجاراه. لكنه أوعز خفية إلى صديقه كويرة، زيادة في الاحتياط، أن ينطلق بسرب يتكون من ست طائرات، ثلاث منها مسلحة والثلاث الباقيات بغير سلاح، كما ترك له مسؤولية اختيار الطيارين الذين يراهم مناسبين لهذه العملية مبدياً تفضيله للملازم عبد القادر زياد الذي كان يعرفه جيداً نظراً إلى اشتغاله معه طويلاً في القاعدة الجوية في مكناس، والذي قام وإياه بتدريبات متعددة في الولايات المتحدة الأميركية.

أما الطيار الثاني الذي اختاره كويرة من أول وهلة وعول عليه فهو الملازم حيمد بوخالف. وهو شاب ينحدر من أسرة متوسطة تقطن في مدينة مكناس، عرف بين أصدقائه بقلب كبير وأفكار ثورية مع مهارة في الرمي. لكن كويرة فضل ألا يخبره بحقيقة المهمة إلا وهو محلق بطيارته في السماء. وهذا ما أغاض الشاب كثيراً رغم قبوله العرض تلقائياً في اللحظة الحاسمة. فنادى من طيارته رئيسه وعاتبه بمرارة:

ـ لماذا فعلت هذا؟ كان عليك أن تخبرني وأنا في الأرض كي أتهيأ نفسانياً لمهمة حساسة كهاته.

في يوم 16 آب/ غشت كانت الحركة عادية في القاعدة الجوية في القنيطرة. كان العاملون فيها يمارسون نشاطهم حسب التوقيت الصيفي الذي كان يبتدأ من الساعة السابعة صباحاً وينتهي في الواحدة زوالاً. غير أنه في الوقت الذي كان فيه الضباط وضباط الصف يستعدون لمغادرة القاعدة بعد تناولهم لطعام الغذاء، أخبروا وهم في ناديهم بملازمة مكانهم واستعدادهم لتهييء سرب من الطائرات ستتكلف بخفر الطائرة الملكية العائدة من فرنسا. فلما استأنفوا عملهم بكيفية استثنائية بعد الغداء، فوجئوا بطائرة بوينغ ضخمة تحلق فوقهم على علو منخفض جداً بكيفية غير عادية وكأنها كانت على وشك السقوط، بينما كانت تتبعها على نحو يثير الاستغراب مطاردتان حربيتان، فلم يتبينوا أكانتا تحميانها أم تهاجمانها.

ماذا حدث؟

انطلقت من القاعدة من دون إشعار أحد، في الوقت الذي كان فيه الضباط وضباط الصف مجتمعين في النادي، ست طائرات بقيادة الكومندار كويرة: ثلاث منها مسلحة وكان ربانها على دراية تامة بحقيقة المهمة وطبيعتها. وقد كانوا يتكونون ـ علاوة على الرئيس كويرة ـ من اليوطنان زياد واليوطنان بوخالف، أما الطائرات الثلاث الأخرى فلم تكن مسلحة وكان في نية ربابينها أنهم ذاهبون لخفر الطائرة الملكية وقد كانوا يتكونون من اليوطنان دحو والسرجان شاف بن بوبكر واليوطنان الدكالي الذي كان في الطائرة نفسها مع القبطان صالح حشاد، الطيار الموهوب الذي كان يُعد أبرع طيّار وأمهر رام في المملكة، فلم تشفع له براءته المطلقة كما سنرى في ما سيأتي، من الاكتواء بنار تزممارت.

بمجرد ما أن دخلت طائرة البوينغ الملكية أجواء تطوان شمال البلاد، اعترضتها طائرات الخفر، حتى إذا ما أصبحت على مرمى

مدافعها، أمر الكومندار كويرة الطائرات غير المسلحة بالتنحي جانباً، فلما كان له ذلك، ضغط على الزناد لإطلاق النار، ولكن كم كانت دهشته عظيمة حين لاحظ أن أي رصاصة لم تنطلق بسبب عطب غير متوقع حصل في مدافعه. فما كان من الملازمين زياد وبوخالف إلا أن دخلا في المعمعة وبدءاً بإطلاق سيل غزير من الرصاص أصاب حجرة القيادة ـ كما شهدت بذلك الثقوب في هيكل البوينغ وعطل ثلاثة محركات مما جعل الطائرة تفقد توازنها وتحلق على ارتفاع منخفض جداً.

ازدادت دهشة كويرة وهو يرى الطائرة تواصل تحليقها رغم كل ما أصابها. فأراد أن يفي بالوعد الذي كان قد قطعه على نفسه بالأمس، وطلب من صديقيه التنحي ليفسحا له المجال للقيام بعمليته الانتحارية. غير أنه في اللحظة الأخيرة التي اندفع فيها كالسهم قاصداً البوينغ، أقنعه الملازم زياد بالعدول عن نيته بعد أن أخبره أنه لا زال في جعبته ما يكفي من الرصاص لإسقاط الطائرة. فلما حاول تفادي الارتطام المهول، فشل جزئياً في مناورته فتكسر سقف مقاتلته وهو يحتك احتكاكاً رهيباً ببطن البوينغ، مما أرغمه على الضغط في اللحظة الحاسمة على زر الانقذاف الأوتوماتيكي بالمظلة، فنزل بعد دقائق بكتف مكسر في ضواحي سوق الأربعاء، حيث ضبطه رجال الدرك هناك وسلموه بعد ساعات إلى الملك.

رغم المحاولة الأخيرة التي قام بها زياد وبوخالف، نزلت الطائرة الملكية على نحو كارثي في مطار الرباط ـ سلا على الساعة الثانية والنصف زوالاً بعد أن دامت مطاردتها ما يقرب من نصف ساعة. فعاد الطياران، زياد وبوخالف، بسرعة إلى قاعدتهما في القنيطرة، ثم تزودا مرة ثانية بالذخيرة الحية ورجعا للهجوم مرة أخرى، مصممان العزم على المضي إلى النهاية. وهكذا حلقا على

ارتفاع منخفض جداً فوق الموكب الملكي الذي كان يتأهب لمغادرة المطار، وأمطراه بوابل من الرصاص في محاولة يائسة للإجهاز على الملك. ولما استنفدا ذخيرتهما، رجعا مرة أخرى إلى قاعدتهما، فلاحظ أصدقاؤهما توترهما الشديد وسألاهما عن الخبر. فقال لهم زياد وهو يعيد شحن مدافعه:

ـ إن كنتم تودون حقاً معرفة ما يجري، فخذوا طائراتكم وتعالوا معنا.

هنيهات بعد ذلك، انطلقت ست مقاتلات من مدارجها في لقاعدة، واتجهت نحو القصر الملكي في الرباط، ثم حلقت فوقه على علو منخفض، وبدأ الملازم زياد في إطلاق النار بكيفية عشوائية، آمراً أصدقاءه أن يفعلوا مثله. لقد كان متأكداً بأن العملية قد فشلت، فأراد ـ كتحية وداع لنفسه ـ أن يعطي لها أقصى ما يمكن من دوي وأن يحدث أكثر ما يمكن من خسارة.

في حدود الساعة السابعة مساء، عندما آذنت الشمس بالمغيب، كان الجنرال عبد السلام النكرة قد توجّه إلى القاعدة الجوية على رأس وحدة من الدبابات، فضرب حصاراً محكماً عليها قبل أن يقتحمها بعد ذلك. كما التحق من جهته، على وجه السرعة، الكولونيل لو باريس ـ المصاب في أحداث الصخيرات ـ إلى عين المكان مع وحدة من الجيش، وبمجرد وصوله، أمر جميع الميكانيكيين المشتغلين في المدارج بالانبطاح على بطونهم، ـ وقد كانوا كما رأينا على جهل تام بما حدث ـ ثم أمر سائقي الدبابات بسحقهم جميعاً. ومن حسن حظ هؤلاء أن الكولونيل اليوسي الذي كان موجوداً في عين المكان، أفلح بعد جهد جهيد في إقناع الكولونيل المتعطش إلى الانتقام عن العدول عن تلك المجزرة، مذكراً إياه بأن الميكانيكيين لم يكن لهم دخل في الأمر.

قبل قدوم الدبابات بكثير، كان الجنرال أوفقير قد أمر الكولونيل الدمناتي بالالتحاق فوراً بالقاعدة الجوية وبإعدام كل الطيارين الذين طاروا تلك الأمسية، محاولة منه لتصفية كل الشهود المزعجين، غير أنه لم يكن يدري بأن الكومندار كويرة قد اعتُقل وسُلِّم إلى الملك.

وفي النهاية، أخذت الاعتقالات الجماعية مسارها. فسيق كل الضباط إلى المكتب الثاني (الاستخبارات العسكرية) قصد الاستنطاق، ثم نقلوا إلى ثكنة لواء المظليين ليستنطقوا ثانية من طرف الدرك الملكي. أما ضباط الصف فقد اقتادهم جنود من وحدة إصلاح المعدات العسكرية إلى ثكنة الهندسة العسكرية بتمارة، حيث تمّ استنطاقهم كذلك. بعد ذلك سيق الجميع إلى السجن العسكري في القنيطرة، حيث خضعوا لعزلة شاملة إلى غاية منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفبر، تاريخ قدوم من يمثل قاضي التحقيق ووكيل النيابة في آن واحد، الكولونيل بن عيادة الذي لم يكن يُستغنى عنه في مثل هذه المناسبات.

محاكمة الطيارين

مرت محاكمة الطيارين على الشاكلة نفسها التي مرت بها محاكمة المشاة. غير أن عدد المتهمين في هذه القضية كان أقل بخمس مرات تقريباً من القضية الأولى، إذ لم يكن هناك سوى 220 شخصاً أمام قفص الاتهام مقابل ما يزيد عن ألف في المحاكمة السابقة. وكما كان منتظراً، عين السيد عبد النبي بوعشرين رئيساً للمحكمة، والكولونيل بن عيادة قاضياً للتحقيق ووكيلاً للنيابة في وقت واحد. إلا أن تعديلاً هاماً وقع على مستوى تشكيلة المستشارين بعد أن اتهم الملك مستشاري المحاكمة السابقة بالخضوع لضغوطات الجنرال أوفقير وإصدار أحكام خفيفة في حقنا. من أجل هذا الاتهام، أقصي هؤلاء الضباط من

الجيش ووضعوا في خانة المغضوب عليهم، وذلك بإحالتهم الفورية على التقاعد. فخلفتهم شخصيات عسكرية أخرى كان من أبرزها الجنرال بلعربي والكولونيل الدليمي والكولونيل سكيرج وغيرهم. وقد بدا واضحاً منذ الوهلة الأولى أن المستشارين الجدد كانوا جميعاً تحت تأثير تصريحات حديثة للملك، حين كشف في ندوة صحفية أنه اغتاظ كثيراً عندما سمع منطوق محاكمة الصخيرات، إذ قال بأنه كان يتوقع من المحكمة أن تصدر أحكاماً قاسية حتى يترك له المجال في ممارسة حقه في العفو إن شاء.

أما بخصوص القضية الثانية التي كانت في طور البت، فقد جرم الملك الميكانيكيين الذين أعادوا تزويد المقاتلات بالذخيرة وكذا أولائك الذين زودوها بالوقود، فوصفهم بـ «الحراب الذكية». غير أن هؤلاء الجنود كانوا في حقيقة أمرهم وكما توصلت إلى ذلك المحكمة بالحجة والدليل، أبعد ما يكونون يوم محاولة الانقلاب عن معرفة الحقيقة. فهل عوتبوا إذاً على نقص في حاستهم السادسة التي يدرك بها المرء بعضاً من الغيب؟ وعلى كل حال، فقد حكم على جميع هؤلاء الأبرياء بثلاث سنوات سجناً، كانت كافية ليأخذوا بها تأشيرة الاحتراق في أتون تزممارت. وقد كان من بين المحامين البارزين الذين حظروا محاكمة الطيارين، الوزير السابق والمستشار اللاحق للملك، أحمد رضا كديرة الذي دافع عن الملازم بوخالف فأحدث ضجة لما تطرق إلى الميكانيكيين، فقال في حقهم مخاطباً هيأة المحكمة:

ـ لا تتأثروا أيها السادة بتصريحات الملك، فأنا أكثر معرفة به منكم جميعاً. . هؤلاء أبرياء، فإن قدر لكم وأدنتموهم فاعلموا أن ذلك سيكون خطأً فادحاً في تاريخ القضاء المغربي. .

غير أنه كان من الواضح جداً أن السيد كديرة لم يأتِ إلى

المحكمة إلا من أجلِ إثارة نقطة حساسة بالنسبة إليه، ألا وهي إبراز عدم كفاءة العسكريين في المجال السياسي وإظهار الخطورة الكبيرة التي يشكلونها على مستقبل البلاد كلما أعطيت لهم صلاحيات واسعة في هذا الحقل. فقال من جملة ما قال:

ـ كانت محاولة الانقلاب الأولى من تدبير الجنرال المذبوح، والمحاولة الثانية من تدبير الجنرال أوفقير، فكلما تلاحظون أيها السادة أن الفرصة سنحت للعسكريين لإبداء رأيهم في حلّ مشاكل البلاد، فإنهم لا يعبّرون عنه إلا بالعنف والقوة، في حين أن البتَّ في حل هذه المشاكل يجب أن يبقى مقصوراً على ساسة هذه الأمة، ولا ينبغي أن يكون إلا بالحوار الهادف والمسؤول. لذا فأنا أؤكد بأن العسكري الذي يمارس العمل السياسي، مثله في جهله وقصوره كمثل رجل أقحم في فريق لكرة القدم وهو باللعبة وبشروطها جاهل.

وهكذا نطق الحكم بالإعدام في نهاية المحاكمة في حق الكولونيل أمقران والكومندار كويرة والقبطان العربي الحاج والملازمين عبد القادر زياد وبوخالف واليزيد الميداوي والمساعد الأول المهدي عبد العالي والمساعد بلقاسم والرقباء الأولون كامون والبحراوي وبيّنوا، ثم نفذ فيهم فجر 13 كانون الثاني/ يناير 1973، ليلة عيد الأضحى المبارك، الشيء الذي صدم كثيراً من المغاربة.

أما القبطان حشاد والملازمان الطويل والزموري فقد حكم عليهم بعشرين سنة نافذة، في حين حكم على القبطان الوافي بعشر سنوات. ولم تجد مرافعة السيد كديرة نفعاً، فحكم على ما يقرب من ثلاثين ميكانيكياً بثلاث سنوات، أما الباقي وعددهم 180 شخصاً فقد أطلق سراحهم بعد أن قضوا ما يزيد عن ثلاثة أشهر في الاعتقال الاحتياطي.

سجن الطيارون المذنبون في جناح المحكوم عليهم بالإعدام مع متهمي الحق العام بالسجن المدني في القنيطرة، ومنعوا من زيارات

أقاربهم لهم بدون أن يعرف لذلك سبباً. أما أصدقاؤهم المحكوم عليهم في قضية الصخيرات فقد اعتقلوا في جناح العزلة في السجن نفسه، وقد كان واضحاً أن الإدارة تلقت الأمر بعزل هؤلاء عن أولائك، إلا أن الأقدار جمعتهم كما سنرى، وهم على مقاعد الطائرتين اللتين أقلتهم جميعاً إلى الراشدية في الطريق إلى معتقل الموت.

الاختطاف

في الأسبوع الأول من شهر آب/ غشت 1973، ودعنا في جو من الحزن الشديد أصدقاءنا المحكوم عليهم بسنتين سجناً بعد أن قضوا مدة عقوبتهم. وفي ذلك الوقت بالذات، راجت أخبار حول ترحيل أصدقائنا الطيارين من جناح الإعدام إلى حيث كنا في جناح العزلة. وفعلاً، جيء بهم ليلة السابع من غشت 1973 ليسكنوا في زنازين أصدقائنا المفرج عنهم. وقد فرحنا لذلك فرحاً لذلك فرحاً كثيراً لأننا كنا نود التعرف إليهم والاستئناس بهم لكسر طوق الملل القاتل الذي كان يخنقنا خنقاً. وأفظع ما في السجن إطلاقاً كما يعرف المجربون، هو رتابة أيامه التي تمر على السجين كما تمر القافلة البطيئة في صحراء جرداء مقفرة. غير أننا ـ يا لسذاجتنا ـ لم نكن ندري أن جمعهم وإيانا في جناح واحد كان في حقيقة الأمر استعداداً مبيتاً للغوص بنا في أعماق دهاليز الجحيم وبداية كابوس تزممارت المروع.

في حدود الثانية صباحاً ونحن نغط في سبات عميق، استيقظنا مذعورين على صخب قوي في الدهليز وخبط عنيف على أبواب زنازيننا وأصوات صارخة تأمرنا أن نلبس ثيابنا ونستعد للرحيل من دون أن نصحب معنا أي شيء من أمتعتنا التي قالوا لنا إنها ستتبعنا في

وقت لاحق. في الساحة الخارجية للسجن وجدنا حشداً كبيراً من رجال الشرطة والدرك مدجحين بالأسلحة وقد علت وجوههم علامات توتر شديد.

ماذا؟ أهذا نذير إعدام؟ مرق هذا السؤال في أذهاننا كالبرق الخاطف، فارتعدت له فرائصنا وتصببت حبات العرق البارد من ظهورنا واشية بخوفنا الصامت.

كل شيء كان محتملاً في بلد لا يثق فيه مواطنوه بقانون قاصر قصير، قد يقفز عليه واضعوه في أي لحظة بكلمة واحدة أو جرة قلم.

في هذا الجو الرهيب، سرت إشاعة تناقلناها بهمس، لست أدري من كان مصدرها، تقول إننا سنرحل إلى مدينة مكناس.

بعد الإجراءات الشكلية التي ترأسها الملازم الدركي «فضول» الذي اشتهر باختصاصه في التكفل بالأمور المشبوهة، وضعوا العصابة على أعيننا والقيود في أيدينا ثم شحنونا بالعنف المعهود في رجال الأمن في شاحنات عسكرية مغطاة بعد أن عزلوا أربعة أصدقاء منا ووضعوهم جانباً لكي يرحلوهم إلى وجهة غير وجهتنا. (وقد علمنا بعد خروجنا من السجن أن هؤلاء الأصدقاء الأربعة وهم اليوطنان كولونيل محمد اعبابو والقبطان الشلاط والأسبران امزيرك ولاجودان عقا قد أعدموا جميعاً بعد محاولة فرار فاشلة).

بعد مسيرة عشر دقائق تقريباً توقفت الشاحنات، ففهمنا أننا في مطار القنيطرة العسكري بمحاذاة البحر. وقد استطاع بعضنا استراق النظر من تحت حافة العصابة، وذلك بالتحريك المتواصل لحاجبيه، فرأى طائرتين عسكريتين لنقل البضائع من نوع: س 147 واقفتين في المدرج وكأنهما لا تنتظران سوى قدومنا للإقلاع. في الحال، أطلقت محركاتها فتعالى هدير كبير صم آذاننا ولم نسمع من خلاله إلا صوت كومندار يدعى التمساني ـ ضابط يعرفه الطيارون جميعاً ويعرفهم لأنه

كان منهم وقد كان الممكن أن يكون متورطاً معهم ـ وهو يصرخ ملء رئتيه آمراً مرؤوسيه في غضب هائج أن يضعوا القيود على أيدينا وهي وراء ظهورنا لا أمامنا، وكأن ذكاءه الحاد أوحى إليه في تلك اللحظة ونحن على ذلك الحال المزري أننا قادرون على التمرد بأياد مربوطة إلى الأمام. ولما أجلسونا على المقاعد الحديدية للطائرة، استبد بنا ذعر شديد لسماع جملة همس بها شرطي سادي في أذن سجين فرددها هذا للذي يليه حتى تناهت إلينا جميعاً.

ـ سيقذف بكم من الطائرة إلى البحر في هذا الليل البهيم لتكونوا للحيتان الجائعة طعاماً شهياً.

نشط خيالنا المحموم وهو يقدم لنا مشاهد جثثنا وقد ارتطمت بمياه المحيط والحيتان تحيلها في ثوان معدودة إلى أشلاء ممزقة... يا للنهاية المفجعة!

لم يهدأ روعنا نسبياً إلا بعد مرور نصف ساعة من الإقلاع حين همس لنا طياران من المعتقلين بأننا نحلق في اتجاه الشرق، ولربما ستكون وجهتنا هي الصحراء.. لم تعد مكناس إذاً سوى حلم تركناه وراء ظهورنا.

في حدود الساعة الخامسة صباحاً حطت الطائرتان في مطار قصر السوق، المدينة التي سيطلق عليها لاحقاً «الراشدية». لما أنزلونا من الطائرتين، رموا بنا في شاحنتين عسكريتين كما ترمى القمامة في المزابل. فقد كان بعضنا مكدساً فوق بعض كالفئران الميتة المجموعة في مجاري المياه الملوثة، نشم من آباط بعضنا بعضاً رائحة عرق الخوف والترقب والانهيار ممزوجة برائحة قادمة من المجهول.. إنه جحيم تزممارت.

الوصول إلى تزممارت

حوالي الساعة الثامنة صباحاً وصلنا إلى تزممارت. كان النهار قد طلع منذ ساعات بحرارة مبكرة تنذر بيوم لاهب عصيب. أنزلونا ووضعونا على صف واحد ثم دفعوا بنا الواحد تلو الآخر لنمر أمام طاولة جلس وراءها بعض من ضباط الجيش والدرك كانت مهمتهم هي التحقق من هويتنا قبل تسليمنا إلى عزرائيل.

كان الخوف من المجهول يشحذ حواسنا ويشحنها بأسوأ الاحتمالات، فيجعلها وثبة متيقظة تلتقط الشاردة والواردة وتصر أن ترى وتلمس وتشم وتسمع وتتذوق لمحاولة استكشاف ولو خيط نور ضعيف يعطينا فكرة عما يروج في أذهان هؤلاء الأفاضل المجانين. همس شرطي في أذن صاحبه وهو يصفر تصفيرة خافتة:

ـ يا إلهي.. أي سجن مروع هذا؟ ما ساقوهم إلى هنا إلا ليقضوا عليهم قضاء مبرماً..

عندما بدأنا نغامر بتحريك حواجبنا صعوداً وهبوطاً ونميل رؤوسنا إلى الوراء، تراءت لنا من تحت حافة العصابة بنايتان مستطيلتان مسقفتان بالزنك، وقفتا على خط مستقيم بحيطان صخرية رمادية مائلة إلى السواد، طول كل واحدة منهما حسب ما قدرناه أربعين متراً وعرضها عشرة، أما علوها فيزيد لربما على أربعة أمتار، أحبطتا بأربعة أسوار على شكل مستطيل، في كل زاوية منها انتصب

برج الحراسة يطل من كل الجهات على الساحة الداخلية للسجن، بكيفية تجعل فرضية الفرار وهماً مستحيلاً. وقد كانت هذه الساحة الصفراء المكوّنة من الصخر والرمل مائلة بوضوح جهة الجنوب، الشيء الذي جعل البناية الثانية وهي تقبع في قاع المنحدر أخفض مستوى بالتالي من البناية الأولى. (هذا التفصيل الأخير قد لا يثير اهتماماً في ظاهر الأمر، ولكنه سيؤدي، كما سنرى، دوراً حاسماً في الإسراع بالإجهاز على عدد كبير من معتقلي البناية الثانية، ذلك أنه فضلاً على الظروف الجهنمية التي كان الجميع يتقاسمها، كانت لساكني «بناية الموت»، البناية الثانية، إضافةٌ من العذاب نظراً إلى الرطوبة الكبيرة المترتبة عن تراكم المياه في الشتاء من جهة، وارتفاع الحرارة في الصيف من جهة أخرى).

قام الحراس بتفريقنا على البنايتين بكيفية اعتباطية ثم فتشونا بعد ذلك في الدهليزين تفتيشاً دقيقاً، وأخذوا منا كل ما نملك بما في ذلك مصاحف القرآن.. ولما احتج الملازم الأسير محمد منصت على تجريده من نظاراته وقد كان ضعيف البصر، أجابه أحدهم متهكماً:

- لم تعد لك بهما حاجة بعد اليوم.

في هذه الأثناء، دخل ضابط سام برتبة ليوطنان كولونيل يدعى الوالي إلى الزنزانة رقم 15 المقابلة لمدخل البناية الأولى، وقد كان من بين لجنة التفتيش، فألقى نظرة عليها ثم خرج بسرعة كمن لسعته أفعى فقال لزملائه بلهجة ساخرة تعني عكس ما تقوله:

- لا بأس.. يحتمل جداً أن يعيش المرء هنا.

لما أزاحوا العصابة عن أعيننا وفكوا القيود من أيدينا دفعوا بكل واحد منا في زنزانة على حدة ثم صفقوا الباب بعنف شديد. كان لارتطام الباب الحديدي الثقيل وراءنا دوي قنبلة انفجرت في أعماقنا

فنسفت فيها كل خلية نسفاً. فجأة، وجدنا أنفسنا معزولين في بحر من الظلمات، فأحسسنا بالاختناق والضياع. كانت حقاً لحظة عنيفة صادمة شُلَّت فيها عقولنا وانسحب الهواء من رئتينا وجعلت قلوبنا تخبط خبطاً قوياً وكأنها كانت تهدد بسكتة مفاجئة. اختلطت علينا الأمور فلم نعد ندري هل كنا نعيش كابوساً مفزعاً أم واقعاً مروعاً؟ هل كنا حقاً في نهاية القرن العشرين أم في حقبة من حقب ما قبل تاريخ التاريخ، سقطنا فيها بين مخالب همج حمق؟

يا للنهاية البشعة! في لحظة حرجة كهاته، يغوص الإنسان بلا وعي في أغواره السحيقة ليقيس حدود مناعته. فكم من امرئ ظن نفسه قوياً ورمى بقوته إلى حد الغرور فإذا به يبدو في ظرف كهذا ضعيفاً واهناً هشاً. وكم من امرئ آخر لا تكاد صورته تملأ عيون الناس من شدة الوهن، فإذا به في ساعة الصفر يفاجئ نفسه ويفاجئ غيره بعزيمة ماضية وقوة لا تقهر.. الإنسان، ذلك المجهول.

هجمت على خيالنا جحافل من أفكار قاتمة ونحن نتخبط في مهاوي ذلك اليأس القاتل، فقدمت لنا الموت الشنيع أصنافاً وألواناً. فمنا من استحضر في ذهنه «حبس قارة» الشهير. سجن كان لا يخرج منه من دخله إلا ميتاً. ومنا من استشعر إحساس من يرمى في بئر سحيق، وبعض آخر شعر وكأنه دفن حياً..

لما تمالكنا أنفسنا بعد لحظة من التخاذل الشديد، (ومنا من لم يتمالك نفسه فتزعزع عقله منذ تلك اللحظة) أدركنا أن ما سيأتي هو الأفظع وأن علينا أن نستجمع كل قوانا لمواجهة المجهول الأسود.

الزنزانة

في دهليز مظلم ضيق طويل مسيج من الأعلى بقضبان الحديد، اصطفت الزنازين على خطين متوازيين بمقاييس متشابهة، الواحدة

مقابل الأخرى، (باستثناء الزنزانة رقم 15 التي توجد في الوسط قبالة مدخل البناية ولها طوله وضعف مقاييس باقي الزنازين). خمس عشرة زنزانة في الجهة المقابلة لمدخل البناية وأربع عشرة في الجهة المعاكسة. كل زنزانة كانت عبارة عن علبة ضيقة من الإسمنت المسلح، طولها ثلاثة أمتار وعرضها مترين ونصف، أما علوها فيقرب من أربعة أمتار. تسبح ليل نهار في ظلام مطبق، اللهم إلا من خيط نور رمادي باهت، كان يتسلل في عز النهار من ثقب في السقف فينعكس على أرضية الزنزانة على شكل دائرة صغيرة شاحبة لا تكاد ترى فيها أصابع اليدين إلا بصعوبة شديدة. في الجهة المقابلة للباب، قبعت على امتداد عرض الزنزانة دكة عارية من الإسمنت، علوها وعرضها متر، كانت لنا بمثابة سرير. ولكن أي سرير؟ صقيعي في الشتاء، وحام في الصيف، قضينا عليه 6550 ليلة.. نعم. 6550 ليلة بطول ساعاتها في البرد القارس وعرضها في الصيف اللافح.

باب الزنزانة من الحديد السميك، لونه رمادي غامق، يحمل فوقه رقماً أعوج، خطته بصباغة خضراء داكنة يد حديثة عهد بمحاربة الأمية. في وسط الباب نويفذة مستطيلة تطل على الدهليز وتغلق من الخارج بمزلاق يثبت رأسه على حلمة ناتئة مدسوسة في إطار الباب. عند انغلاق النويفذة يظهر في وسط المزلاق ثقب في حجم حبة العنب، له سدادة من الخارج كذلك تشبه أصبع الكف. كانت هذه النويفذة وذلك الثقب المطلان على الدهليز هما كل ما لدينا من مساحة ضوء باهت ضعيف، لا تتبينه العين إلا بعد مكوثها في الظلام أمداً طويلاً. وقد كان الحراس يقضون وقتهم في إحكام إغلاقهما، أما نحن فكنا نقضيه في البحث عن وسيلة لفتحهما من الداخل. لعبة قط وفأر دامت ما يزيد على عقد من الزمن إلى أن جاء يوم أغلقوا فيه الكثير منهما بنافثة النار (الشاليمو).

على جانب الباب إما شمالاً أو يميناً، حسب موقع الزنزانة، صمم مهندس السجن العبقري مرحاضاً في الزاوية، هو ثقب تعمد أن يكون ضيقاً جداً ليؤدي دوراً جوهرياً في عذابنا كما سنرى. في أعلى الجدار، مباشرة فوق المرحاض، حفر البناؤون سبعة عشر ثقباً على ثلاثة سطور تطل على الدهليز، كل ثقب في حجم برتقالة، ستة، تحتها خمسة، تحتها ستة، حلت محل النافذة المنعدمة لكي تمدنا بمقدار ضئيل من الهواء الملوث. أثاث الزنزانة كان ينحصر في دورق وصحن رهيف من مادة البلاستيك الرديء، سرعان ما تكسر منذ الأسابيع الأولى فجعل الحراس يصبون لنا الحساء والشاي ممزوجين معاً في الدورق بدون إكتراث. ولم يكن ذلك يهمنا كثيراً لأن عقولنا وكل حواسنا كانت مشدودة دوماً في التفكير بالبرد والجوع. في منتصف الثمانينيات وصل بذخنا مداه حين حصل كل واحد منا على صحنين ودورقين ورثناهما من أصدقائنا الراحلين. ولكنهما لم ينفعانا في شيء لأنهما ظلا خاويين دوماً.

وقد كان حظنا اليومي من الماء في الصيف كما في الشتاء، إناء من فئة خمسة لترات، هي نصيبنا للشرب «والغسل» وقضاء الحاجة. (أيجدر بي أن أشير هنا بأننا لم نأخذ ولو مرة واحدة حماماً ساخناً طول ما يقرب من عقدين من الزمن؟).

أما في ما يخص اللباس، فمعلوم أننا قدمنا إلى تزممارت في ذروة فصل الصيف ولم نأخذ معنا من معتقل القنيطرة إلا بذلة السجن الصيفية التي كانت عبارة عن تبان وقميص من الكتان الأبيض بدون أكمام وسترة وسروال خفيفين مخططين بالأبيض والأسود مع نعلين مصنوعين من عجلات الشاحنات الممسوحة. وقد مرت علينا ثلاثة أعوام قاومنا فيها البرد الشديد بهذه الثياب التي تمزقت منذ الشهور الأولى فلم يأبه المدير لذلك، وتركنا نظهر للحراس كلما فتحوا علينا

الأبواب بعورات مكشوفة. أما الفراش بالمعنى الذي يعرفه الآدميون، فلم يكن هنالك فراش بالمرة. وبما أننا كنا مضطرين للخلود إلى الأرض، فلم يكن لنا مناص من الامتداد على الدكة الرهيبة التي كانت تمثل بالنسبة إلينا جحيمين متناقضين: جحيم يكوي بالحر صيفاً وآخر يكوي بالزمهرير شتاء، والغطاء؟ كان حظنا منه لحافين باليين ممزقين قذرين كانت تفوح منهما رائحة الخيل والبغال والحمير معاً. ولا نشك أنهما كانا يستعملان كعازل تحت السروج أو البرادع قبل أن يتكرموا بها علينا. وقد كنا في الأيام الأولى نتقزز منها إلى حد الغثيان، ولكن سرعان ما غطت عليها في السنين اللاحقة روائحنا الشديدة فبدأنا نحن إلى رائحة هذه البهائم الأليفة الطيبة حنين المشتاق لأريج الورود الفائحة. وقد توصلنا بفضل تجربتنا الكبيرة في مجال الروائح الكريهة أن لا أخبث ولا أنتن إطلاقاً من رائحة الإنسان حين يرد إلى الحالة البهيمية. هذا الحرمان المطلق من أبسط وسائل النظافة جر علينا طبعاً أمراضاً لا حصر لها، كانت قمينة بأن تشغل جيشاً من الأطباء دهراً طويلاً، وسنتطرق إليها بالتفصيل في فصل لاحق.

هكذا إذاً، كان الديكور الرائع الذي هيأه لنا إخوتنا في الإسلام والوطن والعروبة والإنسانية كي نذوب فيه على مهل كما يذوب الزبد الجامد على النار الخافتة..

الوجبة الغذائية الأولى

بعد صمت طويل عانينا فيه من انهيار شديد، شرعنا نتكلم ونحن في ذلك الضيق الخانق والظلام الكثيف للهروب من واقعنا المأساوي. بدأنا بصوت خافت في الأول مخافة أن يأتي الحراس فيرغموننا على السكوت، ثم بصوت صارخ في النهاية لما تبيّن لنا أن

المكان خال إلا منا. فاستحال العنبر فجأة إلى سوق صاخب للعميان حين بدأ كل أسير ينادي على أصحابه ليعرف هل هم معه في العنبر نفسه، وإن كانوا كذلك ففي أي زنزانة رمت بهم الأقدار، ثم ليتعرف بعد ذلك إلى جيرانه الأقربين. زرع الصراخ شيئاً من الطمأنينة في نفوسنا لعلمنا أننا سواسية في هذه الكارثة الدهماء، والمصيبة كما يقول المثل، إذا عمت هانت. ولكننا لم نصدق ولم نستوعب ونحن لا زلنا تحت وطأة الصدمة تلك السرعة العنيفة التي انتشلتنا من أحضان القرن العشرين وقفزت بنا عشرات القرون إلى الوراء لترمي بنا إلى زمن كان الإنسان فيه يسلم إلى الوحوش الضارية أخاه الإنسان بلا حرج أو تأنيب ضمير. فقبل اثنتي عشر ساعة من تلك اللحظة، كان المحكوم عليهم منا بثلاث سنوات يحلمون أن يحول الحول سريعاً ليعاودوا معانقة الحياة، وكان الباقي يحلم بتخفيف عقوبته ليستأنف رحلة الأيام مع أهله وذويه، فإذا بكلمة واحدة تُقال لتطوح بنا هاهنا في هذه القبور السرية الموحشة بدون تفسير أو تبرير لما طرأ. ومنذ اللحظات الأولى علمنا بواسطة بعض الحراس باسم هذا المعتقل..

تزممارت.. اسم لم تكن رنته غريبة على مسامعنا. فقد أخبرنا ونحن في سجن القنيطرة بأن معتقلاً عسكرياً يحمل هذا الاسم كان قيد البناء في تخوم الصحراء. غير أننا لم نشك لحظة واحدة أنه كان يبنى من أجلنا وأننا سنكون أول من سيتشرف بتدشينه.

حوالي منتصف النهار جيء لنا بأول وجبة غذاء في تزممارت: صحن من الفاصوليا البيضاء مع كسرة خبز وقطعة صغيرة من اللحم. لم تكن هنالك سلاطة ولا فاكهة طبعاً. ولكن الكمية كانت جد كافية سيما وأن شهية الطعام كانت لدينا منعدمة. وبما أننا وصلنا إلى الكلام عن التغذية، فالمناسبة سانحة لإعطاء نظرة عن النظام الغذائي

الذي خضعنا له طوال هذا العمر المديد. وهي نظرة تصل في دقتها إلى تسعين في المائة من الحقيقة. ذلك أننا ملزمون بالاعتراف بأنه في الأشهر الثلاثة الأولى من مقامنا في هذا السجن، أي إلى حين اعتقال المساعد الأول أحمد خربوش الذي سيؤدي ثمن تعاطفه معنا غالياً، كانت التغذية مقبولة نوعاً ما بالمقارنة مع ما سنطعمه في اللاحق. كما ينبغي أن أشير أنه في المناسبات الدينية والوطنية كنا نحظى بتحسين ملموس في التغذية، إضافة إلى فترتين تاريخيتين لن ننساهما أبداً، الأولى كانت في أحد الأشهر الرمضانية الكريمة في نهاية الثمانينيات، حيث أخذ المبادرة ضابط نبيل كان يشرف على مصلحة التغذية في الفوج الحادي عشر الذي كنا تابعين له، وشرع يمدنا بكمية معتبرة من اللحم، متحدياً بذلك المدير وكل من يدور في فلكه. فإن قدر لهذا الضابط الشهم أن يشرفني بقراءة شهادتي، فأرجوه أن يتقبل عميق امتناننا وعرفاننا جميعاً، لأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس.

وأما الفترة الثانية فكانت خدعة سافلة من طرف المدير الذي ظل يحاور ويناور كي يهيمن على مصلحة تغذية السجناء ليستقل بذلك استقلالاً كاملاً عن الفوج الحادي عشر. فلما تأتى له ذلك في بداية الثمانينيات، شرع يعطينا قطعة صغيرة من اللحم (أو العظم حسب مشيئة الحظ) مرة كل يوم طوال أسبوعين، ثم مرتين في الأسبوع، ثم مرتين في الشهر، فقلصها إلى مرة واحدة. ولما تيقن أن المجال أصبح خالياً من كل مراقبة أو محاسبة، ترك الأمر مفتوحاً لهواه، يعطي مرة في الشهر أو لا يعطي، حسب مزاجه.

الفطور: كأس من سائل هو أقرب إلى مذاق الشعير منه إلى القهوة، بدون سكر تقريباً، كثيراً ما كان يتسبب لنا في حرقة المعدة. 30 غراماً من الخبز الحافي (طوال السنوات الثلاث الأولى). فبعد مرور ثلاثة أشهر على اختطافنا، مباشرة بعد اعتقال المساعد الأول

أحمد خربوش، أمر المدير الحراس أن يقسموا بين السجناء الثماني والخمسين أربع خبزات متوسطة في الصباح وثمان خبزات الغذاء والعدد نفسه في العشاء. وقد كنا نطلق على حصتنا من الخبز اسم (الدمليج) أي الدملج، نظراً لتشابهها مع سوار اليد من حيث السمك.

الغذاء: مائة غرام من الخبز. كل أنواع القطاني الرديء جودة وتحظيراً: إما مغرفة صغيرة من عدس مسوس سابح في كثير من مرق لا لون له. أو مغرفة من حمص كنا نحسب حباته حساباً. فكان كل من حصل على خمسة وعشرين حبة يعد محظوظاً وأما التعساء فكانوا لا يتعدون ثمان حبات. أو عصيدة فول، وأقصد بذلك مجازاً (البيصارة) أو بالأحرى عصير البيصارة، لأن البون كان شاسعاً جداً بين الماء الأصفر الذي كنا نرغم على شربه والبيصارة الأصيلة اللذيذة. (وقد كنا نطلق على هذا العصير الغريب اسم: «الخوكو» وهي كلمة إسبانية تعني: العصير). ما يقارب مائة غرام من الخبز.

العشاء: مائة غرام من الخبز. مغرفة من المعجنات الرديئة إما من النوع الرقيق (الشعرية) أو المحبب (المحمصة) أو المجعب (الجعابي).

وابتداء من صيف 1968 شرع الحراس يعطوننا في عز الصيف كويرات من شحم شديد الرائحة، علمنا في ما بعد أنه الشحم الذي كان يكسو اللحم المجمد المستوردة من الخارج. فقد كان اللحم يعطى لجنود الفوج الحادي عشر بينما كنا نطعم نحن ما فضل من ذلك الشحم النتن. وقد تسبب لنا في كثير من الأمراض الهضمية التي عصفت بحياة الكثيرة منا في هذه السنة بالذات. وللإشارة، فإن معدل الوفيات في تلك الفترة بلغ رقماً قياسياً. وعندما خلصنا إلى الحقيقة المروعة وأدركنا أن ذلك الطعام سم لا شك فيه، حولنا النقمة إلى نعمة، فشرع بعضنا يصنع الشمع من ذلك الشحم. شمع كان يطلق

كثيراً من الدخان عند اشتعاله، ولكن كم كانت عظيمة فائدته في محضر أفعى أو عقرب، وسيما حين كتبنا في ضوئه رسائل حاسمة، كانت سبباً جوهرياً في الإفراج عنا.

هكذا إذاً، كان النظام الغذائي الذي خضعنا له في تزممارت. ورغم الجوع المفرط الذي نزل بنا إلى أحط المستويات الحيوانية، فقد كنا نصل أحياناً إلى حد الغثيان والتقيؤ ونحن نحشو الطعام في أفواهنا حشواً، ماسكين أنوفنا بأصابعنا كمن يرغم على أكل جيفة ينهشها الدود. وأعتقد بإيمان المجرب الواثق، أن لا أحد يستطيع أن يصبر على طعام واحد ولو كان هذا الطعام منزلاً من الجنة. فما بالكم بطعام لا مذاق له أصلاً وتتخلله فوق كل هذا أشياء غريبة لا يصدقها كل ذي لب سليم: قشور بيض، ومسامير مختلفة الأحجام، وخيوط قنب، وكاغيد أكياس الإسمنت، وأسنان مشط، وسيور أحذية، وأبازيم أحزمة مع كمية دائمة من الحصى الذي قضى في النهاية على جل أسناننا قضاء مبرماً. كل هذه القائمة العجيبة مع تمنيات متهكمة للمساعد السفاح (بن دريس) كان يقولها لنا برنة صوته الأخن وهو يقفل الباب:

ـ شهية «مفتحة» آ لخوت..

أما في ما يتعلق بالفاكهة، فقد أكلنا منها ما يقرب من خمسين مرة إما مندرينة أو برتقالة صغيرة نصف يابسة أو تفاحة مسوسة.

وذات يوم مشهود، رجع الحراس على حين غرة وكانوا قد انصرفوا قبل حين بعد أن ناولونا الغذاء، ثم شرعوا يفرقون علينا «القازوزة» من الإناء الذي اعتادوا أن يأتوا لنا فيه بالأكل.. مغرفة لكل واحد منا.. كانت بمثابة مائدة نزلت علينا من السماء. وقد كانت المناسبة ترقية الحراس جميعاً في عيد من الأعياد الوطنية. وكما أن المسيحيين بدأوا عد تاريخهم من يوم ميلاد المسيح عليه

السلام، والمسلمون بدأوا عده من يوم هجرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، بدأنا نحن نعد تاريخ تزممارت بما قبل «القازوزة» وما بعدها..

المساعد الأول (لاجودان شاف) أحمد خربوش رجل فاضل

حين أرجع بذاكرتي إلى الوراء، أجد بأن الأشهر الثلاثة الأولى التي قضيناها في معتقل تزممارت، كانت من بين الفترات الأقل محنة وعذاباً، وذلك بسبب عاملين اثنين: الأول هو أن التغذية كانت مقبولة كما رأينا، والثاني هو المعاملة الحسنة لرئيس الحراس لنا، الشيء الذي دفع باقي الحراس إلى تقليده وهم يعتقدون أن مقامنا في تلك القبور لن يدوم إلا قليلاً. لقد كان أحمد خربوش ضابط صف برتبة مساعد أول. رجل مربوع القد، مكتنز الجسم، كان وقتئذٍ قد جاوز الستين بقليل، تفيض عيناه الضاحكتان أبداً بطيبوبة أبوية عميقة. ساهم كثيراً في التخفيف عنا من خلال مبادرات إنسانية شجاعة كانت تتمثل في ترك النويفذات مفتوحة علينا ومدناً بما يكفينا من الماء وبكل ما فضل في المطبخ من خبز وسكر وتمر وتين. إضافة إلى أنه كان يسري عنا ويرفع من معنوياتنا مؤكداً لنا بسذاجة طفولية أن مقامنا في تزممارت لن يكون طويلاً. وقد كنا في بداية الأمر نكذب على أنفسنا ونصدقه، سيما وأن أخباراً كانت تروج حول قدوم لجنة عسكرية إلى تزممارت برئاسة الكولونيل أحمد الدليمي للبت في شأن تحويلنا من ذلك المعتقل أو لتحديد نظامه الداخلي في أسوأ الاحتمالات. وهكذا بدأنا نمني أنفسنا بالفراش، والأغطية، والكهرباء، والكتب، والزيارات، والخروج إلى الساحة من أجل التشمس، والمراسلة، إلى غير ذلك من الحقوق البسيطة التي يخولها القانون لجميع السجناء في جميع بقاع الدنيا.. ولكن هيهات هيهات.. بدأ الأمل يتقلص رويداً

رويداً، خصوصاً بعدما أصبحنا نرى من حين إلى آخر، صديقنا خربوش وهو يمسح دمعة كانت في فصاحتها تغني عن كل تعليق. ولم تمض سوى شهور قليلة حتى بدأ الزمهرير يدخل علينا قارساً شديداً عنيفاً. فهم الأذكياء منا بأن الحالة تستدعي مبادرة سريعة تتمثل في محاولة اتصال فوري بأسرنا وبالعالم الخارجي لفك طوق العزلة عنا وللتعريف بالمكان الذي دفنا فيه. فتوسموا في الرجل المتعاطف معنا خيراً، ولما اتصلوا به استجاب لهم بتلقائية وجاءهم بشمع وورق وقلم. فكتبوا رسائل إلى ذويهم أوصلها بأمانة، وعاد إليهم بأجوبة وأدوية. فكان ذلك أول اتصال بيننا وبين بعض العائلات التي عرفت مكان اعتقالنا بالتحديد. غير أن خربوش ارتكب خطأ فادحاً وهو يتعامل معنا بوجه مكشوف، جاهراً بتعاطفه وغير عابئ تماماً بنائبه المساعد الأول بن دريس الذي كان يتربص به وبنا الدوائر، فقد كان يظن من فرط سذاجته أنه صديق حميم للمدير، وأنه بالتالي في مأمن من كل خطر، سيما وأنهما كانا ينحدران من منطقة واحدة، منطقة سيدي قاسم، إضافة إلى أنهما حاربا سنين طويلة في خندق واحد تحت الراية الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الهندية ـ الصينية.

وهكذا، لما سافر خربوش للمرة الثانية إلى «الداخل» حاملاً معه رسائل جديدة إلى بعض العائلات، وشى به مساعده بن دريس، فأخبر المدير بكل ما رأى وسمع، فما كان من هذا الأخير إلا أن أخبر بدوره رجال الدرك بدون أدنى تردد. وفي طريق عودة الرجل الطيب، نصب له الدركيون كميناً وهو على متن حافلة للنقل العمومي. فأنزلوه منها، ولما فتشوا حوائجه وجدوا بحوزته قدراً مهماً من النقود مع كمية هائلة من الدواء والمقويات، من دون أن يهتدوا من حسن الحظ إلى رسائل العائلات التي ضبطها عنده الحارس الفاضل محمد

الشربداوي الذي شارك في التفتيش فغامر بنفسه وأخفاها عنده على حين غفلة من باقي المفتشين.

خضع الرجل لاستنطاقات طويلة مستنزفة، ورغم كل ما تعرض له من تهديد وتعذيب، ظل يؤكد للدركيين أن الدواء اشتراه لنفسه، وأن النقود نقوده، وأنه لو كانت له علاقة بأسر الأسرى لضبطوا الرسائل بحوزته. اعتقل في نهاية المطاف في ثكنة تزممارت، فأساء الحراس له كثيراً من دون أدنى مراعاة لكبر سنه وتدهور صحته. وبعد ستة أشهر من الاعتقال، طرد نهائياً من الجيش وأطلق سراحه لانعدام الحجج ضده. فخلفه من كاد له كيداً، المساعد الأول بن دريس بمعية المساعد الأول حميدة فريح، وكلاهما كانا عبارة عن آلة طاحنة لتنفيذ الأوامر المجرمة. وبما أن المصيبة لا تأتي عادة وحدها، فقد صادف هذا الحدث الخطير اشتداد الزمهرير بكيفية لم نعهد لها مثيلاً في حياتنا السابقة.

ومنذ تلك اللحظة بالذات، بدأت سنوات الرصاص في تزممارت تحت شعار: «لا رحمة، ولا شفقة». وهو شعار عزيز على من عمل في طوابير «الكوم». (وكان بعض منهم ضمن تشكيلة حراسنا). لقد ضحى المدير برفيق عمره في طرفة عين ليضرب بذلك المثل لجميع الحراس. وزاد على ذلك فشحنهم شحناً، وزرع بينهم العداوة والبغضاء، فسلّط بعضهم على بعض ليتحارسوا وليتنافسوا في البطش والقسوة درءاً لشبهة التعاطف معنا. وكأن ذلك كله لم يكفه، فسن سنة شيطانية تقضي بتفتيشهم جميعاً في الدخول إلى العنبرين والخروج منهما..

وهكذا سدت الأبواب، وقطعت الأسباب، وأطبقت على أعناقنا في تلك الدياجير الرهيبة قبضة فولاذية لا ترحم ولا تلين..

السجناء والحراس

السجناء الثمانية والخمسون

كنا في بداية مجيئنا إلى تزممارت، كما رأينا، 58 ضابطاً وضابط صف، وزعنا على عنبرين، كل عنبر يحتوي على 29 زنزانة. كانت الزنزانة رقم 1 توجد على يمين مدخل العنبر الأول والزنزانة رقم 29 توجد على يساره. أما في العنبر الثاني. فكانت الزنزانة رقم 30 توجد على يمين الدخل والزنزانة رقم 58 توجد على يساره. وكانت الزنزانة رقم 15 والزنزانة 44 في كلا العنبرين توجدان قبالة الباب تماماً، الشيء الذي كان يجعل منهما موضعاً استراتيجياً للتصنت المستمر على أحاديث الحراس عندما كانوا يجلسون على عتبة الباب في انتظار قدوم إناء الطعام. وقد كان الدهليز الذي يفرِّق بين صفي الزنازين بمسافة مترين تقريباً مضاء بشكل ضعيف بواسطة بعض المصابيح الكهربائية الخابية التي كانت خيوطها المدلاة المغبرة وكراً لأنواع لا حصر لها من العناكب. مصابيح كانت لا تشعل إلا عند قدوم الحراس وتطفأ مباشرة بعد خروجهم.

العنبر الأول

الزنزانة رقم 1: الرقيب الثاني (السرجان) بن عيسى الراشدي، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في 29 حزيران/ يونيو 1983.

الزنزانة رقم 2: الملازم الأول (اليوطنان) محمد لغالو، حكم بعشرين سنة وتوفي في ثالث كانون الثاني/ يناير 1989.

الزنزانة رقم 3: النقيب (القبطان) عبد اللطيف بلكبير، حكم بأربع سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 4: الملازم الأول عبد العالي مدين الصفريوي، حكم بأربع سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 5: الرقيب الثاني عبد الله أعكاو، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 6: الملازم الأول التيجاني بن رضوان، حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي يوم 26 آب/ غشت 1984.

الزنزانة رقم 7: الرقيب الثاني السجعي محمد، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1977.

الزنزانة رقم 8: الرقيب الثاني محمد العفياوي، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 9: الملازم الثاني (سو ليوطنان) عبد الكريم الساعودي، حكم بأربع سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 10: الملازم الثاني أحمد المرزوقي، حكم بخمس سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 11: الملازم الثاني إدريس أشبرق، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 12: الملازم الأول محمد آل الزموري، حكم بعشرين سنة سجناً.

الزنزانة رقم 13: الرقيب الثاني أحمد بوحيدة، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 14: المرشح (الأسبران) محمد الرايس، حكم بالمؤبد.

الزنزانة رقم 15: الملازم الأول مبارك الطويل حكم بعشرين سنة سجناً.

الزنزانة رقم 16: الملازم الأول محمد منصت، حكم بـ 12 سنة سجناً.

الزنزانة رقم 17: النقيب أحمد الوافي، حكم بعشر سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 18: المساعد الأول (لاجودان شاف) المفضل الماكوتي، حكم بعشرين سنة سجناً.

الزنزانة رقم 19: الملازم الثاني عبد الرحمان صدقي، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 20: الرقيب الثاني لحسن أوصياد، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 21: الرقيب الثاني العربي أزيان، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 2 كانون الثاني/ يناير 1980، فسكن في زنزانته إدريس الدغوغي الذي قدّم من العنبر الثاني سنة 1981.

الزنزانة رقم 22: الرقيب الثاني عقا المجدوب، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 23: المساعد الأول الجيلالي الديك، حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي يوم 15 أيلول/ شتمبر 1980.

الزنزانة رقم 24: الرقيب الثاني امحمد بوعملات، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 25: الملازم الثاني محمد المجاهد، حكم بأربع سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 26: الرقيب الثاني ميمون الفاكوري، حكم بثلاث سنوات سجناً وانتحر يوم فاتح حزيران/ يونيو 1990.

الزنزانة رقم 27: النقيب محمد غلوم، حكم بخمس سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 28: الرقيب الثاني موحا بيطي، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في شهر آذار/ مارس 1984.

الزنزانة رقم 29: النقيب صالح حشاد، حكم بعشرين سنة سجناً.

العنبر الثاني

الزنزانة. . الملازم الأول محمد الشمسي، حكم بثلاث سنوات سجناً وكان أول ضحية في معتقل تزممارت، توفي يوم 22 شباط/ فبراير من سنة 1974.

الزنزانة. . الملازم الثاني عبد العزيز بين بين، حكم بعشر سنوات سجناً.

الزنزانة. . الملازم الأول عبد السلام حايفي، حكم بعشرين سنة سجناً وتوفي في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1989.

الزنزانة. . الرقيب الأول عبد العزيز عبابو، حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي يوم فاتح أيلول/ شتمبر 1978.

الزنزانة. . الرقيب عبد السلام الرابحي، حكم بثلاث سنوات سجناً ونقل إلى العنبر الأول سنة 1981 حيث توفي في الزنزانة رقم 1 شهراً بعد ترحيله.

الزنزانة. . المساعد محمد العايدي، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 20 شباط/ فبراير 1978.

الزنزانة. . الرقيب رابح البتيوي، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 24 نيسان/ أبريل 1977.

الزنزانة. . الرقيب قاسم القصراوي، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 19 كانون الأول/ دجمبر 1979.

الزنزانة. . الرقيب علال مهاج، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 9 كانون الأول/ دجمبر 1977.

الزنزانة. . الرقيب علال الهدان، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في السنوات الأولى من مجيئنا إلى تزممارت.

الزنزانة. . الرقيب الأول إدريس الدغوغي، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة. . غاني عاشور، حكم بالمؤبَّد.

الزنزانة. . النقيب عبد الحميد بندورو، حكم بعشر سنوات سجناً وكان آخر ضحايا تزممارت، حيث توفي يوم 5 آذار/ مارس 1991.

الزنزانة رقم 30: المساعد (لاجودان) اعماروش كويين، حكم بعشر سنوات سجناً وتوفي يوم 12 شباط/ فبراير 1978.

الزنزانة رقم 44: المساعد الأول محمد أبو المعقول الملقب بالخضير، حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي يوم 21 نيسان/ أبريل 1978.

الزنزانة رقم 45: الملازم الثاني محجوب الياكدي، حكم بعشرين سنة سجناً وتوفي يوم 12 شباط/ فبراير 1978 في اليوم نفسه الذي توفي فيه اعماروش الكويين.

الزنزانة رقم 46: الرقيب الثاني عبد الكريم الشاوي، حكم بثلاث سنوات ونقل إلى العنبر الأول سنة1981 بعد قدوم الإخوة بوريكات.

الزنزانة رقم 47: الرقيب الثاني أحمد الرجالي، حكم بثلاث سنوات سجناً ونقل إلى العنبر الأول سنة 1981.

الزنزانة رقم 48: الرقيب الثاني محمد كينات، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم فاتح كانون الأول/ دجمبر 1974.

الزنزانة رقم 49: الرقيب الأول عبد الله الفراوي، حكم بثلاث سنوات سجناً ونقل إلى العنبر الأول سنة 1981، ثم أعيد إلى العنبر الثاني سنة 1983 حيث توفي في السنة نفسها.

الزنزانة رقم 50: الملازم الثاني عبد العزيز الداودي، حكم بعشر سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 51: الرقيب التهامي ابونسي، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 13 كانون الثاني/ يناير 1977.

الزنزانة رقم 52: الرقيب بوشعيب سكيبا، حكم بثلاث سنوات سجناً.

الزنزانة رقم 53: الرقيب الأول محمد عبد الصادقي الملقب بمنولو حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي في سنة 1983.

الزنزانة رقم 54: المساعد الأول رشيد لمين، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي سنة 1984.

الزنزانة رقم 55: الملازم الثاني موحا بوتو حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم فاتح آذار/ مارس 1968.

الزنزانة رقم 56: الملازم الثاني محمد الكوري، حكم بـ 12 سنة سجناً وتوفي يوم 6 شباط/ فبراير 1977.

الزنزانة رقم 57: الرقيب ادريس بحباح، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي يوم 26 كانون الثاني/ يناير 1976.

الزنزانة رقم 58: الملازم الثاني بوجمعة أزندور، حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي سنة 1986.

كانت كثرة الوفيات في العنبر الثاني، وقدوم الأفارقة السود، ثم قدوم الأخوة بوريكات بعدهم، واختناق قنوات الصرف، أسباباً جوهرية في كثرة تنقل الأسرى من زنزانة إلى أخرى، الشيء الذي جعل تحديد كل سجين في زنزانة معيّنة أمراً شبه مستحيل. كما يلاحظ بجلاء أن الفرق الواضح بين حصيلة الوفيات في العنبر الأول، وهي سبع ضحايا مقابل ثلاث وعشرين في العنبر الثاني، لم يكن من قبيل الصدفة، وإنما كان السبب الرئيس راجعاً حسب رأينا إلى تواجد خمسة عشر ضابطاً في العنبر الأول، منهم أربعة نقباء، مقابل تسعة ضباط في العنبر الثاني من بينهم نقيب واحد مما يؤكد أن التراتبية أدَّت في صفوفنا دوراً حاسماً في السنين الأولى، حيث سهلت علينا الحفاظ على انضباط أحسن والوصول بالتالي إلى تنظيم أجود.

الجلادون: المدير والحراس

ستكون هذه اللمحة غير مكتملة إذا تفادينا الحديث عن الحراس الخمسة عشر الذين أذبنا ونحن بين مخالبهم معين شبابنا. ومن الأشياء التي تثير الانتباه منذ الوهلة الأولى أن هؤلاء مع مديرهم لم يُستبدلوا بغيرهم طول مدة مقامنا في تلك الربوع الجهنمية، اللهم إلا من بعض الاستثناءات القليلة التي كان مردها إلى الموت وإلى أمور أخرى لم نجد لها تفسيراً. وقد يتصور المرء أن هؤلاء الآدميين الذين أُرغموا على مزاولة هذا العمل الوحشي لم يكونوا ينتظرون إلا أدنى فرصة عارضة للابتعاد أقصى ما يمكن عن تلك الربوع القذرة. ولكن الذي حصل هو العكس تماماً. وليس صعباً على أي كان أن يدرك السبب، فالإدارة السخية الخبيرة عرفت كيف تغدق عليهم من نِعَمها السابغة، إذ عدمت إلى مضاعفة رواتبهم وتمتيعهم بامتيازات عديدة، كان من أهمها السكن المجاني وكثرة الإجازات مع وفرة المنح.

إضافة إلى هذا، فالجلادون البيروقراطيون الذين كانوا يوجهون القمع من وراء كراسيهم الوثيرة، كانوا يدركون أن تغيير هؤلاء بآخرين سيضاعف من مخاطر التسريبات وسيؤدي حتماً إلى إماطة اللثام عن وجوههم المقنعة. أجل، لقد كان سكان قرية تزممارت الصغيرة على دراية تامة بوجود أسرى في الثكنة، ولكن لا أحد منهم كان يجرأ على تحريك لسانه ببنت شفة يقيناً منه بأن ذلك معناه نهاية أجله. في مقابل هذا، كان المشرفون على السجن يعلمون أن معلومات غامضة كانت تشربها من حين إلى آخر ألسنة بعض جنود الفوج الحادي عشر الذي كان يتكلف بحراستنا. وقد كانوا يغضون الطرف عن ذلك متعمدين أن يشيع الرعب في صفوف الجيش.

لنرجع إلى حراسنا لنقول إن جلهم كانوا أميين غلاظ القلب لا يعرفون سوى لغة الحديد والنار. ورغم ذلك، فقد نسجت السنون الطويلة بروتينيتها القاتلة حميمية غريبة بيننا جعلتنا نجتهد في دراسة مكامن الضعف في بعضهم والتقرُّب إليهم ثم إرشائهم ليكونوا في نهاية المطاف همزة وصل بيننا وبين العالم الخارجي. وسنتطرق لاحقاً إلى مختلف الأساليب والحيل التي التجأنا إليها لاستمالة هذا وشراء صمت ذاك والحفاظ على حياد آخر. غير أن مخلوقاً واحداً ظل ثابتاً على شره كالصخر الجلمد الذي لا ينال منه حر ولا زمهرير: إنه مدير السجن، اليوطنان كولونيل محمد القاضي.

محمد القاضي، مدير السجن

طويل القامة، نحيفها، متين البنية نسبياً بالنظر إلى سنه الذي كان يجاوز السبعين. في رأسه صلع خفيف، ويميّز وجهه اليابس الذي كان يبدو وكأنه منحوت من صخر، شفتان رقيقتان حادتان أطبقتا على بعضهما كشفرتي حلاقة. أما عيناه فكانتا صغيرتين تقدحان شراً وخبثاً

من وراء نظارات كلاسيكية مخيفة. ازداد (وُلِدَ) في بداية العشرينيات بناحية سيدي قاسم وانخرط في صفوف الجيش الفرنسي برتبة جندي بسيط، فأُلقي عليه القبض ـ على حسب زعم بعض الحراس ـ من طرف النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم التحق بالجيش الملكي إبان الاستقلال برتبة ملازم ثان في وقت كان فيه المغرب يفتقر كثيراً إلى الأطر المسيرة، ثم أحيل على التقاعد برتبة قبطان سنة 1971.

وفي سنة 1973، ارتأى الكولونيل الدليمي، ـ أشهر مواطن في مدينة سيدي قاسم، والمتورط إلى العنق في قضية اختطاف وتصفية المعارض بن بركة ـ أن محمد القاضي يتوفر على جميع الشروط اللازمة لكي يكون على رأس معتقل سري من حجم تزممارت. فهو من جهة، ينتمي إلى فئة الصم البكم العمي من الأميين الذين لا يمضون الوثائق إلا ببصمات إبهامهم، ومن جهة أخرى، فهو يجمع إضافة إلى التبعية المطلقة لولي نعمته، جشعاً مفرطاً وسادية لامتناهية. ولم نكن نشك طبعاً أنه تلقى تعليمات صارمة ليسيمنا سوء العذاب وليخضعنا لموت ممنهج بطيء. وبعبارة أخرى، فقد أعطيت له جميع الصلاحيات ليفعل بنا ما يشاء، بشرط أن تكون نهايتنا نهاية منكرة.

قدم في إحدى المرات إلى العنبر الأول ونحن نضرب على الأبواب مطالبين الحراس بإسعاف رفيق لنا كان في حالة خطرة، فصاح فينا مغتاظاً:

ـ اضربوا، اضربوا أيها الأنذال، فسترون قريباً من منا سيسحق الأول، أأنا أم أنتم!

في السنين الأولى، كان دائم الحضور في السجن، يجمع الأخضر واليابس بجشع كان يستنكره حتى الحراس أنفسهم. فقد كانت الميزانية المخصصة للسجن والسجناء تذهب كلياً إلى جيبه ولا يبقى لنا منها سوى الفتات. وطوال السنوات الثلاث الأولى حرمنا من

اللباس ومن الغطاء إطلاقاً إلى حد أصبحنا فيه حفاة عراة نستر عوراتنا بأيدينا كلما انفتح علينا باب الزنزانة. ثم انتقل إلى التغذية البئيسة التي كنا نطعمها فقلصها إلى أقل من النصف، بحيث إننا كنا نأخذ ما يقارب عشرين غراماً من الخبز في الفطور وضعفهما في الغذاء والعشاء. وبما أننا كنا نأكل نظرياً الوجبة نفسها التي كان يأكلها الجندي البسيط في الفوج الحادي عشر الذي كنا تابعين له، فقد أصدر أوامره إلى الحراس لحذف السلاطة والفاكهة مع قطعة اللحم الهزيلة التي كان مطبخ الفوج يرسلها لنا بكيفية مستمرة. فدأب هو على اختلاسها بانتظام في الساحة الداخلية للسجن بعيداً عن أنظار الرقباء. ولم تقف دناءته عند هذا الحد، بل تعداها إلى السطو على البنزين والحطب وكل ما يمكن بيعه في أسواق الناحية. وكان مسك الختام أن جعل من الساحة الداخلية للسجن، ـ التي كان يرقد تحت ثراها أصدقاؤنا الراحلون ـ حظيرة لعشرات من رؤوس الأغنام والمعز والدجاج والديك الرومي التي كانت تسمن من ميزانية السجناء وتُباع في الأسواق.

وهكذا، ومع مرور السنين، استطاع أن ينمي ثروة لا بأس بها، مكنته من تشييد فيلا جميلة في الحي العسكري في مدينة مكناس، وشراء ضيعة وأراضي، واقتناء سيارة فاخرة له وأخرى لأحد أبنائه. ـ وبما أن زوجة واحدة لم تعد تملأ عينيه، فقد تزوج امرأة ثانية على غرار ما يفعله الجاحدون من المستغنين بالمال الحرام. ورويداً رويداً، أخذ يتغيب كثيراً عن السجن، سيما بعد أن توفي العديد منا ولم يحرك المسؤولون ساكناً. فقد كان يقضي سحابة يومه وقطعاً من ليله في حاناته مدينة مكناس، يحتسي الخمر مع ندماء من طينته ويشبع غرائزه البهيمية الشاذة بعطش أهوج، مكتفياً بإصدار أوامره إلى الحراس بالهاتف.

وفي المرات القليلة التي كان يضطر فيها للمجيء إلى السجن، كان يوكل إلى الحارس عبد السلام، الملقب بالوزة، أمر تنظيم سهرات ماجنة، كان يستدعي إلى إحيائها مومسات وغلماناً. لقد كانت قسوة القاضي علينا قسوة مجانية، إذ كان لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا استعملها لأذايتنا. وقد سبق لي شخصياً أن اكتويت بشرارة من ناره. فقد حدث ذات مرة ونحن في السنة الأولى من مجيئنا إلى تزممارت أن أصبت بالتهاب حاد في أحد ضروسي. فانتفخ وجهي واشتد بي الألم إلى حد كنت فيه أنطح الجدار برأسي وأصرخ في وجه الحراس مطالباً بكلاب أخلع به الضرس الملعون. وحيال صمتهم المطبق، ثارت ثائرة أصدقائي فأخذوا يخبطون على الأبواب مطالبين بإسعافي فوراً. وعكس ما كنا ننتظر، حرمنا المدير من الماء والطعام أربعة أيام متتالية، وقد كان الفصل شتاء فتضاعفت بذلك محنتنا. وفي اليوم الخامس، قدم الحراس وقد كنت فاقد الوعي من كثرة الإنهاك، وأخبرونا بأن المدير يتوعدنا بمعاقبة جماعية إن طالب أحدنا منذ ذلك اليوم بشيء. لقد سن سنة إجرامية كانت تقضي بمؤاخذة الجميع «بذنب» الواحد، الشيء الذي قيد أيدينا وجعلنا نؤثر الاستسلام على فعل أي شيء قد يتسبب في التعجيل بوفاة أصدقائنا المرضى.

في الشهور الأولى من قدومنا إلى تزممارت، قدم عنده حارس وأخبره بأن أحدنا يوجد في حالة خطرة قد يلقى فيها الموت إن لم يسعفه على وجه السرعة، فأجابه القاضي ببرودة دم القتلة المحترفين:

ـ من الآن فصاعداً لا تخبروني إلا بموتهم إن ماتوا، أما مرضهم فلا يعنيني في شيء.

هذه إذاً نبذة موجزة عن الشخص الذي أكد لنا عنه بعض الحراس أنه كان كلما مات أحد منا، أخذ الهاتف وركب رقماً سرياً

ليقول لشخصية نافذة مجهولة: «تهرست واحد كُوكوا..» (تكسرت قنينة من كوكاكولا).

فيجيبه مخاطبه من الرباط:

ـ ارْمِ الشّقُوفا.. (تخلص من الشظايا).

سنتان قبل انتشالنا من تزممارت، رقي القاضي إلى رتبة ليوطنان كولونيل، ووشح صدره بوسام مهم اعترافاً له بالخدمات الجليلية التي قدمها للوطن.

رؤساء الحراس

المساعد الأول أحمد شهبون، الملقب بـ (السلك)

كان الحراس ينادون عليه باسم بن دريس، وقد كان بدون منازع واحداً من أقسى الحراس وأخبثهم إطلاقاً في تزممارت. وليس من قبيل الصدفة أن يظل هذا الرجل الذي توفي في سن الخامسة والستين بسرطان الكبد سنة 1989 نائباً للمدير طوال ست عشرة سنة.

ازداد بن دريس في قبيلة الحياينة بنواحي مدينة فاس، واشتغل راعياً للغنم قبل أن ينخرط في سلك الجندية، وقام بتدريبات متكررة في مدرستي أهرمومو وصفرو وهو برتبة رقيب، (سرجان) الشيء الذي جعله يتعرف إلى بعض من مدربيها القدماء الذين سترمي بهم الأقدار في تزممارت. كان رجلاً قصير القامة، ذا شعر فاحم أملس ووجه مربع بوجنتين بارزتين وعينين صغيرتين مشدودتين من الأطراف، ولولا بشرته الدهماء المائلة إلى ذلك السواد الوسخ، لتعذر تمييزه عن الآسيويين. وقد كان خبيثاً منافقاً وسادياً فأطلقنا عليه لقب «السلك» لأنه كان يجد نشوة كبيرة في غلق نويفذات الزنازين بخيوط الأسلاك الشائكة لكي نظل دائماً في الظلام المطبق. وكنا طبعاً نسعى إلى

فتحها بكل الوسائل المتاحة لدينا لكي نحافظ على تلك الرقعة الصغيرة من الضوء الخافت المنبعث من الدهليز الذي لولاه لما بقي لنا بصر. كان الحراس كلما فرغوا من تفريق الطعام علينا، تفقد السلك أبواب الزنازين واحداً واحداً، مركزاً بصفة خاصة على النويفذات، حتى إذا ما أطمأن إلى إغلاقها بإحكام، توجه إلى مدخل العنبر وقال لنا بصوته الأخن الذي يقطر سماً ونفاقاً: «شهية مفتحة آلخوت..».

وذات مرة قلّده الملازم محمد منصت معتقداً بعد إغلاق الباب أن السلك قد انصرف، فضغط على الحروف بشدة مبالغاً في إخراجها من الأنف لكي يضحكنا:

ـ شهيّة مُفتحة آنخُوت..

ففوجئنا بالباب يفتح على حين غرة، وبالسلك الذي كان يتنصت علينا يدخل إلى العنبر ويهتف فينا وهو يضغط على أسنانه من شدة الغيظ:

ـ ياكو.. أنا زعما كنتمنا ليكم شهية مفتحة، ونتوما كتعوجو الهدرا ديالي.. إوا دابا نوريكم شهية مفتحة آلخوت شكاتسوا..

وقد حدثت لنا مع السلك طرفة لا زال كل واحد منا يحفظها في ذاكرته إلى اليوم:

في أواخر الثمانينيات، جاء مرة بمفرده إلى العنبر وشرع في فتح الزنازين واحدة تلو أخرى ليضع كل سجين صحنه على الأرض. ولما وصل إلى زنزانة ميمون الفاكوري الذي كان وقتئذٍ فاقداً لعقله، انقض عليه هذا فجأة انقضاض النمر المجروح، فأمسك خصيتاه بكلتا يديه وظل يضغط عليهما بكلِ ما وهبه اليأس والكراهية من قوة، و«السلك» يصرخ في الدهليز من شدة الألم صراخ عجل يساق إلى المذبحة. لقد كان مشهداً مثيراً وممتعاً في آن واحد، انتقم لنا فيه صديقنا وأضحكنا

من الأعماق وإن كان قد أدى الثمن بعد ذلك ضرباً مبرحاً. وبعد أسبوع من الغياب داوى فيه «السلك» ضرره، رجع إلى ميمون وهو يمشي مشية البطة فقال له:

ـ لقد كنت على وشك تيتيم أبنائي أيها الملعون، والمصيبة العظمى هي أنك لو كنت قد قتلتني لذهبت روحي هدراً لأنك ميت بقتلي أو بعدمه، كما لو كنت قد قتلتك أنا فلن يجديني ذلك شيئاً لأنك محكوم هنا بالقتل. وفي كلتا الحالتين فسأكون أنا هو الخاسر لا أنت...

المساعد الأول حميدة فريح الملقب بـ (فوكسطروط)

رجل ضخم الجثة، متين البنية، ذو وجه أبيض محمر أبداً كوجه طفل شبعان. وقد كانت تصرفاته الصبيانية تظهره لنا فعلاً كطفل كبير في الستين من عمره. أطلقنا عليه لقب فوكسطروط لأن حرف الفاء الذي يبتدأ به اسمه يقابله بلغة المورس العسكرية: فوكسطروط.

كان فوكسطروط هذا النائب الثاني للمدير، وقد كان مثله أمياً لا يعرف من الحياة سوى تنفيذ الأوامر البليدة بميكانيكية. ازداد في أحد مداشر قبيلة البرانص الواقعة في ضواحي مدينة تازة، فانخرط في الجيش الفرنسي جندياً بسيطاً ثم أدمج في صفوف الجيش الملكي سنين بعد الاستقلال برتبة مساعد، واشتغل طويلاً في مدرستي أهرمومو وصفرو إلى يوم محاولة الانقلاب، مما يعني أنه عاشر جل الضباط وضباط الصف الذين رمت بهم الأقدار في تزممارت. وهذا الأمر لم يكن يحرجه في شيء، علماً بأنه كان من الممكن أن يكون معنا في الورطة نفسها لولا حظه السعيد الذي جعله يتخلف عنا لسبب طارئ.

لقد ظل فريح معنا طوال ست عشرة سنة ينفذ الأوامر المجرمة

ببلاهة مطلقة، عاجزاً كل العجز على أخذ أدنى مبادرة لصالحنا. وقد كان من بين الحراس الذين استحال علينا إرشاؤهم إطلاقاً أو التوصل إلى استدرار رحمتهم. إضافة إلى كل هذا فقد كان يتميّز بشره وحشي للطعام كان يدفعه في كثير من المرات إلى الجلوس القرفصاء على عتبة باب العنبر والشروع في التهام طعام السجناء الهزيل بضمير مرتاح، حتى إذا ما أتى عليه، تجشأ بصوت عال كخنزير متخم، ثم استغفر الله وانصرف..

هذا الفظ القاسي الغليظ، ـ بشهادة رفقائنا في العنبر الثاني ـ كان له ضلع كبير في مقتل المساعد محمد العايدي. فقد مرّ على المرحوم وقت طويل وهو يعيش في زنزانة فاض فيها الماء الحار بعد اختناق قنوات الصرف في المرحاض، فلما توسل إلى فريح أن يرحله إلى زنزانة أخرى فارغة، أبى عليه ذلك علماً بأن الأمر لم يكن يكلفه شيئاً. فصاح العايدي مرة متوجهاً إلى أصدقائه وهو في أوج محنته:

ـ أيها الأصدقاء! إن قتلت، فاخبروا أسرتي بأن قاتلي هو حميدة فريح..

هذا الجلاد الثري، يعيش اليوم قرير العين في مدينة مكناس. وقد التقى به أحد أصدقائنا مرة وهو خارج من المسجد بعد صلاة الجمعة، فقصده فريح وعانقه بدون حياء ثم قال له وهو يفتعل التحسر:

ـ لقد تعذبتم كثيراً يا رفيقي وأنا جد مسرور للإفراج عنكم.

الحراس

السرجان باغازي الملقب بـ «السرخينطو»

كان السرخينطو، وهي كلمة تعني «السرجان» باللغة الإسبانية،

يشكل مع الثلاثي السابق الذي أحد أكثر الجلادين قسوة وفضاضة وخبثاً. ازداد على حسب ما قِيل لنا في سنة 1935 في نواحي مدينة ميدلت، وكان قصير القامة غليظاً أبيض مدكوكاً ككيس من الإسمنت، تتميّز قسمات وجهه بعينين صغيرتين قويتين وأنف حاد معقوف من الأسفل كمنقار عقاب. ومما كان يزيد وجهه بشاعة، ندب كبير تحت عينه لا نشك في أنه كان ذكرى سعيدة لمبارزة ممتعة بالخناجر. كان السرخيطو سليط اللسان، دائم السخرية من السجناء، بارعاً في إيجاد الأجوبة اللاذعة التي كان يطلقها فيضحك عليها بقهقهة مجلجلة. وقد كان في بعض المرات، كلما أراد أن يسلي نفسه، صحب معه إلى العنبر أحد أصدقائه العسكريين، حتى إذا ما دخلا إلى الدهليز، غمز السرخينطو الحراس فيعمدون إلى رفع الزائر في الهواء فاتحين باب زنزانة كان يسكن فيها سجين بلحية طويلة وشعر كثٍّ غزير منسدل على الظهر والأكتاف، وقد كان فاقداً لصوابه من قديم، فيدخلوه إليها معه ثم يتظاهرون بإغلاق الباب عليه، بينما يشرع السرخينطو في إطلاق ضحكاته الملعلعة قائلاً لرفيقه متهكماً:

ـ تريد أن ترى «بوعو» فها هو ذا بوعو..

سأله أحدنا مرة عودَ ثقاب لقتل عقرب لدغته في ظلام الزنزانة فأجاب:

ـ مسكين.. عضتك عقرب؟ صدقني.. لو لم تؤذها لما آذتك.

ظل السرخينطو معنا على هذا الحال من أول يوم في تزممارت إلى آخر يوم فيه.

السرجان مولاي سعيد أو «مايك سييرا»

كنا نسميه فور قدومنا إلى تزممارت بالمرموشي لأنه ينحدر من قبيلة مرموشة الواقعة في نواحي مدينة تازة. ثم أطلقنا عليه بعد ذلك

لقب مايك سييرا لأن حرفي الميم والسين اللذين يبتدئ بهما اسمه يقابلهما بلغة المورس العسكرية، مايك وسييرا. منذ عرفناه وهو يواظب على عادة سيئة لزمته ولزمها حتى أصبحت طابعه المميز. فكان لا يمكن أن تراه إلا وسبابته الغليظة مدسوسة في أحد ثقبي أنفه، يحركها شمالاً ويميناً بحثاً عن المخاط اليابس الملتصق في خرطومه الكبير. كان طويلاً بديناً أسمر اللون بوجه ممتعض دائماً كوجه من استقبح الدنيا فاستقبحته. هذا الوحش الآدمي، لو أطلقنا عليه كل الأوصاف الذميمة لما استوفيناه حقه. فهو في عبارة وجيزة، مخلوق وجد ليكره ويعذب. كان يناهز الأربعين غداة قدومنا إلى السجن. ومنذ البداية أدركنا بيقين عميق أن حياتنا معه ستكون جحيماً لا يطاق. وفعلاً لم يخطئ حدسنا لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا استعملها لأذايتنا أذيَّة مقصودة متعمدة كانت تنبع من قلب يكره الجنس البشري إلى حد المقت.

حدث ذات مرة في سنة 1983 أن سب المرحوم الراشدي بن عيسى الذي تباطأ بإخراج صحنه وقد كان يشكو من مرض عضال، فقال له:

ـ هيا حطصحنك على الأرض أيها الحمار!

فما كان من بن عيسى إلا أن رد عليه سبته بأسوأ منها:

ـ لا أعتقد أنه يوجد حمار في الدنيا أكبر من أبيك.

فجن جنون مايك سييرا وأخذ هراوة مكنسة كانت في الدهليز ثم استعان بخدمات لاجودان مولاي علي، ودخلا على المسكين بن عيسى، وكان من شدة مرضه وهزاله يبدو كمومياء محنطة، فظلا يضربانه ضرباً وحشياً مبرحاً كنا نسمع وقعه مباشرة على عظامه كخبط عنيف على الزنك. ومنذ ذلك اليوم، ازدادت صحة بن عيسى تدهوراً إلى أن لاقى ربه شهوراً قليلة بعد ذلك. وإضافة إلى الضرب المبرح

الذي أوسعه به، فقد عاقب مايك سييرا بن عيسى بحرمانه من الماء والطعام خمسة عشر يوماً. وسنتطرق بإسهاب إلى هذه الواقعة الوحشية لاحقاً. وقد سبق لرفيق في العنبر الثاني أن رد السبة بمثلها لمولاي علي فأغاظ ذلك مايك سييرا وقال لزميله حانقاً:

ـ ماذا تنتظر أيها البليد؟ اذهب واقتله، وأنا أشهد لك بأنه مات بالكيفية التي مات عليها رفقاؤه.

السرجان شاف عبد السلام، الملقب «بالوزة»

سميناه بالوزة لأن صوته كان حاداً ملعلعاً يخرج من أعماق الحنجرة على شاكلة أصوات البط والوز. وقد كان طويلاً قوياً يقارب الخامسة والخمسين من عمره غداة انتشالنا من تزممات، يميزه وجه دميم كان يشبه إلى حد كبير وجه «بولدك». ولكن هذا الوجه على دمامته كان يشرق بسحر غريب كلما تهللت أساريره وابتسم. وقد فطن المدير إلى مواهبه الكبيرة في مجال القوادة فاستغلها خير استغلال وأوكل إليه أمر إشباع غرائزه. أظهر عبد السلام الوزة نوعاً من التعاطف معنا في البداية، وذلك بمد بعض منا من المدخنين بلفائف السجائر وعود الثقاب، ولكن بعد إلقاء القبض على المساعد الأول خربوش، تحجر قلبه وأصبح فظاً وقحاً غليظاً.

السرجان شاف محمد بوكبش المقلب بـ «البيليي»

كان في البداية يعمل مسخراً في العنبرين. وكانت مهمته الأولى هي تفريق الطعام علينا. ولكن بعد التفتيش الرهيب الذي حصل في سنة 1982 والذي برز فيه بشكل لافت، عينه المدير حارساً رسمياً. كان في الخامسة والخمسين من عمره تقريباً غداة الإفراج عنا من تزممارت. وقد كان مربوع القد، أسمر اللون، متين البنية، خفيف

الحركة، يتميّز بنظرات ثاقبة وقسوة لامتناهية. وقد حدث ذات مرة أن لامه أحدنا على تنفيذه الحرفي لأوامر المدير، فأجابه متبجحاً:

ـ أقسم لك بالله لو أن أبي كان متورطاً معكم وأُعطي لي أمر بقتله لقتلته بدون أدنى تردد، الأوامر هي الأوامر.

ينحدر بوكبش من أحد المداشر في نواحي مدينة تازة. وقد لقبناه بالبيليي كترجمة بالفرنسية لاسمه الذي يعني أبو الكبش. أساء كثيراً إلى العديد منا، وكان له معنا تصرف وقح يتميز بالتهكم اللاذع على شاكلة السيرخينطو الذي لا نشك في أنه كان به معجباً. تمكن بعض الأصدقاء في نهاية مقامنا بتزممارت من إرشائه، فقام بربط سلسلة من الاتصالات الحاسمة مع بعض من أسرنا.

السرجان شاف علي الصحراوي الملقب بـ «الباش»

سميناه بالباش، لأنه عين حارساً في الوقت الذي فاز فيه الرئيس بوش في الانتخابات الرئاسية الأميركية، فقلبنا واو بوش ألفاً ليصبح باشا. هذا المخلوق الوضيع برهن بقوة أنه ليس من الضروري أن يكون الحارس في تزممارت أمياً وأن يقضي في ذلك السجن وقتاً طويلاً لكي يصبّح وحشاً ضارياً. فقد استبشرنا خيراً بقدومه عندنا في سنة 1987 لا سيما بعد أن علمنا أنه أكبر «مثقف» في الحراس. فقد كان شاباً صغيراً لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وكان مستواه الدراسي على حسب ما قِيل لنا، السادسة ثانوي، وهو ما كان يعتبره جميع الحراس قمة العلم والمعرفة المستوجبة للتقدير والحسد. ولم تمضِ سوى أسابيع قليلة حتى أسفر لنا عن قلب هو كالحجارة أو أشد قسوة. فقد كان معتدل القامة ممشوقها داكن السمرة، مفتول العضلات، يابس القسمات، يميّزه أنف أفطس كأنوف الملاكمين السود. وقد كان أحب شيء لديه هو إثارة إعجابنا وخوفنا باستعراض

عضلاته المثيرة أمام هياكلنا العظمية المسوسة. فقد حدث ذات مرة أن تعذر على رفيق لنا الوصول إلى الباب لأخذ طعامه وقد كان مريضاً منهوك القوى، فقال له الباش وهو يطحن غيظه بأسنانه:

- حتى وإن لم يبقَ لك سوى «قائم» واحد، فأنا أريدك أن تزحف إلى الباب على بطنك كالحشرة.

السرجان الماجدولي الملقب بـ «التازي» و«الشويبيني»

ينحدر من قبيلة «التسول» في ضواحي مدينة تازة، متسوط القامة، أشيب الرأس، مربع الوجه مجعده. كانت مهمته تقتصر على تفريق الماء والطعام على الأسرى إلى اليوم الذي استطاع فيه مدير السجن أن ينتزع مصلحة تغذية الأسرى من الفوج الحادي عشر، فعينه سنة 1980 لنا طباخاً. فكان ذلك بمثابة تعيين ذئب من أشرس الذئاب مسؤولاً على تغذية قطيع معزول من الغنم. فدأب منذ البداية على سرقة الأخضر واليابس وتفنن في تهييء نوع من «البيصارة» كانت تأنف عن أكلها حتى «هندا»، الكلبة الأسيرة التي اعتقلها المدير لتقاعسها في يوم من أيام الصيد. وقد ساهمت سرقاته المستمرة في إنهاكنا واستنزاف ما تبقى من قوانا. والغريب في شخصية هذا الرجل المعقد أنه كان ذا أدب جم معنا ولم يسبق له طوال سنين الأسر الطويلة أن أهان أحداً منا ولو بإيماءة أو كلمة نابية واحدة. بل أكثر من هذا، كان يستغل غياب أصحابه ليذمهم ويسبهم أمامنا مظهراً بذلك تعاطفه معنا. وقد كان كثير الكلام مع نفسه، يستغرق في «مونولوج» طويل من دون أن تكل له حنجرة أو ينضب له كلام. وإن ننسى، فلن ننسى أبداً ذلك الحوار المضحك الذي كان يحرص على إسماعنا إياه وهو يفرِّق علينا بيصارته الخالدة، جاهلاً أننا نعرف أنه هو طابخها:

ـ يا عباد الله! أهذا طعام يعطى للآدميين؟ لصوص.. والله لم يبقَ سوى اللصوص في هذا البلد.. ماذا سيقولون لربهم غداً يوم القيامة؟ سيعذبون بلا شك عذاباً أليماً..

وقد كان الشويبيني جشعاً إلى درجة أنه كان يكفي أن يلوح له أسير ما بورقة مالية لينسى نفسه وما حولها فيندفع داخلاً إلى الزنزانة كثور هيجته رقعة حمراء في حلبة لمصارعة الثيران. وقد كان جشعه هذا نعمة بالنسبة إلينا لأن القبطان بلكبير الذي كان يعرفه قبل أن تجمعهما الأقدار في السجن، استطاع أن يرشيه، فربط الشويبيني كثيراً من الاتصالات بأسرة القبطان، الشيء الذي جعله يساهم، عن غير قصد، في الإفراج عنا.

لاجودان منولاي علي الملقب بـ «الفرناتشي»

كان رجلاً قصير القامة، داكن السمرة، أصلع الرأس، يابس العود والقسمات، ينحدر من قبيلة «عريبات» القائمة في تخوم الصحراء. وقد كان عديم الشخصية، شديد التأثر مزاجاً وتصرفاً بأصحابه الذين كانوا يستغلونه للقيام بكل الأعمال الشاقة. غير أنه ـ رغم غباوته المفرطة ـ كانت تصدر عنه من حين إلى حين بعضاً من بوادر الحكمة المتناقضة إطلاقاً مع تصرفاته البلهاء. سأل مرة أحد أصدقائه وقد راعه كثرة الموت بين السجناء:

ـ قل لي يا صاحبي، ماذا تظن أنهم فاعلون بنا بعد رحيل آخر أسير في هذا السجن؟

فرد صديقه مرتبكاً وقد أخذ على حين غرة بهذا السؤال الذي لم يخطر له ببال:

ـ لست أدري.. ربما حولونا إلى سجن آخر أو أدمجونا في فوج من أفواج الجيش..

حك الفرناتشي صلعته ورد وهو يهز رأسه مشككاً في قول صاحبه:

ـ غلط.. سيقتلوننا جميعاً ويدفنوننا هنا مع الأسرى في هذه الساحة. إني أراهن على ذلك، فالبشاعة التي ارتكبت في تزممارت لا ينبغي أن يبقى عليها شاهد. هذا في رأيي هو ما ينبغي أن يكون..

أسهَم الفرناتشي في تهذيبنا كثيراً وإن كان ما اقترفه جاء بدافع التقليد لا الخبث. ولما أحس بقرب إحالته على التقاعد، انقلبت تصرفاته رأساً على عقب، فتعاطف معنا كلياً وأصبح وكأنه يسابق الزمن للتكفير عن كل ذنوبه. فلم يكن يكل من التحدث معنا ومدنا بما يكفينا من الماء وترك الأبواب مفتوحة علينا وقت تفريق الطعام إضافة إلى ربط الاتصال بيننا داخل العنبر. وعشية انتهاء مهمته في السجن، قدم عندنا بمفرده وودعنا واحداً واحداً، فعانقنا بحرارة صادقة وطلب منا الصفح والمغفرة وعيونه تفيض دمعاً. ولكن أجمل ما حفظناه عنه من تلك الذكرى المؤثرة، هو إشعاله لشمعة، ودخوله إلى زنزانة رفيقنا الراحل محمد لغالو الذي كان يعاني من شلل تام، فعانقه عناقاً ملتاعاً، وسمعناهما وهما يجهشان معاً بالبكاء.. اختلطت دموع الجلاد التائب بدموع السجين المحتضر، فندم هذا وصفح ذاك، وأنتصبت الإنسانية شامخة منتصرة في تلك اللحظة الناشزة من الزمن وهي تمسح بيدها الحانية عليهما معاً وتسخر من الجلاد الكبير الذي مات فيه الضمير. لم تمضِ سوى شهور معدودة حتى سمعنا بوفاة مولاي علي وهو في سن يناهز الثامنة والخمسين.. وقد كانت حقاً وفاة غريبة لا سيما وأنه كان يتمتع بصحة جيدة..

لاجودان حمو الملقب بـ «حمار العودات»

ينحدر من مدينة الخميسات حيث يقضي اليوم تقاعداً هادئاً

مريحاً. كان في الستين من عمره، طويل القامة، غليظ الجسم، أصلع الرأس، فاتح البشرة، وسيم القسمات. وكان أكبر ما يميّزه جشأه المستمر الذي كان يفجره من جوفه المريض كقباع خنزير متخم، إضافة إلى امتعاض دائم كان يظهر على سحنته المتعبة كإنسان حكم عليه بالنظر إلى الشمس مدى الحياة.. وقد كان يزيده امتعاضاً على امتعاضه الأصلي، رائحتنا الكريهة التي كانت تؤذيه، فكان يعمد كلما دخل علينا إلى ملء أنفه دائماً بأوراق النعناع، الشيء الذي جعله يصرف ميزانية معتبرة طوال هذين العقدين اللذين قضاهما معنا في شراء هذا النبات الطيب. كان عاجزاً عن فعل الخير، قاسياً بذيء اللسان فأطلقنا عليه ذلك اللقب الذي ناسبه كثيراً. وأطرف ذكرى احتفظنا بها عنه، هي تلك التي حدثت له مع صديقنا الزموري: كان سي محمد الزموري ضابطاً محبوباً من طرف أصدقائه، إذ كان كريماً سموحاً خفيف الروح. وكان يتميّز بالسهو الكثير والنسيان المفرط، الشيء الذي جعله يعيش في تزممارت كثيراً من الطرائف التي لا يمكن عدها في هذا الكتاب. وقد كان مرحاض زنزانته مسطحاً على نقيض مراحيض جل الزنازين التي كانت مقعرة. فدأب على وضع إناء الماء مباشرة على الثقب الضيق للمرحاض، معتقداً أن ذلك سيخفف من وطأة الرائحة الكريهة. ويستطيع المرء أن يتخيل بسرعة ماذا يمكن أن يحدث لإنسان يقضي حاجته في الظلام المطبق وفوق ثقب ضيق..

فحدث ذات صباح أن جاء «حمار العودات» متأنقاً مهندماً وهو يستعد للسفر، فارتأى أن يساعد أصدقاءه إلى حين توقيع إجازته من طرف المدير، فأخذ أنبوب الماء وشرع في ملء أواني السجناء المكدسة في مدخل باب العنبر، فاحتك سرواله من دون أن يشعر بإناء بلاستيكي أصفر. وما هي إلا لحظة حتى سمعنا الحراس ينفجرون ضحكاً على سروال حمو المكوي بعناية فائقة وهو يظهر ملطخاً

بالغائط من أسفله إلى حزامه. فلما علمنا بالخبر، سرت بيننا عدوى من الضحك الهستيري ونحن نتشفى من كل أعماقنا من ذلك الوغد. فجن جنونه وسط تلك العاصفة من الضحك، وأطلق العنان للسانه السليط وهو يبحث من دون جدوى عن صاحب الإناء.. وبما أننا نفينا جميعاً بعد وقت طويل من التساؤل والتقصي ملكية الإناء، تأكدنا أن صاحبه لن يكون إلا سي محمد الزموري الغارق دوماً في سهوه العميق. فقصده «حمار العودات» وفتح باب زنزانته وسأله:

ـ أهذا إناؤك؟

فرد الزموري ببساطة أن نعم. فقال له الحارس وقد تحولت عيناه إلى جمرتين لاهبتين من شدة الغضب:

ـ أين كنت طوال هذا الوقت؟

ـ هنا..

ـ انظر ماذا فعلت بي..

بصق الزموري في الأرض وقال لحمار العودات بهدوئه المعهود:

ـ بالصحة والراحة..

تضاعف ضحكنا ونحن نرى الحارس يؤخذ على حين غرة بهذا الجواب، فارتبك ولم يدرِ ماذا يفعل كي ينقذ ماء وجهه. فما كان منه إلا أن تجرد من ملابسه وبقي بتبان طويل فأطلق عليه الساعودي الذي كان يجيد اقتناص الألقاب المضحكة لقب «الكر وسمان».

السرجان شاف (الرقيب الأول) أحمد بوزيان، الملقب بـ «بابا حمد» و«حفار القبور»

كنا نسميه في البداية بـ «كروك مور» أي حفار القبور، ثم أصبحنا نناديه بعد ذلك بـ «بابا حمد» تأسياً بالحراس. ينحدر من ناحية مدينة

بني ملاك، وهو رجل أمي مسن يتميّز بنحافة مهولة وثرثرة متذمرة لا تهدأ مع نفسه ومعنا ومع الحراس. لم يكن خبيثاً ولا مضراً. ولكنه كان عاجزاً عن القيام بأدنى مبادرة لصالحنا لأنه كان يخشى المدير خشيته من الموت. أحسن أعماله كانت تتمثل في مدنا من حين إلى حين بشيء من الماء مع ربط الاتصال بيننا في داخل العنبر. شكرته ذات مرة حين مدني بإناء زائد من الماء فقلت له:

ـ للّه درك يا بابا حمد..

فاندهشت حين رأيته ينظر إليّ بغيظ شديد وهو يندفع في ثرثرته المتذمرة:

ـ كفاش؟ وايلي.. أنا ضرّيتك؟ إو دير الخير فالمرُّوك.. وايلي! مادّير خير ما يطرا باس.. وايلي..!

بقي معنا بابا حمد من أول يوم في تزممارت إلى آخره. وتوفي مباشرة بعد الإفراج عنا، وكأن حياته لم يعد لها طعم بعد انتهاء مهمته.

السرجان علي أمزيل الملقب بـ «مولاي الطّا»، و«السّر فر»

كان يشرف على الستين من عمره في نهاية حبسنا في تزممارت. صحراوي قصير القامة، داكن السمرة متين البنية بسواعد ضخمة مفتولة ووجه غريب القسمات، كان يثير ضحك من يراه لأول مرة. فقد كان ذلك الوجه مليحاً لولا أنف كبير يشبه أنف البهلوان تربع في وسطه على شكل أفقي فبعثر فيه انسجامه. سمّاه الحراس بـ «مولاي الطا» لأنه كان كثير الشبه بجنرال في الجيش يسمى مولاي الطاهر، فحذفت الهاء والراء لإبراز قصر الرجلين. وسميناه نحن «السر فر» إظهاراً لخفته الكبيرة وحركاته المتوثبة. كان «السر فر» على ما به من توقد ذهن أمياً بليداً وحرامياً كبيراً مما جعله يكتسب عطف المدير بسرعة

فجعل منه عينه وأذنه المدسوستين دائماً بين الحراس. ورغم خلوه إطلاقاً من أي مبدأ أو فضيلة فقد كانت علاقتنا به علاقة طيبة جداً. كان أساس ما يجمعنا به هو المصالح المتبادلة. فقد كنا نشكل بالنسبة إليه مصدراً نادراً للرزق، بينما كان يؤدي لنا هو في المقابل خدمات جليلة. وكانت مصيبة «السر فر» تكمن في ولعه بالقمار وشغفه بالنساء، فجعل ذلك منه مفلساً مزمناً. وقد استغللنا ذلك فيه خير استغلال. وما إن لوحنا له بالأوراق المالية ودعوناه إلى العمل معنا حتى استجاب لنا باندفاع أعمى ناسياً أنه الجاسوس الأول للمدير، فقال لنا ذات يوم:

ـ أنا مستعد أن آتيكم بكل ما ترغبون فيه إذا كان معكم المال الكافي، ولكن.. اعفوني من ربط الاتصال بذويكم لأن ذلك يُعد «سياسة» والسياسة محرمة علينا نحن العسكر لأوها خطيرة جداً كما تعلمون..

غير أنه لم يكن يرى أي خطر في إدخال الإسمنت إلى المعتقل مع البطاريات والترانزيستورات والأدوية والمقويات.. وعلى ذكر الأدوية، فقد دأب مولاي الطا على ارتياد الصيدلية الوحيدة الموجودة في قرية «الريش» مصحوباً بوصفاتنا المشبوهة المكتوبة على علب عود الثقاب وكواغيد الإسمنت وحاشيات الجرائد الوسخة الملتقطة من الدهليز. ولا نشك إطلاقاً بأن الصيدلي توصل مع مرور الأيام إلى معرفة أصحاب تلك الوصفات، ولكنه أغمض عينيه مؤثراً الحفاظ على زبونه المواظب بدلاً من الوشاية الجبانة. وهو على ذلك مشكور منا جميعاً. وحدث ذات مرة ورفيقنا محمد الرايس الذي أمضى بعد الإفراج عنا سنة إضافية بالسجن، يقضي ليلة عابرة في سجن سلا، إذ به يسمع صوت سجين يناديه بلقب له لم يكن يعرفه إلا نزلاء تزممارات:

إميق سيميق؟ إميق سيميق؟ ماذا تفعل هنا؟

التفت الرايس فإذا به وجهاً لوجه مع «السر فر». تعانق الرجلان وسأل كلاهما الآخر باستغراب عن سر وجوده في ذلك السجن.

فقال «السر فر» متنهداً:

ـ مع الأسف الشديد يا صاحبي.. رحلت أيام السعد برحيلكم عن تزممارت.. فقد تأزمت أحوالي بعدكم ولم يعد لي المال الكافي لمسايرة ذلك المستوى المعيشي الذي نعمت به بفضلكم، فوقعت شيكات بدون رصيد، وها هو ذا صديقك مولاي الطا كما ترى..

السرجان موحا

كان واحداً من بين آخر الوافدين على السجن حين جيء به من الجنوب المغربي إثر إصابته بمرض مزمن في المعدة. ولا زلنا نذكر إلى اليوم نظرات عينيه الجاحظة وخطواته المترددة الوجِلة وهو يجيل بصره بهلع شديد في الدهليز والزنازين يوم دخوله إلى العنبر لأول مرة. ولكن سرعان ما انسجمت تصرفاته مع تصرفات الحراس حتى أصبح يضاهيهم في كل شيء. كان في الخامسة والخمسين من عمره تقريباً يوم غادرنا السجن. وقد كان طويل القامة، داكن البشرة، مدمناً على الخمر والسيجارة مما جعل المدير يعينه سائقاً ونديماً له في بعض الأوقات، فاعتقد أن ذلك تشريف له على باقي زملائه، فاستكبر واستعلى علينا وعليهم جميعاً. حفظنا عنه ذكرى سيئة جداً أبانت عن قسوته وخبثه الكبيرين: حدث ذات ليلة أن سقط رفيقنا محمد لغالو من أعلى دكته وقد كان مشلولاً شللاً تاماً، اللهم إلا من يده اليمنى التي كان يقوى على تحريكها بجهد جهيد. فشرعنا نخبط على الأبواب بكل قوانا ونصرخ ملء رئتينا مستنجدين بالحراس في تلك الساعة التي لم تكن قد جاوزت العاشرة. وما هي إلا لحظة حتى قدم

السرجان موحا على رأس فريق مسلح من الجنود، وكانت تلك أول مرة في تاريخ تزممارت تفتح فيها علينا الأبواب ليلاً. وما إن علم بالخبر حتى صاح فينا هائجاً:

ـ أمن أجل سجين سقط من فوق دكته تحدثون كل هذه الفضيحة؟ أما كان لكم أن تنتظروا حتى يحين الصبح؟ لقد أزعجتموني وسوف أعاقبكم.

السرجان أحمد الملقب بـ «الفقيه» وبـ «أحمد الهيش» وبـ «بالي باه»

جاء إلى تزممارت في أواخر السبعينيات وهو جندي بسيط، فلم تمضِ عليه إلا سنين معدودة حتى حرق كل المراحل فرقي إلى رتبة سرجان. كان رجلاً مفرط الطول، ضخم الجثة، غليظ القسمات والطباع معاً. وكان لا ينتهي إبداً من التجشؤ المسموع متأسياً برفيقه «حمار العودات». وقد كان يعد واحداً من «مثقفي» الحراس نظراً إلى حفظه الببغائي للقرآن الكريم، غير أنه كان جاهلاً به شكلاً ومضموناً بدليل أنه قال ذات يوم بلهجته البدوية «لمايك سييرا» وهو يهم بضرب رفيق لنا:

ـ بالي باه.. بالي باه.. (بالي به) بمعنى: عليك به، فسميناه منذ ذلك اليوم ببالي باه، وبأحمد الهيش.

الحراس الطيبون

لاجودان شاف (المساعد الأول) العربي لويز

إذا كان «اللويز» يعني بلغتنا العامية قطع الذهب، فإن العربي لويز كان اسماً على مسمى. أو بعبارة أوضح، كان معدناً خالصاً نفيساً يسطع بالخير والنبل والإنسانية في ليل تزممارت الرهيب.

ويكفي القول بأن الكثير منا مدين له بالحياة نظراً إلى العمل الإنساني النبيل الذي قام به من دون أن يرجو من أحد جزاء ولا شكوراً.

ينحدر العربي من نواحي مدينة بني ملال المناضلة. وقد كان يناهز الأربعين حين تعرفنا عليه أول مرة. وهو رجل أنيق المظهر، مديد القامة، ممشوق القد، أسمر اللون، مليح القسمات. وكان متزوجاً وأباً مثالياً لعدة أطفال، ولم يمنعه ذلك من المخاطرة بنفسه وبأسرته ـ وهو الذي شهد ما تعرض له من أجلنا لاجودان شاف خربوش ـ ليفعل الخير كلما سنحت له فرصة. فقد كانت جيوبه مملوءة دائماً بقطع الخبز والتمر والحلوى والسكر، يفرقها علينا بالنوبة من دون تفضيل سجين على آخر. وكان يشعرنا في حديثه معنا بإنسانيتنا مستعملاً في كلامه الرقة والأدب واللين والحث على الصبر وتفويض الأمر للّه. وكم من مرة شاهدناه وهو يمسح دمعة سائلة على خده تحسراً على رفيق يحتضر أو آخر يتوجع. ولم يكن يبخل في مثل هذه المناسبات بالدواء الذي كان يشتريه من جيبه وهو يعلم علم اليقين أن ذلك لن يجدي نفعاً وإنما القصد منه الالتفاتة الرحيمة وإدخال شيء من الدفء إلى القلوب اليائسة. سميناه بـ «البيكادور» نظراً إلى طريقته المتميزة في تفريق الطعام. فقد كان يدس المغرفة في الإناء بسرعة واقتصاد خوفاً من ترك الآخرين بدون طعام، مما أوحى إلى بعضنا بصورة «البيكادور» وهو في الحلبة يعطي للثور طعنات سريعة ودقيقة. فقد لاحظ العربي أن بعض الحراس يفرقون علينا الطعام بسرعة مفرطة ليقضي معنا أقل وقت ممكن في العنبر. وكان ذلك يتسبب في إعطاء الأولين أكثر من حقهم وترك الباقين منا بدون أكل. فأخذ العربي لويز مبادرة تفريق الطعام، وأخذ يعطي لكل ذي حق حقه، حتى إذا ما انتهى من التفريق وفضل شيء من الطعام أعطاه لنا بالتناوب. وإن نسيت شيئاً من فضائله، فلن أنس له أبداً تلك الالتفاتة الإنسانية غداة

مجيئنا إلى تزممارت، وقد كنت أتألم ألماً مبرحاً في رأسي من جراء البرد القارس الذي كان يفعل في رأسي الحليق فعل المنشار في العظام. فقدم عندي ذات مرة ورمى لي بطربوش من الصوف كان بالنسبة إليّ حينئذٍ كعتق من النار. بقي معنا العربي لويز من سنة 1973 إلى سنة 1982 حيث أرسل مع «السلك» و«فوكسطروط» إلى الأكاديمية الملكية العسكرية في مكناس لخوض مباراة الترقية إلى رتبة ضابط بعد شهور من التدريب، فرسب الشريران ونجح الرجل الفاضل. وفي السنة الفارطة، مباشرة بعد نشر هذا الكتاب، جاء عندي رجل مهندم في العقد الستين من عمره، فسألني وقد بدا عليه شيء من الانفعال:

ـ ألم تعرفني؟

قلت وأنا أتفرس في وجهه الذي لم يبد عليّ غريباً:

ـ أعتقد أني رأيتك ولكني لست أدري أين؟

قال لي وهو يمد لي يده مصافحاً:

ـ أنا العربي لويز.

دق قلب ولم أشعر إلا وأنا أحتضنه بحرارة وتأثر. قال لي وقد رقت عيناه حناناً:

ـ أنا ممتن لك كثيراً لأنك شرفتني بذكر اسمي في كتابك. فقد فوجئت في الشهور الماضية وأنا أرى بعضاً من سكان الحي يتوافدون عليّ لتهنئتي، فاستغربت ولم أدرِ لماذا؟ فلما علمت بالخبر، آليت على نفسي أن ألقاك مهما كلفني الأمر. لقد جعلت مني إنساناً عزيزاً بين أهله وناسه.

قلت متأثراً:

ـ فضلك علينا يا أخي هو الذي جعل منك كذلك أمام الله وأمام الناس. أما أنا، فما شهدت إلا بما رأيت وعلمت. وأعتذر إن أنا

صرحت باسمك من دون أن أستأذنك، فقد كان من الممكن أن أتسبب في ضرر.

حكى لي العربي أن الله جازاه خير الجزاء إذ أحيل على التقاعد برتبة ضابط سام ويسر له أموره كلها، وهو الآن يعيش قرير العين في مدينة سلا. وتلك عاجل بشرى المئمن. أجل، لقد ترددت كثيراً قبل أن أصرح باسم العربي لويز خوفاً من أن تطالعني بعض الصحف ذات يوم بعنوان بارز يقول: «المخابرات المغربية تلقي القبض على حارس سابق تورط في مساعدة معتقلي تزممارت من سنة 1973 إلى سنة 1982. غير أن التغيّرات الإيجابية التي حصلت أخيراً في المملكة، شجعتني على شكر الرجل لضرب المثل الصالح به لعل أناساً يتأسون به في ظروف متشابهة..».

لاجودان شاف محمد الشربداوي

إذا كان وجود العربي لويز معنا في السجن قد أدَّى دوراً نفسانياً كبيراً، فإن وجود محمد المجدوبي معنا من أول يوم في تزممارت إلى آخره كان بمثابة يد رحيمة مدت إلينا من السماء. فعلى الرغم من بعض الهنات التي آخذه عليها بعض الأصدقاء، فإنه يظل بدون منازع منقذنا الأول نظراً إلى شجاعته وتطوعه في القيام ببعض الاتصالات التي كانت مصيرية بالنسبة إلينا. ينحدر محمد الشربداوي من بني ملال، تلك المنطقة الطيبة التي أنجبت الكثير من المناضلين الأفذاذ. وقد كان قبل تعينه حارساً في تزممارت مدرباً للرياضة في إحدى الوحدات العسكرية، وهذا ما جعل من مظهره مثالاً للرياضي المتكامل، إذ كان مديد القامة ممشوقها، قوي البنية مفتول العضلات، مربع الوجه وسيم القسمات، في ملامحه شبه واضح بالممثل المصري عمر الشريف، لكننا أطلقنا عليه لقب «جيف» نظراً

إلى تشابه شعره المشتعل شيباً بشعر الممثل الأميركي «جيف شاندلر». كما أطلقنا عليه في السنين الأخيرة من أسرنا لقب «آور فراند» وهو ما يعني «صديقنا» باللغة الإنجليزية.

كان «جيف» رجلاً إنسانياً دمث الأخلاق، فيه أدب جم وطيبوبة عميقة وخفة روح. ولا نشك مطلقاً في أنه كان ساحر نساء متقاعد. إذا كان لا يمل من دندنة أغنيات غرامية بصوته العميق الأبح، معبراً عن حنين إلى ماض بعيد أو قريب كانت له في فيه ملاحم وفتوحات.

ـ ليلي ويَا ليلي. سَالْ البَرْكَيَا ومالْها.

كانَت تلك واحدة من بين الأغنيات التي كان يتحفنا بها وهو يفتح أبواب الزنازين، ملطفاً ذلك الجو الجنائزي الذي كان يخيم على العنبر كلما قدم الحراس.

اشتغل محمد الشربداوي منذ سنة 1979 لحساب رفيقنا القبطان صالح حشاد، السجين الميسور الذي ينحدر هو الآخر من مدينة بني ملال، والذي لم يحسن مع الأسف استعماله حين عمد إلى احتكاره كلياً، وذلك بالضغط عليه لإخفاء الاتصال الذي كان قد ربطه له بأسرته من جهة، وحثه من جهة أخرى على رفض القيام بأي اتصال لسجين آخر غيره. وسر ذلك هو أن القبطان حشاد الذي كان يعد من أجود الطيارين المغاربة إطلاقاً، تورط من دون أن يدري في محاولة إسقاط الطائرة الملكية، إذ كانت مقاتلته من بين مقاتلات الخفر المجردة من السلاح، بمعنى أنه كان بريئاً كل البراءة لعدم علمه بما كان يحاك. فحكم عليه رغم ذلك ظلماً بعشرين سنة. وظل يعتقد أن خطأ ما قد ارتكب في حقه، سيما وأن الملك كان قد ذكره بخير في إحدى ندواته. من أجل ذلك، كان يظن بأن عفواً ملكياً سينتهي لا محالة بتصحيح هذا الخطأ، وأن المسألة مسألة وقت ليس إلا.

وفي بداية مشوارنا الأليم، وتماشياً مع رأي كثير من أصدقائنا

الذين انصاعوا لضغوطات أسرهم، كان حشاد يؤمن إيماناً مطلقاً بأن حلّ مشكلتنا لا يمكن أن يأتي إلا من خلال تدخلات سرية يقوم بها لمصلحتنا بعض من رؤساء الأحزاب السياسية التقدمية. أما في ما يتعلق بإشراك سجناء آخرين معه في ربط الاتصال بأسرهم، فكان يرى في ذلك كارثة محققة، محتجاً باحتمال سرعة انكشاف أمرنا من طرف السلطات. وكان له في ذلك نسبة معقولة من المنطق، غير أن الظروف المأساوية التي كنا فيها كانت تقتضي تدخلاً فورياً وسريعاً لإخبار الرأي العام وليكن بعد ذلك ما يكون. أما المراهنة على عامل الزمن كما كان يدعو إليه صديقنا حشاد في مستهل اتصاله بأسرته، فلم يكن يخدم سوى مخطط جلادينا الذين كانوا ينوون إبادتنا على مهل.

وسنرجع بإسهاب إلى هذا الموضوع الحساس الذي أدخلنا نحن السجناء في حرب أهلية استنزفت أعصابنا استنزافاً. موضوع إشعار المنظمات الدولية أو عدم إشعارها. لقد قبل الشربداوي حرصاً منه على ضمان اتصالنا بالعالم الخارجي في بداية الأمر أن يعمل لمصلحة القبطان حشاد وحده، ولكنه ظل يعاملنا معاملة حسنة باذلاً كل جهده لمساعدتنا وإصلاح ذلك بيننا صابراً على كل حماقاتنا ومسدياً لنا في المقابل خدمات جليلة لم يكن يرجو من ورائها جزاء ولا شكوراً. فالاعتراف بالجميل يجعلنا نؤكد أنه إذا كنا اليوم نستنشق الهواء النقي وننعم بالسير تحت دفء شمس مغربنا الحانية، فقسط كبير من هذا الفضل العظيم يرجع إلى هذا الرجل النبيل، ذاك الجندي المغربي المجهول.

لاجودان شاف العربي أمزيان الملقب بـ «باحمدون» أو «سوسو»

ينحدر «باحمدون» الذي كان يجاوز الستين من عمره غداة

الإفراج عنا من السجن من نواحي مدينة تاونات. وكان رجلاً طويلاً ممتلئاً متكرشاً وسيم القسمات، دمث الأخلاق، لا يقول لنا لا أبداً لمسايرتنا، اعتقاداً منه بأن جلنا كان فاقداً لعقله، فأطلقنا عليه لقب «باحمدون»، ثم زدناه لقب «سوسو» لإبراز اهتمامه الشديد بحسن مظهره وأناقة هندامه. كان لطيفاً معنا من أول يوم إلى آخره، ولم يسبق له طوال سنين الأسر الطويلة أن أساء إلى أحدنا ولو بكلمة واحدة، ولكنه مع الأسف الشديد، لعب بمهارة فائقة على حبلين. فحافظ على علاقته الممتازة معنا ومع المدير معاً، وظل من أقرب المقربين لهذا الأخير، فعينه مسؤولاً على مصلحتي التغذية والمعدات، وتواطأ معه بضمير مرتاح في استنزاف ميزانية السجن الهزيلة.

كان أكبر ما يميّز «باحمدون» هو كذبه المفرط الذي كنا نفسره على أنه هروب من واقع كان يرفضه لاوعيه. غير أن كذبه هذا كان محموداً في أول عهدنا بتزممارت لأنه كان كثيراً ما يفتح في وجوهنا أبواباً عريضة من الأمل. ولكن مع مرور الوقت، تجلى لنا أن مواعيده التي كان يضربها لنا لاقتراب أجل الإفراج عنا، لم تكن أحسن حالاً من مواعيد عرقوب. ساهم باحمدون بنصيب معتبر في الإفراج عنا حين قام بربط الاتصالات حاسمة مع أسرة رفيقنا القبطان عبد اللطيف بلكبير ثم بأسرة القبطان صالح حشاد.

الكبران السرغيني

كانت مهمته تنحصر في تفريق الطعام علينا. وكان رجلاً نحيلاً بئيساً متبائساً ومسالماً جداً، الشيء الذي كان يعرضه لاحتقار كثير من الحراس. قبل في مرّات عديدة أن «يتسوق» لبعض الأصدقاء مقابل أوراق مالية قليلة. مات في حادثة سير فرحل من دون أن يؤذي أحداً.

السرجان صالح

كان رجلاً أعرج، كئيباً متمارضاً بطيء الحركات. ينطق وجهه المتجعد بكل هموم الدنيا، وكانت مهمته كمهمة السرغيني تنحصر في تفريق الطعام. لم يفعل خيراً أو شراً، فكان ذلك يعد بالنسبة إلينا تصرفاً إيجابياً.

هذه بعجالة شديدة نبذة عن هؤلاء الحراس الذين حتم علينا القدر أن نعايشهم طوال سنين الأسر الرهيبة. وسنرى لاحقاً كيف استطعنا تدريجياً أن نتلمس نقط ضعفهم وأن نضرب على أوتارهم الحساسة إلى أن توصلنا في النهاية إلى استمالة قلّة قليلة منهم.

الاستقرار في تزممارت

أول شتاء في تزممارت

تزامن إلقاء القبض على المساعد الأول «خربوش» مع دخول فصل الشتاء في تزممارت، فكان ذلك بمثابة قطيعة نهائية مع فترة السكينة النسبية التي عشناها في أول عهدنا بذلك المعتقل الجهنمي. وهكذا، وبدون أن نعرف لذلك سبباً، قلص المدير حصتنا من الخبز في الفطور من 100 إلى 20 غراماً، وهو تجويع فظيع زاده البرد القارس فظاعة أكبر. كان فصل الشتاء يحل مبكراً في تلك الربوع المقفرة، إذ كان ينزل بعنف مع أواخر أيام شهر تشرين الأول/ أكتوبر ويمتد إلى أواخر شهر نيسان/ أبريل. وقد كنا نعرف قمة المعاناة في شهور أربعة هي: تشرين الثاني/ نوفبر وكانون الأول/ دجنبر وكانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير، حيث كنا نلامس فيها حدود الحمق من شدة الزمهرير، وذلك لنزول درجة الحرارة مراراً إلى ما تحت الصفر. وقد كنا نلاحظ ذلك من استحالة مَلء أوعيتنا بالماء من جراء تجمده في الأنابيب، فكان الحراس يؤجلون هذه العملية إلى الزوال ريثما ترتفع الشمس عالياً ويعود شيء من الدفء إلى المكان.

فتزممارت توجد على ارتفاع 1500م فوق سطح البحر، وكان يكفي أن يحصل تغيّر بسيط في مجرى هبوب الريح أو تلبد كثيف في

السماء لكي يتجمد المكان والزمان معاً. والطامة الكبرى هي أننا كنا قد قدمنا من السجن المدني بثياب الصيف الخفيفة، إضافة إلى أن بعضنا كان قد مزق أحد لحافيه لاستعماله في أمور تافهة، معتقداً أن اللجنة العسكرية التي حدثونا عنها ستأتي لا محالة لتسوية تلك الوضعية «الشاذة». وهكذا، وبكيفية فجائية، وجدنا أنفسنا مجردين من السلاح ونحن في مواجهة غول لا طاقة لنا به. غول رهيب أشيب كان ينخر فينا العظام نخراً ولا يدع لنا لحظة واحدة لنلتقط فيها أنفاسنا اللاهثة. كان كلما اقترب الليل، قدمت جحافله بكل أنواع المناشير والمقامع لتشج وتحز وتمزق فينا العقل والأعصاب. فبعضنا كان يقضي الساعات الطوال في القفز المتواصل وكأن به من الجنون مس. وبعضٌ آخر، كان يذرع الزنزانة في الظلام جيئة وذهاباً على نحو ما تفعله الحيوانات الأسيرة في أقفاصها الضيقة. أما فئة أخرى فقد كانت تستمر في حك أطراف جسدها بحثاً عن سراب دفء. حتى إذا ما انتصف الليل وجن الزمهرير، أخذ زنك السقف يتفرقع كالقنابل الصغيرة، فتصطك الأسنان، وترتعش الفرائس، ويدوى صفير مرعب في الآذان، تنفلت بعده شهقات متوجعة، يفشل في كبحها الكبرياء المنهار، فتعلن عن استسلامها بدموع ذليلة صامتة. في هذه الساعة بالذات، كنا نهيم عشقاً بالنار ونتمنى أن نقذف فيها فنحرق ثم نعود فنحرق ألف مرة علنا نرتاح هنيهة واحدة من جحيم ذلك الصقيع..
ولولا إيماننا المطلق بالله وخوفنا من عذابه لانسقنا كلياً مع فكرة الانتحار التي كانت تعشش في أذهاننا مع بداية كل ليلة ليلاء، ملوحة لنا بالخلاص الأبدي من عتو الطبيعة وطغيان الإنسان. فأي أناس في البشر أولائك الذين كانوا يستسيغون أن نبيت ليالينا على ذلك الحال البشع، بينما كانوا يبيتون هم لياليهم في الدفء متخمين وملفوفين في الصوف والحرير؟ إن من الحجارة لما هو ألين من قلب ابن آدم.

في نهاية الصراط، كان كلما تنفس الصبح وبدأت تتسرب إلى الزنازين أنفاس وانية من الدفء الخجول، غرقنا في نوم عميق، كان أقرب إلى الإغماء منه إلى السبات. وقد كان بعضنا يلجأ في النهار إلى استعارة غطاء من جاره، فإذا ما نام ساعة أو ساعتين، رد الصاع لرفيقه ليحاول أن يفعل مثل ذلك استعداداً لليلة أخرى رهيبة شيباء. وكان ذلك يتطلب طبعاً تواجد بعض الحراس الطيبين، الشيء الذي لم يكن دائماً متيسراً.

محاولة تنظيم الحياة اليومية

فهم الأذكياء منا أن مقامنا في تزممارت لن يكون عابراً وأن علينا أن ننظم صفوفنا ونقاوم بكل الوسائل المتاحة لدينا حتى نحافظ على معنويات مرتفعة، أو على الأقل، الإبقاء على بصيص من أمل يمكننا من متابعة المشوار الجهنمي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. فبعد شهرين من قدومنا، قمنا بإضراب غير محدود عن الطعام وطالبنا بمقابلة المدير. لكن المساعد الأول «خربوش» كان له رأي آخر، إذ بذل قصارى جهده طوال أربعة أيام لإقناعنا بأن ذلك لن يجدينا في شيء ما دام الرأي العام لا يدري عن أحوالنا شيئاً وما دام المدير من الصم البكم الذين لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار. وفي اليوم الخامس، اقتنع صديق فأكل، ثم تبعه آخرون. بعد هذا نبتت في أذهان بعضنا فكرة تهيىء برنامج يومي نستطيع بواسطته تنظيم حياتنا وترسيخ التضامن والانضباط بيننا حتى نضع حداً لذلك الضجيج الكبير الذي كانت تحدثه النقاشات الفوضوية الدائرة هنا وهناك.

وهكذا، وبعد شهر كامل من التفاوض والنقاش، أدَّت فيه الحكمة والدبلوماسية دوراً حاسماً، خرجنا ببرنامج عام أعطينا العهد جميعاً على الالتزام به في كل الأحوال والظروف، فكان كالآتي:

الاستيقاظ: بمجرد تسلل خيط الضوء الرفيع من ثقب السقف أو سماع شدو الطيور في الخارج، كان رجل المناوبة يقرأ بصوت مرتفع ما تيسر من الذكر الحكيم، ثم يختمه بالسلام على رفاقه داعياً لهم بالفرج. كان هذا إشعار لكل السجناء بحرية التحدث أو تلاوة القرآن أو الغناء، وذلك إلى حين قدوم الحراس حوالي الساعة السابعة والنصف لتفريق الماء والفطور.

بعد الفطور: تدوم الدردشة الحرة نصف ساعة تقريباً، ثم يصفق أحدنا بيديه معلناً ابتداء حصة جماعية لحفظ القرآن الكريم على يد بعض الرفقاء البدويين الذين كانوا يحفظون قدراً لا بأس به من الأحزاب. وكانت أول سورة حفظها الأصدقاء هي سورة «ياسين». فنذر بعض العزاب منا أنه لو أطلق الله سراحه وتزوج، سمى ابنه البكر ياسين. فحقق الله الرجاء، ونحن اليوم أربعة أصدقاء بأربعة «ياسين».

وبعد أن استنفدنا كل الأحزاب المحفوظة عن الأصدقاء، فاجأنا الحارس الطيب «العربي لويز» بمصحف شريف سلمه إلى رفيقنا القبطان عبد اللطيف بلكبير مع شمعة وعلبة الثقاب.

من العاشرة إلى الثانية عشرة: كانت الدردشة الحرة تستأنف إلى حين موعد مجيء الحراس لتفريق طعام الغذاء.

من الغذاء إلى ما بعده بنصف ساعة: دردشة حرة إلى حين موعد صلاة الظهر الذي كنا نتكلف بآذانه في الأول بالتناوب ثم أخذ بعد ذلك الأخ المفضل الماكوتي على عاتقه مدى الحياة مهمة آذاني الظهر والعصر بينما تكفلت أنا بآذاني المغرب والعشاء. وبدون أن ندعي أنه كان لنا رخامة صوت المرحوم الشيخ محمد عبد الباسط عبد الصمد، فإن الأصدقاء وجدوا فينا شيئاً من الموهبة للقيام بهذه المهمة الجليلية التي شرفتنا إلى درجة أن بعض الحراس صاروا يطلقون علينا لقب «الفقيه 18» و«الفقيه 10»، بدلاً من 10 و18 حافيتين. وطبعاً، لم

تكن لنا ساعة حتى يكون آذاننا في الوقت المناسب، ولكن براعة بعض الأصدقاء في تقدير الوقت كانت تثير فينا الدهشة والإعجاب.

بعد صلاة الظهر: كان الصمت إجبارياً طوال ساعة ونصف وذلك لإعطاء الفرصة لهواة القيلولة كي ينعموا بقسط من الراحة. بعد القيلولة، كان الحديث الخافت مباحاً إلى حين آذان صلاة العصر حيث كان الحراس يقدمون بعده بساعة تقريباً لتفريق طعام العشاء. مباشرة بعد انصراف الحراس، كان أحدنا يستأثر وحده بالكلام ساعة أو ساعتين وربما ثلاثة لحكاية قصة أو شريط سينمائي إلى حين موعد آذان صلاة العشاء. وقد كانت هذه الساعة بالذات، هي أحلى ساعات تزممارت إطلاقاً. ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى اتضح لسجناء العنبر الأول أو بالأحرى لآذانهم، أن رفيقنا محمد الرايس وعبد ربه كانا يمتلكان موهبة لا بأس بها في حكي الأفلام وسرد الروايات. فكان كلما أراد بعض السجناء أن يقص علينا شيئاً تعالت الأصوات لزجره مطالبة بالإجماع إما بـ «صابر» (وهذا هو اسم الرايس الأول) وإما بـ «خاي حميدو» (اللقب الذي أطلقوه عليّ في تزممارت).

كان محمد الرايس يتمتع بموهبة خارقة في سرد القصص والأفلام، متمكناً من جميع التقنيات التي تشد المستمع إليه شداً وتغوص به في عالم سحري ينسى فيه نفسه ومكانه وزمانه. وقد كان يتفنن في سرد التفاصيل والجزئيات ليزيد في القصة تشويقاً وإثارة وليمدد بذلك المتعة أطول وقت ممكن. وقد حكى لنا ذات مرة قصة «لارابويوز» للكاتب الفرنسي بلزاك في خمسة عشر يوماً. فعلق عليه «حميدة»، أصغر السجناء سناً وأظرفهم وقد كان يتميّز بنطق السين والزاي شيناً:

ـ آبّا شابر.. لارابُيُوج (la rabouilleuse) اللّي قشّتيها علينا ديال بلجاك مشكين، مكتشاوي والُو قدّام لارابُيُوج ديالك.

أما في ما يتعلق بي أنا فقد كان الأصدقاء يزعمون أني كنت أوفق في تقريب مشاهد القصص والأفلام إلى أذهانهم وجعلهم يعيشونها بالألوان الطبيعية.

هكذا إذاً، دأبنا على وضع موهبتنا الصغيرة في خدمة أصدقائنا بتلقائية ونكران ذات. فاستطعنا أن نسعدهم مئات الساعات حين كنا ننجح في إخراجهم من تلك الظلمات الحالكة وجعلهم ينسون إلى حين بؤس تلك القبور المنسية. وكم كانت سعادتنا كبيرة حين كنا نرى تجاوباً مطلقاً مع ما كنا نحكيه. فبعد نهاية كل قصة أو شريط، كان يخيم على المكان صمت عميق كذاك الصمت الذي يغرق فيه المدمن على الشاشة الكبيرة حين يخرج من القاعة ورأسه يعج بمئات المشاهد الملونة. ولم يكن أحد يبخل علينا بالهتاف والتصفيق بعد أن يطير الخدر ويطوي الخيال أجنحته الزرقاء ليعود إلى ظلامه مغلولاً كسيحاً. لقد كانت تلك الأمسيات شاقة ومتعبة بالنسبة إليّ وإلى الرايس. إذ كان الأمر يقتضي الصعود فوق إناء الماء البلاستيكي المملوء بعد طي الأغطية ووضعها عليه لكي يصل فمنا إلى مستوى أحد الثقوب السفلية التي كانت لنا بمثابة بوق. وقد كان يتعذر علينا في بعض الحالات الاسترسال في عملية السرد والحكي نظراً إلى ما كنا نعاني منه من مرض أو وهن. إلا أنه قلما كنا نسقط مرضى في آن واحد.

بعد صلاة المغرب: كانت الدردشة الحرة تسترسل إلى صلاة العشاء. ثم ساعة بعد ذلك، كانت تتابع مع الجيران المقربين حرصاً منا على عدم إزعاج من يريد النوم ليكون بعدها الصمت الإجباري.

الصمت الإجباري... كان إذا نزل، هجمت علينا الوحشة كجحافل من أفاعي هائجة، تتلوى حول أعناقنا لتخنق فينا الأنفاس، وتلدغنا فوق الرؤوس لتنفث في خيالنا المريض سموم الهواجس والكوابيس. كنا نستوعب آنذاك فداحة المأساة ونسبر أعماق الفجيعة،

فنحس بالضياع وهو يفتح فمه الواسع المسنن كفم سمك قرش ضخم جائع، ليرمينا في طاحونة أمعائه. كانت تراودنا حينئذٍ فكرة عبارة.. تغيب.. وتعود.. ثم تغيب وتعود كثعلب يلف ويدور ليختبر استماتة فريسته المعزولة.

الانتحار.. أليس هو الخلاص الوحيد من عيش كنا نموت فيه ونبعث بعدد الساعات في اليوم.. فناهيك بالليل؟ وما إن كانت تغيب تلك الفكرة القاتمة عن أذهاننا لحظة حتى تأتي فكرة أخرى لتهمس لنا بشيء من الأمل:

ـ ماذا لو انتحرنا اليوم وجاء الخلاص غداً في أي شكل من الأشكال؟ ألن يكون ذلك خسراناً مبيناً في الدنيا وفي الآخرة؟

أخذ ورد، مد وجزر، فر وكر.. كنا ككرة من التنس يتراشق بها لاعبان فوق حلبة ظلماء خالية إلا من متفرجين اثنين: الله.. والشيطان. كانت تلك المعركة الباطنية الشرسة تنتهي دائماً بانتصار الأمل، اللهم إلا من استثناء واحد، تجلى في انتحار رفيقنا ميمون الفاكوري كما سنرى لاحقاً. والسر في هذا الصمود يرجع حسب رأيي إلى حفظ القرآن الكريم. فقد كان لتلاوة الذكر الحكيم وتدبر آياته وقعاً عظيماً في نفوسنا، وتحفيزاً لنا على مواصلة المقاومة بصبر المؤمنين المحتسبين.

فما أحسسنا أبداً بقربنا من الله كإحساسنا به في تزممارت.. كنا نقضي الساعات الطوال في الصلاة الخاشعة والتضرع العميق، مرددين ما كان يقوله النبي الصالح يونس حين كان مبلوعاً في ظلمات ثلاث:

ـ لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

وقد كانت عبادتنا في البداية بدافع الخوف من الله، ثم أصبحت فيها مع مرور الأيام حلاوةٌ كانت تتلاشى معها جميع مباهج الدنيا وتزول كل وساوس الخوف من المجهول. وكان التأمل المستمر

يدفعنا إلى التفكير في أنفسنا وفي سر الحياة والموت. فكنا نغوص في أعماق ذاكرتنا مجتهدين في استحضار أول ذكرى كانت لنا في الحياة، حتى إذا ما اعتقدنا أننا وجدناها، أخذناها كنقطة انطلاق لمنبع نهر مضبب، كانت تبتدئ منه ذكرياتنا القديمة في صورة خيط رفيع ثم تنتهي وهي تصب في محيط الحاضر كأضخم وأعظم ما تكون أنهار الدنيا الكبيرة. كنا في هذه الرحلة الزمنية الطويلة نتوقف عند مفترق الطرق الكثيرة المتداخلة لنحلل القرارات الحاسمة التي اتخذناها في حياتنا. فكنا عوض أن نسلك الطريق الذي كنا قد سلكناه فأوصلنا إلى تزممارت، نسلك طريقاً معاكساً فنظل نخترع أشكالاً من الاحتمالات التي كان من الممكن أن تكون عليها حياتنا. وكثيراً ما كنا نفكر في أمر المسؤولين الذين قرروا بسبق إصرار أن نعيش على ذلك النحو المخزي، فكنا نخلص دائماً إلى نتيجة واحدة كانت تؤكد لنا أنهم كانوا لأمر ما يمقتون الجنس البشري، وأن أنفسهم المشحونة بالحقد والرغبة في الانتقام، كانت تعيش شقاء لا يمكن أن يكون إلا فظيعاً مزمناً.

ومع نهاية السبعينيات، كانت غالبيتنا العظمى قد حفظت القرآن الكريم. فكان علينا أن نبحث عن شيء نعوض به حصص الحفظ، فاخترعنا طريقة فريدةً للعب الشطرنج. والفضل في ذلك يرجع إلى الصديقين مبارك الطويل وصالح حشاد. فالأول استطاع بفضل مرآة صغيرة ثبتها على قطعة ورق مقوى وأخرجها من ثقب السقف بواسطة عمود مصنوع من لباب الخبز، أن يعكس شيئاً من ضوء الشمس على أرضية زنزانته. والثاني صنع رقعة الشطرنج بإلصاق مربعات من كتان أبيض على خرقة من سترته الزيتية. وطبعاً، كان كلما اخترع أحدنا شيئاً اقتفى أثره كل أصحابه. فكانت كل مبارة حاسمة تدور بين بطلين يديرها حكمين أو ثلاثة و«يحضرها» ويراهن عليها معظم السجناء.

أما كيفية اللعب، فكانت بطريقة الصوت. ذلك أننا وضعنا لكل صف من المربعات الأفقية حرفاً مميزاً أما المربعات العمودية فكانت مرقمة من واحد إلى عشرة. فكان اللاعب عند كل نقلة ينقلها يعلن عنها بحرف ورقم، فيرددها خصمه ويرددها معه الحكام والمتفرجون.

وهكذا قضينا ما يزيد على خمس سنوات ونحن نلعب من وراء الجدران على هذا النحو. فنظمنا بطولات كان الفائز فيها يكافأ عادة بكسر الخبز الحافية. وقد كانت ظاهرة هذه البطولات بدون منازع هو صديقنا المجدوب عقا. ذلك أنه كان يستلقي على ظهره ثم يتركز هنيهةً ويشرع في لعب مباراة كاملة بدون رقعة وبدون بيادق. فكان يخسر مرة ويربح مراراً.

أول صيف في تزممارت

باستثناء شهري أيار/ مايو وأيلول/ شتمبر، كان الشتاء والصيف يهويان على أجسامنا النحيفة كسيف حاد ينزل على رقبة رخوة متداعية. فبعدما انتظرنا الصيف على أحر من جمر الصيف، نزل علينا فجأة ساخناً حاراً لاهباً. فمن ثلاجة متجمدة انقلبت الزنزانة إلى فرن متَّقِدٍ بفعل الحرارة المفرطة التي وصلت ذات مرة إلى 44 درجة في الظل حسب ما سمعناه من بعض الحراس المتذمرين. في أتون هذا الاختناق المتواصل، طغت النتانة بشكل فظيع، فأصبحت تنبعث من أجسامنا الوسخة روائح الجيف المتفسخة، ثم اكتمل عرس القذارة البهيج لما انضافت إليها رائحة المراحيض التي اختنقت فيها قنوات الصرف. فغدونا نشعر كلما تنفسنا وكأن مسامير خفية تنغرز في رئتينا لتسحب منها الهواء وتشحنها بحامض فتاك. وطبعاً تهيأ الجو المناسب لكل أنواع الحشرات الطائرة والزاحفة والمتسلقة. سحاب من الصراصير والبعوض والذباب والبرغوث والبق والعناكب وأنواع أخرى لا عد لها

ولا حصر. منها ما كان يؤذينا بلسعة ومنها ما كان يزعجنا بأزيزه وكلاهما كانا في الإذاية سيان. ثم جاء بعد ذلك دور العيار الثقيل من فئران صغيرة وكبيرة وعقارب و. . . أفاعي. عالم وحشي لا رحمة فيه ولا شفقة، تأكل فيه الأجناس بعضها بعضاً بنظام وانتظام حسب ضوابط دقيقة سطرتها الطبيعة باتقان لتحافظ بها على توازن ضروري يتعاقب فيه الموت والحياة تعاقب الليل والنهار. ومن وقت إلى آخر، كان أحدنا يلسع بسم عقرب أو رتيلاء، فيظل في زنزانته يتوجع من دون أن يلتفت إليه أحد. وأصبحت الخمسة لترات من الماء التي كانت تسلم لنا ساخنة من فرط الحرارة لا تفي حتى بحاجتنا إلى إرواء عطشنا الدائم وإلى التوضؤ المستمر من جراء تكاثر حالات الإسهال. وبما أن المثل الذي ضربه المدير بالحارس خربوش لم يكن قد فارق أذهان الحراس، فقد كان طلب المزيد من الماء مضيعة للوقت لأنه كان يثير تهكمهم ويعرضنا في بعض الأحيان لأذاهم.

أول وفاة

في شهر شباط/ فبراير من سنة 1974، أي ستة أشهر تقريباً بعد رحيلنا إلى تزممارت، أسلم الروح إلى بارئها بعد معاناة شديدة، الملازم محمد الشمسي في العنبر الثاني.

كان المرحوم طياراً في مقتبل العمر، طويلاً متين البنية شديد السمرة، محبوباً ومحترماً من طرف جميع أصدقائه. ولم يكن أحد يتوقع أن يكون هو أول من سيدشن تلك السلسلة الرهيبة من الوفيات البشعة لأنه كان مرجعاً لرفقائه في الصبر والثبات ورباطة الجأش. كان الشمسي أياماً قليلة قبل محاولة الانقلاب على أهبة الرحيل إلى الولايات المتحدة الأميركية للقيام بتدريب هناك. وشاء قدره العاثر أن يعوض في اليوم الموعود ظابط المداومة الذي استدعاه إلى بيته شغل

طارئ. فكان ما كان، وألقي عليه القبض وهو لا يدري ماذا حدث، وحكم عليه بثلاث سنوات سجناً. منذ أول يوم في تزممارت، انطوى الشمسي على نفسه وغرق في صمت عميق، إلى أن كان يوم أُصيب فيه بغتة بنوبة عصبية حادة، وشرع يخبط على الباب بكل قواه وهو يسب الحراس متهماً إياهم بالقتلة الجبناء ومطالباً في الوقت نفسه بإطلاق سراح رفقائه وهاتفاً باسم زوجته وأمه وابنته الوحيدة مريم التي خلفها وراءه وعمرها لا يزيد عن بضعة شهور. وظل على هذا الحال أياماً طويلة، تارة ينهار من شدة الإنهاك وتارة يستأنف الضرب على الباب وهو في حالة من الهستيريا، إلى أن كف ذات صباح عن الضرب والصياح، فلما فتح الحراس عليه الباب، سقط في الدهليز جثة هامدة وقد كان متكئاً برأسه ويديه على الباب.

لم يعلم ساكنو العنبر الأول بهذه الأحداث إلا في سنة 1977 عندما حول المدير بعض رفقائنا إلى العنبر الثاني ليملأ زنازينهم بزائرين أفارقةٍ جدد، ثم تراجع عن ذلك وأمر بإعادة السجناء التسعة إلى أماكنهم. وكان ذلك أول اتصال بين نزلاء العنبرين تبادلوا فيه رغم قصره جميع الأخبار. فعلمنا أن ستة من رفقائنا قد فارقوا الحياة في ظروف همجية وأن ما يزيد عن هذا العدد قد فقد عقله أو يكاد.

لقد كانت سنة 1977 بدون شك واحدة من أشرس السنوات التي قضيناها في معتقل الموت البطيء.. فلم نكن قد أفلحنا حينئذٍ في إرشاء الحراس من جهة، ومن جهة أخرى كان التفتيش أمراً متداولاً كلما عاد حارس من إجازته. وكان مسك الختام في هذه السنة النكداء، وفاة أول صديق لنا في العنبر الأول.

كان المرحوم محمد السجعي وهو في ربيعه العشرين شاباً مرحاً بشوشاً يميل إلى القصرُ، جميل المحيا قوي البنية ذا مزاج رائق يشدك إليه من الوهلة الأولى. وقد كان حديث العودة من الولايات المتحدة

الأميركية حيث قضى في التدريب سنتين في مدينة سان أنطونيو. فألقي عليه القبض يوم محاولة الانقلاب وهو ما زال بعد تلميذاً سلاحياً يتدرب على شحن الطائرات بالذخيرة وليس له أدنى فكرة عما كان يحدث، فحكم عليه هو الآخر بثلاث سنوات سجناً.

كان ذلك الصيف خانقاً حاراً مفرطاً في حرارته، فجر معه كالعادة أفواجاً من أنواع الحشرات.

أصيب السجعي بحمى المستنقعات وأخذ يذوب على مهل في غياب أدنى رحمة أو مساعدة. وكان في هذيانه المتواصل يناجي نفسه بصوت مسموع ويهتف باسم أمه «مي عايشة» هتافاً يفتت الأكباد من فرط حرقته. ولما بُحَّ صوته من كثرة النداء، لاذ بصمت عميق. فأثار صمته ذاك استغراب السفاح بن دريس. فلما فتح عليه الباب ذات صباح، ألقى عليه نظرة متفحصة ونادى على حارس آخر فلفاه في غطائه الوسخ وأخرجاه إلى ساحة السجن ونحن جميعاً ننظر من خلال ثقب النويفذة مترقبين بأنفاس مشدودة ماذا سيقع.

وما هي إلا لحظة وجيزة حتى عادا به إلى زنزانته ورمياه على أرضيتها كما ترمى القمامة في المزابل. فلما استنكر ذلك رفيق كان يراقب تطور الأمور من ثقب زنزانته المقابلة لزنزانة السجعي وتبعناه نحن في ذلك الاستنكار، ثارت ثائرة بن دريس وهتف فينا هائجاً:

ـ لمذا تنهقون هكذا؟ أوَلم تفهموا أننا أخرجناه إلى الساحة لكي نحقنه بالإبرة؟

فأجابه أحدنا غاضباً:

ـ لا.. ليس لكم الحق في معاملته على هذا الشكل الهمجي. أنقذوه فإنه على وشك الموت.

فرد بن دريس باحتقار شديد والكلمات تخرج سماً زعافاً من فمه وأنفه:

ـ قلت لك لماذا تصرخ هكذا؟ إذا أراد أن يموت فليمت. وإذا كان الأمر يهمك إلى هذه الدرجة فاعلم أنه قد مات. وأزيدك، ليس هو أول من عرف هذا المصير. (إو صافي؟).

نزل علينا كلامه نزول الصاعقة الهوجاء، فلم نفه بأي جواب ونحن نغرق في ذهول أبله، ولم نكن نعلم آنذاك بعد بما حصل في العنبر الثاني، فلم نحسن تأويل نهاية جملته: (ليس هو أول من عرف هذا المصير). لقد هزنا موت السجعي هزاً وقد كنا نعتبره أخانا الأصغر، فرفضنا القهوة التي قدمت لنا ذلك الصباح النكد، وآثرنا الجوع حداداً على رفيقنا الراحل، ومنذ ذلك اليوم سننا سنّة حسنة تقضي بختم القرآن ترحماً على كل من استشهد. وقد اعتقد بعضنا بسذاجة الأطفال «أن مصائب قوم عند قوم فوائد»، وأن لجنة ما ستحقق لا محالة في القضية لتنزل بالمدير وزبانيته أشد العقوبات.. وبالتالي، فسوف يطلق سراحنا بعد أن يقوم المغرب كله ويقعد لهذه الجريمة النكراء. منتهى الغباوة.

الصحة والأمراض

في تزممارت، كان تفكيرنا محصوراً دائماً في الجوع والبرد. كنا نحلم بالشبع إلى درجة الهوس. وكنا نعد في الأول برنامجاً يومياً نستضيف فيه بعضنا بعضاً في الخيال، ونتنافس في إظهار كرم الضيافة بتنويع ألذ الأطعمة وأجود الأشربة في أفخر الفنادق وأغلى المطاعم العالمية. فكان «مضيف اليوم» يشرع بتقديم محتوى الفطور والغذاء والعشاء بعد أن يبذل جهداً جهيداً في تشويقنا بوصف دقيق لفخامة المكان وروعته، مبالغاً في تعداد الأطباق وتنويعها، متفادياً جهد المستطاع ما قدمه لنا بالأمس سلفه كيلا يسقط في التكرار فيثير سخرية ضيوفه.

وهكذا كنا مثلاً نتناول طعام الفطور في فندق هيلتون بالرباط، ثم نأخذ الطائرة مباشرة إلى القاهرة لنتناول وجبة الغذاء في فندق فاخر على ضفاف النيل، ثم نطير في المساء إلى باريس لنلتهم آلاف الأطباق المصنوعة بيد أمهر الطباخين وأشهرهم. لقد كنا نتمتع بالحياة في الخيال بإسراف وبذخ، لاهثين خلف سراب اسمه الشبع باللهفة نفسها التي يركض بها المتخمون الميسورون عن سراب اسمه الارتواء. فإذا ما سكن الليل وخيم الصمت، طوينا جناح الخيال، وعدنا إلى قبورنا المنسية كما تعود الفئران المريضة إلى جحورها المظلمة. لقد كان للجوع ألم حاد فظيع، كما نحس به كثعبان بألف رأس ورأس، يبدأ بالالتفاف حول أحشائنا فيصهرها صهراً، ثم ينهشها بعد ذلك بأنيابه الحادة السامة ليطوح بنا إلى متاهات الحمق والجنون. وقد كان بعضٌ منا، عقب تلك الوجبات الهزيلة التي كانت تقدم لنا، يتعمد إخراج الطعام من معدته إلى فمه ليعيد مضغه واجتراره على نحو ما تقوم به الأبقار والجمال، وخياله الجائع المريض يستعرض أمام عينيه المغمضتين أشهى ما أكلت بطنه الجحودة من أطعمة منذ يوم وُلِد. إن مصيبة الإنسان تكمن لربما في بطنه.. في ذاك الوعاء النتن الذي يبلع ثم ينسى مطالباً دائماً بالمزيد. فإذا ما ألف الامتلاء، انتفخ وترهل وأوحى لصاحبه بالطغيان والجبروت، وإذا ما اعتاد الفراغ، ضمر وحث صاحبه إما على الفتك والسطو، وإما على المهانة والذل. وطبعاً، لا نشك في أن جلادينا ـ وهم الخبراء المتمرسون في علم التعذيب ـ قد استغلوا ذلك خير استغلال لينزلوا بنا إلى درك الحيوانات.. أو لم يجعلوا منا أبقاراً وجمالاً تجتر؟

كانت السنوات الأولى من أفظع ما عشناه في السجن نظراً إلى شراسة المدير وزبانيته التي لم نكن قد توصلنا إلى إرشائها من جهة،

ومن جهة أخرى إلى صعوبة التأقلم مع الجوع والحر والقر والعزلة والظلام.

وهكذا، ومنذ الشهور الأولى، بدأت صحتنا تتدهور تدريجياً وبدأنا نشكو جميعاً من الزكام الحاد والبواسير ومرض اللوزتين وأوجاع المعدة والمفاصل وانتفاخ البطن والأعضاء التناسلية، إضافةً إلى صفير حاد في الأذنين كنا نشكو منه جميعاً بدرجات متفاوتة، دفع بعضنا إلى الجنون وأوصل بعضنا الآخر إلى مشارفه. وقد كان للحمى حظ الأسد في هذه الأوبئة، إذ كانت تأخذنا في الزمهرير قشعريرة عنيفة فنظل نرتعش كورقة في مهب الريح وأسناننا المسوسة تصطك اصطكاكاً كان يتعالى من الزنازين كطقطقة اللقالق حين تعود إلى أعشاشها في المساء.

وعلى ذكر الأسنان، فقد كان من الطبيعي في غياب أي نظافة ووقاية أن تتساقط بسرعة مفرطة بعد سلسلة من الالتهابات الحادة التي كانت تغرقنا في بحر لا قاع له من العذاب. وقد كنا نعمد إلى خلعها إما ببترها بأيدينا بعد اجتهاد متواصل في زعزعتها مع ما يصحب ذلك من الوجع الرهيب، وإما بربطها بحبل رقيق متين كنا نلفه حولها ونربط طرفه الآخر بالباب ثم نقتلعها بجرة عنيفة وسريعة برأسنا. وبطبيعة الحال، لم نكن نفلح من الوهلة الأولى، مما يعني أننا كنا نمارس التعذيب على أنفسنا وقتاً طويلاً حتى يتحقق المراد، فنخر بعد ذلك على أرضية الزنزانة صرعى وصدورنا مسربلة بالقيح واللعاب والدم. وقد كنا نعد بعضاً منا محظوظاً حين كان يبتلع في أثناء الأكل ناباً أو سناً أو ضرساً تساقط وهو لا يشعر. أما القبطان حشاد، فقد برع في هذا الميدان بعد أن كان أول من توصل إلى اقتلاع كل أسنانه، فعرض خبرته على أصدقائه، وأصبح بالتالي طبيب أسنان مميز، إذ كان يكفي أحدنا أن يريه الضرس اللعين فيتحسسه بسبابته

وإبهامه، حتى إذا ما حدد موقعه بتره بسرعة خاطفة وسلته وكأنه كان مدسوساً في عجين، ثم قدمه لصاحبه ببسمة عارية من الأسنان.

وفي الصيف، كانت عيوننا تصاب بأورام مختلفة وتظل تدمع ليل نهار من فرط طغيان الروائح الكريهة. أما الحمى، والإسهال، وانتفاخ الجمجمة، وفقدان حاسة الشم والتعفنات المعوية الإكزيما، فحدث ولا حرج. ولم يسلم من لسع العقارب والرتيلاء إلا قليل. ومن حين إلى آخر، كانت دماؤنا تتجمد رعباً كلما قدمت أفعى إلى العنبر وشرعت تخرج من زنزانة وتدخل إلى أخرى باحثة عن الفيران الطرية. وقد حدث في كثير من المرات أن استلذت المقام عند أحدنا فباتت في كرم الضيافة حتى مطلع الفجر. ولم نعرف طوال مقامنا في تلك الربوع الظلامية إلا حالة واحدة لداء السل. وأعتقد أن ذلك راجع إلى الاحتياطات الكثيرة التي كان الحراس يأخذونها، ومن بينها عدم الاقتراب منا أو لمس حوائجنا إلا في الحالات الاضطرارية النادرة كالموت أو الشلل. وقد كانت أُم الكوارث إطلاقاً هي أن يفقد أحدنا القدرة على الحركة، فمعنى ذلك أن جسمه كان يستحيل كله إلى جرح غائر ترتع فيه كل أنواع الحشرات.

وفي نهاية السبعينيات، استجاب الحراس لدعواتنا أخيراً بعد أن أصبحت حيطان الزنازين والدهليز مكسوة كلها بجيوش جرارة من الصراصير (سراق الزيت).

ولإعطاء نظرة مقتضبة عن تكاثر هذه الحشرة، يكفي أن أشير أن بعضنا قد أكلها خطأ في أكثر من مناسبة. فقد كانت تسقط مصادفة في صحن الطعام فنلتهمها من دون أن نراها، معتقدين، حينما كنا نحس بخشخشتها بين أسناننا أنها قطعة صغيرة من الغضروف.. ولم نكن نفطن بالواقعة إلا عندما كنا نشرع في التجشؤ الطويل فننفث من أنوفنا رائحة أشبه ما تكون براحئة الكبريت.

قدم الحراس ذات مساء ومعهم جندي يحمل على ظهره برميلاً من المبيدات وفي يديه رشاشاً، فأخذ يفتح الزنازين واحدة بعد أخرى ويطلق من رشاشه سحاباً كثيفاً صرع به الحشرات والسجناء على السواء. لقد عشنا حينئذٍ لحظة بشعة أشرفنا فيها على الموت بالاختناق من جراء اشتداد الرائحة وانعدام التهوية. وظلّت أنوفنا مدسوسة في ثقوب الباب تتنفس بعسر شديد وهي تبحث عن نسمة نجاة كأسماك رميت فور اصطيادها على الشاطئ. وفي اليوم التالي، جاؤوا بمكنسة ونقالة وشحنوا تلالاً سوداء من الصراصير المصروعة، ثم كبوا عليها بنزيناً وحرقوها في الساحة. مرت أيام قليل نعمنا فيها بشيء من السكينة، فإذا بنا نفاجأ بويل جديد أدهى وأنكى من سابقه: رحل «سراق الزيت» وحلّ محله «سراق الدم». جيوش جرارة من البق، هجمت علينا بأمواج عاتية على شكل مدرعات صغيرة كانت تتساقط من السقف مع بداية الليل لتغرز خراطيمها الجائعة في عروقنا اليابسة، ماصة ما فضل عن المحنة من دم باهت.

استحال التعايش مطلقاً مع هذه الحشرة الجبانة التي لم تكن تهجم إلا في الليل لتسرق منا تلك الهجعة النادرة. فأدركنا بيقين صادق أنها كانت قوتاً للصراصير وأنها لم تظهر إلا بعد أن رحلت هذه الأخيرة. لذلك ذكرنا فضل سراق الزيت علينا وأصبحنا نبحث عن الناجين منه لتربيته وتشجيع تناسله. وبما أنني لم أجد شخصياً أي حشرة منه في زنزانتي، فقد طلبت من صديقي في الزنزانة المقابلة، عبد الله أعكاو أن ينجدني بواحدة. وفعلاً، لم يخب ظني، فمدني بأنثى ودود ولود، أحسنت إليها واجتهدت في إطعامها فتات الخبز إلى أن فرخت لي دفعة تلو دفعة من الصراصير، فكان بذلك الخلاص.

وندمت حين نظمت قبل هذه الأحداث شبه قصيدة زجلية كنت أدمدم بها معاتباً هذه الحشرة، يقول مطلعها:

أسرّاق الزّيت، واش ما عرفتي من بيت غير سلُوني؟ (زنزانتي).
شحال من مرّلآ عليك جريت، وقلت صافي راني تهنّيت..
فاللّيل نلقاك فشُوني..

لما شعر الحراس بالخطورة التي يمثلها رش المبيدات في الزنازين، جاؤوا بمسحوق د.ت.ت. الأبيض وفرقوه علينا قائلين لنا في سخرية سمجة:

ـ كنت تكسرون رؤوسنا بطلب الدواء، فهاهو ذا الدواء إذن.. خذوا من هذا المسحوق ملعقة في الصباح وأخرى في المساء.

ولم يكن يعلم «بوكبش» وهو يضحك علينا على ذلك النحو البذيء أنه كان يصيب عين الصواب. فقد أصبح مسحوق د.ت.ت بالنسبة إلينا جميعاً دواء ناجعاً لإبراء كل الجروح وبلسماً فعلاً لإشفاء كل أنواع الدمل والقروح.

وأفتح هنا قوساً لألبس عباءة الطبيب وأنصح من يهمه الأمر من المرضى المعوزين أن يجرب هذه الوصفة التزممارتية الخالدة ما دام الدواء لم يعد بالمجان في مستشفياتنا البئيسة المريضة، وليذكرنا بعد ذلك بخيرأو بسوء.

لما طغت الروائح الكريهة بعد اختناق قنوات الصرف في المراحيض في صيف 1983، جاؤوا لنا بمسحوق آخر هو مزيج من الجير ومطهر فيه رائحة «جافيل» فسميناه اعتباطاً بـ «الزرنيخ»، وأصبحنا نستعمله كصابون لغسل حوائجنا. لقد كانت الحاجة تدفعنا دائماً إلى الاكتشاف والاختراع في محاولة منا للتخفيف من وطأة المحنة. وقد تفتقت في هذه الظروف قريحة بعضٍ منا وأبانت عن موهبة خارقة في ميادين شتى، فأصبحت تتنافس من أجل نفع وإسعاد مجتمعنا ذاك، مجتمع الخفافيش الآدمية التي أُريد لها أن تنزل إلى ما دون البهائم العجماء والقردة الخاسئة، فناضلت بشراسة للارتقاء إلى

مصاف أشباه البشر. وهكذا أصبح فينا الخياطون والحدادون والإسكافيون والطرازون والفنانون والممرضون والصانعون والقصاصون وما فوق ذلك وما دونه. وقد كانت لنا في النظافة طريقتان لتخفيف ركام الوسخ المتكدس فوق جلودنا، فقد كان هناك الحمّام المعرف بالألف واللام وهو الاغتسال في فصل الصيف بعد اقتصاد ما يمكن اقتصاده من ماء في إناء ثان موروث عن أحد الأصدقاء الراحلين، والحمّام «الناشف» في البرد، وهو يتمثل في تبليل خرقة حر شاء وحك الجلد بها تحت الثياب الملبوسة لإزالة قشرة الوسخ الغليظة. وطبعاً، لا مجال لذكر الاغتسال بالماء الساخن لأن ذلك كان حكراً على الآدميين فقط. ولما طالت لحانا، وغطت شواربنا شفاهنا، وانسدل الشعر على ظهورنا وأكتافنا، عمدنا إلى طريقة فريدة للحد من السوالف المرخية المزيتة، فكنا نأخذ خصلات من الشعر ونبدأ في حزها صعوداً وهبوطاً على حافة الجدار الحادة إلى أن تقطع.

وقد اهتدى المرحوم محمد لغالو إلى طريقة أخرى للتخفيف من كثافة لحيته. فقد كان يدهنها كل يوم ببقايا المرق، حتى إذا ما أحس أنها قد أخذت ما يكفي من الدهن، طلب من صديقه الحارس العربي لويز عود ثقاب فأشعل فتيلاً مدهوناً ثم شرع يحرقها شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح وجهه كوجه خروف العيد حين يشوى في النار قبل أن يبخر. ولما نجحت محاولته، أعطى الوصفة لزميله عبد الكريم الساعودي الذي كان مشاكساً لجوجاً عديم المهارة إلا في النكتة والضحك. وقد كانت له لحية طويلة كثة حمراء كلحية القراصنة الإسبان. فما إن قرب الفتيل من وجهه حتى اندلع فيه الحريق بكيفية مباغتة جعلته يصرخ ألماً وهو يلعن لغالو لعناً متهماً إياه باستغلال سذاجته واستعماله كفأر من فئران التجارب. ضحكنا من الأعماق ذلك اليوم ونحن نحول المأساة إلى ملهاة.

وفي يوم من أيام 1978، استطاع بن عيسى الراشدي وهو الحاذق الماهر أن يقتطع حديدتين من صندوق كان الحراس يجمعون فيه الأزبال، فمضاهما بعناية وأصبحنا نتناقلهما فيما بيننا لقطع شعورنا، وقد كان ذلك حدثاً تاريخياً في تاريخ البناية الأولى.

سنة بعد ذلك، أقدم محمد المجاهد على خطوة أخرى فأحدث ثورة صناعية ضخمة حين صنع أول مقص. فأخذ الرخصة منه كل من «حميدة» وبن عيسى والقبطانان غلول وحشاد فطوروه بشكل مدهش إلى أن عمت الرفاهية في هذا الميدان فأصبح لكل واحد منا مقصه. وهكذا أخذت غابات من الشعور تتساقط، وأصبحت الجزز الكثة المجعدة في أسواق تزممارت كنزاً نفيساً لأنها كانت تحل محل القطن والصوف وتصلح بذلك لحشو المخدات وترطيب الفراش ولأغراض عديدة أخرى. وأذكر جيداً أني سارعت يوماً «وحجزت» من محمد العفياوي شعره الأغبر الأشعث أسابيع قبل أن يصل إليه المقص، وصبرت طويلاً قبل أن يجود عليّ بالغنيمة، لأن الأمر كان يفترض وجود حارس متعاطف يرضى بنقل «الكنز» من زنزانة إلى أخرى. وصنعت من تلك الجزة غلاقة لثقب المرحاض قاومت بها الروائح الكريهة سنين عديدة.

أما في ما كان يتعلق بآداب العيادة عندنا، فقد كان كلما لزم الفراش أحدنا من جراء مرض ما، سارع الإخوان «لعيادته» وذلك بالسؤال عنه ونصحه بدواء سحري كان يشكل بالنسبة إلينا جميعاً لازمة أساسية كنا نتناصح بها في كل الحالات المرضية:

«الراحة والسخونية»، بمعنى، عليك يا صديقي بالراحة والدفء. فالراحة معناها ألا تجهد نفسك وتهدر ما تبقى من طاقتك في الثرثرة. وأما الدفء، فمعناه أن تنكمش على نفسك وتنتظر حتى يأتي الحراس فتلصق «الغراف» البلاستيكي الذي يحوي الطعام الساخن بموقع

العلة. نصيحة تافهة لم تكن تهدف إلا لرفع المعنويات وإظهار التعاطف. أما المصير المحتوم عند اشتداد المرض، فقد كان الجميع يعرفه ويتغاضى عنه. ولم يكن شيء يدخل الزنزانة إلا بحثنا له عن فائدة ما، فنفاية الشاي كانت تصلح دواء للمعدة، ولباب الخبز كنا نصنع منه صابوناً مطهراً وقضباناً نيبسها لنصل بها إلى الأماكن العالية. وسعف النخل الذي كان الحراس يكنسون به الدهليز من حين إلى حين، كنا نسرقه فنظفره لنصنع منه بساطاً نفترشه. وخيوط الأسلاك التي وجدها بعضنا في حيطان الزنازين، سلمناها للقبطان حشاد الذي برع في تحويلها إلى إبر رائعة للخياطة، وهلم جرا.

وقد تبدلت أحوالنا نسبياً في نهاية 1988 عندما أصبح بعض الحراس قابلين للارتشاء، وكذلك لما تدخل السفير الأميركي لمصلحة رفيقنا امبارك الطويل الضابط المحظوظ المتزوج بسيدة أميركية. فقد أُنقذ من دوننا جميعاً وأصبح يحظى بنظام خاص، كان يصيبنا منه الفتات. ومن ذلك أنه كان يهبنا خلسة وفي أحيان نادرة قطعة صغيرة من الصابون، كنا نحافظ عليها حفاظنا على سواد أعيننا إلى حد أن بعضنا كان لا يغسل يديه بها إلا مرة واحدة في يوم الجمعة بعد الصلاة طمعاً في الحفاظ عليها أطول وقت ممكن. وقد ضرب بعضنا الآخر الرقم القياسي حين جاء الفرج وقطعة صابونه لا زالت بها بقية.

فهل غيّر كل ذلك من بؤسنا من شيء؟

أبداً. لم نستطع أن نحصل على الحد الأدنى من النظافة. وبقي بيننا وبين الحيوانات في هذا المجال مسافة بعيدة. فقد كان يكفي أحدنا أن يحك جلده بظفره ليقتلع منه كويرات من التراب اللدن، ما كان أفصحه في ترجمة قوله تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

الاتصالات الأولى

يجدر التذكير بأن أول من ربط الاتصال بين بعض السجناء وذويهم هو المساعد الأول أحمد خربوش الذي افتضح أمره سريعاً سنة 1973 وعوقب رغم غياب الحجج.

وطوال ست سنوات بعده، ضُرب علينا حصار خانق محكم من طرف الحراس، ولم يكن يكسره في بعض الحالات النادرة سوى العربي لويز ومحمد الشربداوي، وذلك حين كانا يقومان لمصلحتنا ببعض المبادرات الخجولة.

غير أن حدثاً هاماً طرأ سنة 1975.

جاء العربي لويز ذات صباح بعدد من جريدة «العلم» مع شمعة وعلبة من عود ثقاب، سلمهم جميعاً إلى رفيقه السابق في الفوج، السجين محمد لغالو. فكان ذلك بمثابة فرصة تاريخية جعلت غواصتنا التزممارتية تطفو هنيهة على سطح بحر الظلمات لتقف على بعض الأخبار الوطنية والدولية. فقد علمنا مثلاً بوفاة الزعيم الاستقلالي علال الفاسي واعتلاء كثير من الرؤساء الجدد عبر العالم سدة الحكم. ولم يكُف العربي لويز عن مفاجأتنا، فقدم مرة أخرى عند محمد لغالو وسأله عما إذا كان أحدنا يملك جهاز ترانزستور ليزودنا بالبطاريات. خفقت قلوبنا جميعاً لهذا العرض الغامض سيما وقد كنا نعلم جميعاً أن رفيقين استطاعا أن ينجيا من التفتيش الدقيق جهازين

قدما بهما من سجن القنيطرة، ولم يكونا سوى محمد لغالو نفسه وعبد الكريم الساعودي. فعقدنا جلسة طارئة لمناقشة هذا العرض. وانقسمت فكرة السجناء حوله إلى رأيين. رأي يحث على الحذر خوفاً من الوقوع في فخ، ورأي ينادي بضرورة الثقة العمياء في ذلك الرجل الذي لم نعهد منه سوى الخير. وفعلاً جاء الرجل بالبطاريات كما وعد، فسلمها للغالو الذي سلمها بدوره إلى الساعودي لتصبح الزنزانة رقم 9 قبلة لكل نزلاء العمارة الأولى.

وهكذا أخذ «سي تسعود» كما كان يسميه بعض الحراس، ينقل إلينا بانتظام وتفان أخبار المغرب والدنيا مرتين كل أسبوع. ولم يكن الأمر هيناً بالنسبة إليه، فقد كان مرغماً على الوقوف في البرد زمناً طويلاً ورأسه وكتفه مسندين إلى الجدار نظراً إلى صعوبة الاستقبال داخل تلك الزنازين التي لم تكن سوى علب من الإسمنت المسلح. وقد كان لكل زنزانة خصوصياتها، إذ كان على المتصنت أن يذرع زنزانته مليمتراً بمليمتر إلى أن يجد المكان المناسب للاستقبال. وقد يجده مرة في أعلى الجدار أو في أسفله، ومرّات أخرى فوق ثقب المرحاض نفسه. وهكذا انفتحت أمامنا نافذة على الحياة والدنيا رغم أن صاحبنا لم يكن يلتقط سوى أمواج إذاعتنا الوطنية التي كانت أخبارها وتعاليقها عن المغرب لا تتحدث دائماً إلا عن أخبار الخير والازدهار والرفاهية والنماء. وهكذا أصحبنا ننتظر يومي الاثنين والخميس لنأخذ نصيبنا من «الزريعة» أو «النيوز» كما اتفقنا أن نطلق على الأخبار ـ، كما ينتظر المدمن حصته من المخدر. فنشطت الدردشة وحميت النقاشات، وبرز من بيننا معلقون سياسيون ورياضيون كانوا كلما تكلموا أنصت لهم الجميع نظراً إلى رجاحة أفكارهم واتساع مداركهم. وعلى هذه الوتيرة عشنا ستة أشهر مرت كالبرق الخاطف، استنتجنا منها على الأقل أننا لم نكن في الآخر

ننتظر يوم البعث. ولما انتهت البطاريات، غرقت غواصتنا مرة أخرى ثلاث سنوات في محيط الظلمة والعزلة والنسيان.

لقد كان أول اتصال حقيقي ربط بين سجين وأسرته هو ذلك الذي قام به الحارس «الشويبيني» لمصلحة القبطان بكلبير سنة 1978. فقد كان يأخذ منه الرسائل ويسلمها لأسرته ثم يعود له بالجواب مع شيء من الأدوية والمقويات، أما المال، فقد كان يأخذه كله ثم يقول لصاحبه بلهجة واثقة:

ـ لم يعد لك ما تفعله به في هذه الحفرة.

بمعنى، إنك ميت لا محالة، أما أنا، فمالك هذا يصلح لي في أمور عديدة. وشاءت الأقدار السعيدة أن تلتقي والدة القبطان عبد اللطيف بلكبير مع والدة الملازم عبد العالي الصفريوي وقد كانتا تتعارفان جيداً قبل هذا، فأعطت السيدة الأولى الفرصة للثانية للاتصال بابنها بواسطة «الشويبيني» الذي قبل العرض تلقائياً بعد أنت أسال لعابَه الطمع في غنيمة سهلة. ولكنه كم كان بليداً حين أسقط من حسابه أنه سيتعامل مع السيد عبد الحق الصفريوي، شقيق السجين الذي كان تاجراً متمرساً وأدرى الناس بحيل النصابين والمحتالين الذين صادف منهم في حياته المهنية ألف لون ولون. فلم ينطل عليه بالتالي جشع «الشويبيني» وهو يراه لأول مرة. «فدهنه» بمبلغ ضئيل من المال ثم سلمه عينات من أنابيب غليظة تحوي دواء «كلسيبرونا» بعد أن دس بكيفية ذكية بين كل أنبوب وغشائه الداخلي البراق أوراقاً مالية مهمة. وهكذا سقط الشويبيني في فخ من نوع فاسي أصيل، إذ سلم الدواء إلى المُرسَل إليه بدون أن يعير ما بداخله اهتماماً. ولو كان قد علم بالحقيقة لندب وجهه كمداً ولأصيب بالإغماء.

لقد كان شقيقا القبطان عبد اللطيف بلكبير، عبد الكبير وخالد من بين أهم الأشخاص الذين أدّوا دوراً حاسماً في الإفراج عنا. فقد

كان الشقيق الأول طالباً في الهندسة المعمارية في باريس مما ساعده منذ مستهل الثمانينيات على إشعار منظمة العفو الدولية والمنظمات الحقوقية العالمية الأخرى بما كان يجري في تزممارت. لكنه لم يستطع بالمقابل أن يربط اتصالات مع أُسر بعض السجناء من رفاق أخيه، الشيء الذي عوتب عليه هذا من طرف أصحابه كثيراً.

وفي سنة 1969 استطاع القبطان حشاد أن يربط اتصالاً مع زوجته بواسطة المساعد الأول محمد الشربداوي. وقد دام هذا الاتصال أكثر من عامين ونصف إلى أن انقطع الحبل بين تلك الأُسر نهائياً لمدة سنين طويلة على إثر التفتيش المشؤوم الذي تعرضنا له يوم 13 تموز/ يوليوز 1982.

في تلك الفترة نفسها قام المساعد الأول العربي أمزيان بربط اتصال أو اتصالين لكل من القبطانين المذكورين سالفاً إضافة إلى الملازم عبد العالي الصفريوي. وقد أسدت إليّ والدة هذا الملازم خيراً كثيراً حين اتصلت بأسرة في فاس كانت تربطها بأُسرتي علاقة حميمة. فماذا كانت النتيجة؟

كارثة دهماء.

فبعد أن استمع إليها رب الأسرة ملياً، وقد كان أستاذاً كنت أظنه طيباً محترماً، استبد به الروع فانهال عليها تهديداً وتعنيفاً قائلاً لها وهو يغلي كالمرجل غضباً:

- كيف؟ أتحدثينني عن أولائك المجرمين القتلة؟ إذا رأيتك مرة أخرى تحومين حول هذا المنزل أخبرت عنك البوليس فوراً.

ولكن رغم كل ما حصل لها، استخبرت الحاجة عائشة بعض الناس عن أسرتي، فكتبت بنت أخت عبد العالي الصفريوي لعمها هذه الجملة المقتضبة:

- أما بخصوص رفيقك، فإنه ليؤسفني أن أخبره بأن والده قد

توفي منذ أمد بعيد وأن أمه تعيش وحيدة في قرية نائية بضواحي تونات وأن أخاه الدبلوماسي قد خرج من العراق بعد أن أصيب بمرض عضال.

أخبار كانت قيمنة بنسف معنويات فيل أو دينصور.

وفي سنة 1983، لما عُيِّن السرجان محمد بوكبش حارساً رسمياً في العنبر الأول، أغرتني ضحكاته المجلجلة، فارتأيت أن أحاول إقناعه للاتصال بأسرتي. وبما أنني لم أكن أملك لا قرطاساً ولا قلماً، فكرت أن أطرز رسالة بالخيط والإبرة على ظهر خرقة اقتطعتها من ظهر سترتي العسكرية. ولم تكن العملية بالشيء الهين، إذ كان عليّ أن أقضي سحابة نهاري تحت ثقب الزنزانة منكباً على الخرقة بعينين مبحلقتين دامعتين من أجل طرز كلمة أو كلمتين. وبعد شهر كامل من العمل الشاق المتواصل، استطعت أن أنجز بكل تواضع تحفة فنية بشهادة أصدقائي، فلما تهيأت لي الفرصة وأعطيته تلك الرسالة، ألقى عليها نظرة عابسة، ثم رمى بها بسبابته وإبهامه في النفايات كما يرمى الفأر الميت في القمامة.

وفي سنة 1988، دخل بوكبش إلى معمعة الارتشاء فربط اتصالاً أولاً لكل من القبطانين المذكورين والملازم الصفريوي. وفي السنة التالية، قبل أن يزيد عليهم رفاقاً آخرين بعد أن نشبت بيننا حول الاتصال بالعالم الخارجي سلسلة من الصراعات المريرة. وهكذا يلاحظ أن نسبة قليلة من ذوي العائلات الميسورة هي التي كان لها الحظ في ربط الاتصال بذويها، أما السواد الأعظم منا ممن كانت أسرهم تسكن في البوادي النائية، فلم يتوصل بعضهم بنزر يسير من الأخبار إلا في السنة الأخيرة أو الشهر الأخير من مقامنا في السجن، يوم انكشف سر تزممارت ولم تعد تنكره سوى غطرسة المسؤولين الخرقاء.

والخلاصة هي أن هؤلاء الحراس، رغم كل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات، فإن حياتهم معنا كانت موغلة في الشقاء والنكد. إذ لا يمكن للحطاب الذي واظب طوال عقدين من الزمن على رمي الخشب في النار ألا يحترق يوماً بما حطب. وقد كانت مواساة كبيرة بالنسبة إلينا أن نرى بعضاً من هؤلاء الأوغاد ـ باستثناء الرجال الطيبين منهم ـ يسقطون في شراك الرشوة وكأن وخزة الضمير قد أوجعت فيهم الأرواح، فاندفعوا بدون وعي يحاولون التكفير عن ذنبهم العظيم، وإن كان ذلك التكفير «بالفلوس». هذه الملاحظة قمينة بأن تشغل جيشاً من علماء النفس لينكبوا على دراسة نفسيات تلك المخلوقات الجاهلة لعلهم يتوصلون إلى سبر أغوارها السحيقة والاهتداء أخيراً إلى فكّ رموزها المعقدة.

العلاقة بين السجناء

إن علاقة السجناء في ما بينهم لمن المواضيع الدقيقة التي يعسر علاجها نظراً إلى تعقدها وتشعبها وحساسية وقائعها. ولكن، ما على الذي قبل ركوب البحر إلا أن يتهيأ لمواجهة أمواجه العاتية. فرب معتقد بأنه من المفروض على الناس أن يتلاحموا ويتضامنوا تلقائياً عندما تحل بهم النكبات وتجمعهم القضية الواحدة والمصير المشترك. ولكن من المؤسف أن نعترف بأن حياتنا في تزممارت، حملت إلينا قوافل كثيرة من المرارة وخيبات الأمل. ولكي نتوخى نوعاً من الوضوح، فلنتجرأ على القول بأننا انقسمنا أيام اشتداد المحن إلى ثلاثة فرق: فريق تصرف بأنانية مفرطة، وفريق أبان عن جانب من التخلخل والضعف من دون أن يضر بأحد، وفريق كان على مستوى عال جداً من حيث التضحية ونكران الذات، رفعه إلى مصاف الأتقياء والصالحين.

لن أذكر كثيراً من الأسماء تفادياً لإنكاء الجراح القديمة وتهييج

الذكريات الأليمة، فالمهم هو أن سفينتنا المتداعية الراشية قد رست على شاطئ النجاة وإن كانت قد تركت في محيط دياجير تزممارت ما يزيد عن نصف عدد بحارة الظلام. وإنه لمن المثير حقاً أن نلاحظ اليوم أنه كلما التقينا بضعنا ببعض في أحد البيوت أو في الأماكن العمومية، غضننا الطرف عن ذكر تلك الأزمات وكأننا أمضينا في ما بيننا اتفاقاً صامتاً يشهد على أن كل واحد منا اكتشف لنفسه في تزممارت نفساً ثانية دفعته إلى التصرّف بشكل أنكرته نفسه الأولى، فلما عادت الأمور إلى نصابها عادت ذاته الأولى إليه وعاد إليها. لقد كانت حياتنا في بداية مشوارنا الجهنمي هادئة مطمئنة من حيث التساوي في الألم والعذاب. إذ كنا في السنين الأولى نقيم وزناً كبيراً للتراتبية العسكرية ونعيش عيشة الثكنات، محترمين بعضنا بعضاً. لكن مع تعاقب السنين، أصبحت تلك التراتبية الصارمة تضمحل رويداً رويداً إلى أن أصبح الجميع على قدم المساواة، ولم يحافظ على نصيب من الوقار والتأثير إلا صديقان أو ثلاثة.

أجل، قبل أن يدخل المال عنبرنا كنا مجتمعاً فاضلاً يتواد ويتحاب ويتشاطر السراء والضراء، سيما بعد أن أصبح الواحد منا يعرف عن كل أصدقائه قصة حياتهم من ألفها إلى يائها. فقد تحاكينا صبانا وطفولتنا وشبابنا وكل شيء عن حياتنا. فلما نضب الزاد انتقلنا إلى القصص التي قرأناها والأفلام التي رأيناها فقصصناها ثم أعدنا قصها تطويلاً وتجميلاً وتشويقاً إلى حد الاستنزاف. ثم قفزنا إلى التعريف بكل الشخصيات التي أثرت في حياتنا من معلمين وأساتذة ورجال نافذين وأناس بسطاء. المهم، كل ما كان من شأنه أن ينسينا للحظة ما شظف عيشنا وشقاء حالنا. فأصبحنا بالتالي عبارة عن جسد واحد إن تألم منه عضو تألمت الأعضاء الأخرى. ولما دخل «فيروس» المال عندنا، تسمم الجو بيننا ومرضت علاقاتنا مرضاً

عضالاً سيما بعد أن أخذت الفوارق الطبقية طريقها إلى التشكل. فقد استطاع نفر قليل من السجناء ذوي العائلات الميسورة أن يربطوا اتصالاً بذويهم بواسطة بعض الحراس الذين جاؤوا لهم بشيء من الطعام والمال والأدوية والفيتامينات. وقد حافظ هؤلاء السجناء على هذه الاتصالات بكل ما أوتوا من قوة، رافضين توسيعها إلى سجناء آخرين بدعوى أن ذلك سيؤدي إلى انكشافها فتكون بذلك الطامة الكبرى. وقد كانت عقليتهم متطابقة مع عقلية المجتمع المغربي عموماً، حيث كانوا يظنون أن انتزاع حق من الدولة لا يمكن أن يكون بتاتاً عبر حملة إعلامية واسعة النطاق، وإنما بالتضرع والتوسل إلى المخزن مروراً عبر قنوات رسمية معيّنة. أما الغالبية العظمى من السجناء فكانت تؤمن في مقابل هذا بأن الخلاص لن يأتي إلا بإخبار المنظمات الحقوقية والرأي الوطني والدولي بما يجري في تزممارت لتثار بذلك فضيحة كبيرة يضطر معها النظام المغربي إلى إعادة النظر في قراره. وهكذا بدأ الصراع المرير يحتد بيننا مع مرور الوقت إلى أن برزت فئة عمدت إلى استعمال سلاح المساومة ضد أولائك الذين سدوا في وجوههم أبواب الاتصال بأسرهم ورفضوا اقتسام الدواء:

ـ طيب.. تأبون اقتسام كل شيء، ولكن ماذا سيحصل لو افتضح أمركم؟ أوَليس العقاب سينزل بنا جميعاً وبدون تمييز؟ إذاً، إما الاقتسام وإما إخبار المدير.

وحقيقة المشكل هو أن هؤلاء «المساومين»، كانوا يضغطون على أصحابهم بتلك الكيفية العنيفة لانتزاع أكبر ما يمكن مكن المساعدات، معترفين لهم في الوقت نفسه بكثير من الامتيازات. أما الطرف الآخر، أي «الأغنياء»، فقد كانوا يرون أن المال مالهم وأنهم مستعدون لمساعدة أصدقائهم ولكن بدون شروط مسبقة وبدون أن يفتي أحد عليهم رأيه.

وهكذا أصابتنا لعنة المال. ودخل صراع الليبرالية مع الاشتراكية حلبة تزممارت. فأصبحت الزنازين مسرحاً خصباً للمفاوضات والمساومات والتحالفات والدسائس والمؤامرات، فتردت بذلك أحوالنا، وازدادت محنتنا بفعل الأعصاب المتوترة والمشاجرات الدائمة. وقد كان الأمر في بعض الحالات المرضية الخطيرة يقتضي فقط قرصاً واحداً من الأسبرين أو حبوباً قليلة من المضادات الحيوية لإنقاذ رفيق تجره الحمى بيقين إلى الموت المحقق، ويصادف ذلك «حصاراً» مضروباً على الميسور من طرف المساوم، فنظل على ذلك الحال مدة طويلة، نتوسل إلى هذا ونستعطف ذاك إلى أن يقبل الثاني فيجود الأول. لقد كان حقاً مشكلة عويصة انقلبت مع الوقت إلى معضلة، إذ كان كلا الطرفين على صواب، وأيهما استمعت إليه أقنعك بحججه. فمن جهة، لا يمكنك أن تعاتب «الغني» على حذره ورغبته في تقليص المخاطر بتقليص الاتصالات أو إرغامه بفظاظة على اقتسام كل ما يتوصل به من أسرته، ومن جهة أخرى، لا يمكنك أن تنكر على «الفقير» حقه في المطالبة بحد أدنى من التضامن. ففي هذه الأدغال الظلامية المروعة، حيث تجرد بعضٌ منا من كل إنسانيته ولم يعد يفكِّر إلا في مصلحته، تشكلت منا فئات مختلفة أخذت تحوم حول مركز المال بأساليب شتى، على غرار ما نراه اليوم في مجتمعنا المادي الموغل في الأنانية والمصلحية. فقد كان منا الإقطاعيون والمتزلفون والمساومون واللامبالون وأصحاب المبادئ الثابتة. ومن بين هذه الفئة الأخيرة التي أنقذت شرف معتقلي تزممارت، انتصبت جماعة فاضلة وأخذت على عاتقها إخماد الفتنة كلما تأجج فيها الأوار، وذلك بالسعي الحسن إلى تقريب وجهات النظر والوصول وبالتالي إلى الحلول الوسطى. وإنصافاً «للأغنياء»، فقد كان بعضٌ منا يرى أن أغلب أسرنا لو اجتمعت كلها على بذل كل ما لديها لما

توصلت إلا إلى جمع مبالغ زهيدة لن يخاطر من أجلها أي حارس، اللهم إلا إذا كان معتوهاً أخرق. أضف إلى ذلك، أن السواد الأعظم من هذه العائلات المتواضعة كانت تسكن في المداشر والقُرى النائية، حيث خطر الوشاية محقق نظراً إلى تكاثر العيون التي يعول عليها المخزن من شيوخ ومقدمين ومخازنية ومخبرين رسميين ومتطوعين، «أصحاب الحسنات». ولمن كان بعد طفلاً غريراً في تلك الآونة، فعليه أن يسأل عما كان عليه المغرب آنذاك من قمع وبطش ليتفهم تحفظ وحذر أولائك الذين كانوا يخشون على أنفسهم وذويهم من صعقة المخزن. وقد كان القبطان بلكبير يحاول جهد طاقته اقتسام ما كان يتوصل به من أسرته مع بعض السجناء كمحمد الزموري وعبد ربه وآخرين. وكان كذلك من بين الروّاد الذين فطنوا إلى أن المصلحة العامة تقتضي إثارة ضجة إعلامية حول تزممارت رغم احتمال حلول الطوفان المخزني بنا. كما كان له ولأسرته الفضل الكبير في إخبار منظمة العفو الدولية منذ سنة 1980. ولكن الغريب في الأمر، هو أن هذه المنظمة العتيدة لم تحرك في الأول ساكناً وإنما اكتفت بطلب رسالة أخرى من سجين آخر لتأكيد تلك الأخبار، وهو الذي لم يكن ممكناً في تلك الظروف. ولم يقف كل من عبد الكبير وخالد بلكبير عند هذا الحد، بل كثفا من جهودهما للاتصال بأكبر عدد ممكن من المنظمات الحقوقية الدولية والمؤسسات السياسية الأوروبية وكذا الشخصيات الإنسانية كجان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار (قبل وفاتهما بقليل) والممثل الفرنسي الراحل لينو فانتورا، كما سلما في هذا الشأن رسالة إلى كريستين السرفاتي التي سلمتها بدورها إلى لجنة مناهضة القمع في المغرب. وبهذا كانا من أول المساهمين الرئيسيين في فكّ طوق العزلة عنا وإخبارالعالم بمأساتنا.

وعندما أرجع بذاكرتي إلى الوراء، أحس بمرارة شديدة ليقيني

بأنه كان بإمكاننا ربح كثير من السنوات من شبابنا المغصوب، ولربما ربح أرواح كثيرة لو أننا عرفنا كيف نتعامل مع الفرص المتاحة لنا منذ 1979، لكن قلّة قليلة منا هي التي كانت لها في أواخر السبعينيات رؤية واضحة حيال المبادرات الصحيحة التي كان علينا أن نقررها، غير أنها كانت تصطدم دائماً بمواجهة عنيفة من فئة كانت عقولها مبرمجة حسب معطيات مخزنية ثابتة، أي: الصمت والحذر والذاتية. أجل. بقليل من الذكاء، كان بإمكاننا ربح أعوام زاهية وإنقاذ أرواح بريئة. ولكننا أخطأنا فأدينا ثمن خطئنا باهظاً فادحاً..

اللغة التزممارتية

منذ الشهور الأولى تبيِّن لنا أنه لا مناص من اختراع لغة مشفرة لا نفهمها إلا نحن، وذلك لتيقننا بأن الحراس كانوا يتصنتون علينا قبل المجيء إلى العنبر وبعده.

وفي الفترة التي قبل فيها بعض الحراس ربط الاتصال بيننا وبين العالم الخارجي، استحالت تلك الضرورة إلى شيء حتمي ومصيري لكوننا كنا قد توصلنا في أواخر الثمانينيات إلى إدخال أجهزة الترانزيستور التي مكنتنا من التقاط الأخبار عن كثير من المحطات الدولية. ونظراً إلى كوننا كنا نغرق في مناقشة تلك الأخبار ونسهب في تحليل مضامينها بأصوات عالية، فطنا سريعاً إلى خطر انكشاف أمرنا لو تمادينا في الحديث بدون رموز. إضافة إلى ذلك، كان قد أصبح آنذاك لكل سجين «كنزُه» النفيس الذي جمعه طوال السنين من هنا وهناك، والذي كان يتمثل غالباً في مصحف للقرآن الكريم، وقطعة من المرآة، ومقص محلي الصنع، وحبات من المضادات الحيوية والمقويات، وقطعة صابون، وخشاش الأغطية.

وسنلاحظ في التفتيش المشؤوم الذي تعرضنا له سنة 1982 أن القائمة كانت أوسع مما ذكرنا. وها هي ذي عينة من الكلمات المشفرة التي كنا نستعملها في حديثنا بكثرة:

عمل لم ينته: غاندليج ماي سلُوبي.

عمل انتهى: غاندليج سلوبا.
كل شيء مشبوه أو مشكوك فيه: الغاندليج.
Our friend: «آور فراند» صديقنا الذي يحمل لنا الرسائل.
سلُّو ليا: دعني عنك.
الحميمة: (الحمامة الصغيرة) الطائرة.
الحميمات: سلاح الطيران.
فضولات: الدركيون (نسبة إلى الكولونيل فضول).
الحارتيات: رجال الشرطة (نسبة إلى ضابط شرطة كان معنا في سجن القنيطرة يسمى الحارتي).
السّبُوات: الجيش.
الهويشة: الضابط.
مريزكا: الدار البيضاء.
الزيتونة: مكناس.
عمي الحاج: فاس.
حلالا: القنيطرة.
كابازلا: ساعد.
طاير بكر: البرقية.
المسمنة: الرسالة.
خرابيجُو: الانقلاب العسكري.
الدّق والتشنديق: الحرب.
خرخاش المغرب (اسم ضابط صف كان معنا في أهرمومو).
آلفا: الجزائر.
طانكُو: تونس.
ليما: ليبيا.
إيكو: مصر.

سييرا: سوريا.
بُونيف: العربية السعودية.
فُوكسطرُوط: فرنسا.
الميترايا: فرنسوا ميتران.
ميني جيب ثم القزديرة (نسبة إلى المرأة الحديدية): إنجلترا.
بن كبّور (نسبة إلى بكنباور): ألمانيا.
بُورُقعة: إسبانيا.
كاكارين: الاتحاد السوفياتي.
يانكي: الولايات المتحدة الأميركية.
أولاد السُّوق: السوق الأوروبية المشتركة.
عبد الواحد: الأمم المتحدة.
بيبسيكولا: الجامعة العربية.
السّمرقندي: الحسن الثاني ثم باربارُو (نسبة إلى صحفية أميركية أجرت معه استجواباً وكانت تسمى باربارا).
البصارة: إدريس البصري.
المسُودي: أحمد بن سودة، المستشار السابق.
الكدرة: أحمد رضا كديرة، المستشار السابق.
Les pépés: الأحزاب السياسية.
papa alfa romeo: البرلمان.
وُشّن: هواري بومدين.
بّا مجا: بورقيبة (نسبة إلى المجاهد الأكبر).
L'enfant terrible: ثم الولد ثم الزوّاق كلها ألقاب لمعمر القذافي.
السّبع: حافظ الأسد.

غُزغُوزا: المرأة أو الفتاة.
غُزغوز: الشاب.
شابهي: الحذر أو خذوا حذركم، تفتيش محتمل.
كيكلكيس: اصمتوا، لسماع نبأ مهم.
الفيرما أو التويرتُو: الراديو.
الزريعة أو النيوز: الأخبار.
الشُوّالة: الصحفيون.
النّبرُوات: الصحف والمجلات.
كبزال: (نسبة إلى كعب غزال) المرآة الصغيرة التي كنا ندخل بها الضوء من ثقب السقف.
هاي كبزال: المرآة الكبيرة.
العنبر أو نتيّو: البولساريو.
الطرانفو: النضال.
القرُودة: القروض.
كولف: الإضراب عن الطعام.
تُوش لامان: الاعتراف بدولة ما.
أمينة: منظمة العفو الدولية.

نماذج مركبة من اللغة التزممارتية

الدق والتشنديقماي سلوبي ما بين خرخاش والعنبر.
لا زالت الحرب قائمة بين المغرب والبولساريو.
أولاد السوق غادي يكبزالو خرخاش بيش بركة ديال القرُودة.
ستسلم السوق الأوروبية المشتركة بعض القروض إلى المغرب.
وقع وحد خرابيجو فالنّكريطا.
وقع انقلاب عسكري في نيجيريا.

على حساب الفيرما ديال العنبر، البيصارة كيتشلهب على لي بيبي باش ما يزيدوش فالطرانفو، أما مشى حتى سلُّو ليهُم على حقّاش شاركُو فإيكُو ليما إيكُو وفيها الغندليج.

على حسب ما أوردته إذاعة البوليساريو، فإن وزير الداخلية إدريس البصري استطاع أن يقنع الأحزاب السياسية التقدمية بالكف عن المعارضة والمشاركة في الانتخابات التشريعية رغم التأكد العميق للرأي العام بأنها ستكون مزورة كسابقاتها.

الباش كايبالي بصحبُو فإيكُو ليما إيكُو ديال يانكي على حقاش تبين ليه بلي جبّد لستيك لواحد غُزغُزا.

شن الرئيسُ الأميركي جورج بوش حملة مسعورة ضد منافسه في الانتخابات الرئاسية الأميركية بعدما تأكد علناً أنه كان على علاقة مشبوهة مع امرأة.

الوافدون الجدد

لغز الأفارقة السود

في سنة 1978 ونحن في عز الشتاء، وقعت جلبة كبيرة كدرت صفو سكينة السجن الجنائزية: جاء الحراس إلى العنبر الأول على حين غرة، وشرعوا في تحويل بعض السجناء منا إلى العنبر الثاني. وما إن وصلوا إلى الزنزانة رقم 10 حتى جاء أمر معاكس بإرجاع الجميع إلى أماكنهم.

ماذا حدث؟

جماعة من أسرى جدد، تتكون من اثني عشر أفريقياً سود البشرة، سيق بهم إلى تزممارت، وزج بهم في طرف قصي من العنبر الثاني. وقد بدا واضحاً أن المدير كان ينوي إسكانهم في زاوية من العنبر الأول ثم بدل رأيه في آخر لحظة بعد أن ارتأى أن يدفنهم في العنبر الثاني، عنبر الموت. ففسح لهم المجال هناك بعد أن أسكن ما تبقى من أصدقائنا مثنى مثنى في زنازين الزاوية القصية المعاكسة احترازاً من الاختلاط. وفي الحقيقة، كان عدد أولائك الأفارقة عند قدومهم ستة عشر رجلاً، وكان الجميع في العنبر الثاني يعتقد خطأ أن الأربعة المتبقين منهم يوجدون معنا في العنبر الأول. فأين ذهب هؤلاء الأربعة إذاً؟ ذلك ما لا يعلمه إلا الراسخون في علوم الاختفاء

القسري. كانت بداية أولائك الأفارقة في تزممارت في منتهى الشدة والعسر نظراً إلى عدم قدرتهم على تحمل بردها الشديد وجوعها المهول. فقد كانوا يقضون نهارهم وليلهم في الارتعاش المستمر والشكوى المتوجعة، متوسلين إلى الحراس أن يسمحوا لهم بمقابلة المدير أملاً في إقناعه بتحسين طعامهم ومدهم بما يكفيهم من الأغطية. فكانت النتيجة نحساً عليهم وعلينا جميعاً لأن القاضي فعل عكس ما كانوا يطالبون به، وذلك من أجل إسكاتهم وجعلهم يقتنعون بأن ما على من ولج الجحيم إلا أن يصلى النار ويصمت. فمن هم هؤلاء الأفارقة التعساء الذين قطع بهم حظهم العاثر آلاف الأميال ليرميهم في مهاوي السعير؟

لقد رفضوا رفضاً قاطعاً كشف هويتهم، فتضاربت بشأنهم التأويل والأقوال. فقد زعم حراس العنبر الأول أنهم جنود من الطوكو، وادعى حراس العنبر الثاني أنهم مرتزقة ماليون أسرهم المغاربة وهم يحاربون في صفوف البوليساريو. (نشير هنا إلى أن سجناء العنبر الثاني لم يكن لهم أدنى علم بما كان يجري آنذاك في الصحراء الغربية). أما بعض الأصدقاء منا فقد احتملوا وهم يمزحون أنهم لربما جنود من الزائير أو الغابون، جيء بهم إلى تزممارت في إطار تبادل الخبرات الحبسية بين هؤلاء الدول الثلاثة الصديقة. بينما اعتقد آخرون بأنهم لربما عناصر من دورية موريتانية ظلّت سبيلها على الحدود فأسرها المغاربة زمناً في سجن آسفي قبل أن تنقل إلى تزممارت.

على كل حال، كان هؤلاء يتكلمون لهجة أفريقية غريبة، وكانوا يتنادون في ما بينهم بألقاب الوحوش كـ «الفهد» و«الصقر» و«العقرب». والشيء اللافت حقاً هو أنهم كانوا كلهم زنوجاً ويدينون جميعاً بدين النصرانية باستثناء مسلم واحد يدعى زكريا، كان يقضي كل وقته في الصلاة وذكر الله. ولما توفي المرحوم عبد العزيز اعبابو،

جود آيات من ذكر الله الحكيم بصوت رخيم مؤثر اقشعرت لحلاوته أجسام جميع السجناء. وحين كشف لهم أصدقاؤنا عن هويتهم اطمأنوا لهم وبدوا أكثر تفتحاً مما كانوا عليه من قبل. فعهدوا إلى أحد منهم كان يتقن اللغة الفرنسية مهمة الاتصال بأصدقائنا في المناسبات الاضطرارية كتقديم العزاء كلما توفي أحد منا أو طلب خدمة إسداء نصيحة. ولم يقصر أحد من رفقائنا في التخفيف عنهم ومساعدتهم وإزجاء النصح لهم. ولكن ذلك لم يمنع ضابطاً منهم برتبة ملازم من الانهيار منذ الشهور الأولى وإسلام الروح إلى بارئها بعد أن عانى من سعال مزمن ترتب عن نزلة بردية حادة. فدفن في الساحة الداخلية للسجن على شاكلة من سبقه من رفقائنا الراحلين. فأقام أصدقاؤه بالمناسبة قداساً دينياً أثر كثيراً في رفقائنا الذين لم يسبق لهم أن حضروا مراسيم جنازة مسيحية. وهكذا يظهر جلياً أن التعايش السلمي والتسامح الديني كانا على أعلى مستوى في تزممارت. وقبل حلول شهر رمضان ببضعة أيام، كسر أحدهم الصمت وكان يدعى «برنار»، فتوجه إلى أصدقائنا كافة قائلاً لهم بلهجة فيها تأثر وامتنان:

ـ أيها الأصدقاء الأعزاء، نعاهد الله ونعاهدكم على أننا سنفعل المستحيل من أجلكم لو فرّج الله علينا قبلكم.

وقبل دخول شهر الصيام بيوم واحد أو يومين، قدم الكولونيل فضول فزارهم واحداً واحداً، ثم أمر الحراس بتفريق ألبسة وحقائب جديدة عليهم وألزمهم بحشوها بكل أسمالهم الوسخة، ثم أركبهم ليلاً في شاحنات توجهت إلى حيث لا يدري أحد. في صباح اليوم التالي، سمع رفقاؤنا الحارس «باغازي» الملقب بـ «السرخينطو» وهو يقول مندهشاً لزميله حمو «حمار العودات»:

ـ باسم الله الرحمن الرحيم. من أخرج جثة هذا الأسود من قبرها؟

فرد «حمار العودات» بلهجته الممتعضة اللامبالية:

- لقد قدموا في عز الليل فحفروا عليها وأخرجوها من قبرها ثم وضعوها في صندوق وانصرفوا بها إلى حيث لا يعلم إلا الله.

هل يجوز لأحد بعد هذا أن يشك في ولع الكولونيل فضول بأفلام «دراكولا»، مصاص الدماء؟

الرقيب الأول الصديق الميلودي (توفي سنة 1980)

كان يسمى في العنبر بـ «لومستريو» بمعنى الرجل الغامض.

أما في العنبر الثاني فكانوا يطلقون عليه لقب «الصولو» ومعناه بالإسبانية الوحيد. كان الميلودي ضابط صف في سلاح المظليين برتبة سرجان شاف، فجاء به الكولونيل فضول إلى تزممارت وزج به في أقصى زنزانة توجد في شمال العنبر الثاني بعدما أمر بترحيل باقي السجناء إلى أقصى الجنوب.

ومنذ يومه الأول، غرق في صمت مطبق لم يخرج عنه قط، رغم محاولات السجناء المتكررة في استمالته إلى الكلام.

وذات صباح، وبينما هو يقوم بحركات رياضية كدأبه كل يوم، إذا به يسقط على الأرض وإذا بيده تكسر. ونظراً إلى انعدام الدواء، أصيب المسكين بداء الغرغرينة التي ما لبثت أن أفرغته من باقي قواه بعد أن نخرت عظامه نخراً. فتكفل به كل من سكيبا ومنولو، حيث تعاونا على مده بالماء والطعام وتخفيف ما كان يمكن تخفيفه من حالته المأساوية. وحانت منهما فرصة فسألاه ذات يوم:

- لماذا شققت على نفسك وأبيت التحدث إلينا يا أخي؟

- فأجاب بصوت متهرج حزين وقد بلغ به العياء مبلغه:

- أبيت ذلك لأن الثرثرة اللعينة هي التي أودت بي في هذا الجرف الهار. أقدم لكما نفسي: اسمي هو الصديق الميلودي. أنا

ريفي من تيزي أوسلي. كنت في سلاح المظليين برتبة رقيب أول. وكانت مهمتي تقتصر على حراسة فيلا كبيرة فخمة في ضواحي الرباط بمعية ضابط صف آخر كانت لي فيه ثقة عمياء. وحدث ذات يوم أن شرعت في انتقاد سكان تلك الفيلا بكثير من الاحتقار أمام صديقي، فكانت العاقبة كما تريان.. لقد نقل الحارس كل ما قلته حرفاً بحرف إلى صاحب الدار، فاعتقلت فوراً وسجنت في ثكنة للدرك، ولما رفضت الطعام الذي كان يقدم لي هناك، جاء عندي الكولونيل فضول وقال لي بلهجة تقطر تهكماً:

- كل يا بني.. فسوف نذهب بك قريباً إلى مكان لن يوجد فيه مثل هذا الطعام إلا في الأحلام..

أياماً بعد ذلك، عصفت بالميلودي حمى عاتية نشبت فيه أظافرها فجعلته يتوجع ويهذي ليل نهار، ولم تدعه إلا بعد أن أخمدت فيه الروح. فتكفل «بغسله» كل من بين بين وعاشور وسكيبا.

الأخوة بوريكات

لما قدم الإخوة بوريكات إلى تزممارت، انفتحت نافذة عريضة من الحرية أمام نزلاء العنبر الثاني. فقد قضى هؤلاء الوافدون الجدد شهوراً عديدة وهم يقصون على مسامع السجناء المتعطشة جميع الأحداث والوقائع البارزة التي مرت في العالم طوال السنوات الثماني الأخيرة. وقد ظل هؤلاء ينصتون إليهم بانبهار شديد وهم يحمدون الله الذي أرسل إليهم ذلك الخيط الرفيع من النور الذي أنار عتمة أيامهم القاتمة وكسر رتابة حياتهم البئيسة. وعندما نفدت جعبة الأخوة الثلاثة، لجأوا إلى سرد مغامراتهم الكثيرة التي دارت أحداثها في بعض العواصم الأوروبية الشهيرة كباريس ولندن. وقد أسهبوا في ذلك إسهاباً كبيراً وتفننوا في وصف الأماكن والشوارع والمحلات إلى

حد جعل السجناء العسكريين يتعرفون إليها بأسمائها وتقاطعاتها ومحاطتها وكأنهم عاشوا فيها فعلاً.

كان مدحت، ـ حسب ما حكى لي صديقي في المحنة، عبد العزيز الداودي هو أكبر إخوته سناً وأحكمهم وأصبرهم على الشدائد، وقد كان يشتغل قبل اعتقاله مهندساً في الإعلاميات. وهو رجل لطيف المعشر، عذب الحديث، سحر أصدقاءه بحكاياته المسلية عن مغامراته التي دارت في ملجأ مدام هانو الموجود في قلب باريس. كما تطوع لإعطائهم دروساً في الإعلاميات وكشف لهم كذلك عن أسرار الطبخين المغربي والفرنسي وفنونهما اللذين كان يتقنهما كثيراً. غير أنه سرعان ما خارت قواه، فأرغمه المرض على ملازمة الفراش. فتكفل به علي، أخوه الأصغر، إلى اليوم الذي سقط فيه شقيقهما بايزيد مريضاً، فصعبت مهمة علي، الشيء الذي استدعى تدخل الصديقين الداودي وسكيبا لسماعدة المريضين.

أما بايزيد، أوسط الإخوة، فكان على انزوائه هادئاً متأدباً، وقد بذل جهداً كبيراً لحفظ القرآن الكريم، غير أن الوهن والمرض أدركاه سريعاً فنسفا عزيمته وقذفا به في خانة المرشحين للموت البطيء. وكان علي، أصغر الأخوة سناً رجلاً مزَّاحاً خفيف الظل، لا ينضب أبداً من حكاية الطرائف والمستملحات. وقد كانت له إرادة قوية وموهبة خارقة في استمالة السجناء والحراس على السواء، الشيء الذي سهل عليه مأمورية مساعدة أخويه المريضين. ولكنه مع تعاقب السنين، أصابه سعال حاد مزمن وهزال فظيع مهول فلم يعد يقوى على الحركة إلا متكئاً على عكازين. ورغم كل ما أصابه ظل صابراً مستميتاً إلى أن جاء الفرج.

الجمعة 13 تموز/ يوليوز 1982
أو التفتيش الجهنمي

لما قطعنا نصف المشوار في دياجير تزممارت المروعة، وبالتحديد في صيف 1982، كانت معنويات سجناء العنبر الأولى قد تحسنت نسبياً بفعل سلسلة من الاتصالات التي ربطها بعض الحراس لنفر من رفقائنا ذوي الأسر الميسورة.

وقد كان قطب الرحا في كل هذه الاتصالات هو القبطان حشاد الذي كان الحارس محمد الشربداوي يعمل لحسابه ولحساب الملازم الطويل منذ سنة 1979. وفي 1982، أضاف إليهما كلاً من الملازم عبد العالي الصفريوي والقبطان بلكبير الذي عهدنا إليه بحمل أسرته على ربط أكبر عدد ممكن من الاتصالات من أجل جمع أكبر قدر ممكن من المال.

ولما أصبح الحارس السابق العربي أمزيان الساعد الأيمن لمدير السجن، دخل بدوره إلى معمعة ربط الاتصالات، وقد كان يلعب على حبلين كما رأينا، فبدأ يعمل لحساب السجناء الثلاثة بتناغم كبير وتنسيق تام مع الحارس «جيف» الذي كانت تربطه به علاقة صداقة ومودة. فكان كلما أراد أن يسلم طرداً أو رسالة جاء إلى العنبر متذرعاً مرة بتفقد العنبر ومرّات أخرى بمراقبة الحراس.

وفي هذه الآونة كذلك، كان القبطان بلكبير يستفيد من حين إلى

آخر من خدمات «الشويبيني» الذي كان يتطوع للتسويق بالمقابل لكل من عرض عليه مالاً. أم السرغيني، الحارس البئيس المتبائس الذي كانت مهمته تنحصر في تفريق الطعام، فقد كان يقوم بدوره بالمهمة نفسها لقلة قليلة من الأصدقاء.

وفي كلمة موجزة، استقامت لنا الأمور، وتنفسنا الصعداء بفضل سحر الرشوة وبفضل حدب وتعاطف الحارسين الطيبين، «جيف» و«باحمدون» اللذين لم يكونا يقصران من جهد في التخفيف عنا والرفع من معنوياتنا. وهكذا أصبحنا نمر عند بعضنا بدون أدنى عناء، ونظل في الدهليز أمسيات طويلة كلما سنحت الفرصة لصديقينا اللذين كانا يغتنمانها عادة عند غياب المدير. فتلطف الجو، ورفعت الكلفة بين السجانين والسجناء، وأصبحت الثرثرة والمداعبة بينهم عملة جارية. وبلغ «بذخنا» أقصى مداه في هذه الآونة حين أمسى كل سجين يمتلك «هاي كبزال» (مرآة كنا ندخل بها قبساً من الضوء إلى الزنزانة) يقرأ تحت ضوئه في المصحف ويتابع بفضله مباريات في الشطرنج. وزاد نعيمنا واكتمل حين تكاثرت الترانزستورات، فقويت الأخبار، وتنوعت بتنوع المحطات العالمية الكثيرة التي كنا نلتقطها بفضل هوائي محلي الإبداع، صنعه القبطان غلول من صفائح علب السردين حين لفها بعناية وركب بعضها في بعض ثم أخرجها من ثقب السقف إلى الخارج.

وفي سكينة هذا الانفراج المدغدغ اللذيذ الذي تابع فيه الموت رغم ذلك حصد أرواحنا بمثابرة وانتظام، ظل سؤال ملح حارق يكوي شفاهنا بالشك والحيرة كلما قفز إلى لساننا وطرحناه على بعضنا: ما موقف الحارس الماقت الممقوت، الشيطان «بن دريس» من كل هذا؟ هل تعطلت حواسه ففعل إلى هذا الحد، أم أنه أغمض عينيه نصف إغماضة على شاكلة التمساح الذي يتناوم قبالة فريسته ليغافلها ثم ينقض عليها بعد ذلك.

انقسمنا في هذا الشأن كالعادة إلى فئتين، فئة تؤكد بأنه على دراية تامة بكل شاردة وواردة وأنه إنما ينتظر عرضاً من أحدنا لينخرط في قائمة الوسطاء والمراسيل، وفئة تناشد بالتحلي بأكبر قدر ممكن من الحيطة والحذر واحتراز. ولم يطل علينا الأمد حتى طلع علينا الجواب في يوم نحس بغيض. فقد حدث أن حصل القبطان بلكبير ذات يوم بواسطة «الشويبيني» على مجلة أدبية وكتابين في علوم الدين. وتفادياً للانتقادات اللاذعة، ارتأى المسكين أن تمر المجلة من زنزانة إلى أخرى، حسب الترتيب العددي، ليطلع عليها كل السجناء. وهكذا، لما وصلت إلى الملازم عبد السلام حايفي، ساكن الزنزانة رقم 25 الذي كان مصاباً بالخبال، سلمها على مرأى من اللعين بن دريس إلى رقم 26، ميمون الفاكوري الذي كان أسوأ حالاً من جاره المريض. فوقعت الكارثة...

خطف «السلك» تلك المجلة من يد حايفي وهو يرسم على فمه الملوث بمرض السرطان ابتسامة تقطر بالحقد والخبث والمقت. ولما تناهى إلينا الخبر الأسود ذلك المساء، اندفعنا نتوسل إلى المارد لعلنا نثنيه عن عزمه المجرم في الوشاية. فناشدناه بوجه الله الكريم وبكل عزيز لديه أن يحكم عقله وضميره لينظر بعين إنسانية إلى محنة أصدقائنا المحتظرين. فبقي مدة في الدهليز يستمرئ ويتلذذ بتوسلاتنا وهو يهز رأسه كأنما يستزيدنا من تلك التوسلات لإشباع شعوره بالقوة والجبروت. وما هي إلا لحظة حتى غادر العنبر والمجلة في يده.

في صبيحة الغد، قدم الحارسان «جيف» و«باحمدون» بوجهين ممتقعين مكهربين وشرعا يتوسلان إلينا خفية أن نجمع كل ما عندنا من أشياء غير قانونية لتسليمها لهما في المساء. وفعلاً، جازفا مجازفة كبيرة بخرقهما لقانون التوقيت حين قدما إلى عندنا على وجه السرعة في حدود الساعة الثالثة مساء وهما في ذعر وهلع من ينتظر حكماً

بالإعدام. فشرعا يجمّعان بتوتر محموم كل ما كان يسلمه لهما السجناء ويضعانه في كيسين كبيرين، حتى إذا ما استشعرا مزاحمة الوقت، انسحبا بالسرعة نفسها التي جاءا بها وهما يحملان الكيسين على ظهريهما كلصين هاربين بعد اقتحامهما لمصرف في واضحة النهار.

لم ننم تلك الليلة بفعل التوتر الشديد الذي شد أعصابنا المريضة من جراء ارتقاب حلول الطوفان بنا. والحقيقة المُرّة هي أننا لم نسلِّم لصديقنا كل ما كان عندنا من كنزنا البئيس المتمثل في جهاز ترانزستور.. بطاريات.. مرايا صغيرة.. حبات قليلة من الفيتامين وأسبرين ومضدات حيوية جاوزت مدة استعمالها بسنين.. علب سردين أكثرها خاوية.. قنينات دواء معظمها فارغة، قلم بيك.. قلم رصاص.. قطعة صابون.. مسامير.. مقص محلي الصنع.. خشاش أغطية.. لا شيء في لا شيء.. بؤس في بؤس.. ولكنه استكثره علينا رغم ذلك الجلاد «السلك»..

كنا في حالة استنفار قصوى نعد العدة ليوم الغد، مجهدين عقولنا في اختراع وسائل أخرى ناجعة لإخفاء ما تبقى من «مكتسباتنا» التي جمعناها قطعة بقطعة طوال ما يقرب من تسع سنوات. وكانت لنا في فن الإخفاء قبل ذلك اليوم ثلاث وسائل متميزة:

كان الاختراع الأول من طرف القبطان حشاد الذي عمد إلى مثلث إسمنتي يوجد بمحاذاة المرحاض تحت الزاوية القائمة للجدار، فنزعه بواسطة حفر مستمر بمسمار وحجر، ثم أفرغ ما تحته من رمل وحصى ورده إلى مكانه الأصلي بعد أن حك قوقعته ملياً من الأسفل ولحم جوانبه بالإسمنت تاركاً في أحد أطرافه فتحة جعل لها غطاء محكماً كان يكفيه عند الطوارئ أن ينزع ذلك الغطاء فيشحن المخبأ بكل ما أراد ثم يعيده إلى مكانه بكيفية متقنة يستحيل معها إثارة الشك في أي مفتش مهما بلغت درجة فطنته.

ولم تكن تعبئة هذا المخبأ بالأمر الهين، بل كانت تتطلب كثيراً من المهارة والحذق والإمكانيات أيضاً، لهذا بقي حكراً على قلّة قليلة من الأصدقاء.

والطريقة الثانية كانت من اختراع القبطان غلول، وقد كانت في منتهى البساطة والذكاء، إذ عمد بواسطة لباب الخبز الذي عجنه ملياً وأعطاه لون حائط الزنزانة على غلق أحد ثقوب الجدار من الداخل، فكان كلما استشعر خطراً خبأ مكتسباته في الثقب المفتوح من الخارج.

أما الطريقة الثالثة فكانت تتمثل في جمع كل الأشياء المشبوهة في كيس صغير طويل كان يحزم جيداً ويربط طرفه بحبل ثم يخرج من ثقب السقف بواسطة عمود ويوضع الطرف الآخر للحبل على جانب الثقب بكيفية دقيقة يسهل معها استرجاع الكيس بجره. وقد كانت هذه العملية شاقة جداً وتتطلب تمارين متواصلة لم يكن يطيقها إلا من كان لا زال يقوى بعد على التحرك السريع نسبياً.

وفي اليوم الثالث لانكشاف أمرنا، أي يوم الجمعة 13 تموز/ يوليوز 1982 على الساعة الثالثة مساء، اقتحم الحرس علينا العنبر بتشكيلتهم الكاملة وهم يحملون في أيديهم كشافات كهربائية قوية.

فتحوا علينا الأبواب وبدأوا تفتيشاً رهيباً لم يبقَ فينا شيئاً ولم يذر. تفتيش وحشي تنافسوا فيه في العنف والبربرية فلم يرحموا فينا مريضاً ولا محتضراً. كل شيء فتشوه.. شقوق الحيطان، زوايا الزنازين، قنوات المراحيض، ثقوب الجدران، تباطين الثياب، ثنايا الأكمام، حتى عوراتنا فتشوها.. ولو كانوا قد علموا أن بعضاً منا دس عميقاً في إسْته علباً رقيقة شحنت بأوراق مالية لكانوا أدخلوا سبابتهم بدون تردد لاستخراجها.

ولم تمضِ إلا هنيهات قليلة حتى امتلأ الدهليز إلى آخره بخليط

أشياء مختلفة متنافرة لا يوجد مثيلها إلا في حمولة الشاحنات التي تنقل القمامة إلى المزابل البلدية. فجيء بناقلة لحمل ذلك الكشكول الملوث إلى الخارج.

وكم كانت دهشة الحارس مولاي علي الملقب «بالفرناتشي» عظيمة حين كان يجد من حين إلى آخر قنينات من مستخلص كبد الحوت الذي كان بعض السجناء يداوي به مرضه. فكان يهز رأسه بمرارة ويصرخ فينا بملء رئتيه.

ـ لعبتو بي أولاد القح.. نتما كضربوا الويسكي مع رساتكم ومُولاي علي مسكين كيتسخر عليكم بحال شي حمار..

كان الفرناتشي من المدمنين على الخمرة الرخيصة، فلما توهم أننا كنا نشرب الويسكي، أحس بالغبن والخيبة، فحقد علينا كثيراً لاعتقاده بأننا بادرنا بإفراغ ما تبقى منه في جوفنا كي نحرمه منه عنوة.

في أثناء ذلك التفتيش الهمجي، كان عبد الله أعكاو قبالتي يستنكر بصوت صارخ والدموع تسيل على خده ألماً ومرارة بعد أن سلبه الحراس كل شيء. وما إن فتحوا الباب عليّ لتفتيشي حتى سكت عن الصراخ وهو ينظر إليّ مشدوهاً مستغرباً. فقد كان منظري يثير الضحك والاستغراب حقاً، ذلك أني أردت أن أنجي خشاش فراشي الذي جمعته على امتداد سنين عديدة، فحشوته كله في كمّي سروالي بعد أن شددتهما بحبلين من الأسفل، فبدوت له أشبه حال ببهلوان حشر نصفه السفلي في بالونين منفوخين بإسراف. وما إن اقترب مني «السلك» و«السرخينطو» حتى تقطع حزامي وكأنه خاف منهما، فهوى السروال على الأرض على شكل كومة كبيرة كاشفاً عن ساقي وعورتي، فما كان من عبد الله إلا أن انفجر ضاحكاً بقهقهة هستيرية جرت عدواها في الحراس فاندفعوا وراءه في ضحك جماعي صاخب سرعان ما اندمجت فيه بدوري بحماس إلى أن أصبحنا جميعاً

عبارة عن جوقة من المخبولين في مارستان للحمق..

وقبل أن يغادر «السلك» العنبر، التفت إليّ وهو يغمزني غمزة متواطئة وقال لي وهو يناولني حبلاً طويلاً:

خذ عني هذا.. أنا أعلم أنكم تتواصلون بينكم عبر الثقوب بهذا الحبل.

ولكن بسمته الخبيثة كانت تقول:

ـ خد هذا عني لمن أراد منكم أن يشنق نفسه..

أحرق الحراس كل أمتعتنا في ساحة السجن. ولم يظهر «السلك» للمدير إلا نزراً قليلاً جداً مما أخفاه عنه، وذلك لتيقنه في آخر لحظة بأنه مُورط نفسه وحارقها لا محالة إن هو كشف له عن كل شيء.

وهكذا رجعنا إلى نقطة الصفر. فاسودت الدنيا في أعيننا، وتدهورت معنوياتنا ونحن نتوجس من حلول غول البرد، متيقنين بأن موسم الموت في فصل الشتاء سيكون غنياً بإزهاق مزيد من الأرواح الشابة البريئة.

ولم تحل بنا صاعقة المدير كما كان متوقعاً. فقد أدرك لا شك في أن من مصلحته أن يخفي كل شيء عن رؤسائه خوفاً من إقالته. وقد كنا نعلم بيقين صادق أن الحراس يعرفون جميعهم من أين حصلنا على كل تلك المكتسبات، ولكن الأدلة كانت تعوزهم. فقد بذلوا كل ما في وسعهم وهم يستنطقوننا لاستخراج أسماء من ساعدونا، ولكننا تمسكنا جميعاً بالنكران الشديد. وهكذا لم يستطع أحد أن يتهم إلا العربي أمزيان ولا محمد الشربداوي، فالأول كان مقرباً من المدير ولا يشتغل داخل العنبر. أما الثاني فكانت بنيته القوية تفرض الهيبة على أولائك الأوغاد الذين لم يكونوا في أصلهم سوى جبناء رعاديد.

غاب «باحمدون» إذاً، وهجرنا «جيف» وتنافس الحراس في

أذيَّتنا درءاً للشبهات، واجتهدوا في مراقبة بعضهم بعضاً بحثاً عن ضحية يتقربون بها إلى ولي نعمتهم، المدير إبليس. وبدأنا نفكر في الانتحار بإلحاح ونحن نرى جحافل البرد قد دقت طبول الحرب وبدأت ترسل إلى أطرافنا اليابسة سمومها الشيباء.

ومرت علينا فترة عويصة عصيبة كأحلك ما عشناه في ذلك المعتقل المشؤوم، تساقطت فيها الأرواح تباعاً بوتيرة مقبولة حسنة حسب معايير الجلاد بن دريس. فمات من مات، وبقي من بقي، ومع مرور الأيام، أخذت الروتينية من جديد طريقها إلى نفوس الحراس، فأدركهم الملل ثم كسر شوكتهم، فحفزنا ذلك على معاودة الكرَّة لربط سفينتنا الغارقة بالعالم الخارجي.

قضية الملازم امبارك الطويل

إذا كان تفتيش 13 تموز/ يوليوز 1982 سيظل واحداً من أحلك ذكريات تزممارت، فإن قضية الملازم امبارك الطويل المثيرة قد ساهمت بكيفية كبيرة في إعادة إشعال فتيل الحياة فينا وجعلنا نتشبث بحبال الأمل الواهية بعد أن كانت سفينتنا الغارقة قد رست في أعماق قيعان اليأس السحيقة. بعد إحدى عشرة سنة من جحيم مفجع، شممنا عبق رائحة جنة تفوح من وراء المحيط الأطلسي، على بُعد مسافة تقدر بستة آلاف كيلومتر.

لم تعد تزممارت سراً محرماً رهيباً لا يعرفه إلا الراسخون في علم البطش والقمع والتنكيل. فقد تهاوى الجدار الإسمنتي المتين، وطارت الأخبار إلى المنظمات الحقوقية الوطنية والدولية كسرب من الغربان يفضح مقبرة جماعية كشف عنها الانجراف. ولكن رغم ذلك، عمِيَ المسؤولون المغاربة وصموا سبعة سنوات أخرى.

المهم، علمت أميركا بالخبر، أو بالأحرى، تماثلت بمعرفته، ـ وما كان لها إلا أن تعرف ـ فلما أحرجت، مدت يدها الطويلة طول الدنيا إلى واحد من دونِ سواه لتنتشله من الحمأ المسنون.

ازداد الملازم امبارك الطويل في وسط إرادة بربرية فقيرة في مدشر يوجد في ضواحي مدينة الخميسات، عاصمة قبيلة زمور. فتلقى تعلميه الابتدائي في هذه المدينة ثم رحل إلى الرباط لمتابعة دراسته الثانوية

تلميذاً في قسمٍ داخلي مستفيداً من منحة وزارة التعليم. وفي سنة 1963 حصل على شهادة الباكلوريا وهو ابن العشرين ربيعاً، فخاض مباراة ناجحة للدخول إلى سلاح الطيران، رحل على إثرها إلى الولايات المتحدة الأميركية لقضاء تدريب هناك، ثم عاد بعده إلى الوطن لقضاء تدريب آخر في الأكاديمية الملكية العسكرية في مكناس، حيث تخرج منها ضابطاً برتبة ملازم ثانٍ سنة 1966. وهكذا، عُيِّن في القاعدة الجوية الثالثة الموجودة في مدينة القنيطرة، وتميّز منذ أول عهده بها بصرامته وجديته وكفاءته إلى أن نصب بضعة أشهر قبل الانقلاب رئيساً بالنيابة لمصلحة المعدات العامة، وهي مصلحة حساسة في القاعدة. وكان ذلك دلالة واضحة على الثقة التي وضعها فيه رؤساؤه ومبشراً له بمستقبل باهر كان من الممكن أن ينتظره لولا حكم القدر. في هذه الآونة نفسها تقريباً تزوج امبارك من «نانسي» وهي سيدة أميركية كانت تعمل كُتُبية في خزانة القاعدة، فاعتنقت الإسلام، وسمت نفسها «ثريا»، وأنجبت له قبل شهرين من الانقلاب طفلاً سمياه «أمين». حكم الطويل بعشرين سنة سجناً رغم ثبوت براءته. فهبت زوجته لزيارته في السجن، وهي الغربية التي كانت تعتقد أن ذلك حقاً من أبسط حقوقها. لكنها سرعان ما اصطدمت بجدار صمت كان أقوى من إرادتها المتوثبة. ولما خبرت المخزن جيداً فضلت أن تتريث قليلاً إلى أن تمر العاصفة لتعاود الكرة من جديد. وفي محاولاتها المتكررة تلك، كتب لها أن تكتشف عالماً قذراً لم يكن يدور بخلدها يوم وضع زوجها خاتَمَ القران في إصبعها أنها ستعرفه. عالم تعرَّفت فيه إلى الجو المشحون بالمآسي والنكبات داخل جدران السجون الرطبة المدوية بصرخات الانسحاق والضياع. فالشفرات الحادة التي كانت تطحن بها آلة السجن رقاب النزلاء لم يكن ليحد من وطأتها سوى بذل الكثير من العطايا والهدايا والمال. وهكذا «تشرفت» بمعرفة وجوه بشعة لا تجيد في

معاملاتها سوى لغة الانتهاز والرشوة والمساومة. فألقت بنفسها من أجل زوجها في ذلك التيار العكِر، واستطاعت ببذل المال أن تسرب له رسائل كانت تحترق بالأشواق، مرفوقةً بصور طفلهما «أمين» وهو بعد في شهوره الأولى رضيعاً غريراً. بعد ذلك مباشرة نزل ستار الصمت بينهما كسيف باتر هوى على خيط رفيع.

في تزممارت، كان الطويل محظوظاً نوعاً ما حين رمت به الأقدار في الزنزانة رقم 15. وهي زنزانة توجد في وسط العنبر وتقابل بذلك مدخله. وقد كانت مساحتها ضعف مساحة باقي الزنازين، وبالتالي فقد كانت أكثر تهوية وأقل ظلمة إضافة إلى أن ساكنها كان من حظه العظيم مشاهدة رقعة من السماء وقطعة من أرض الساحة كلما فتح الحراس عليه الباب. ولكن في مقابل هذه الامتيازات، كانت زنزانته أشد برداً في الشتاء نظراً إلى مواجهتها لباب العنبر من جهة، ولعدد الثقوب التي كانت ضعف ما في حيطان الزنازين الباقية من جهة أخرى.

في تزممارت كما في الحياة العادية، كان الطويل رجلاً قليل الكلام، مرتاباً حذراً لا يثق إلا في نفسه. لذا، فقد كان لا يخرج عادة عن صمته إلا إذا تعلق الأمر بشيء بالغ الأهمية. وقد كان في كل نقاشاته معنا هادئاً مهذباً يتميّز بالذكاء والموضوعية واحترام آراء الآخرين. وهذا ما جعل احترامه من طرف ضباط الصف على الخصوص يبقى قائماً، وإن ظلوا يحفظون له في ذاكرتهم صورة ذلك الضابط الصارم الذي كان في القاعدة الجوية لا يرحم أحداً إن تهاون في عمله أو تلاعب بالانضباط. وقد عانى كثيراً من البرد الشديد في السنين الأولى من اعتقالنا، فما اشتكى يوماً أو توجع، بل على النقيض من ذلك، كان دائماً في صفوف المنهارين، يشد أزرهم ويرفع من معنوياتهم ليواصلوا المشوار.

وفي نهاية سنة 1977 وبداية 1978، طرح صمته جانباً وانبرى إلى الساحة ليثرثر كثيراً مع القبطان حشاد، (الذي كان يقابله تقريباً) فبرمج معه ساعة محددة في كل مساء، كانا يخترعان فيها لغة مشفرة للتواصل في ما بينهما، لم يستطع أحد من السجناء إن يتوصل إلى فكّ رموزها رغم كل المجهودات المبذولة. وقد أدركنا في ما بعد أنهما كانا يستعدان لمحاولة ربط اتصال مع أسرتيهما بواسطة الحارس (جيف).

وفعلاً، نجح مخططهما وظل سراً مطبقاً بينهما أمداً طويلاً إلى أن انكشف في نهاية المطاف. فأُرغم حشاد على الاعتراف من طرف بعض السجناء الذين كانوا يطمعون هم كذلك في الاتصال بأسرهم. ولكنه في اعترافه ذاك، تستر على الطويل وأنكر إنكاراً قاطعاً أن يكون قد أشركه في مشروعه. وقد ترتب عن هذا أن أصبح للرجلين سجناء يحقدون عليهما كثيراً.

وفي أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفبر من سنة 1984، بعد وفاة التيجاني بن رضوان بشهرين، ونحن نجتر فراغنا القاتل، وقع حدث ضخم كان له وقع الزلزال في قلوبنا.

قدم الحراس ذات يوم على حين غفلة بوجوه مكفهرة بصحبة المدير الذي لم نره لسنين عديدة، فتوجهوا جميعاً إلى الزنزانة رقم 15 وفتحوا بابها، فسمعنا صوتاً غريباً علينا يهتف برنة استعلاء:

ـ هل أنت هو السجين امبارك الطويل؟

ـ نعم.

ـ فقال له الصوت المتعالي ثانية:

هيا اخرج من زنزانتك.

ولما تبيّن للآمر أن السجين لا يقوى على المشي من شدة الوهن، صرخ في الحراس آمراً:

ـ هيا ساعدوه!

في تلك الساعة، كانت حالة الطويل الصحية قد وصلت إلى ما تحت الصفر. فقبل أن يعرف تزممارت، كانت قامته في طولها تشبه قامة لاعبي كرة السلة، إذ كان رياضياً رشيقاً يقارب المتر والتسعين، طويل الوجه، مستقيم الأنف، رقيق الشفاه، خفيف الشعر، ضعيف النظر. وقد كان جسمه يتميّز بشيء قلما يوجد عند باقي الناس، إذ كانت يداه مفرطتان في الطول بشكل لا يتناسب مع باقي جسمه، الشيء الذي جعله يتلقى عروضاً مغرية من بعض مدربي فرق البيسبول في الولايات المتحدة الأميركية. ولكن الطويل في تلك الساعة التي قدم عنده فيها ذلك الزائر الغريب، كان قد أصبح هيكلاً عظيماً ضخماً يحاول الوقوف على رجليه.

ساعده على الخطو حارسان، فأخذاه من إبطيه وذهبا به إلى أين؟

ظل السؤال معلقاً في زنازيننا على مشاجب الحيرة والترقب، وقلوبنا تقرع في صدورنا مرة طبول الخطر، ومرة طبول الأمل، وهي تنتظر بلوعة قاتلة ماذا سيسفر عنه الآتي الذي أبى أن يأتي. ساعة بعد ذلك، رجع الطويل إلى زنزانته. وما إن أغلق الحراس باب العنبر وانصرفوا حتى تعالت أصوات السجناء من كل الجهات تسائله بشوق لامس حدود الهذيان:

ـ سي امبارك؟ سي امبارك؟ ماذا جرى؟

رانَ صمت رهيب. فازدادت عصبية السجناء حدة، وجعل بعضهم يشكك في رجوع الطويل إلى مكانه.

وبعد مرور ساعاتٍ طوال بلغت فيها قلوبنا الحناجر من فرط الترقب والانتظار، خرج عن صمته أخيراً، فقال لنا باقتضاب:

ـ أيها الأصدقاء، لقد التقيت بشخصيات مهمة للغاية، وسوف أوافيكم بالتفاصيل لاحقاً.

ثم اعتصم من جديد بصمته البغيض ليترك أعصابنا معلقة على حبال التوتر والانفعال.

في مساء الغد، تشاجر سجينان شجاراً عنيفاً وصل بهما إلى حدود الهستيريا، فتسابا بصوت عال كان رجع صداه يصم آذاننا من شدة هيجانه. فإذا بالطويل يصفق بيديه بحدة مطالباً إيانا بدقيقة صمت. سكتنا جميعاً لتشرب آذاننا المتلهفة كل حرف سيتفوه به. فقال بصوت بلغ فيه الغضب مداه:

ـ أيها الأنذال. أيها الحمير. إنكما تتخاصمان من أجل وسيلة تربطان بها الاتصال بذويكم ولا تدركان أنكما بصدد حرماننا جميعاً من فرج مؤكد قريب.

الله أكبر..

فغرنا أفواهنا دهشة ونحن نبحلق في الظلام غير مصدقين ما سمعته آذاننا، فتابع قائلاً:

ـ لقد قدمت إلى تزممارت قافلة طبية من أجل فحصنا جميعاً، فيها أطباء متخصصون في أمراض القلب والمعدة والعيون والأسنان، وكذا الأمراض النفسية.

خيم على رؤوسنا صمت ثقيل ونحن نشعر وكأننا نعيش حلماً وردياً أجمل من أن يرقى إليه الخيال.

يوم ونصف بعد خروجه إلى الساحة، عاد الحراس إليه من جديد فأخرجوه ليمكث فيها هذه المرة صبيحة بكاملها خضع فيها لشتى أنواع الفحوصات وأشكال التحاليل. كان الترقب والانفعال قد بلغا بنا حداً لا يطاق، ونحن في فورة فرحتنا نحلم أن ينادى علينا واحداً

واحداً للخروج إلى الساحة من أجل التطبيب ومعانقة دافئة لزرقة السماء.

لأول مرة بعد مرور ما يزيد عن إحدى عشرة سنة، رأينا حركة كبيرة وضجيجاً متواصلاً ودخولاً وخروجاً وحضوراً مستمراً للمدير مع التشكيلة الرسمية لزبانيته التي كانت على غير ما ألفناه، تلبس بذّات نظيفة مكوية بإتقان. لا شك أنه كان في الخارج مسؤولون كبار، قدموا من الرباط بنياشينهم المعطرة بريح السلطة والخوف. المهم هو أنهم تذكرونا أخيراً بعد أن كنا في عداد أبناء المغرب نسياً منسياً..

أصبح الطويل الآن يخرج رسمياً صباح مساء إلى الساحة. وكلما رجع إلى زنزانته وسألناه، تفادى أسئلتنا واندفع في وصف شاعري لجمال السماء والسحاب والقمر والجبل المواجه لثكنة تزممارت. كان في غموضه ذاك يبدو وكأنه يسخر منا.. فهل يسوغ لمن نجى حديثاً من الطوفان أن يقرأ الشعر ولو كان ساحراً على الغارق في وسط اللجة العاتية؟ على كل حال، تغيّرت الأمور، وصرنا نُسبِّحُ بمن يبدل الأحوال في طرفة عين.

نبتت على شفاه الحراس والمدير المزمومة دائماً ابتسامات متكلفة صفراء كأسنانهم القبيحة، وسمعناهم وهم يغازلون الطويل بنكت قديمة بائخة ويخصونه باهتمام بالغ مسارعين إلى إرضائه وتنفيذ رغباته. كل شيء أصبح الآن في خدمة الطويل من أول ضابط سام وطبيب مداوٍ إلى آخر حارس. وحتى المدير نفسه أصبح لا يكلُّ من مداعبته مذكراً إياه بفرنسيته الرطينة في آخر كل لقاء أنه غير مسؤول عما جرى وأنه لم يكن سوى منفذ لأوامر رؤسائه:

ـ جُونو سوي كان سامبل إكزكُوطا (ما أنا إلا منفذ بسيط).

ـ ji ni suis quane simbel ixicuta

(je ne suis qu'un simple exécutant).

بالموازاة مع هذا، تبدل نظام تغذيته رأساً على عقب. فشكل ذلك بالنسبة إلينا محنة إضافية: كانت رائحة اللحم المشوي (البيفتيك) والبطاطس المقلية (الفريت) تفعل الأفاعيل بحاسة شمنا، فكنا نغمض أعيننا ونستنشق ملء رئتينا عبق ذلك الطعام الشهي الذي كان يخيل إلينا أنه يفوح من مائدة نزلت من السماء على مرمى حجر منا ولم تكن لنا حيلة لمد أيدينا إليها. لم نكن نشعر إلا وأفواهنا تتحلب واللعاب يسيل منها أسلاكاً مطاطية تتدلى من جراء حرماننا الفظيع على صدورنا المنخورة. أي خيبة كنا نشعر بها وأي مرارة وأي عذاب؟

من كان يقول إن فراشاً وثيراً من نوع «سيمونس»، وأغطية جديدة دافئة وثياباً من الطراز الجيد ستدخل يوماً إلى معتقل تزممارت؟ لقد كانت فعلاً معجزة، ولكنها معجزة لم تشمل منا إلا واحداً بعينه: الملازم امبارك الطويل. والسبب؟ زواجه من سيدة أميركية. كان صديقنا محمد الزموري، وهو الشاب الوسيم المدلل الذي اشتهر بين الضباط الطيارين، سواء في الولايات المتحدة الأميركية أو في القاعدة الجوية في القنيطرة، بتخصصه في إسقاط الحسناوات الأميركيات في حبائل غرامه، يتنهد حسرة ويعلق على ذلك قائلاً:

ـ آه! أينك يا جوديت؟ أينك يا مرلين؟ وأنتما يا ريبيكا ومرغريت، مذا فعلت بكم الأيام؟ آه لو كنت أعلم بأني سأنتهي في تزممارت لكنت قد تزوجت بكن جميعاً!

في هذه الفترة أصبح تردد الكولونيل فضول على السجن تردداً مستمراً. فقد أمسى مشرفاً على المراسلة التي كان الطويل يتبادلها بانتظام مع زوجته: كان يسلم له رسائل عديدة، ويأمره بالإجابة عنها واحدة واحدة، فارضاً عليه أن يشير في كل رسالة بأنه يتمتع بكل الحقوق وأنه بصحة جيدة.

فضول.. هذا الجلاد المهاب من جميع أطر الدرك، تدحرج على

رأسه في الدرجات وانقلب بين عشية وضحاها إلى ساعي بريد. . نعم ساعي بريد ولكن من نوع متميز جداً لأنه كان يتوفر على طيارة مروحية بدل دراجة هوائية. كل ذلك من أجل إرضاء خاطر أميركا.

ازداد اهتمام الإدارة بالملازم الطويل، فاستغل هذه الفرصة ذات يوم وجاءنا بقنينة من دواء (الميركر كروم) وكومة من القطن وضمادات فقال لنا:

- هذا لصديقنا لغالو، لقد أثرت قضيته أمام المدير فأبدى تفهماً لحاله.

وذات صباح، بعد أن مرّ شهر على أول خروج للطويل إلى الساحة، قدمت مروحية إلى تزممارت فأخذته إلى حيث لا ندري. عشية هذا الحدث، كان صديقنا قد مرّ علينا لوداعنا واحداً واحداً وقد بدا عليه أنه كان على علم بشيء مهم سيحدث له قريباً، ولكنه كان أحذر من ثعلب فلم يكشف لنا عن شيء. يوم واحد بعد هذا الحدث، وبينما نحن نعيش بخيالنا مع الطويل في ردهات مطار محمد الخامس وهو يتأهب لمغادرة المغرب إلى أميركا، إذا بالمروحية تعود فجأة. وما هي إلا دقائق معدودة حتى كان باب الزنزانة رقم 15 يغلق على صاحبنا مرة أخرى.

ماذا جرى؟ شد أنفاسنا ترقب موجع ونحن نر الطويل قد غرق كما كان متوقعاً في صمته الرهيب. لقد ظهر عليه التأثر الشديد وبدا لنا محطماً منهاراً، وكيف لا وهو الذي كان واثقاً بالأمس من لقاء ابنه وزوجته، حتى إذا ما برقت أمام عينيه بحور أضواء نيويورك المتلألئة، إذا به يرجع إلى تزممارت ليستأنف العيش مع هذه الخفافيش الآدمية المعتوهة. بعد وقت طويل خرج من صمته أخيراً فلم يشف لنا غليلاً. اكتفى في الأول بإعطائنا معلومات فضفاضة

غامضة زادت أعصابنا توتراً وتمزقاً. وبعد لف ودوران، عزم أخيراً على البوح فقال:

- لقد عصبوا عيني طوال رحلتي في المروحية، فلم أدر هل حطت الطائرة في القنيطرة أم في الرباط. ومن بين الأشخاص الكثيرين الذين التقيت بهم، لم أتعرف إلا إلى شخصين: الجنرال حسني بن سليمان والكولونيل فضول طبعاً، هذا كل ما في الأمر.

لكن الأمر كان فيه أكثر من ذلك. فبعد مرور عشرة أيام، كشف الطويل لصديقه الزموري بشق الأنفس عن جانب آخر:

- ساقوني إلى مكان فسيح معطر بطيب مسكر كنت أرى فيه من تحت حافة العصابة بذخاً عظيماً. فجردوني من ثيابي وأمروني أن أذهب وأجيء فوق زربية نفيسة على غرار ما تفعله عارضات الأزياء. كان الحضور صامتاً وجلاً بسبب تواجد شخص مهاب الجانب، فلم أكن أسمع إلا همساً مرتبكاً كان يعبّر عن الخوف أكثر مما كان يعبّر عن الاحترام. وأعتقد أنهم أخذوا لي صوراً كثيرة للاحتفاظ بفكرة معبرة عما كانت عليه تزممارت.

لكن الطويل لم يحطنا علماً قطُّ باللقاء المهم الذي دار بينه وبين السفير الأميركي في سفارة الولايات المتحدة في الرباط. لم نعلم بذلك إلا بعد خروجنا من السجن.

استمر نظام الامتياز بالنسبة إلى الملازم الطويل كما كان في الأول. فكان يخرج إلى الساحة للتشمس صباح مساء، وينفح بأنجع الأدوية تحت إشراف الاختصاصيين الذين فحصوه، إضافة إلى أنهم كانوا يمدونه بالكتب ويطعمونه بالشهي الجيد اللذيذ. وهكذا فتح خروجه المستمر إلى الساحة باباً عريضاً أمامنا، حيث فكّ العزلة التي كانت مضروبة بيننا وبين العنبر الثاني. فعلمنا بواسطته بكامل الدقة والتفصيل بتلك الكوارث والدواهي التي ألمت بأصدقائنا فحصدت من

أرواحهم أضعافاً مضاعفة مما حصدته عندنا.

أما بالنسبة إلى العنبر الثاني، فكان خروجه إلى الساحة خيطاً نورانياً نزل من السماء ليضيء ببصيص من الأمل أرواحهم المستسلمة اليائسة. ومن الطريف جداً أن نشير إلى أن أول ما طلبه منا أصدقاؤنا في العنبر الأول هو موافاتهم بكلمات أغنية سمراء للمطرب الراحل عبد الحليم حافظ، ولكننا لم نكن نعرف منها إلا هذه الأبيات القليلة التي جمعناها لهم بشق الأنفس:

سمراء يا حلم الطفولة يا منية النفس العليلة

كيف الوصول إلى حماك وليس لي في الأمر حيلة

استرجع أصدقاؤنا المساكين شهيتهم للغناء رغم أن الموت كان قد غرز فيهم أظافره استعداداً للانقضاض عليهم. كما تهافتوا على الطويل يتوسلون إليه أن يشفي غليلهم من أخبار الحياة والدنيا. فشربوا بآذانهم الملصقة على أبواب الزنازين كلماته وهي تفسر لهم من وراء باب العنبر كيف تعاقب على رئاسة البيت الأبيض ثلاثة رؤساء بعد نيكسون: فورد، وجيمي كارتر، ثم رونالد ريغن. وعن فرنسا، أحاطهم علماً بمجيء جسكار ديستان ثم فرانسوا ميتيران إلى قصر الإيليزيه بعد رحيل الرئيس جورج بومبيدو.

كل هذه التغييرات حدثت في أوروبا والعالم بفضل ديمقراطية تنافس فيها المتنافسون من أصحاب الأهلية والكفاءة، وحسمت فيها الشعوب الحرة المتحررة بما ارتأت أنه الأجود لها والأليق. أما شعوبنا العربية الغاطة في سباها العميق، فعاشت على طريقتها رتابة تزممارت واضطهاده، وظلّت عن الجديد والتجديد غائبة مغيبة، ولولا رحمة الموت الذي ينفس عن القلوب العربية كرباتها مرة كل ثلاثين أو أربعين سنة، لظل قادتها المرضى بجنون العبقرية والعظمة يرددون شعارهم الأبدي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

ـ نحن أربابكم فاعبدونا.

وبالنسبة إلينا نحن سجناء العنبر الأول، كان الطويل يتحدث لنا كثيراً عن جمال السماء وزرقتها وعن الجبال المحيطة بالسجن وعن النمل الذي كان يقضي معه وقتاً طويلاً في مراقبة طريقة عيشه وعمله. كما كان يمدنا بمعلومات دقيقة عن الأماكن التي دفن فيها أصدقاؤنا الراحلون، فقال لنا ذات مرة:

ـ إن التراب مدكوك ومسوى فوق كل قبر بكيفية متقنة يستحيل معها إثارة الانتباه لولا تلك العلامات الحمراء المصبوغة في أسفل الجدار. وأعتقد أن أحكاماً بالإعدام قد نفذت في هذه الساحة قبل مجيئنا إلى هنا بقليل وذلك لتواجد آثار الرصاص على الحائط.

ولكي يقضي الطويل وقته في ما هو أنفع، طلب من الحراس فأساً ورفشاً فقلب مساحة من الأرض على مقربة من باب العنبر ونقاها من الحجر، ثم جعل منها حديقة غرس فيها نعناعاً وفلفلاً وطماطماً. فتأسى به الحراس، وتألق من بينهم «بابا حمد» الذي أرجعته خدمة الأرض إلى أيامه الزاهية يوم كان يشتغل عند أحد الأعيان «خماسا». فغرس بطيخاً وقرعاً وشجرة تفاح وأشجار برقوق. ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى أقصي الطويل من تلك الحديقة، فاستحوذ عليها الحراس وجعلوا منها ملكاً خاصاً لهم. وما إن أتت بالغلة الأولى حتى تخاصموا عليها خصاماً عنيفاً كادوا أن يصلوا فيه إلى التشابك بالأيدي. وكان الطويل كلما آنس غفلة سرق حبة أو حبتين من الطماطم وأعطاهما لنا بالنوبة.

وبعد مرور ثلاثة أشهر على نظام الامتياز، كشر المدير على أنيابه حين لاحظ أن قضية الطويل لم تبرَح مكانها عكس ما كان يتوقع، فأمر الحراس بإغلاق الباب على «الأميركي» الذي أخذ منه الاهتمام به وقتاً كبيراً. غير أنه تحسباً لعنصر جديد قد يطرأ بغتة في

القضية، لم يضرب صفحاً بكل التعليمات التي أعطيت له، فسمح له بالبقاء من حين إلى آخر في الدهليز والخروج إلى الساحة لنشر غسيله وأخذ حمام متى شاء.

طبق الحراس تعليمات المدير الجديدة بكثير من المرونة لأنهم أبرموا عقداً صامتاً مع الطويل، كان يمدهم بموجبه بالدواء الأميركي الجيد، خصوصاً ذلك الذي كان يداوي الصداع والأرق، مقابل القيام باتصال مع أسرنا والتسوق له من مدينة الريش. وهذا بالذات ما مكنه من التحرُّر من مراقبة الكولونيل فضول والاتصال مباشرة بزوجته التي حثها في رسائله على مضاعفة الجهود بعدما أطلعها على تطور الأحداث بكل تفصيل وتدقيق. وقد استفدنا نحن استفادة كبيرة من نظام الامتياز الذي خص به الطويل، وذلك على أكثر من مستوى: فمن جهة، كنا نشعر بأن قطعة منا قد تحررت، وأن شرخاً كبيراً قد حدث في ذلك الجدار الحديدي الذي كان مضروباً علينا. ومن جهة أخرى، كنا نستفيد من خدماته في الاتصال المباشر في ما بيننا إضافة إلى استفادتنا من بعض الأدوية والمقويات، وكذا التذوق بين الفينة والأخرى من الطعام الذي كان يأكله.

لقد كان الطويل على وعي تام بالحالة الشاذة التي وضعه فيها المسؤولون المغاربة. فالتفضيل الصادم الوقح الذي خصوا به سجيناً حكم بعشرين سنة كان طعنة قاتلة بالنسبة إلى السجناء الذين كانوا قد أكملوا منذ سنين طويلة مدة عقوبتهم. وأفظع من ذلك فإنه كان يبلور بكيفية صارخة مخزية تلك النظرة الحقيرة التي ينظر بها المسؤولون المغاربة لأبناء شعبهم:

أوَلم يكن هذا التصرف المشين اعترافاً واضحاً من الحكومة المغربية بأن قيمة المواطن المغربي بالنسبة إلى نظيره الأميركي كقيمة الدرهم أمام الدولار؟

من أجل هذا لم يكن الطويل يقصر من جهد للتخفيف من تلك المرارة التي كان يحس أن أصدقاءه يحسون بها. فكان يضع قسطاً من طعامه جانباً ليفرقه علينا بالنوبة. وهكذا كتب لنا أن نتذوق شيئاً من تلك المائدة المنزلة من السماء: قطعة صغيرة من زبد أو ملعقتين صغيرتين من المربى أو ثلاث حبات من البطاطس المسلوقة أو قطعة صغيرة من صابون. وعلى ذكر الصابون، فقد حدثت طرفة غريبة ألخصها في ما يلي لعلها تعطي فكرة عن فظاعة الحرمان الذي كنا نعاني منه:

حدث ذات مرة أن فرّق علينا الطويل ذات صباح شيئاً قليلاً من الصابون. وبعد خروج الحراس من العنبر، نادى الملازم عبد العالي الصفريوي الذي كان معروفاً بسهوه الكبير على الطويل قائلاً:

- سي امبارك.. شكراً جزيلاً على قطعة الجبن. ولكنه جبن مرّ الطعم على ما أرى.

فأجابه الطويل مذعوراً وهو يقهقه ملء حنجرته:

- إياك أن تأكلها. إنه صابون وليس جبناً.

وكلما كانت الفرصة تسنح له، مدناً بشيء من المضادات الحيوية وقليل من المقويات الأميركية من نوع «وان دي» التي كنا نتعتقد أنها قادرة على إرجاع الروح بعد إزهاقها. وبعد مضي مدة على هذه المساعدات، جاء ظرف عصيب فقطعها الطويل ليجعلها حكراً على صديقنا محمد لغالو الذي كان يعيش كما رأينا في منتهى الفظاعة. لقد كان صديقنا رغم كل هذه الامتيازات في وضعية نفسية مضجرة وصعبة. كان الحسد الصامت من بعض السجناء يؤرقه كثيراً ويعرضه للإحساس بالذنب، فكان يبادر إلى بذل المزيد من الجهود لكي يرضي أصدقاءه ويسكت بالتالي صوت ضميره. وكان العتاب الوحيد الذي وجهه إليه بعض السجناء، هو أنه كان في مساعدته يجنح في بعض

المرات إلى تفضيل أصدقائه في السلاح، الشيء الذي نتج عنه إثارة كثير من الحساسيات النائمة.

ومع مرور الأيام تحسنت حالة صديقنا الصحية بشكل مدهش. فامتلأ جسمه واحمر وجهه وانتفخت أوداجه، وأصبح بالتالي إنساناً عادياً لا يظهر لمحنة السجن أي أثر على وجهه. والشيء الغريب والمثير جداً هو أنه أصبح يعاف رائحتنا بكيفية لا إرادية. فكان كلما طلب منه أحدنا أن يخرج له غسيله لينشف في الساحة، أخذ ذلك بطرفي سبابته وإبهامه ولوى رأسه متذمراً متقززاً. ولإنصاف الرجل، ينبغي التذكير بأن رائحة أجسامنا الوسخة كانت أشد زكامة من رائحة الثعالب والذئاب والضباع كلها مجتمعة. إضافة إلى ذلك، فقد كان بعض السجناء يثقل عليه بكثرة الطلبات وكأنه كان يتعمد أن يدفعه إلى الرفض دفعاً لكي يقيم عليه حجة يتذرع بها لصب جام غضبه عليه، أو بالأحرى لينتقم من المسؤولين المغاربة في شخصه.

وخلاصة القول إن هذا الحدث المهم كان تتويجاً لمجهودات سيدة أميركية وفية أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل زوجها، واستطاعت بفضل ذكائها ونضالها وقوة إرادتها أن تحرج قادة بلادها الذين أحرجوا بدورهم قادة بلادنا، فأنقذت زوجها وساهمت بالتالي في إنقاذنا بحكم الترابط الوثيق بين الجار والمجرور. والمثل الدارج يقول في هذا الشأن ما معناه:

«من أجل وجه يشفع في وجوه..».

والسؤال الذي يجدر بنا أن نطرحه هو: هل كان من الممكن أن يطلق سراحنا رغم شفاعة كل الشافعين، لولا تواجد ضابط من بيننا ألهمه الله فتزوج بأميركية؟

هندا كلبة تزممارت

كانت معنوياتنا في نهاية صيف 1982 قد نزلت إلى الحضيض. . .

فبعد تهتيش مباغت دقيق، أخذ الحراس منا جميع ما جمعناه طوال سنين المحنة من خشاش وشعور وأسمال ملطخة بالدم والقيح والعرق والنفايات، ورثناها كنزاً نفيساً من رفاقنا الراحلين الذين ماتوا تباعاً في العزلة والظلام كما تموت الفئران الموبوءة في مجاري المياه الحارة.

أرجعونا إلى نقطة الصفر كما جاؤوا بنا إلى هذا السجن الدموي الذي كان بحق، اختراعاً مروعاً انبثق من مخيلة شيطان رجيم لعنته قبل أن يولد كل أبالسة الإنس والجان.

رجعنا إلى نقطة البداية. ولكن، أين نحن من قوة وشباب وعافية وحماس البداية؟

لقد انقلبنا إلى هياكل عظمية لا يميزها عن سكان القبور إلا لحى شعثاء تدلت على الصدور، وشعور مغبرة مدسمة تراخت على الأكتاف والظهور. وقد كان نصفنا يلزم الأرض من شدة الوهن وتفاقم العلل، والنصف الباقي، إما يمشي على أربع، أو يتكئ في وقوفه المتذبذب على الجدار، أو يزحف على مؤخرته إلى الباب كلما انشق عليه لالتقاط ما كانوا يسمونه بالطعام.

نعم، كانت معنوياتنا قد نزلت إلى الحضيض، وكانت أغلى

أمنياتنا هي أن نموت موتة فجائية تقينا أهوال الاحتضار الطويل البطيء الذي كان فيه السجين ينقلب إلى جيفة مهترئة يتكالب على نهشها الباعوض والذباب وأنواع لا حصر لها من الحشرات الطائرة والزاحفة.

وقد كان الغول المهول الذي ينحصر فيه تفكيرنا بخوف مزلزل وترقب مدمر هو جحيم البرد القارس الذي كنا نفقد حياله كل سلاح أو مقاومة.

وفعلاً، جاء الزمهرير مبكراً كما دأب أن يأتي في هذه الجبال الشامخة القرعاء. جاء ليقتلع من محنة المستضعفين المنسيين في هذه الربوع الظلامية زفيراً وأنيناً وتوجعاً يقطع في الليل والنهار نياط القلوب.

وذات ليلة من إحدى تلك الليالي العاتية الدهماء، سمعنا في جوف الصمت الصارخ بالوحشة والرعب، نباح كلب يأتي من الساحة - المقبرة التي يهجع تحت ثراها الرملي رفاة رفاقنا الراحلين المنخورة بركام الجير.

كان حدثاً عظيماً أن نسمع لأول مرة بعد هذه العزلة المطبقة الشاملة صوتاً حيوانياً نسيناه أو كدنا أن ننساه. لقد كان كل صوت جديد يسمع، ومضة خلاص نلوذ بها عبر حديث مسهب يغذي الدردشة بيننا أياماً وليالي مديدة في ذلك الفراغ الطاحن المشحون بهاجس الموت وإغراء الانتحار. فقد سمعنا قبل هذا طقطقة الديك الرومي وثغاء المعز والخراف التي كان المدير يسمنها من طعام السجناء ليبيعها جنوده في أسواق الناحية. سمعنا كل ذلك وعلقنا عليه تعليقاً مستفيضاً أثرى الحديث بيننا أسابيع طويلة. فتكلمنا عن الأنواع المختلفة لهذه الحيوانات وعن أشكالها، وألوانها، وطرق تغذيتها وتسمينها، لينتهي بنا المطاف ككل مرة بدافع المجاعة المزمنة إلى

فنون طبخها وتحميرها وشيها، حتى إذا ما استهلكنا الموضوع استهلاكاً قاتلاً غرقنا في صمتنا المترقب، متأهبين للانقضاض على أي موضوع آخر ننسى في غمرته بشاعة حالنا.

وجاء هذا الكلب بنباحه المتواصل ليثير في أذهاننا أسئلة وذكريات شتى. فقال بعضنا: لعل المدير لم تكفه الأسوار العالية، والخنادق السحيقة، والأسلاك الشائكة، والجنود الساهرة، فعزز حراسة معتقل تزممارت بالكلاب البوليسية. لكن هذا الرأي سرعان ما دحضه بعضنا الآخر عندما لاحظ بحق أننا في حالة صحية متردية لا تسمح لنا بتخطي باب العنبر ولو تركوه مفتوحاً ودعونا إلى الخروج. فأصخنا السمع، وكنا كذلك نفعل كلما جاء الحراس وفتحوا الأقفال دون الأبواب ووقفوا عند الباب الرئيسي للعنبر يدردشون في انتظام قدوم وجبة الأكل الهزيلة لتفريقها علينا.

ومع مرور الأيام اكتملت القصة.

كانت رشيقة جميلة شابة من فصيلة عريقة في جنس الكلاب. وكانت تنعم بما لا تنعم به إلا القليلات المحظوظات من مثيلاتها الساكنات في الفيلات الفخمة والقصور المشيدة. فقد كان سيدها فرنسياً ميسوراً مولعاً شديداً بالصيد. فرباها وأحسن تربيتها، وروضها وأجاد ترويضها حتى أصبحت له مفخرة بين زملائه الصيادين. واكتملت نعمتها حين رزقت بجروين جميلين عاشا في كنفها عيشة راضية مدللة. إلاّ أن بقعة داكنة سوداء، تربعت في وسط جسمها الأبيض الحليبي، كانت تنذر بشيء رهيب حاصل لا محالة في حياتها السعيدة الآمنة. ذلك أن سيف القدر الباتر نزل عليها فجأة كما نزل علينا خاطفاً فتاكاً قاطعاً. فقد شاءت ظروف صاحبها الفرنسي أن يرحل عن المغرب لفترة طويلة، فارتأى أن يوصي بها خيراً أحد معارفه من الذين يأنس منهم بالحيوانات رأفة ورحمة. فاستقر رأيه

على شخص ربطته وإياه معاقرة الخمر بروابط حميمة متينة. شخص لا يعرف عنه في الحقيقة إلا وجهه المشرق الهاش الباش، أما وجهه الدموي الآخر فلم يكن يعلم بشاعته إلا الله ونفر قليل من الجلادين المتسترين في البذل العسكرية البراقة.

في ساحة رملية واسعة موحشة، تحيط بها جدران صخرية عالية قاتمة، وتطل عليها من البعيد جبال واجمة قرعاء، وجدت هندا نفسها مهمومة وحيدة. وقد كان البرد الخارق يفعل في جسمها الغض الطري فعل المنشار في العظام. ذلك لأنه لم يكن في الساحة سقف تحتمي به من اللعنة النازلة من السماء والصاعدة من الأرض. فكانت تنطلق في عواء مستمر كئيب يقطعه نباح متشنج، كان أقرب إلى الشهيق تارة والنحيب أخرى.. ولم تكن بين ضلوع الحراس قلوب حتى تلين أو أكباد حتى ترق. إذ كانوا من الصم البكم العمي الذين لا تحركهم سوى أوامر التنكيل والبطش والتعذيب.

فكانت هندا في أثناء مجيئهم تغتنم كل فرصة سانحة للتسلل إلى داخل العنبر، وكأن غريزتها كانت توحي إليها بأن كائنات حية تسام مثلها سوء العذاب في الصمت والظلام، فأرادت أن تراها تآزراً منها وتضامناً. غير أنها كانت تطرد دائماً بركلة عنيفة كانت تقتلع منها عواء شاكياً لا يهدأ إلا بعد رحيل الجلادين. ورغم ذلك لم تيأس ولم تستسلم، بل ظلّت مواظبة على محاولاتها من إصرار غريب جعلها تعتاد الركل وتألفه. وعند انصراف الحراس مباشرة كانت تأتي إلى باب العنبر، وتبدأ في عملية يائسة تطول الساعات أحياناً، عملية فتح الباب الحديد الكبير. كانت تدفعه بقوائمها الأولى مصاحبة ذلك بعوائها اليائس المجنون.. ولما كان اسمها يهتف به من داخل الزنازين كانت تطل من الشق الأسفل للباب، وترد على مناديها بنباح متحمس جذلان. وحين كان الجهد المبذول يعييها، كانت تبتعد ولا يسمع لها

حس إلا في جوف الليل، عندما يجن جنون برد الثلوج العاصف من قمم جبل العياشي الشيباء، فيعتو ويصول، عتو وصولة بناة هذا المعتقل المسربل بالخزي والعار، ليقذف بالعقول المنهوكة المريضة إلى مزالق الحمق المؤكد، فتصطك الأسنان المسوسة، وترتعش العظام النخرة، ويشتد العشق بالنار، فتتعالى من أعماق السجناء دعوات خرساء، تمتصها لتوها الحيطان الإسمنتية الواجمة فلا تستجاب، دعوات تقول في شهيق يقمعه الكبرياء، ودموع تسترها ظلمات ثلاث: «اللهم إليك نشكو ضعفنا وقلة حيلتنا وهواننا على أبناء مغربنا، اللهم هذه روحك عزيزة عندك وأنت مالكها، فخذها إليك ولا تدعها هينة عند أهون الناس لديك، وإلا فخفف عنها سوء العذاب واجعل هذا البرد عليها ناراً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على حبيبك إبراهيم..».

وشاءت إرادة الرحمن أن تدحض كيد الجلادين، ويخرج رفيقاً من بيننا (الملازم امبارك الطويل) إلى الساحة ليرى النور في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1984، وكان ذلك بشفاعة الشافعين من الأميركان.

ففتح بذلك باباً عريضاً للأمل رغم ما كنا نكابده من شعور بالذل والحقارة، شعور كان منبعه إحساسنا بأن المغربي على عزته، لا يساوي في عيون حكومة بلده شعرة واحدة في مفرق آخر الأميركان.. وكيف لا؟ والبرهان على ذلك كان صارخاً يفقأ العيون؟

خرج صديقنا إذاً إلى الساحة، فالتقى البشر السجين بالحيوان السجين، واستأنس كل منهما بصاحبه، وترعرعت بينهما مودة عظيمة لم يكن يعكر صفوها إلا رجوع هذا إلى زنزانته في المساء، وبقاء تلك في ساحتها.

وجاء يوم عظيم من أيام الله، يوم يفرح فيه المسلمون من أقصى الدنيا إلى أقصاها بنعم الله السابغة، فيتزاورون ويتغافرون

ويتراحمون. وكنا نحن نغتمُّ فيه ونحزن حتى تذوب فينا المهج وتنصهر الأكباد.. يوم عيد الأضحى المبارك الذي كنا نحس فيه أكثر من غيره من الأيام بصولة الطغيان واشتداد الظلم. يوم كنا نستحضر فيه وجوه الأقارب والأصدقاء والأحباب، وكانوا يستحضرون فيه وجوهنا بالحسرة واللوعة نفسهما، فيلتقي الخيال بالخيال في موعد كله غصص وآلام، فلا نجد من سلوان لشوقنا الحارق وحنيننا الجارف إلا التوجه إلى الله في صلاة طويلة خاشعة.

ولكي يكمل المأتم في العيد كل عناصر حلكته، كان الحراس يتعمدون التأخر في ساعة الغذاء ليتمتعوا من جهة باجتماع شملهم مع ذويهم حول كؤوس الشاي المنعنعة وقضبان بولفاف الشهية، ومن جهة أخرى ليجف لعابنا من شدة السيلان في انتظار الفتة أو العظم الذي كانوا يرمونه لنا هدية عيد.

وفي ذلك اليوم المشهود، جاء حارسان في حدود الساعة الثالثة زوالاً، ففتحا الأبواب وأمرانا أن نضع الصحون البلاستيكية على الأرض استعداداً لأخذ الطعام فور قدومه. وعلى غير العادة، تركا الأبواب مفتوحة، وطلبا منا الاكتفاء بالوقوف على الأعتاب لاشتمام شيء من الهواء الملوث في انتظار وصول آنية الطعام. وقد كانت تلك التفاتة نادرة قلما تكون في مثل هذه المناسبات. فجلسنا ننظر إلى بقايا إنسانيتنا الممسوخة، وحطام آدميتنا المشوهة، وكل منا يرى صورته الفظيعة في الأشباح الجائمة قبالته كمومياءات اجتثت لتوها من مقابر فرعونية. وما هي إلا لحظة وجيزة مرت، فإذا بهندا تندفع إلى داخل العنبر بقوة القذيفة وسرعتها على حين غفلة من الحارسين الغارقين في ثرثرة مطبقة. فانطلقت كالمجنونة تجري في الدهليز الضيق الطويل بفرحة عارمة، وكأنها بذلك تلقي إلينا تحية جماعية حارة قبل أن تمر علينا واحداً واحداً على الترتيب العددي، من 1 إلى 29.

كانت تبصبص بذنبها، وتلحس الأرجل والأيادي بلسانها، وتتمسح على السيقان بظهرها، ثم تستلقي على جنبها محركة بجنون قوائمها، لتدور بعد ذلك كالحمقاء على نفسها، مصاحبة كل ذلك بعواء خافت حزين، كان فيه من حرارة المشاعر وصدق العواطف ما جعل بعضنا يسارع إلى معانقتها وضمها إلى صدره ضم الحبيب للحبيب. ولم تنسَ هندا أحداً. حتى المرضى دخلت عندهم إلى زنازينهم المظلمة، ولحست أياديهم المعروقة اليابسة، وكأنها بذلك تمسح على جراحهم الغائرة في تعبير عميق ملتهب عن التضامن والمواساة. وقد بلغت فورة الأحاسيس ذروتها حين وصلت إلى الزنزانة 19، فجلست على مؤخرتها، ورفعت قوائمها، وأمالت رأسها لتحقق الرؤية بعينها العسليتين الجميلتين في الشبح الماثل أمامها، فما كان من السجين المتأثر إلا أن جثا قبالتها، فضمها إلى صدره بحرارة وحرقة الملتاعة الثكلى. وكأن ذلك لم يشف فيه الغليل المتأجج، فلم يشعر إلا وهو يهوي على فمها بقبلة حارة أودع فيها كل ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالقبل المجنونة والدموع المحمومة. قبلة تاريخية عبّر بها باسمنا جميعاً عن تعاطفنا العظيم مع هذه الكلبة النبيلة التي سما بها صدق مشاعرها إلى إنسانية عالية تجرد الإنسان منها تجرداً مقيتاً أسقطه في أخس وأحط دركات الحيوانات الكاسرة. لقد باركت لنا هندا العيد الذي ألفنا على امتداد عشرين سنة أن نكون فيه أهون على الناس وأحقر من أن تُقال لنا كلمة طيبة.

كانت رسول عشق ومحبة، أشعرنا أنه لا يزال في مغربنا بحمد الله من يذكرنا ويحبنا، وإن كان الذاكر والمحب كلبة أسيرة بائسة. أجل، ذكرتنا هندا بإنسانيتنا وبانتمائنا إلى جنس الآدميين، وإن كان الإنسان من بني جلدتنا قد تنكر لنا واشتهى أن يرانا قردة خاسئة، تدفَن حية وميتة في القبور المجهولة. وما هي إلا لحظة حتى دخل

الحاراسان، فانهالا عليها ركلاً وشتماً اغتالا به فرحتها وفرحتنا. . فخرجت وهي تلتفت إلينا، ثم غابت وعيوننا تشيعها بنظرات متحسرة حانية. وبعد حين، سمعنا عواءها يأتي من الساحة عميقاً ملتاعاً رهيباً متوجعاً، وكأنها كانت تريد أن ترسله من وراء تلك الجدران الغليظة القاتمة صرخة ألم واحتجاج إلى آذان العالم الصماء.

ومرت السنون تباعاً، فمات من الرفقاء من مات، وبقي من بقي، وظلّت هندا محتجزة في ساحتها الرهيبة تشاطرنا البأساء والضراء، إلى أن استجاب الله لشكواها يوماً، فقيض لها صياداً ثرياً تناهى إليه خبرها بكيفية عفوية، فسعى بإلحاح شديد لاقتنائها من المدير الجلاد. ابتهجنا لذلك أيما ابتهاج، وتفاءلنا تفاؤلاً عظيماً شحذ عزيمتنا بفيض من إيمان قوي وغذاها بأمل عريض، وقلنا: «إن من أغاث هندا وأنقذها، قادر في رمشة عين أن ينتشلنا من مخالب هؤلاء الهمج الدمويين».

وفعلاً، كان ذلك التفاؤل صدقاً وحقاً حين قدم الحراس صبيحة يوم الأحد 15 أيلول/ شتمبر 1991 ليقولوا لنا ببساطة مذهلة كلمة انتظرناها ونحن نذوب على جمر الدقائق ولهيب الثواني قرابة عقدين من الزمن: «أعدوا عدتكم، فأنتم مقبلون على الرحيل».

فتحية لهندا البطلة المناضلة أينما وجدت وحيثما حلّت وارتحلت. وشكراً لها إن هي حكت لكل كلاب الدنيا مجرزة تزممارت المغولية التترية، فذكراها ستظل عالقة بأذهاننا ما دامت شيمة الوفاء خافقة بالنبل في قلوب الكلاب إلى يوم الدين.

(كتب هذا الفصل على حدة يوم الثلاثاء 15 أيلول/ شتنبر 1995).

موت محمد لغالو البطيء
وانتحار ميمون الفاكوري

لقد تحملنا البرد القارس في الزنزانة ـ الثلاجة طوال شهور الشتاء ونحن حفاة وشبه عراة. . واختنقنا إلى حد الإغماء أحياناً من فرط الحرارة وقلّة الماء والتهوية وطغيان الروائح الكريهة في الصيف. وتمزقت أحشاؤنا بمناشير الجوع المروع ما يقرب من خُمس قرن من الزمن. وتعرضت أجسام بعضنا إلى نهش العقارب وجحافل الحشرات التي عاشت معنا في الظلام.

أجل، ابتلينا جميعاً بضروب لا عد لها من العلل والأمراض، وذقنا جميعاً أشكالاً لا حصر لها من البؤس والعوز والحرمان، وتعرضنا لكل أنواع الاحتقار والذل والمهانة. ونزلنا بالتالي جميعاً إلى المهاوي التي لا ترمى فيها إلا النفايات القذرة، فكنا بذلك في نظر جلادينا أحط مخلوقات الله على الإطلاق. ولكن رغم كل هذا، سنجانب الصواب وسنسقط في الافتراء إن زعمنا بأننا ذقنا نصف ما ذاقه «أيوب تزممارت» أخونا المرحوم محمد لغالو.

ازداد محمد، وهو بكر إخوته، في وسط أسرة ضعيفة الحال، سنة 1943 في مدشر في قبيلة «إنجيل» الواقعة في ضواحي مدينة بولمان. وقد كان والده كثير العيال، يشتغل جندياً بسيطاً في سلك «المخازنية». فلما أتم دراسته الابتدائية، التحق بثانوية أزرو ثم بعدها

بالأكاديمية الملكية العسكرية في مكناس، غير أنه لم يفلح في نهاية التدريب فتخرج منها ضابط صف برتبة رقيب. فاشتغل في القيادة العامة للجيش، وبعد سنين من ذلك، عاد إلى الأكاديمية ثانية، فنجح هذه المرة وتخرج منها ضابطاً، فأرسل إلى مدرسة أهرمومو ليشتغل فيها مدرباً. وبما أنه اشتهر بالصرامة والجدية وحب العمل، عينه المدير رئيساً لمصلحة الشؤون التكتيكية، وهي مصلحة حساسة تعنى بتدريب التلاميذ على فنون الحرب. وفي هذا السياق، عيّنه اعبابو عشية الانقلاب رئيساً للفصيلة الخاصة التي أنيطت بها مهمة جوهرية في الصخيرات. كما كلفه في اليوم المعلوم ـ ونحن في القيادة العامة للجيش في الرباط ـ بحماية ومرافقة الجنرال حبيبي إلى قصر الصخيرات لمحاولة السيطرة عليه من جديد بعد أن كان محمد اعبابو قد غادره مخالفاً بذلك أوامر شقيقه امحمد. فصرح محمد لغالو للمحكمة أن الجنرال حبيبي أكد له وهماً في الطريق إلى القصر بأن وحدات كثيرة من الجيش ستتدخل قريباً لمؤازرة الكولونيل اعبابو. وقد كان هذا التصريح بدون شك من وراء الحكم على لغالو بخمس عشرة سنة سجناً نافذة.

كان محمد لغالو شاباً قصير القامة، فاتح البشرة، مستدير الوجه، مليح القسمات، وقد كان بطبعه ميالاً إلى الانزواء، الشيء الذي كان يعطي الانطباع لمن لا يعرفه بأنه خجول ومنغلق على نفسه، غير أنه كان في الحقيقة مسالماً لطيف المعشر، سريع النكتة، ولكن كثير التطير، إذ كان يعتقد أن بعض الأشخاص ما خلقوا إلا ليزرعوا الشؤم في طريق غيرهم.

فقد حدث ذات يوم ونحن في السجن أن دخل علينا متجهماً بعد أن رجع من زيارة قام بها له أحد أقاربه، فقال لنا غاضباً وهو يستعيذ بالله:

ـ لقد قدم أحد الثقلاء لزيارتي، فعوض أن يسري عني كما يفعل الناس الكيِّسون في مثل هذه المناسبات، أتدرون ماذا قال لي؟ تشجع يا أخي واصبر وتيقن أن خمس عشرة سنة سجناً لا تساوي شيئاً، وستمر بالنسبة إليك إن شاء الله كالحلم. فبربكم أخبروني، هل جاء هذا المنحوس ليزورني أم جاء ليتشفى فيّ؟

في تزممارت، رمت الأقدار بلغالو في الزنزانة رقم 2، غير بعيد من مدخل باب العنبر رقم 1. وقبل أن يدخلها خضع كباقي السجناء للتفتيش، إلا أنه استطاع أن ينقذ جهاز ترانزستور صغير خبأه بإحكام في حجره. وبعد شهور من هذا، قدم عنده حارس كان يحبه كثيراً لسابق معرفته به في إحدى الوحدات، ولم يكن سوى العربي لويز، فأخبره بأن تفتيشاً محتملاً سيقع بأمر من المدير، وعليه، فينبغي على كل من عنده شيء مشبوه فيه أن يتخلص منه قبل أن تحل به صاعقة المدير المسعور. وبدون تردد، كسر لغالو جهاز الترانزستور قطعة قطعة، ودسها عميقاً في قناة صرف المرحاض، وهنا كانت غلطته القاتلة، لأن قنوات الصرف كانت كلها ضيقة، ـ وقد رأينا أننا كنا نضطر في كثير من الأحيان لاستعمال أيدينا لصرف نفاياتنا كلما قضينا حاجتنا.

وهكذا سقط لغالو في المحذور، وأصبح كلما أراد التغوط كلفه الأمر جهداً باهظاً وعناءً كبيراً. وكيف لا وقد كانت الفظاعة أحياناً تدفع بعض الأصدقاء ـ وهم في حالات القبض ـ أن يتغوطوا في صحونهم ثم يصبوا على نفاياتهم الماء ويفتتوها بأصابعهم، حتى إذا ما لانت رموا بها في المرحاض ليتقوا شر اختناق القناة.

فناهيك بلغالو المسكين الذي سعى من دون أن يدري إلى حتفه بظلفه. فقد كان يقضِي سحابة يومه وقطعاً من ليله في الزمهرير جاثماً على ركبتيه، ويده مدسوسة بقطعة من السلك في قناة المرحاض،

يبحث يمنة ويسرة لعله يسترجع تلك القطعة الملعونة التي زادته جحيماً على جحيمه. ولم يكن ليبأس أو ليكل، بل انقلبت محاولاته الفاشلة إلى عمل يومي دؤوب، لعله كان يسحره ويستحويه لأنه كان يلهيه عن الغرق في تزممارت المفجع.

ومع مرور الأيام والسنين، أصابه البرد تدريجياً بتشنج في ركبتيه وحوضه وعموده الفقري، استحال معه المشي أو الحركة إلا بواسطة عمودي مكنستين. ورغم هذه المحنة الكبيرة، ظل محمد لغالو كما هو، لا ينال من صموده برد أو جوع أو وجع. فقد كان وهو يهبط بخطوات ثابتة إلى مهاوي الموت، متشبثاً دائماً بأهداب الأمل، ولكن غير خائف أو وجلان من الآتي المحتوم. فما كان من عادته أن يشكو همه لأحد، بل كان على النقيض من ذلك يسري عن أصدقائه كلما انهارت عزائمهم واستعجلوا الخلاص. وقد حدث ذات مرة أن أقنع رفيقاً له بالعدول عن فكرة الانتحار. فمات هو وعاش ذاك. وقد كان يفاجئنا من حين إلى حين بموال بربري رائع. كان يلعلع في تلك الربوع الظلامية كأغرودة من أغاريد الربيع المشحونة بعبق الزهور وزقزقات الطيور وحفيف أشجار الصنوبر وخرير شلالات الأطلس الرامزة إلى الحرية والحب والانطلاق. وكنا نعلم أنه لم يكن يغني إلا في ساعة الانسحاق، عند طغيان الحنين واشتداد الألم.

آإسلّي نخف إقيما وايْدريخ إوا يامَّامَنُو، بّين إبردان، قْلاّن إمَزان.

أيتها الصخرة التي كانت تجلس عليها محبوبتي

قولي لها: انقطعت إليك الطرق.. وقلّت المراسيل..

وفي نهاية السبعينيات، استطاع أن يربط اتصالاً مع أحد أبناء عمومته بواسطة طباخ كان يعرف أسرته جيداً وكان يأتي من حين إلى آخر إلى العنبر متظاهراً بمساعدة الحراس، فسلمه لغالو رسالة شرح

فيها لابن عمه حالته المأساوية، وتوسل إليه أن يرسل له مبلغاً مالياً مهماً كان قد أقرضه إياه، وذلك بهدف شراء الأدوية والمقويات. وفي انتظار الجواب، بقي لغالو يعيش على أعصابه مترقباً بتوجس كبير رجوع المرسول، فلما عاد أخيراً، حمل معه خنجراً طاعناً من الخيبة المريدة: لقد تصرف ابن عمه تصرف الأراذل الجبناء إذ أعرض عن المرسول بفظاظة ولسان حاله يشكر الظروف التي خلصته من دائن مزعج.

صدم المسكين شر صدمة، فشلت يداه على إثرها يوماً كاملاً، لكنه سرعان ما تماسك بصبره المعهود، ووقف سريعاً من كبوته كما وقف يوم تلقى صدمة أولى من خطيبته التي ما إن علمت بحكم المحكمة عليه حتى تبرأت منه دون هداياه. ولم يكن من الأنانية والغباوة حتى ينتظر منها أن تهدر عمرها من أجله، ولكن ما كان أحوجه منها ساعتها إلى كلمة طيبة مواسية رقيقة يكون بعدها الفراق رحيماً كما كان اللقاء. غير أن ذلك كان هو المآل المحتوم لزواج المصلحة الذي يعمل على نمط البقرة الحلوب: إن أعطيتها زرعاً أعطتك ضرعاً، وإن غاب زرعك نضب ضرعها فداستك بظلف ونطحتك بقرن. ورغم مغالبة لغالو للظروف القاهرة، فإنه لم يستطع مغالبة الأمراض التي بدأت تزحف عليه كجموع من الأفاعي السامة الناهشة.

وهكذا شرعت عضلاته لا تطاوعه منذرة بحلول الشلل المؤكد. فأصبح لا يقوى على الجلوس على حافة الدكة إلا بعناء شديد. واستحال عليه الذهاب إلى المرحاض، فشرع يقضي حاجته في فراشه. وكان كلما أوجعه التمدد على جنبيه وحاول الجلوس مستنداً إلى الجدار، أخذته قشعريرة عنيفة كان يرتجف فيها ارتجاف من يصعق بالصدمات الكهربائية.

ولما مل الحراس منه وأغاظهم كثرة الدخول إلى عنده لمناولته الطعام والشراب، اغتنمت الفرصة وتوسلت إليهم أن يرحلوني إلى زنزانته لمساعدته. وكان ذلك يعد بمثابة خرق لقانون السجن الجهنمي. وبعد تردد وتشاور بينهم، قبلوا العرض لا رحمة بلغالو وعطفاً عليه، وإنما اتِّقاء شرور عدوى قد تصيبهم منه.

وهكذا إذاً جمعت أسمالي الممزقة، والتحقت بالزنزانة رقم 2 وأنا أشكو بدوري من أوجاع شديدة في المفاصل مع آلام حادة في المعدة من جراء القرحة اللعينة.

لما أغلقوا علينا الباب وغرقنا في العتمة، اقتبرت من صاحبي المسجى على الدكة وبحلقت فيه بعيني الغائرتين المتعودتين على الظلمة، فماذا رأيت؟ حطام آدمي كان أشبه ما يكون بفريسة أكلت بعضها السباع وتركت بقاياها لما دونها من الكواسر. لم يعد محمد لغالو سوى هيكل عظمي متآكل لا يميزه عن الجثث القديمة سوى شعر طويل ترامى على الظهر والأكتاف، ولحية كثة استرخت على الصدر النحيف فغطت ما يزيد من نصفه. أما أظافر اليدين والرجلين فقد تصلبت وتطاولت بشكل مروع مفزع. شعرت وقتئذ بغثيان شديد وبرغبة ملحة في التقيؤ من جراء الروائح الزاكمة التي نزلت على أنفي كاللطمات وانغرزت في رئتي كالإبر والمسامير. فقد مرّ على الرجل أمد بعيد وهو يتغوط ويتبول في فراشه حتى أصبح ما تحته وحوله برك آسنة من الفضلات. تراقصت ساعتها في عقلي كثير من الاستفهامات وأنا أقيء بشدة كل ما بجوفي.

كيف للغالو أن يصمد مدة طويلة على هذا الحال المفجع الرهيب، بينما أصحاب النعيم والرخاء يموتون سراعاً كالذباب في عيادات باريس ولندن الباذخة؟ هل خلت البلاد كلها من رجل أبيّ واحد ينتصب في وجه هذا الظلم الذي يهتز له عرش الرحمن سخطاً

وغضباً؟ ثم قبل هذا وبعده، أي ربح يجنيه الجلادون من كل هذا التنكيل؟ أما كان لهم أن يختزلوا هذا التعذيب الفظيع برصاصة واحدة رحيمة؟

بقيت الأجوبة معلقة في جدران الزنزانة رقم 2 وهببت أنا في غياب الصابون محاولاً تنظيف صديقي جهد المستطاع، فبدلت ثيابه الملتصقة بجلده المهترئ بثياب «نظيفة» حسب معايير النظافة في تزممارت، ـ علماً بأن أنظف قميص كان عندنا لم يكن ليلبسه أقذر إنسان على البسيطة ـ. وقصصت شعر رأسه ولحيته ثم قلمت أظافره بحديدة ماضية صحبتها معي، وبعدها شرعت في التسرية عنه مراجعاً معه ذكريات جميلة كانت تقذف بخيالنا بسرعة البرق خارج دياجير تزممارت. فتحاكينا المغامرات والقصص، وغنينا سوياً أروع الأغاني، وتبادلنا النكت إلى حد أنه كان يضحك ويتألم في الحين نفسه من ارتجاج صدره عند القهقهة.

ومرّ شهر على هذا الحال، فإذا بصحتي المتدهورة تزداد سوءاً وترغمني على العودة إلى الزنزانة 10. فخلفني تباعاً كل من الأخوة عبد الرحمن صدقي ثم محمد العفياوي والتجاني بن رضوان، وأحمد بوحيدة وعبد الكريم الساعودي. وأخيراً جاء دور ساكن الزنزانة رقم 1 بن عيسى الراشدي الذي قضى مع لغالو مدة طويلة تزيد على سنتين أو ثلاث، ظل خلالها يخدم صديقه بتحية وتفان قل نظيرهما بين بني البشر. وصادف في هذه الآونة أن كان بعض الأصدقاء على اتصال متقطع مع ذويهم، فكانوا يجمعون من حين إلى آخر بعض الأدوية والمقويات ويرسلونها إلى لغالو. وأراد الحظ السعيد في هذه الفترة كذلك أن يستفيد مريضنا من دواء «بلدي» مستخلص من الأعشاب، كان الحارس الطيب العربي لويز يمده به كلما سمحت له بذلك فرصة. فتحسنت صحته وارتفعت معنوياته إلى درجة أنه بدأ يقوى على

الوقوف متكئاً على عكازين ويمشي بخطوات ثقيلة متعثرة وكأنه طفل صغير يمتحن ساقيه بعد فترة الحبو.

وقد لعب بن عيسى الراشدي في كل هذا دوراً إنسانياً حاسماً لا يستطيع أحد أن يدرك مداه. فقد كنا نسميه بحق: «ذو الأصابع الذهبية» إذ كان مع سذاجته الفطرية وطيبوبته العميقة صانعاً وخياطاً وإسكافياً و(زرابياً) وخطاطاً ومغنياً ومقلداً ورساماً وزجالاً بارعاً. ونظراً إلى كراهيته الشديدة للعزلة، فقد راقه وأسعده أن يجد رفيقاً يؤنسه في وحدته، فوضع كل مواهبه بدون أدنى تقتير في خدمة صاحبه إلى أن استطاع انتشاله لسنين طويلة من الهلاك المؤكد.

ولكن قدراً جائراً نزل علينا فجأة كالصاعقة يوم وقع التفتيش الرهيب في الثالث عشر من تموز/ يوليوز سنة 1982، وقد كانت عواقبه وبالاً علينا جميعاً. ولكن فاتورة العذاب التي دفعها لغالو كانت أفدح وأفظع. ذلك أن بن عيسى الذي كان عينه ويده ورجله، أرجعه الحراس إلى زنزانته ليموت فيها شهوراً بعد ذلك.

فبقي لغالو وحده بدون سند ليواجهه العفن والشلل في زنزانة لم يكن يقوى فيها حتى على الزحف على بطنه لأخذ طعامه. غير أن الروائح الكريهة التي شرعت أمواجها العفنة تثقب الخياشيم والرئة، أرغمت الحراس على خرق القانون الشيطاني سريعاً والسماح بالتالي للسجين أحمد بوحيدة، أحد جيران لغالو، بالدخول عنده دقائق معدودة قصد مناولته الماء والطعام والرجوع بعد ذلك إلى زنزانته سريعاً.

واتفق أن بوحيدة نفسه كان في حالة صحية متردية، إذ كان يشكو من انتفاخ مهول في الجمجمة وتشنج حاد في المفاصل لم يكن يسمح له إلا بمشي بطيء متثاقل كثيراً ما كان يثير به سخط الحراس فينهالون عليه سباً وشتماً. وفي هذا الحال المزري بدأت معنوياتنا تهبط يوماً

بعد يوم كصخرة ضخمة كانت تتدحرج بعنف من قمة جبل شاهق لتتكسر وتتفتت في قاع الوادي السحيق.

في 23 من شهر آذار/ مارس لسنة 83، أسلم بن عيسى الروح إلى بارئها بعد أن قاوم الموت بشجاعة بطولية، فصدم لغالو لموته شر صدمة وهو الذي لم ينسَ له فضلاً ولا إحساناً. وتبع بن عيسى، التيجاني بن رضوان، فالتحق بجوار ربه يوم 26 آب/ غشت من السنة نفسها على إثر حمى حصدت روحه في شهر من الزمن. وقد كان التيجاني من الفوج نفسه الذي كان يعمل في صفوفه لغالو قبل التحاقهما سوياً بالأكاديمية، وقد كانت بينهما ذكريات، فتلقى بذلك الصدمة الثانية. ثم جاء دور حمو بيطي ليلقى ربه في شهر آذار/ مارس من سنة 1984 بعد أن واجه احتضاراً طويلاً مروعاً بشجاعة قد لا يوجد نظيرها إلا في الملاحم والخرافات.

وفي هذه المدة كلها كان لغالو مسجياً على جنبه الأيسر، فريسة لشلل شامل لم يرحم سوى ذراعه الأيمن. فأبلى معه أحمد بوحيدة البلاء الحسن، إذ كان يغتنم بطء حركاته كلما دخل عنده محاولاً ربح وقت ثمين كان يقضيه في تسوية فراش المريض أو قضاء بعض حاجاته. وكان يتوسل إلى الحراس من حين إلى آخر من أجل السماح له بفسحة من الوقت لقلب لغالو على جنبه الأيمن كلما تهرأ جنبه الأيسر وتقيح من فرط احتكاك جلده بالإسمنت الأحرش ومن جراء الرطوبة المترتبة عن إفرازاته المتعددة. ولم تكن توسلات بوحيدة لتجدي نفعاً في كثير من الحالات. فقد كان بعض الحراس يتصرف بوحشية الحيوانات الضارية، مما كان يحتم علينا أحياناً أن نندفع في توسل جماعي لهذا الجلف أو ذاك حتى يلين بعد يوم أو يومين من العجرفة والاعتراض. بيد أن مجهودات «حميدة» (وقد كنا ننادي بوحيدة كذلك) لم تجد نفعاً حيال حالة مأساوية كانت تستدعي

استنفار وتجنيد مجموعة متخصصة من الأطباء المهرة. فقد تراكمت النفايات بشكل مهول، وأصبح الفراش مبللاً دائماً من جراء التبول المستمر، مما ترتب عن ذلك تفسخ وتهرؤ على امتداد جلد الجنب الذي لم يكن يفصله عن الأرض إلا لحاف رقيق ممزق. وزاد الأمر استفحالاً حين انسلخ الظهر واشتعلت الحمى في سائر الجسد، وأصبح بذلك الرجل البائس المسكين عبارة عن زبد يذوب على مهل في مقلاة وضعت فوق نار دافئة. بشاعة ليس لها وصف ولا يرقى إليها تعبير.

«اللهم إنا نسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحم لغالو بموت رحيم».

هكذا كنا ندعو للمعذب المكلوم من أعماق قلوبنا.. ولكنه لم يمت. شيء لا يصدق. شيء غامض انفلت من عالم المعقول فارتمى في دنيا الخوارق. ولكن، في دوامة هذا الخضم المسعور، بقي خيط رفيع من نور كان يدخل عليه من حين إلى آخر ليحقنه بجرعة من حياة.. إنه الوجه الآخر المشرق في الإنسان والمتمثل دائماً وأبداً في الحارس الطيب العربي لويز.. كان الرجل ينسى في فورة تأثره الصامت أنه أب لسبعة أطفال، فكان يغامر ويخاطر ويفعل المستحيل مدركاً أن المعركة خاسرة من أولها، ولكنه كان يأبى أن يخسر ضميره. فمرة كان ينفحه بالدواء والمسكنات، ومرات أخرى بطعام شهي من صنع زوجته الطيبة، وكان كل أمله هو أن يخفف عنه يوماً من العذاب. وبقي «لغالو المعجزة» يقاوم بدون شكوى ولا أنين. كل شيء مات فيه إلا روحه وصوته. فقد كان يتحادث معنا يومياً بنبرة صوت صافية لا تستشف منها ضعفاً ولا وهناً. أكثر من ذلك، كان يحكي الحكايات المسلية فيقتلع من أعماقنا ضحكات مجلجلة يضحك هو لها ويتألم من ارتجاج صدره المعقور.. وفي عز الألم،

عندما كانت تُقتلع قطعة جلد من فخذ ويحتك على إثرها عظم بأرض فتشتعل لذلك الحمى وتتأجج، كان صوته الملتاع ينطلق من أعلى قمم الأطلس الشامخ بموال ملعلع لم يكن في الحقيقة سوى صرخة مرارته الدفينة:

يا حبيبتي.. إذا أصبح اللقاء بيننا مستحيلا
فتعالي لننصهر في عناق يكون طويلاً طويلا
فإذا ما متنا ودفنا سويا
وتعانقت عظامنا في اللحد مليا
فتيقني يا حبيبتي
أننا سنسكب في حنجرة الطير لحناً شجيا
ثم نبعث في رحيق الوردة عطراً زكيا

وفي نهاية سنة 1984، دقت أميركا بقبضتها الغليظة القوية على زنزانة الملازم امبارك الطويل لتنتشله بمفرده من الموت المحقق. وقد كان ذلك بالنسبة إلينا انتصار ساحقاً على جلادينا لأن المجتمع المدني الغربي كان قد أصبح على دراية تامة بالجحيم الذي كنا نصلاه. وقد عرف الطويل كيف يتعامل مع الحدث بعد أن أمسى يتمتع بواسطة ضغوطات السفير الأميركي في الرباط بنظام خاص خوّل لها التمتع بقدر وافر من الامتيازات. فاستطاع بذلك أن يقنع المدير بالسماح لبعض السجناء بزيارة لغالو قصد تنظيفه والتخفيف من آلامه. ولا شك في أن المدير لم يستجب إلا لخوفه من أن يُحمَّل مسؤولية كل ما طالنا من خروقات في حالة إطلاق سراح الطويل. فلم يعد الشيطان متيقناً كما كان من قبل في حتيمة إبادتنا ودفن سرنا في ساحة السجن.

لقد تزعزع لديه الآن هذا المعتقد الراسخ بعد أن دخلت أميركا إلى الحلبة، وآن له أن يستعد لكل الاحتمالات. لذا فقد حاول مغازلة

الطويل وأرسل بواسطته إلى لغالو قنينة من الدواء الأحمر (الميركر كروم) مع كومة من القطن وبضع ضمادات، وكان ذلك أول مرة يدخل فيها الدواء بشكل رسمي إلى تزممارت. وفي تلك الأثناء، كانت حالتي الصحية قد تحسنت نوعاً ما، فتطوعت مع القبطان محمد غلول للرجوع عند لغالو من أجل مساعدته.

تحت الضوء الخافت المتسرب من الباب الذي تركه الحراس نصف مشرع. تبينا مشهداً في منتهى البشاعة والهمجية. مشهد لو رآه أعدم المغاربة وطنية لدس رأسه في التراب من فرط إحساسه بالخزي والعار.

كيف يسوغ للمغرب أن يطوح بأبنائه مجاناً في هذا الجرف الهار من الجحيم؟ وكيف يطيب لبعض المسؤولين أن يتصرفوا هكذا في السر تصرف القتلة المحترفين؟

تقلص جسم لغالو بشكل مهول ولم يعد سوى جثة متآكلة لطفل في التاسعة من عمره. طفل بلحية مخللة بالشيب غطت الآن كل صدره القصبي النحيف، وشعر رمادي مغبر أشعث ترامى على كتفيه الضامرتين كجدائل ممرغة في التراب اللزج.

لما حاولت مع القبطان غلول تجريده من ثيابه، ذهبت قطعة من جلده المهترئ مع مزق من قميصه المبلل فانكشفت بعض من عظامه. كان لغالو وهو عريان هيكلاً عظيماً مشوهاً ملفوفاً في كيس من الجلد الممزق المثقوب، تفوح منه رائحة الفناء.. رائحة نتنة كانت نتاج مدة طويلة من إفرازات القيح والدم والبول والغائط والعرق. انسلخ ظهره وجلد جنبيه، وأصبح قفص صدره شبه مقعر، أما حوضه فقد تسطح من الخلف بشكل يثير القشعريرة من الروع والهول. لم يجد (الميركر كروم) نفعاً لتضميد جراحه فعمدنا إلى مبيد الحشرات، مسحوق د.ت.ت الذي كنا نستعمله جميعاً بلسماً لجميع الجراح..

وهكذا فتحت قضية الملازم الطويل في وجه لغالو وفي وجهنا باباً عريضاً من الأمل. فتعاون على مساعدة المريض سجناء آخرون سمح لهم بالدخول عنده مرة كل يومين لتنظيفه وتضميد جراحه. فقد أصبح الثلاثي الرائع المكون من القبطان غلول وأحمد بوحيدة وعبد الكريم الشاوي ممرضين رحماء، يجهدون أنفسهم في الليل والنهار سعياً للتخفيف من محنة رفيقهم. لقد ضربوا جميعاً على امتداد سنين طويلة، أروع الأمثلة في التضحية ونكران الذات. وكانوا بحق في تلك الدركات الدنيا رُسل سلام وملائكة رحمة.

لم يكن لغالو يطيق النوم على ظهره، وكان بالتالي مرغماً على الامتداد على أحد جنبيه. وكانت العملية الشاقة العويصة تقتضي قلبه على جنبه الأيمن كلما طاب جنبه الأيسر، ثم ملء الجراح والتهرؤات بمبيد الحشرات، (مسحوق د.ت.ت). وبفضل تلك المجهودات الجبارة، خفت آلام المشلول نسبياً، غير أن جراحه لم تندمل. لكنه لم يلن ولم ينهر قط..

فقد حدث ذات يوم أن أبدى القبطان حشاد رغبته في عيادة لغالو، فتسنى له ذلك بواسطة تدخلات الملازم الطويل. فأخذ هذا شمعة ودخلا على المريض الذي لم يكن يعرف حشاد إلا بصوته. فتقدم هذا الأخير وقرب وجهه ذا اللحية الطويلة الحمراء من وجه لغالو، ثم فتح فيه عينين كبيرتين خضراوين ومط شفتيه بكيفية هزلية أبرزت خواء فمه المجرد من الأسنان.. فحملق فيه لغالو هنيهة، ثم انفجر فجأة بقهقهة هستيرية رجت صدره رجاً من شدة الضحك والألم. فسأله الطويل إن كان يعرف الرجل، فأجاب وهو يغالب ضحكته الهستيرية:

ـ أجل، أعرفه جيداً.. إنه «صلامبو».. إنه يشبه ذاك الشيخ الذي مثل في فيلم «صلامبو» والذي التقيت به شخصياً لما شغلوني مع

كثير من فتيان قريتنا «كومبارساً» في ذلك الفيلم الذي صورت مشاهده في منطقتنا. ثم أضاف متحسراً بعد أن غاضت ضحكته:

ـ أهذا أنت يا صديقي حشاد؟ لم أتخيلك هكذا قط.

ساعد حشاد مريضنا بالأدوية قدر مستطاعه، لكن مساعدته كانت متقطعة من جراء المشاكل المزمنة التي كانت له مع بعض المطالبين بالاتصال من السجناء. أما الطويل فلم يأل جهداً في إسعافه والوقوف بجنبه، وإليه يرجع الفضل لربما في تمديد حياته تلك السنين كلها.

وقد حدث ذات ليلة أن سمعنا لغالو يتوجع بصوت مسموع على غير عادته. فلما سألناه أجابنا بأن الأكياس الصغيرة التي دأب الأصدقاء الثلاثة على دسها تحت كتفيه وحوضه من أجل عزل جنبه عن فراشه الوسخ، زلقت من مكانها ليجد نفسه ملقى على ظهره، بينما تأرجحت رجلاه المشلولتان في الهواء مؤذنة بسقوط وشيك من فوق الدكة التي كانت على علو تسعين سنتيمتراً تقريباً. انقبضت قلوبنا هلعاً لهذا الحدث الأليم الذي لم نكن نملك حياله شيئاً. فتعالت أصواتنا تشجع الرجل وتحثه على معالجة الأمر بيده اليمنى التي نجت من الشلل. ولكن لغالو طلب منا بإصرار صمتاً شاملاً ثم خاطبنا بصوت راجف حزين:

ـ إخواني الأعزاء، إني ساقط ما في ذلك أدنى شك، لم يبقَ لي إذن من العيش سوى هنيهة وجيزة، فدعوني أقضيها معكم حتى أودعكم جميعاً وداعاً أخيراً.. أود..

ولم يستطع إكمال جملته.. سمعنا وقع جسمه وهو يهوى بعنف على أرضية الزنزانة محدثاً صوتاً أخرس.. فران بعد ذلك صمت كصمت القبور..

وما هي إلا هنيهة حتى تعالت من هنا وهناك شهقات مؤثرة لبعض السجناء الذين بادروا بالتعبير عن نكبتهم في فقدان أيوب

تزممارت. . صنم العذاب الذي ظل يمثل بالنسبة إلينا جميعاً على امتداد عقدين من الزمن، رمزاً للصبر والاصطبار والمقاومة. لم يجبنا لغالو رغم نداءاتنا المتكررة، فانطلقنا في ذلك الليل البهيم نخبط على الأبواب باندفاع جنوني، ونحن ننادي على الحراس بأصوات متحشرجة زادها الإحساس باليأس والضياع قوة، فرددت الجدران الموحشة صداها وكأنها صرخات لأهل السعير انفلتت من شقوق جدران الجحيم. بعد نصف ساعة تقريباً، سمعنا ارتطام المفاتيح بباب العنبر، فإذا بحارسين يدخلان علينا وهما في حالة شديدة من الذعر، بينما وقف على العتبة جمع من الجود وسباباتهم معقودة على زناد بنادقهم استعداداً لإطلاق النار عند أول إشارة.

هتف فينا سائق المدير الوغد «حمو» بصوته الأجش المتذمر:

ـ ماذا جرى؟ لِمَ كل هذا الصخب؟

فلما أخبرناه بالحدث، فتح زنزانة لغالو وأضاءها بمصباح كهربائي، ثم فتح بعد ذلك زنزانتي كل من الطويل وحميدة، وأمرهما بالدخول عند المريض. لما تحسس السجينان صديقهما وجدا صدره لا زال يصعد ويهبط وهو في غيبوبة تامة. فتريث حمو حتى أعاداه إلى مكانه، ثم أمرهما أن يغادرا الزنزانة بسرعة. ولما أغلق جميع الأبواب، نبح فينا من جديد بصوته الساخط المستنكر:

ـ أمن أجل سجين سقط من فوق دكته أزعجتموني كل هذا الإزعاج؟ أما كان لكم أيها الأوغاد أن تنتظروا إلى حين مجيئنا غداً في الصبح؟ والله لو عدتم لمثل هذا لأحرمنكم من الماء والطعام أياماً طويلة عقاباً لكم على هذا التصرف المشين.

ثم صفق باب العنبر وخرج هائجاً. وكان ذلك أول مرة في تاريخ تزممارت يقدم فيها الحراس عندنا ليلاً.

لم يمت لغالو هذه المرة كذلك، بل عاد إلى وعيه ليتابع مشوار محنته. ذلك المشوار الهمجي الذي لم يكن يخفف من وطأته سوى مثابرة ممرضيه الرحماء وتضامن أصدقائه البؤساء الذين أبانوا له عن محبة عميقة وتقدير عظيم.

ومرّ خريف تلك السنة بارداً حزيناً كعادته. وتلاه فصل الشتاء حاملاً إلينا هدايا من الألم الأبيض. مناشير البرد الحليبية التي كانت تحز فينا العظام وتفعل بأجسامنا الأفاعيل. ووجد منجل الموت ضالته في العنبر الثاني، فواصل عمله بانتظام وإتقان حاصداً أرواحاً تلو أرواح.

وذات صباح، دخل «حميدة» كعادته عند لغالو ليناوله كسرة الخبز مع كأس القهوة، فحياه تحية الصباح، لكن لغالو لم يرد على التحية بأحسن منها كما كان ديدنه. فتحسسه فلم يجد سوى جثة متخشبة جمدها الصقيع. خرج حميدة بسرعة وأخبر الحراس. فالتفت العربي أمزيان إلى أحد مرؤوسيه وقال له:

ـ اختر من بين هؤلاء سجيناً لم يركبه الحمق بعد ليتأكد من موت رقم 1.

فاختار الحارس حشاد الذي أكد لهم الخبر.

هكذا إذاً، كانت نهاية الملازم محمد لغالو الحزينة. انطفأ في 3 كانون الثاني/ ينايرمن سنة 1989 بعد خمسة عشر سنة من محنة فظيعة، قضى منها وهو مشلول ما يزيد على إحدى عشرة سنة، ذاق خلالها من تباريح العذاب ما لا يصور ولا يرسم ولا يفسر ولا يوصف. مات في صمت بطولي، من دون شكوى أو توجع أو أنين، كعصفور صغير أخرسه البرد فانطفأ من دون أن يلتفت إلى جثته أحد. مات لغالو وخلف لنا حزمة من أسئلة حارقة، كانت تهوي على رؤوسنا كمقامع من حديد:

وبعد؟ ماذا ربح الجلادون من كل هذا العذاب المجاني؟ حظوة؟ جاه؟ مال؟ رتب؟ أوسمة؟ مناصب؟ نياشين؟ فأين الخوف من الله إذاً؟ وإذا كان إيمانهم بالله لاغياً، فأين الضمير؟ أين القيم؟ أين المبادئ؟ أين اختفى فيهم الإنسان؟ أما كان الرصاص أهون وأرحم ما دام تصميمهم على القتل أمراً لا مرد له؟

فجاءنا الجواب من السماء رقيقاً رحيماً شافياً وافياً ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. صدق الله العظيم.

انتحار ميمون الفاكوري

كان الموت كلما اختار من بيننا أحداً ليفترسه عشنا معه مذعنين مستسلمين احتضاره الطويل لحظة بلحظة ونحن نتألم في أنفسنا ألماً فظيعاً مبرحاً. وقد كان لكل الوفيات وقعها العميق وطعمها المر، ولكن قلّة قليلة منها هي التي صدمتنا كما صدمنا انتحار ميمون الفاكوري. فقد أراد قدر هذا الشاب الوديع أن يعود إلى الولايات المتحدة الأميركية التي قضى فيها مدة طويلة في التدريب في الوقت نفسه الذي كانت تُحاك فيه المؤامرة الانقلابية.

ففي ذلك اليوم الموعود، كان يتدرب مع أصدقائه على أسرار المهنة وهو لم يضع بعد على أكتافه رتبة رقيب. وغني عن القول أن تلميذاً سلاحياً كميمون، لم تكن له أدنى فكرة عما كان يرتب له في ذلك اليوم. فألقي عليه القبض في المساء مع شرذمة من أصدقائه التلاميذ، كالسجعني، وباح باح، والقصراوي، وبوحيدة، وبوعملات، وحكم عليهم ظلماً وعدواناً بثلاث سنوات سجناً.

ازداد ميمون وسط أسرة فقيرة بقرية منسية في ضواحي مدينة ميدلت. وقد كان شاباً قوي البنية، طويل القامة، رشيقها، يتمتع بقسمات بربرية أصيلة. إذ كان فاتح البشرة، بارز الوجنتين، رقيق الشفتين، طويل الأنف مقوسه، تتصدر وجهه الطويل عينان صغيرتان ضاحكتان أبداً. رمى به الحظ العاثر في الزنزانة رقم 26، على يسار مدخل العنبر، فوجد صعوبات جمة في التفاهم مع جيرانه الأقربين نظراً إلى تباين الطبائع والعقليات. ولم يكن بوسعه التحدث إلى أصدقاء فوجه البعيدين عن زنزانته بدون أن يزعج كل من حوله. لذا، كان مرغماً على الانكماش على نفسه واللوذ بصمت طويل لم يكن يقطعه أحياناً إلا حديث قصير كان يجريه بالبربرية مع الملازم امبارك الطويل، الضابط الذي كان رئيساً له في القاعدة الجوية وجاراً باراً في تزممارت.

في سنة 1977، لما توفي محمد السجعي، أول شهيد في العنبر الأول، تأثر السجناء جميعهم كثيراً، لكن الصدمة العنيفة التي تلقاها ميمون كانت أشد وقعاً في نفسه من أي سجين آخر وإن كان المسكين لم يُظهر لنا منها شيئاً. فقد كانت بين الشابين صداقة متينة ومغامرات حلوة جمعت بينهما في الولايات المتحدة الأميركية. وقد حكى لنا السجعي الذي كان «دون جواناً» متميزاً أنهما سقطا سوياً ذات مرة في حب فتاة أميركية كانت في منتهى الجمال. فتنافسا عليها تنافساً شديداً، ولما توترت العلاقة بينهما بعد سلسلة من المفاوضات الطويلة الفاشلة، أعلن كلاهما الحرب على صاحبه، فتعاركا يوماً في نادي ضباط الصف عراكاً شرساً انتهى بالتكافؤ بعد أن كالا لبعضهما بعضاً كل ما حلا ولذ وطاب من اللكمات والركلات والنطحات. ولم تضع الحرب أوزارها بينهما إلا بعد أن احتكما إلى الفتاة نفسها، فحسمت المعركة لمصلحة السجعي الذي كان في نظرها أكثر وسامة وأطرف

طبعاً. قبل ميمون حكمها بروح رياضية، فطويت بذلك صفحة سوداء بين الصديقين بعد أن تصالحا وعادا إلى ما كانا عليه من قبل وكأن شيئاً بينهما لم يقع.

مباشرة بعد وفاة السجعي، تمّ ترحيل تسعة سجناء من العنبر الأول إلى العنبر الثاني ثم أرجعوا سريعاً إلى زنازينهم بعد أن بدل المدير رأيه. وقد كان ذلك اللقاء القصير بين سجناء العنبرين كافياً لتبادل كل الأخبار. فعلمنا أن ستة أصدقاء من العنبر الثاني قد لقوا حتفهم في ظروف فظيعة. تجمد الدم في عروقنا من فرط الهول، وغرق ميمون كعادته في صمته العميق، وذات صباح خرج من عزلته فنادى على الطويل وقال له:

ـ سي امبارك، هل تسمعين؟ معي الآن في الزنزانة عفريت من الجن يهددني بالموت إن أنا لم أرتد عن الإسلام وأعانق دين المسيحية. فهل أفعل ما يأمرني به؟

سكتنا جميعاً لنترك للطويل فرصة محاورته.

ـ ميمون؟ ماذا دهاك؟ لا شك في أنك متعب من فرط الأرق. أواع أنت بما تقول؟

ـ لا! ليس ذلك. ينبغي أن تعلموا جميعاً أن جنياً قتلني في سنة 1953 بعد أن استحوذ على روحي وأنا صبي غرير ألعب قرب البحيرة المجاورة لمنزلنا. منذ تلك الساعة وأنا أعيش بلا روح. وعليه، ينبغي اليوم أن أموت. إن الجني نفسه يتلو عليّ دائماً قوله تعالى ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ هل تسمعني؟ لن نرى أسرنا بعد اليوم.. الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا الجحيم يا أصدقائي هي الانتحار. لننتحر إذاً جميعاً يا أعزائي.

مر أسبوع وميمون يخرف بهذا الهذيان المحموم، وذات ليلة،

انطلق فجأة يخبط بعنف شديد على الباب بحجر وهو يصرخ صراخاً يائساً منادياً على سجين كان قد توفي في العنبر الثاني: وا.. العايدي.. وا.. العايدي!

لم يستطع أحد منا كبح جماحه رغم نداءاتنا وتوسلاتنا المتكررة. أما الحراس، فقد تصرفوا وكأن ذلك لا يعنيهم في شيء. بل بدا لنا وكأن ذلك كان يروقهم لأنه كان يضر بنا كثيراً. كان ميمون يخبط ساعة متواصلة دون انقطاع، فيرتاح ربع ساعة أو نصفها ثم يتابع خبطه بقوة أشد. كيف كان لجسمه المنهوك أن يتحمل كل ذلك الجهد الكبير من أين كان يستمد تلك الطاقة الخارقة؟ ذلك ما لم نجد له جواباً شافياً.

كان لوقع الحجر على حديد الباب دوي القنابل المتفجرة، وكان رجع الصدى يضاعفه ويزيد من حدته في تلك الزنازين الخاوية الباردة مما كان يرغمنا على سد آذاننا بكومة من القماش والضغط عليها بعد ذلك بباطن أكفنا. ولكن هيهات هيهات.. كان الدوي قوياً ملحاً يتسرب إلى دماغنا فينسف كل خلية فيه نسفاً. انهرنا تماماً وبدأنا نقترب من الجنون رويداً رويداً. سنة بكاملها، بأيامها ولياليها، والمطارق تهوي على رؤوسنا الهشة بلا رحمة ولا هوادة:

ـ طاق.. طاق.. طاق، وا.. العيدي! طاق.. طاق.. طاق.. وا.. العيدي!

بعد شهور بدأ ميمون يفقد وعيه من شدة الوهن. ولكنه ما إن كان يتوب إلى رشده حتى يواصل نداءاته اليائسة، متسرباً بها إلى تجاويف مخنا ليقرع فيها طبول الحمق ويرقص رقصة الموت. قلت حيلتنا ونحن نبحث عن وسيلة نخطف بها من النوم ولو هنيهة قصيرة. فبدأنا ندرس تصرفات ميمون لنطابق برنامجنا على برنامجه، محاولين أن نسرق سويعات من الراحة في الوقت الذي يكون فيه فاقداً لوعيه.

ولكن كنا كلما استرخينا وأغمضنا أعيننا، استيقظنا مذعورين على وقع الخبط الجنائزي الذي لم يكن سوى كابوس من كوابيسنا المحمومة، حتى إذا ما عاودنا محاولة النوم، ابتدأ الخبط حقيقة لندخل إلى السعير من بابه السفلي.

أي إحساس يمكن أن يشعر به آدمي حين يتكالب عليه الجوع والبرد والعزلة والظلمة والظلم والقذارة والمرض والمهانة ثم يزيد فوق ذلك الصخب والضجيج؟ ألم يكن الموت حينئذٍ أرحم؟

كانت فكرة الانتحار تومض في عقولنا كالبرق الخاطف ملوحة لنا بمفاتيح الخلاص. مذا لو انتحرنا انتحاراً جماعياً ننزل به عند رغبة ميمون ونرضي به كل الجلادين؟ ولكن غريزة البقاء الكامنة فينا كانت تنتصر دائماً في النهاية وتدفعنا إلى الكذب على أنفسنا ممنين إياها بفرح قريب.

مرّ علينا عام كامل على هذا الحال، كان من أحلك وأشد وأفظع ما كابدناها في قبور تزممارت الباردة. وغير صعب على أي كان أن يتصور الحالة المزرية التي يمكن أن يكون عليها رجل فقد صوابه في تزممارت فأمسى يأتي حاجته أينما اتفق. أصبحت روائح العفن تهب من زنزانة ميمون المسكين شديدة زاكمة سيما بعد أن اختنقت قناة الصرف في مرحاضه من جراء ما كان يدس فيها من خرق ممزقة، فعافه الحراس ولم يعد أحد منهم يطيق الاقتراب منه. فهب لمساعدته جيرانه الأقربون، وتكفل به على الخصوص، عبد الرحمن صدقي ومحمد المجاهد، فواظبا على مناولته حصته اليومية من الماء والطعام، وكلما سنحت لهما فرصة، فتحا قناة مرحاضه ونظفا جهد مستطاعهما حوائجه.

وفي سنة 1980، توفي تباعاً صديقان عزيزان علينا: انطفأ العربي أزيان في الأسبوع الأول من تلك السنة، ثم تبعه الجيلالي

الديك في عز الصيف. وفي هذه الأثناء، كان ميمون قد عدل أخيراً عن خبطه المجنون، فغرق مدة طويلة في صمته العميق، ثم سمعناه بعد ذلك وهو يشرع في محاورة نفسه بمونولوج طويل تتخلله ضحكات هستيرية كانت تثير فينا من رهبتها القشعريرة. وقد كنا نجاريه دائماً ونحرص ألا نعارضه أبداً، سيما وقد أصبح ذا طبيعة عدوانية كانت تدفعه لمعاودة الخبط على الباب وسبنا بأقذع الشتائم إن رأى فينا ما يقلقه.

وذات يوم، نسي الحراس في غمرة تسرعهم باب أحدنا مفتوحاً. فاغتنم الفرصة المتاحة وخرج إلى الدهليز ليحيي أصدقاءه. فلما وصل عند ميمون، أطل عليه هذا مبتسماً من نويفذة الباب المستطيلة وقال له متوسلاً:

ـ أيها العزيز، هل بإمكانك أن تسدي لي خدمة لن أنساها لك ما حييت؟ إنك تدرك إدراكاً جيداً أن لا خروج لنا من هنا إلا بواسطة الانتحار، لذا، أرجوك مساعدتي. أترى هذا الحبل؟ إني سأشد طرفه في عنقي وسأعطيك الطرف الآخر لتجره بكل قوتك.. جر.. جر.. جر ثم جر حتى تخرج روحي.. وإياك أن تأخذك بي رحمة أو شفقة. أتوسل إليك يا صديقي أن تختزل محنتي، وأعدك وعداً قاطعاً بأني لن أخبر بهذا أحداً.

وظل ميمون على هذا الحال يتوسل إلى كل سجين نسي الحراس بابه مفتوحاً فخرج إلى الدهليز. وفي أواخر خريف سنة 1987، طلب منا الصمت ذات صباح، فتوجه إلينا جميعاً قائلاً:

ـ أصدقائي الأعزاء، لقد قررت أن أحكي لكم صبيحة كل يوم اثنين مباشرة بعد الفطور، فصلاً من فصول قصة أنتم ملزمون بتتبع حلقاتها باهتمام كبير.. وعليه، فسوف أبدأ من اليوم بسرد فصلها الأول عليكم:

ـ إن الجني الذي يسكن معي في الزنزانة قد جاءني البارحة بشخصيات مهمة جداً قضيت معها سهرة ممتعة. لقد جالست أبا بكر الصديق رضي الله عنه والرئيس التونسي الحبيب بورقيبة في قصر هذا الأخير.. ولكننا مع الأسف اختلفنا في كثير من الأمور.

وتابع ميمون تخريفه طوال ساعة ونصف، ونحن نعيش على أعصابنا مستسلمين ننتظر الخلاص ومتوجسين أن ينهار أحدنا فيقلق ميمون بشيء ما فيكون بعد ذلك الطوفان.

وأخيراً، وبعد انتظار طويل، كنا نتنفس الصعداء ونحن نسمعه يقول:

ـ أيها الأعزاء، أرجو أن يكون قد أعجبكم ما حكيت، شكراً على انتباهكم، وإلى الحلقة المقبلة بحول الله.

وفي الاثنين التالي، كان ينادي علينا في الساعة نفسها فيقول:

ـ باسم الله، على بركة الله، سنبدأ اليوم في سرد الفصل الثاني.. ولكن، خبروني.. أين وقفنا في الحلقة السابقة؟

كانت أم المصائب هي أن لا يجيبه أحد. ولكن من حسن حظنا أن «حميدة» كان ينقذ الموقف دائماً.

واصل ميمون هذيانه الطويل طوال شهور عديدة، وهو يحكي لنا عن عالم خرافي لم يكن يعرف حواجز في المكان والزمان. عالم كان يلتقي فيه أبو بكر بالجنرال ديغول وعمر بن الخطاب ببرقيبة وهلم جرا.. وحدث ذات مرة أن انفلتت من أحدنا ضحكة وميمون يصول ويجول في سرد هذيانه، فأحس بالإهانة وتوقف عن كلامه ثم صرخ فينا غاضباً:

ـ من هو هذا الكلب ابن القح.. الذي ضحك؟

اندفعنا جميعاً بصوت واحد نقسم لميمون ونؤكد له بأن صديقنا لم يضحك وإنما عطس، وأن حلقته تلك على الخصوص، كانت غاية

في التشويق والإثارة، فلما أفلحنا في طمأنته، حمدنا الله ونحن نسمعه يتابع تخريفه.

في الفاتح من أيار/ مايو سنة 1990، ألقى الملك خطاباً تناول فيه وضع حقوق الإنسان في المغرب. فصرَّح أنه أعطى تعليماته الصارمة للمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان كي يدرس كل الملفات المطروحة في مدة شهر من الزمن ثم يوافيه بعد ذلك بتقرير مستفيض يمكنه في ضوئه تسوية كل المشاكل العالقة. وقع الانفجار العظيم داخل العنبر الأول، فثمل كل السجناء من فرط الفرحة العارمة، وتعالت أصواتهم جذلانة مهللة تعبّر عن سرورها باقتراب يوم الفرج. ثلاثة سجناء في كل القطيع لم يحركوا ساكناً ولم يظهروا فرحاً ولا حماساً. فقد كانوا فاقدين منذ أمد بعيد كل ثقة بالمسؤولين المغاربة، متأكدين بأن الفرج إن أتى فلن يأتي الله به إلا على يد الغرب والغرب فقط. ونظراً إلى تشاؤمهم ويأسهم من الحلول والمبادرات المغربية، كان باقي السجناء يتطيرون من آرائهم ويطلقون عليهم لقب «الغربان». . لم يلاحظ أحد في غمرة هذا الفرح الكبير أن ميمون قد بدأ يستعيد بكيفية متقطعة شيئاً من صوابه. فقد أدرك قيمة الخبر واندفع يحلله مع باقي جيرانه الذين أكدوا له جازمين بأن الغد القريب سيشرق لا محالة بفرج مؤكد.

ومرّ يوم ثم أسبوع ثم شهر، وظلّت دار لقمان على حالها. فكانت الخيبة بحجم الفرحة أو أكثر، سيما بعد أن ظل المسؤولون يؤكدون بأن تزممارت ليست مجرد وهم من اختراع خيال مريض يمقت المغرب والمغاربة.

في صبيحة فاتح حزيران/ يونيو 1990، جاء الحراس كعادتهم لتفريق الماء والطعام. فلما وصلوا إلى زنزانة ميمون ودعوه لإخراج إناء مائه، لم يجبهم بصوت. فظنوه طريح الفراش، ولما عافوا

الدخول عنده من فرط الرائحة الكريهة، أمروا جاره محمد المجاهد ليقوم بذلك. وما إن فعل حتى خرج مهرولاً من بشاعة ما رأته عيناه. كان ميمون مشنوقاً من عنقه بحبل متين مربوط في ثقبتي الجدار بينما كانت رجلاه تتأرجحان في الهواء، أما عيناه المفتوحتان اللتان كانتا بلون الزجاج، فكانتا كعيون الخروف المذبوح يوم العيد، تنظران صوب بقعة كبيرة من دمه الذي انبجس من أنفه ورسم على الجدار الأسود قبالته لوحة مأساته. لقد مل المسكين من كثرة الانتظار، وخاب ظنه في وعد لم ينجز، فآثر الرحيل إلى تراب تدفئه شمس ويضيئه قمر..

دفن ميمون في الساحة ـ المقبرة من طرف الحارس بوكبش الذي تذمر كثيراً من المنتحر لأنه أساء برمجة انتحاره ذاك، فقد كان الأحرى به حسب هوى الحارس أن يختار يوماً يكون فيه كل الحراس حاضرين حتى يضمن بذلك مساعدتهم له في دفنه. ولما فرغ من عمله بسرعة، دخل علينا وقال لنا بوقاحة الرعاة:

ـ أنتم المسؤولون عن موت ميمون.. فلا شك في أن أحدكم قد أثار غضبه.

هكذا إذاً، كانت نهاية ميمون الأليمة. فقد عرف المصير نفسه أصدقاء فوجه، التلاميذ الأبرياء الذين لم ينج منهم سوى عقا المجدوب وأحمد بوحيدة وامحمد بوعملات، أما باح والقصراوي والفراوي والسجعي وأزيان، فرفاتهم لا زالت راقدة تحت أسفل جدار الساحة تتضرع إلى الله أن تعود إلى كنف الأسرة لكي تدفن في مسقط الرأس فتزار ويترحم عليها بالدعوات والقرآن والصدقات.. فهل يتحقق يوماً هذا المراد؟

للذكرى

إذا كان لغالو وميمون قد توفيا في أواخر مقامنا في السجن على ذاك النحو الوحشي، فقد سبقهما إلى تلك الحفر الجيرية المنسية ما يزيد على خمسة وعشرين سجيناً عانت غالبيتهم معاناة تجل بشاعتها عن الوصف. وقد كانت وفاة كل صديق لنا ضربة في الأعماق، إذ كانت تملؤنا مرارة ورعباً وتذكرنا بكل ما كان ينتظرنا من آلام ومحن. وفي حقيقة الأمر، فإن الموت في تزممارت كان عبارة عن لعبة يانصيب، يُدير القدر عجلتها بكيفية اعتباطية من حين إلى آخر، فتختار من بين الأرقام الثمانية والخمسين رقماً أو رقمين ليكونا كبش الفداء. لم يكن للأقوياء معنوياً أو جسمانياً أي فضل على الضعفاء ذوي الأجسام النحيفة والمعنويات الهشة. فالقضاء كان إذا حم لا يعترف بمقياس أو بمنطق، بل كان في سعاره الأهوج يخبط خبط عشواء. يخطئ الضعيف مرة فيفلته، ويصيب الشديد مرّات فيرديه. وكلما طرق باباً وخطف روحاً تركنا نعيش ترقب من يساق إلى الموت وهو ينظر، شاعلاً في أعماقنا المصدومة سؤالاً ملحاً حارقاً:

ـ لمن ستكون النوبة في الزيارة القادمة؟

سؤال كان يجعلنا نعد العدة للرحيل بهاجس واحد:

ينبغي أن نواجه الموت بوجه مكشوف وعيوننا مغروسة في عينيه تتحداه وتحتقره حتى نرحل عن هذه الدنيا رحيل الكرام. أو لم

يضرب لنا السابقون منا أروع الأمثلة في الصبر والعزة والشموخ؟

فعلاً، لقد مات هؤلاء في صمت مطبق وإهمال شامل من العالم كله.. بدون عويل أو شكوى أو توجع، مستسلمين لحكم القضاء راضين به، مطمئنين بأن عذابهم في الدنيا لن يذهب سدى، ومدركين بيقين المؤمنين الصادقين بأن البشر إن عميَ وصم فإن الله في عليائه يسمع ويرى. لقد مات كل واحد منهم موتة جاهلية لأن المسؤولين ذوي البذلات الفاخرة الأنيقة والأقمصة الممضية المعطرة أرادوا لهم ذلك. فخططوا له سراً في المكاتب الفخمة المجهزة بالهواء المكيف، متيقنين بأن الجلاد في القمع سيبرع، وبأن الأرض في نهاية المطاف ستزدرد وتبلع. ولكن الله لم يكن بغافل عما كانوا يعملون. ونحن إذ نسوق في هذا المجال أمثلة حية للكيفية التي مات عليها بعض أصدقائنا، نريد أن نُحيي ذكراهم ونُحيّي صمودهم ونظهر للمغاربة قاطبة ما كابده إخوانهم في الدين والإنسانية والوطن حتى يتذكرونهم كلما نزلت بهم ملمة. فالذكرى وفاء، والوفاء اعتراف، والاعتراف تقدير وتخليد وتنديد بالمنكر كي لا يتكرر.

العربي أزيان (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في 2 كانون الثاني/ يناير 1980).

توفي العربي أزيان بعد سنتين وأربعة أشهر من رحيل محمد السجعي، أحد أصدقاء فوجه الذي كان له شرف تدشين مسلسل الموت في العنبر الأول.

كان العربي يسكن في الزنزانة رقم 21 على يسار مدخل باب العنبر في الطرف الأقصى للدهليز. وقد كان شاباً نحيفاً مربوع القد، تتميز قسماته المليحة بشفتين رقيقتين تعلوهما عينان سوداوان وشعر فاحم. وقد كان ضحوكاً بشوشاً يقضي سحابة يومه في مداعبة جيرانه

المباشرين الذين كانت تجمعه وإياهم علاقة ود واحترام. وقد كان وهو يجتر طول وقته أجمل ذكرياته التي قضاها في الولايات المتحدة الأميركية، يعطي الانطباع بأنه يعيش مصيره باللامبالاة غافلاً عما كان يجري حوله في تزممارت. غير أنه كان في حقيقة أمره ذا حساسية لامتناهية يتأثر بها كثيراً لمعاناة أصدقائه المرضى ويتعاطف معهم بإرساله لهم قطعة من القماش أو كسرة من الخبز، وهو شيء كان يعتبر منتهى الجود والكرم في تزممارت.

في الخريف الذي سبق وفاته بدا لجيرانه في حالة مفزعة من الشحوب والنحافة. وما إن ابتدأ شهر كانون الأول/ دجمبر من سنة 1979، حتى سقط صريع حمى شديدة ترتبت عن نزيف مستمر من الدبر. كان البرد آنذاك حاداً قارساً، فشرع يرتجف ارتجافاً شديداً كانت تصطك له أسنانه بالليل والنهار اصطكاكاً مخيفاً. ولما قلت حيلته وانهارت قواه، أطلق صرخة نجدة إلى كل أصدقائه، إذ كان في حاجة ماسة إلى دفء لم ينعم به قط رغم كل ما بذله جيرانه من جهد يائس. ولما استفحل أمره تطوع الملازم امبارك الطويل فأرسل له قميصه، وهو عمل بطولي كان يعد قمة التضحية.

أما القبطان حشاد، فكان يرسل له من حين إلى آخر حبات من المضادات الحيوية ومثلها من «ألفتيل»، وهو مقوي كنا نعتقد أنه البلسم والدواء السحري لكل أدواء تزممارت. ولما أصبح المريض عاجزاً عن الحركة، تطوع بن عيسى الراشدي بعد أن أخذ الإذن من الحراس، وذهب ليسكن مع صديقه بقصد مساعدته. ولكن مجهوداته ذهبت سدى، فلم يعد العربي يقوى حتى على رفع رأسه المتدلي دائماً على صدره من شدة الوهن. فقال ذات ليلة لبن عيسى وهو يحاوره وبسمة عريضة مرسومة على شفتيه:

- إني أرى ما لا تراه يا عزيزي بن عيسى. . جمال رائع قدسي

تغرق في سحره الروح فما تشبع ولا ترتوي. . آه. . ما أروع وما أبهى ما تشاهده عيناي!

فضحك ضحكة واهنة، أسلم بعدها الروح إلى بارئها وبسمته المعلقة على شفتيه تضيء فمه الجامد المفتر. صعق بن عيسى حينئذٍ وهو الذي لم يكن ينتظر أن يموت رفيقه بتلك السرعة، إضافة إلى أن تلك كانت أول مرة في حياته يجد نفسه معزولاً بصحبة ميت في قبر بارد وفي ظلمات ثلاث. فنادانا في كبد الليل لينعى لنا موت العربي أزيان وليستأنس بأصواتنا من الرعب الجاثم حوله. هزتنا الصدمة في تلك الليلة العاتية، فانطلقنا نقرأ القرآن ترحماً على روح فقيدنا الراحل إلى مطلع الفجر.

دفن العربي في الصمت واللامبالاة، بدون احترام لطقوس أو شعائر دينية، فلزمنا الحداد عليه أربعين يوماً. وقد كان الحداد عندنا يتمثل في عدم الضحك أو المداعبة أو الغناء.

الديك الجيلالي (حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي في 15 أيلول/ شتمبر 1980).

كان الجيلالي واحداً من أكبر السجناء سناً. فقد تخرج من أول فوج للمدرسة العسكرية لأهرمومو سنة 1956 وعمل بها مدرباً للتلاميذ في علم ميكانيك السيارات، إضافة إلى أنه كان مسؤولاً على مرآب المدرسة ومشرفاً على جميع الإصلاحات التي كانت تجرى فيه.

ينحدر الديك من مدينة آسفي حيث كان يعمل بها في مستهل شبابه بحاراً. وقد كان رجلاً متوسط القامة، تميّز قسمات وجهه عيون رمادية وشعر فاحم غزير أملس. ولم يكن شيء في الدنيا أحب إليه من بيته وأولاده الستة، إذ كان رجلاً جدياً مستقيماً وأباً مثالياً. وهذا

بالذات ما شكل محنته الأساسية، لأنه لم يطق على فراقهم صبراً. وقد زاد الأمر استفحالاً بالنسبة إليه لما رحلنا إلى تزممارت وانقطع الحبل نهائياً بينه وبينهم. رماه القدر في الزنزانة رقم 23 الواقعة في أقصى جنوب العنبر الأول، بحيث إنه لم يكن له جار على اليسار. وقد كان في غنى عن ذلك، لأنه كان معتصماً بالصمت دائماً، يفكِّر ليل نهار في أبنائه وما سيؤول إليه مصيرهم بعده.

سقط مريضاً في سنة 1978، ولكنه تماثل نوعاً ما إلى الشفاء بفضل حدب أصدقائه وتشجيعاتهم المتواصلة له. غير أن وفاة جاره العربي أزيان أثرت عليه كثيراً. فازدادا غرقاً في صمته وعزلته إلى أن سقط هذه المرة صريع مرض أفرغه نهائياً من البقية الباقية من طاقته. فقد تعطل القسط الأكبر من جهازه الهضمي، ولم تعد له من شدة الوهن وفرط الهزال عضلات على مستوى البطن، فأصبح يشكو من حصر موجع مزمن. أدرك الجيلالي أن نهايته قد قربت، فظل يقضي وقته في تضرع مسموع كان يسأل الله فيه أن يعجل بخلاصه. ولم يقصر الحارس محمد الشربداوي (جيف) في هذا الظرف من جهد، لأنه كان بحق ملاكاً من ملائكة الرحمة. إذ كان ينفحه بما استطاع من الدواء، ويؤثر بشخصيته القوية على المتشددين من الحراس ليأذنوا لجيران الجيلالي بالمرور عنده من أجل تنظيفه والتخفيف عنه. وهكذا تعاون كل من القبطان محمد غلول ومحمد المجاهد وعبد الرحمن صدقي على هذه المهمة النبيلة إلى النهاية. وقد حدث ذات مرة أن تطوعت للذهاب إلى زنزانة الجيلالي لإراحة أصدقائي الثلاثة، فلما فتح الحراس عليه الباب، رأيت مشهداً مروعاً رسخت بشاعته في ذهني إلى الأبد. كان المسكين عبارة عن جثة مطروحة على أرضية الزنزانة العفنة، ترتعش أجزاؤها في كل الاتجاهات وكأنها كانت خاضعة لتيار كهربائي عنيف. وما إن أقبل الليل وأنا معه أواسيه

وأنظفه حتى هجمت علينا جيوش لا قبل لنا بها من البق اللعين، كانت تزحف فوق جلودنا اليابسة كأمواج من إبر موجعة. ولكن الجيلالي لم يكن يحس بها بالمرة لأنه كان مشغولاً عنها بما هو أفظع. ولما سألته عن طبيعة أوجاعه أكد لي بأنه يشعر وكأن كل ذرة في جسمه تحترق احتراقاً وأن الحل الأوحد هو أن يعجل الله بأخذ روحه. حاولت جهد مستطاعي أن أسري عنه بشتى الوسائل، لكن ذلك لم يجد فيه نفعاً. ولكن عندما استدرجته إلى الحديث عن أبنائه، استغربت كثيراً وأنا ألاحظ أن آلامه بدأت تخف وأنه أصبح يحس بشيء من الارتياح. تكلم لي المسكين بمرارة عميقة عن فلذات كبده واحداً واحداً. فلما انتهى به الحديث إلى ذكر إحدى بناته، ضحك ضحكةً حزينة فقال لي مداعباً:

ـ أوَتدري أني كنت أناديها بصوفيا لورين؟

ثم تحشرج صوته فجأة فقال لي وهو يشد على يدي متوسلاً:

ـ أخي أحمد.. إني أعلم أن ساعتي قد دقت. فإذا كتب الله لك النجاة، فأرجوك أن تؤدي لي خدمة بسيطة جداً: اذهب عند زوجتي وأبنائي وسلّم عليهم كثيراً. وقل لهم بأنني لم أندم في حياتي على شيء ندمي على أحد أبنائي الذي أعطيته اسماً يحمله أحد جلادينا العتاة.. قل له: إن كنت تحب أباك فعلاً وترعى له عهداً فبدل ذاك الاسم بما هو أحسن.

يوماً بعد ذلك، التحق الجيلالي بجوار ربه. فقد دخل عليه المساعد مولاي علي (الفرناتشي) ذلك الصباح، وكان الوحيد الذي يجرؤ على فعل ذلك من بين الحراس، وكانت له طريقة خاصة لمعرفة ما إذا كان السجين قد توفي أم لا زال على قيد الحياة: إذ كان يرفع إحدى رجلي المحتضر إلى الهواء ثم يرخيها لتسقط على الأرض بقوة. فإذا توجع السجين، قال الحارس لأصحابه:

ـ مازال كيسْبِيري. . (لا يزال يتنفس) ولكن ذلك الصباح خرج وهو يهز رأسه مؤكداً:

ـ صافي. . كْرُوّا. . (أي، مات).

عبد السلام الرابحي (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في 17 أيار/ مايو 1981).

لما قدم الإخوة بوريكات إلى تزمارت، رحّل المدير ثمانية سجناء من العنبر الثاني إلى العنبر الأول. بن دورو، حايفي، عاشور، الرجالي، الشاوي، الفراوي، الدغوغي، والرابحي. فسكن هذا الأخير مع الفراوي في الزنزانة رقم 1 التي كان بن عيسى الراشدي قد غادرها لمساعدة محمد لغالو في الزنزانة رقم 2.

ازداد عبد السلام في كنف أسرة فقيرة في أحد مداشر قبيلة أيت بوفراح الريفية. وبعد إتمامه الطور الأول من الدراسة الثانوية، التحق بسلاح الطيران لأنه لم يجد عنه بديلاً مرضياً. كان شاباً مديد القامة، أشهب الشعر، مليح القسمات. وقد كان يميزه طبع كريم يتجلى في طيبوبته الكبيرة وأدبه الجم. غير أن تزممارت أثرت فيه كثيراً فلم يفهم لمحنتها معنى ولا سبباً. . فاعتصم بصمت كئيب مجتراً ذكريات أيامه الحزينة. ولم يكن يقطع ذاك الصمت إلا لماماً حين كان يتبادل مع جيرانه تحية الصباح أو حديثاً بلا روح. غير أن معنوياته ارتفعت نسبياً حين جاء إلى العنبر الأول ولاحظ أن المصائب درجات، وأن جحيم هذا بنجومه الأربعة أخف وطأة من جحيم العنبر الثاني بنجومه الخمسة. . ولكنه سرعان ما سقط منذ أيامه الأولى صريع حمى قاتلة، أكلت لحمه ولحست عظامه وتركته هيكلاً عظمياً مشتعلاً بالنار.

وحدث ذات صباح من تلك الصباحات التزممارتية البئيسة، أن نسي أحد الحراس السكارى إقفال باب زنزانة أحمد الرجالي، فخرج

هذا إلى الدهليز مسروراً بالفرصة التي سنحت له لزيارة أصدقائه.
ولما وصل إلى الزنزانة رقم 1 حيث كان يقيم الرابحي، بذل المريض جهداً كبيراً للذهاب إلى الباب للقاء صديقه والتحدث معه هنيهة من خلال النويفذة. ولكن ما إن بلغ نصف الطريق حتى أحس بعياء شديد، فرجع إلى الفراش سريعاً وهو يحس بالدوار، فطلب من الرجالي بصوت متهدج إلى أن يعود إليه ريثما يلتقط أنفاسه بعد لحظة. ولكن أنفاسه لم يكتب لها أن تُلتقط لأنها خرجت من صدره إلى الأبد.. مات الرابحي بسرعة مذهلة بين يدي رفيقه الفراوي.
فاندهش هذا واندهشنا معه وهو ينعي إلينا الخبر. تمنينا آنذاك من صميم قلوبنا لو أن لنا حظ الرابحي فنموت تلك الميتة الفجائية الرحمية..

الراشدي بن عيسى (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في 17 رمضان 1983).

ازداد بن عيسى سنة 1947 في خيمة بربرية في بادية مدينة تيفلت وسط أسرة فقيرة. فنشأ يتيم الأم، وتكفلت بتربيته إحدى عماته بينما كان أبوه «الفقيه» البسيط يتنقل بين الدواوير المجاورة، مسترزقاً ربه بتحفيظ الصغار ما تيسر من كتاب الله العزيز. وقد أخذ بن عيسى من أبيه قسطاً لا بأس به من القرآن الكريم، فكان من فضل ذلك أنه حفظنا جميعاً سورة البقرة بكاملها في أول عهدنا بتزممارت. أرغمه الفقر أن ينقطع عن دراسته الثانوية، فالتحق بسلاح الطيران ليصبح بذلك أملاً يغذي أحلام أسرته المعوزة. فرحل مع الراحلين إلى الولايات المتحدة الأميركية، وقضى بها في التدريب شهوراً عديدة، ثم عاد منها برتبة رقيب وبذكريات جميلة. كان بن عيسى شاباً محبوباً وسيماً مربوع القد، يتميّز بشعر رطب جميل استحق بفضله لقب

«روكي» من أصحابه الأميركان. وقد كان شعلة متقدة من الحيرة والمواهب والذكاء. فسخر كل ذلك لفائدة رفقائه في السجن غير متذمر ولا مقصر في حق أحد، فساهم بذلك بحظ وافر في تحسين ظروف عيشنا المريرة. فقد كان خياطاً وحداداً وإسكافياً وشاعراً ومغنياً ومقلداً وقصاصاً ورساماً. وقد أكد لنا بخصوص هذه الموهبة الأخيرة أنه استطاع مرة أن يُزور ورقة مالية من فئة 10 دراهم، خدع بها بقال الحارة العوز بسهولة كبيرة. وعلاوة على هذه المواهب المتعددة، كان بن عيسى طيباً مسرفاً في الطيبوبة، إذ كان يبدو لنا في بعض الأحيان مغفلاً متهوراً وكأنه طفل كبير ترعرع جسمه ولم تزُل سذاجته. ولم يكن له من بين كل هذه المزايا إلا عيب واحد. فقد كان كثيراً ما يدفع المداعبة إلى حدها الأقصى معتقداً أن الناس كلهم سواسية في تقبل البسط والمزاح، الشيء الذي كان يتسبب له من حين إلى آخر في بعض المشادات الخفيفة.

ابتدأت مشاكله الصحية يوم استفزه أحد الجلادين العتاة، وهو الحارس الطاغية سعيد، الملقب «بمايك سييرا» وذلك حين سبه ذات مرة قائلاً:

ـ هيا أسرع وحط صحنك على الأرض أيها الحمار:

فأجابه بن عيسى بسرعة من يود رد التحية بأحسن منها:

ـ والله ما عرفت في الدنيا حماراً أكبر من أبيك. .

جن جنون الطاغية الجبان، فاستعان بالحارس (الفرناتشي) ودخلا عليه فأوسعاه ضرباً بالهراوة إلى أن أغمي عليه. ولولا صياحنا واحتجاجنا ونحن نخبط بقوة على الأبواب لقتلاه. ثم بعد ذلك حكم عليه مايك سييرا بحرمانه من الماء والطعام أحد عشر يوماً. . ولولا تضحية الملازم الطويل الذي كانت زنزانته مقابلة لزنزانة بن عيسى لمات هذا الأخير في الأيام الأولى من ضرب الحصار عليه.

كان الطويل يعمد إلى حبل طويل يربطه من أطرافه ويثبت فيه خرقاً مبللة بالماء مع أكياس صغيرة من الطعام، ثم يصعد فوق إناء الماء ليصل إلى السطر السفلي لثقوب الجدار المطلة على الدهليز، ويشرح في محاولات طويلة مضنية من أجل ربط الاتصال ببن عيسى في الجهة المقابلة. وقد كان الأمر يتطلب رمي الحبل مراراً وتكراراً حتى ينتهي بالسقوط على قضيب كان المحاصر يمده إليه من خلال أحد ثقوب زنزانته. عملية شاقة معقدة حقاً، ولكنها كانت تغيث بن عيسى بشيء من الطعام وتسد جمرة من جمار عطشه بتعصيره لتلك الخرق القذرة المبللة في فمه. مرت عليه تلك المحنة الكبيرة تاركة في نفسه شرخاً كبيراً سيما بعد أن تسببت له في شلل إحدى يديه. وسنحت له فرصة فعاشر الملازم محمد الزموري في الزنزانة رقم 12 شهوراً طويلة. وقد كانت بين السجينين مودة كبيرة وتضامناً عميقاً، خصوصاً بعد أن مرضت عينا هذا فأصبح بصره كليلاً، وشلت ذراع ذاك فأمست حركة يده عسيرة. فغدا كلاهما يحتاج لصاحبه ويكمله. غير أن التفتيش الرهيب الذي حدث في 13 تموز/ يوليوز 1983، أرغم بن عيسى على العودة إلى زنزانته الأصلية، وكان ذلك أكره ما يكرهه نظراً إلى مقته الشديد للوحدة. فغرق على غير عادته في صمت كئيب، ثم أصيب بحمى شديدة استنزفت طاقته كلياً وألزمته الفراش. فلم يعد يستطيع قضاء حاجته إلا في صحن كان الطويل يتكلف بتفريغه في مرحاضه كلما مرّ عنده..

وفي يوم السابع عشر من رمضان 1983، انطفأ بن عيسى في صمت وسكون من دون أن نسمع له شكوى أو أنين، فخلف وراءه فراغاً مهولاً لم يستطع أحد أن يملأه. ولما أصبحت زنزانته فارغة، فوجئنا ذات مساء بالحراس وهم يفتحونها ثم يضعون فيها أشياء لم نتعرف إليها. فتوجه إلينا «مايك سييرا» قائلاً بلهجة من يبشرنا بالفرج:

ـ وا . . الْمَحابْسِيَّة . . كنتم تطالبون بتحسين أوضاعكم، فها هي ذي اليوم قد تحسنت. لقد جئنا لكم بكفن وناقلة للأموات. فمن مات منكم بعد اليوم فسيكون هذا الكفن من نصيبه.

جازاك الله شراً يا حفار القبور.

موحا بيطي (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في آذار/ مارس 1984).

كان موحا شاباً طويل القامة، أسود الشعر والعينين، يتميّز وجهه بأنف أفطح كبير وشفتين غليطتين، الشيء الذي جعل أصدقاءه يلقبونه مداعبة بـ «شلاكو».

ازداد في نواحي مدينة ميدلت، ونشأ في أحضان أسرة معوزة فقيرة، وعندما عجز عن إتمام دراسته الثانوية، انخرط في سلاح الطيران. كان موحا رجلاً لين الجانب سهل الطباع يأخذ الحياة كما هي بدون فلسفة أو تعقيد، الشيء الذي مكنه من نسج علاقة طيبة مع كل جيرانه المباشرين. وقد كان من سوء حظه أن فقد أسنانه كلها في السنوات الأولى من قدومنا إلى السجن. فكان ذلك سبباً رئيسياً في مرض جهازه الهضمي، فتدهورت صحته تدريجياً ثم سقط مريضاً في نهاية سنة 1983. وبما أنه كان من ذلك النوع النادر من الرجال الذين لا يشتكون ولا يتوجعون، فقد قللنا من سقمه واعتبرناه عابراً. ولم نقف على حقيقة مأساته إلا بعدما مرّ عنده القبطان غلول فوجده عبارة عن هيكل عظمي يتكلم بصوت من يتعشى بأفراخ الحمام. فقد كانت رنته غليظة واثقة لا أثر فيها للضعف أو الاستسلام. . واتفق ـ من سوء حظه أيضاً ـ أن مرضه هذا جاء في ظرف عسير كان العنبر الأول يعاني فيه من حصار شديد فرضه علينا أحد السجناء الذي لم يكن لغرابة الصدف سوى صديقه الحميم. فقد تمرد هذا السجين على

الفوارق الاجتماعية التي أحدثها دخول المال إلى العنبر. وكانت فكرته التي أفحم بها الجميع كالآتي:

قبل أن تستطيع شرذمة منا ربط الاتصال مع أسرها، كنا جميعاً سواسية أمام الموت نظراً إلى انعدام الصراع بيننا. ورغم شقائنا ومحنتنا فقد كنا ننعم في جحيمنا ذاك بشيء من الطمأنينة وكثير من المودة والتضامن. ولما دخل المال تبدل الحال، فكثرت الفوارق وحصل الشقاق، وتفاقم الصراع بين أقلية مسيطرة بمالها وأغلبية مسحوقة بعوزها. فهل من المعقول إذاً أن تعيش هذه الأغلبية على أعصابها متوجسة خائفة من زلة يقوم بها أحد «الأغنياء» فينكشف سره وتحل بنا الكارثة لنعاقب بعد ذلك جميعاً على امتياز يتمتع به بعضٌ بينما بعضٌ آخر لا يصله منه سوى الفتات؟ وبعبارة أوضح، هل من المنطق أن نكون سواسية في العقاب ولا نكون كذلك في المساعدة؟ الحل إذاً هو أحد أمرين: إما أن يضحي الأغنياء فيقبلوا باقتسام كل ما يدخل علينا من مقويات ودواء بالتساوي، وإما سأدعو الحارس محمد الشربداوي بالابتعاد عنا وتركنا لمصيرنا كما كنا في السابق.

وقد كان من الممكن أن يكون هذا الخطاب جميلاً ومنطقياً لو أنه كان يتوخى تحقيق الصالح العام حقاً، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. فرفيقنا هذا كان يمارس ضغطاً عنيفاً على «حشاد» بعدما أصبح هذا الأخير عاجزاً على مواصلة مساعدته له سرياً بالحجم الذي كان عليه من قبل. وسبب ذلك أن «حشاد» لما تمسك بعناده الشديد ورفض رفضاً باتاً توسيع دائرة الاتصالات إلى أسر أخرى، مرة بالإقناع ومراراً بالمناورة، سقط في فخ المساومة حين فرضت عليه. وهكذا جمع حوله جوقة من المساومين الذين شددوا عليه الخناق فلم يرحموه. فعوض التنازل عن بعض الامتيازات والتحلي بقليل من

الإيثار، واجههم بالوعود والتسويف والمراوغة وقد كانت تلك غلطته. فما كان من السجين إلا أن سارع بإنجاز تهديده، فاتصل بالحارس الشربداوي وحذره إن هو عاد إلى خدمة أحد منا وطلبه أن يتركنا وشأننا لنموت في أمن وسلام.. ذعر هذا ولم يعد يقترب من أي سجين خوفاً على نفسه وأهله. ولما استفحلت حالة «بيطي» الصحية وشارف الموت، اندفعنا بكيفية جماعية نتوسل إلى صديقنا أن يرفع حصاره عنا ولو مؤقتاً حتى يتسنى للحارس الطيب إغاثة المريض بشيء من الدواء. فاستجاب لنا بعد وقت طويل من المفاوضات الشاقة العسيرة. والشيء الذي أثار إعجابنا وتعاطفنا مع المحتضر هو أنه بقي على مستوى عال من الإنفة وعزة النفس. فقد فوض أمره للّه واستنكف بنخوة الصحراويين أن يتوسل لمن كان يعتبره صديقاً. وفعلاً، جاء محمد الشربداوي بعلبة من مقوي «ألفتيل». وما إن تناوله موحا حتى تماثل للشفاء بعد أسبوعين ووقف على رجليه وكأن ذاك المقوي كان دواء سحرياً مدهشاً. ولكن عوض أن يأخذ «موحا» حذره، اندفع من شدة مجاعته يأكل كل ما كان يسقط في يده، فتدهورت صحته من جديد. ونحن ما زلنا في معمعة ذلك الحصار، فلم ينفع هذه المرة مع ذلك المساوم توسلاً.

دخل المريض ثانية في احتضار بطيء رهيب، فواجه مصيره بشجاعة الأبطال وثبات الأولياء، مستنكفاً كعادته عن أي طلب أو استجداء. وقد أبلى معه جاره الأيسر، القبطان غلاول، بلاءً حسناً إلى أن انطفأ وهو شريف النفس في عز ربيع 1984.

الملازم التيجاني بن رضوان (حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي يوم 26 آب/ غشت 1984).

ازداد التيجاني في مدينة خنيفرة، قلب الأطلس النابض، سنة

1943، وفقد أباه وهو لا زال بعد طفلاً غريراً. وككثير من أترابه في تلك المرحلة البئيسة، كان الجيش يمثل بالنسبة إليه ملاذاً آمناً من مستقبل لم يكن ينذر إلا بالأسوأ. فانقطع عن دراسته ودخل إلى مدرسة أهرمومو العسكرية حيث تخرج منها ضابط صف. وبعد سنوات من ذلك، خاض مبارة الدخول إلى الأكاديمية العسكرية في مكناس فتخرج منها ضابطاً برتبة مرشح.

كان التيجاني شاباً قصير القامة، نحيفاً ضعيف البنية، يميزه شعر فاحم وعيون شديدة السواد، وقد كانت شفتاه الرقيقتان وأنفه الدقيق يبرزون طبعه الجدي الميال إلى الوحدة والانزواء. وقد كان على انطوائه إنساناً خدوماً مهذباً مستقيماً في كل تصرفاته ومعاملاته. رمت الأقدار بهذا الضابط المثالي في الزنزانة رقم 6. وكما كان منتظراً منه، غرق في صمت عميق لم يكن يخرج منه إلا ليحادث من كان يأنس منهم جداً وعزوفاً عن المزاح والمداعبة. ومنذ السنين الأولى تجلت هشاشة جهازه الهضمي، فأخذ يشعر بآلام حادة في المعدة لم تكن لتزيد مع الأيام إلا تفاقماً بعد أن ابتلي بنزيف مستمر من دبره. غير أن ذلك لم يمنعه من تلبية نداء ضميره والذهاب عند محمد لغالو المشلول بهدف مساعدته. وفي بداية 1984، أصيب بحمى فتاكة، فصفق بيده ذات صباح وطلب منا لحظة صمت ثم شرع يودعنا واحداً واحداً بعد أن أخبرنا بأنه أحس باقتراب ساعته. كانت التيجاني في حياته رجلاً يحب النظافة إلى حد الهوس. وقد راعته تلك الحالة المزرية من الوسخ التي مات فيها أصدقاؤه. فوسوست له نفسه أن يضرب عن الطعام حتى يتفادى قضاء حاجته في فراشه فيموت بذلك نظيفاً من جهة، ويريح أصدقاءه من جهة أخرى. وفعلاً، دخل منذ أول شهر آب/ غشت في إضراب تام عن الطعام. وما إن اكتمل الشهر حتى فقد عقله وجف جلده ثم التصق بعظامه التصاقاً مهولاً.

فغرق في هذيان متواصل كان يحترق فيه عطشاً في الليل فينادي على الماء من دون أن يجد من يسعفه به. فتوسلنا إلى الحراس كثيراً كما هي العادة ليسمحوا لنا بالمرور عنده. فهب لمساعدته عبد الكريم الساعودي الذي كان تربطه به علاقة طيبة. فعمل كل ما في طاقته للتخفيف عنه، وشرع ينظفه ويسقيه ويمده بطعام كان يدقه له بجزء من هراوة مكنسة في كوب من البلاستيك ليسهل عليه بلعه بعد أن أصبح عاجزاً عن المضغ. ولما وصل إلى مرحلة الاحتضار، تلك المرحلة المفجعة التي كان يمر منها كل مرشح للموت في تزممارت، أذن الحراس للساعودي، ساكن الزنزانة رقم 9 «أو السي تسعود، كما دأب الفرناتشي أن ينادي عليه» أن يمر عنده. ولما تجاوزته الأحداث، تطوعت لمساعدته بمعية أحمد الرجالي، فصرنا نتناوب على المريض لنقتسم بذلك المشقة.

وحدث ذات مرة وأنا مع الساعودي في زنزانة المريض ننظفه ونداوي جراحه بمبيد الحشرات د.ت.ت، إذا بالحارس الخبيث (السلك) يدخل إلى العنبر على حين غفلة منا ويطلب من الحراس أن يشرعوا في تفتيشنا على الفور. صعقنا ونحن نسقط في الفخ. فقد كان باب زنزانة التيجاني مقفلاً علينا ولم يكن بإمكاننا الرجوع سريعاً إلى مكانينا لإخفاء حوائجنا البئيسة التي كان أنفس ما فيها جهاز ترانزيستور كنت قد تركته مدسوساً في «المخدة». وبينما نحن في ذعرنا ذاك نضرب يداً بيد ونتلاوم على عدم أخذنا ما يكفي من الاحتياطات، إذا بالتيجاني الذي كان فاقداً لعقله وغارقاً في هذيانه، يستعيد وعيه فجأة ويصرخ فينا غاضباً:

ـ أيها الأنذال.. هل جئتم لمساعدتي أم أتيتم لكسر رأسي بشكواكم التي لا تنتهي؟ إني أطردكم من زنزانتي رسمياً.. هيا اخرجوا حالاً ولا ترجعوا عندي أبداً..

ورغم ذلك الظرف العصيب، فلم نستطع منع أنفسنا من الضحك على ذلك الموقف الغريب. فأنجانا الله من ذلك التفتيش بعد أن عدل (السلك) في آخر لحظة عن رأيه، وكأنه في قرارة نفسه لم يكن يريد سوى زرع الرعب فينا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وذات زوال، وبينما الساعودي يستعد للمرور عند التيجاني وفي يده كوب من العدس المدقوق، وإذا بالحارس (بوكبش) يتصدى له بعد أن خامره شك في حبات عدس كانت طافية فوق سطحه، فسأله وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه كابتسامة الشرطي حين يضبط مهرباً في حالة تلبس:

ـ ماذا وضعت في هذا الكوب؟

ـ لا شيء يا «شاف». إنه مجرد طعام سأعطيه المريض لعله يسد به رمقه.

ـ أهاه؟ لا شيء غير الطعام؟

ـ طبعاً، لا شيء غير الطعام..

انتزع بوكبش الكوب بعنف من يد الساعودي وغمس فيه إصبعين غليظتين وسختين، ثم انطلق يصرخ هائجاً وكأنه اكتشف جريمة نكراء:

ـ الدواء.. الدواء.. لقد ضبطت عنده الدواء..

ثم التفت بعيون جاحظة نحو الساعودي الذي فغر فاه دهشة وسأله مهدداً:

ـ هيا.. اعطني اسم الشخص الذي يمدكم بالدواء.. على أي حال، فأنا الآن أعرف «صاحب دعوتي»..

نادى بوكبش على الحارس «بابا أحمد» ليشهده على ذلك، ثم صفق الباب على المريض وأمر الساعودي أن يرجع إلى زنزانته. في مثل تلك الظروف، كنا نتجرد من كرامتنا كلياً ونندفع في توسل طويل

لأولئك الأوغاد لعلهم يلينون فيأذنون لنا بالمرور عند المرضى من أصحابنا. لقد كنا نعلم علم اليقين أن كل مريض منا كان إذا ما عجز عن الحركة فسوف يشرع في دفع فاتورة الموت البطيء بالجملة والتقسيط، وأنه لا أمل بذلك في شفائه ولو اجتمع عليه أطباء الثقلين. ولكن رغم ذلك، كانت الإنسانية المعذبة في أعماقنا تدفعنا أن نبقى بجنبهم لنؤنس وحدتهم ونطرد وحشتهم ولو بكوب ماء أو كلمة مواسية. اندفعنا إذاً نتوسل جميعاً إلى راعي الغنم الذي جعلته الظروف علينا راعياً لعلنا نقنعه بأننا لا نملك دواء وأنه لا حاجة له بالتالي إلى الوشاية بنا إلى المدير كي يزيد في قهرنا. فاستجاب لنا بعد استعلاء وغطرسة، وعلمنا في ما بعد أن هذا الحدث كان سبباً في تحول طرأ على تصرفه. فقد أوحى إليه ما أوحى بعدما فتح عينيه على حقيقة عرف منها الكثير لما شارك بحماس في تفتيش 82.

وفي اليوم التالي، ظل التيجاني يحترق عطشاً وينادي على الماء نداء يقطع من لوعته نياط الأكباد، ولكن بوكبش أبى أن يفتح عليه الباب، فترك عطشه يتأجج ولسان حاله يطالبنا بمزيد من الذل والتوسل كي يستشعر أهميته وينتشي بنفوذه.. ولولا وجود الحارس الطيب محمد الشربداوي بيننا في اليوم التالي لكان التيجاني قد قضى نحبه يومئذٍ من شدة العطش.

وذات صباح، سمعنا صوتاً ضعيفاً واهناً يأتي من الزنزانة رقم 6 وهو يدمدم لحناً حزيناً شجياً.. لقد كان التيجاني يغني. نعم، شرع يغني مقطعاً من أغنية لمحمد عبد الوهاب بعد أن أحرقت الحمى ما تبقى من وعيه وجعلت لاوعيه يستعجل نهايته. «إجري. إجري. إجري. وديني وصلني. يبقى حبيب الروح مستاني..».

وذات صباح حزين، رجع الساعودي متعباً محطماً إلى زنزانته بعدما قضى ليلة ليلاء مع التيجاني. فعوضته مع الرجالي بعد توسل

طويل للراعي بوكبش. وفي الزوال، طلبت من هذا الأخير أن يبقي الباب علينا مفتوحاً ريثما ينتهي هو و«بابا حمد» من تفريق الطعام على السجناء. فقد كانت الحرارة مفرطة، وكنا نختنق من شدة الرائحة النتنة المنبعثة من المرحاض ومن هياكلنا العظيمة الوسخة، إضافة إلى أننا كنا قد لاحظنا بأن المريض قد بدأ يغرغر ويخرج من جانب فمه تلك الرغوة البيضاء التي تنذر باقتراب خروج الروح من الجسد. وما أن فرغ «بوكبش» من عمله حتى هرع إلينا وقال لنا مستعجلاً:

ـ صافي؟

ـ صافي ماذا؟

ـ هل مات؟

قلت له بمرارة وأن أهز رأسي مستنكراً:

ـ لا لم يمت، إنه لا زال يغرغر..

ـ هيا أسرع!

أجبته وأنا أحس بالدم يغلي في رأسي من شدة الاستنكار:

ـ أواه! أتريدني أن أجهز عليه بنفسي؟

فما كان جوابه إلا أن صفق علينا الباب بعنف وأقفله ثم خرج وهو يزمجر بسباب بذيء. كان بوكبش يستعجل موت التيجاني حتى زهقت روح المحتضر المسكين بعد انتفاضة متشنجة وشخير خرج من حنجرته كشخير الخروف المذبوح. استحال العنبر فجأة إلى خلية من النحل. فقد تعالت من كل الزنازين أصوات الأصدقاء تتلو آيات من ذكر الله العزيز ترحماً على روح الفقيد، وشرعت أنا مع الرجالي في محاولة لنقل جثة رفيقنا الراحل من أرضية الزنزانة لوضعها على الدكة طمعاً في تنظيفها جهد المستطاع بما كان متوفراً لدينا من ماء. وفي المحاولة الأولى، وبينما نحن على وشك إنجاز العملية، غلبنا ثقل الجثة، فانهرنا جميعاً ليسقط الميت فوق شبه الأموات بفرقعة ثلاثة

أكياس من الإسمنت وهي تلقى على الأرض. ولم نفلح في تسجيته على الدكة إلا في المحاولة الثانية. ولما جردناه من كل أسماله الممزقة المبللة، بدا لنا هيكله العظمي وكأنه محروق بسلاح «النبالم».

شهوراً بعد الإفراج عني، ذهبت إلى مدينة خنيفرة أبحث عن أسرته لأنجز وعداً كنت قد وعدته به. فلما اهتديت إلى المنزل، وجدت والدته قد ذهبت إلى الحمام. فدلني أحدهم على أخ له قِيل لي بأنه كان يشتغل في الدرك ثم طرد منه. وما إن أخبرته بالواقعة حتى انفجر باكياً ثم قال لي ملحاً متوسلاً وهو يمسح دموعه:

ـ أرجوك ألا تخبر أمه بما حدث، لأنك إن فعلت فسوف تحطمها تحطيماً. . دعها بالله عليك تعيش على وهم لقياه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

إن كل ما حكيته من الوفيات السالفة عشته طبعاً وعاينت جله في العنبر الأول. أما حكاية الأرواح التي أزهقت في العنبر الثاني، فهي رواية رهيبة نقلتها عن صديقي ورفيقي في الفوج عبد العزيز الداودي الذي كان واحداً من بين الستة الناجين بأعجوبة من ذلك العنبر المروع.

الملازم محمد الشمسي (أول شهيد في تزممارت، حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في 22 شباط/ فبراير 1974)

كان التنظيم في العنبر الثاني مغايراً تماماً لما كان عليه في العنبر الأول. فمنذ البداية، ارتأى السجناء أن يقسموا العنبر إلى شطر شمالي وشطر جنوبي تعطى فيهما الحرية المطلقة للساكنين فيهما بإعداد البرنامج الذي يرتضونه. وهكذا أرادت الأقدار أن يكون الشمسي بين سجناء الشطر الشمالي. وقد كان نزلاؤه محظوظين نوعاً

ما لوجود هذا الرجل بينهم. وذلك لأنه كان مثالاً يحتذى به في التضحية والصبر ومكارم الأخلاق. وقد كان يقضي سحابة يومه في حفظ القرآن الكريم وتلاوة دعوات وأذكار كان أصدقاؤه يرددونها وراءه بصوت مرتفع. أما ما فضل من وقته فقد كان يقضيه في حفظ بعض القصائد الشعرية أو حكاية القصص والأفلام لتسلية رفقائه.

وحدث ذات مرة أن تخاصم ضابط وضابط صف على شيء تافه، فتدخّل الشمسي بعنف وتوجه إلى العنبر كله قائلاً:

ـ لم يعد بيننا اليوم لا ضابط ولا ضابط صف.. لا مكان هنا الآن إلا للرجال.

ومع حلول البرد القارس وتراجع كمية الطعام، أخذ الشمسي يشكو من قبض مزمن. ولكنه لم يكن يوليه أدنى اهتمام نظراً إلى انصراف جوارحه كلياً إلى التفكير في مصير مرؤوسيه الشبان الصغار الذين كان يشعر أمام معاناتهم بالعجز والألم وهو يسمع أسنانهم تصطك في زمهرير الليل.

وذات يوم، فاجأ الجميع ـ وهو القوي الشديد جسدياً ومعنوياً ـ بنوبة عصبية حادة جعلته يلامس حدود الهستيريا. فشرع يصرخ بأعلى صوته مخاطباً الحراس:

ـ أنا رئيس هؤلاء الشبان الصغار.. إنهم والله لأبرياء.. أطلقوا سراحهم وافعلوا بي أنا ما شئتم..

وظل على هذا الحال ثلاثة أيام كان يخبط فيها على الباب بكل قوته وينادي بصوت يائس على أمه وزوجته وبنته الوحيدة «مريم» التي فارقها وعمرها بضعة أشهر. وفي اليوم الرابع، سكت بعد أن خارت قواه. ولما فتح الحراس عليه الباب، سقط على عتبته جثة هامدة بعد أن كان متكئاً برأسه عليه. خرج الحراس مهرولين وعادوا بسيارة جيب فأوقفوها عند مدخل باب العنبر ونقلوا جثة الشمسي إلى الخارج

ثم أغلقوا الباب. ولما رجعوا في المساء، سأل الداودي (مايك سبيرا):

- أين ذهبتم بصديقنا أيها الشاف؟

تردد الحارس لحظة قبل أن يجيب باقتضاب:

- إلى المستشفى.

ولكن ما إن غادر الحراس العنبر حتى طلب محمد أبو المعقول لحظة صمت، وقد كان يسكن في الزنزانة المقابلة لمدخل العنبر، فقال بصوت مختنق من شدة التأثر:

- أيها الإخوة، إن الشمسي لم ينقل في سيارة الجيب كما تعتقدون، لقد رأيتهم بأم عيني من ثقب الباب وهم يذهبون به جهة اليمين، ثم سمعت بعد ذلك وقع المعاول والفؤوس في أسفل الجدار..

- كل شيء أصبح الآن واضحاً. إن الشمسي قد التحق بجوار ربه، وما علينا إلا أن نقرأ القرآن ترحماً على روحه عسى الله أن يتغمده بواسع رحمته.

الرقيب محمد كينات (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في فاتح كانون الثاني/ دجمبر 1974)

ازداد كينات وتزوج في مدينة سيدي قاسم، ولما استحال عليه إكمال دراسته الثانوية، التحق بسلاح الطيران، فاشتغل بعد التدريب ميكانيكياً في القاعدة الجوية في القنيطرة إلى أن جاء اليوم المحتوم. في تزممارت، كان كينات واحداً من أطيب وألطف السجناء قلباً ومعشراً. وعلاوة على دماثة أخلاقه، كان يتميز بموهبة تأويل الأحلام تأويلاً خاصاً به، فقد كان يجهد خياله لإعطائها دائماً نهاية سعيدة متوخياً بذلك الرفع من معنويات أصحابه. وهكذا دأب كل صباح

على ترأس حصة مشوقة كان رفقاؤه يحكون له فيها كل ما عاشوه بالليل من كوابيس مزعجة فيتكفل هو بلهجة الحكيم الواثق بمهمة تأويلها تأويلاً متفائلاً.

وذات صباح، أراد عبد العزيز الداودي أن يمتحنه، فاخترع حلماً وقصه عليه قائلاً:

- رأيت في ما يرى النائم يا عزيزي شاحنة محملة بأثاث بيت يرحل أهله من منزل إلى آخر، ورأيت شاحنة أخرى تتبعها وهي محملة بعدد هائل من المكنسات. ووراء الشاحنتين، كانت تسير على مهل سيارة رياضية فخمة يقودها صحابيان من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام نبئني بتأويل ذلك يا أخي إني لأراك من المحسنين..

فرد كينات بلهجته المطمئنة الواثقة:

- هذه رؤيا واضحة كل الوضوح يا أخي: سنرحل قريباً إن شاء الله من هذه الربوع الظلامية، وستتكفل بركة الأولياء والصالحين بكنس هذا المكان وتطهيره من مناكره.. غير أن حدسي يؤكد لي أن ما قصصته عليّ إنما هو ثمرة من ثمرات مزاحك أيها الماكر..

فضحك الجميع وهم يرون أن كينات لم تطل عليه الخدعة.

بدأت محنة هذا الشاب الوديع حين بدأ يعاني طوال شهور عديدة من أوجاع مبرحة في بطنه. فانطفأ ذات يوم في صمت وسكينة من دون أن يزعج أحداً تاركاً في ذهن أصدقائه ذكرى جميلة لرجل صالح عاش شريفاً ومات شريفاً.

الرقيب إدريس باح باح (حكم بثلاث سنوات سجناً ومات في 26 كانون الثاني/ يناير 1976)

ازداد إدريس في قرية تاهلة الواقعة في ضواحي مدينة تازة، وانخرط في سلاح الطيران ليكون واحداً من التلامذة الذين رجعوا من

الولايات المتحدة الأميركية شهوراً قليلة قبل محاولة الانقلاب. كان باح باح يتمتع بطبع متفتح، وهو ما ساعده في تزممارت على ربط علاقات ودية مع جيرانه الأقربين، سيما مع أزندور وبوتو اللذين كانا مثله من أصل بربري وكانا يجاورانه عن يمينه وشماله. وكانت معاناة باح باح تكمن في إحساسه الشديد بالجوع الذي كان ضارباً أطنابه في تزممارت. لهذا كان صديقه أزندور يصوم من حين إلى آخر فيوفر له شيئاً من الطعام مساهمة يائسة منه للتخفيف عنه. وقبل وصول الأجل الذي كان من المفروض أن يطلق فيه سراح صديقه محا بوتو المحكوم بثلاث سنوات سجناً، شرع السجناء يحملون هذا الأخير بكثير من الوصايا إلى ذويهم معتقدين بكل سذاجة أن مغادرته للسجن عند حلول اليوم الموعود أمر لا ريب فيه. وقد كانت لباح باح وصية متميزة قال فيها لصاحبه:

ـ يا عزيزي.. إذا قدر لك أن تنجو من تزممارت، فرجائي منك هو أن تسدي لي خدمة واحدة: اشتري لك خبزة كبيرة واملأها بعلبتين من السردين، والتهمها وأنت تقول: هذه هدية أرسلها لك عبر الخيال يا إدريس..

كان باح باح كلما اشتد جوعه وحنينه، أطلق مواويل شاكية، وغنى أشعاراً بربرية حزينة، فكان بوتو يرد عليها محاوراً إياه بأهازيج رائعة كثيراً ما كانت تهز شغاف السجناء تأثراً وطرباً وهم يكتشفون روعة ما تزخر به هذه اللغة الجميلة من درر الشعر المكنونة. وقد ساهم فوق هذا بملء فراغ أصدقائه بتلقينهم دروساً في اللغة الألمانية التي كانت له بها دراية. غير أنه لما وصل معهم إلى الدرس السابع، أحس بانهيار مفاجئ أفرغه من البقية الباقية من قوته. وذات صباح حزين، فتح الحراس عليه الباب فوجدوه جثة هامدة وقد اتكأ على إناء الماء ويده مدسوسة فيه. رحل إدريس بسرعة مفرطة ألجمت

أصدقاءه دهشة وتعجباً. فغبطوه على ذلك وتمنوا من الله إن كان قابضاً روحهم في تزممارت أن يمن عليهم بموت رحيم كموت باح باح..

الملازم محمد الكوري (حكم باثنتي عشرة سنة وتوفي في 6 شباط/ فبراير 1977)

ازداد محمد في دوار أولاد فرج بقبيلة دكالة. وقد كان أبوه أستاذاً محترماً في ثانوية ابن عباد بسطات. دخل إلى الأكاديمية الملكية العسكرية في مكناس سنة 1967 بعد أن حاز على شهادة البكالوريا، وتخرج منها ضابطاً في سنة 1969، ثم عُيِّن في مدرسة أهرمومو مدرساً للفنون الحربية.

كان الكوري شاباً أسمر اللون، مليح القسمات، خجولاً متحفظاً، ولكنه كان خدوماً في منتهى الطيبوبة والظرف، وكان يميزه ذوق رفيع وأناقة عالية إضافة إلى هدوء كبير في الطباع لم يكن يكدره إلا ما كنا نعلم أنه نقطة ضعفه، فكنا نمازحه كلما أردنا إغاظته. كان مولعاً ولعاً شديداً بكرة القدم، ومتعصباً إلى أبعد ما يكون التعصب إلى فريق النهضة السطاتية الذي كان آنذاك فريقاً قوياً متكاملاً يؤدي الأدوار الطلائعية في البطولة الوطنية ويبهج الجماهير الرياضية بعروضه الشيقة. فكان يكفي أحدنا أن ينتقد مردودية هذا اللاعب أو ذاك حتى تثور حميته فينبري للدفاع عنه غضباناً متحمساً. في تزممارت، انطوى محمد على نفسه انطواء كاملاً فتفرغ لعبادة الله. ولم يكن يخرج من صمته إلا لاستظهار القرآن الكريم الذي تمكن من حفظه في زمن قياسي، أو للسؤال عن أمر من الأمور. غير أن وفاة صديقه باح باح المفاجئة، أثرت عليه تأثيراً بليغاً سيما وأنهما كانا يتوادان كثيراً. فبلغت به الصدمة إلى حد فقدان عقله. وبعد أسبوع من

ذلك تاب إلى رشده، فتابع عبادته وتلاوته المستمرة للذكر الحكيم إلى أن عاوده المرض العقلي ثانية فأصبح فريسة لنوبات هستيرية لم ترحم فيه ضعفاً ولا وهناً إلى أن أخذته.

فمات هذا الشاب الهادئ الطيب في ظروف همجية بشعة.

الملازم موحا بوتو (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في 13 كانون الثاني/ يناير 1978)

ينحدر موحا من قبيلة «أيت بوتو» الموجودة قرب قرية «كُرّاما» التي لا تبعد إلا بكيلومترات قليلة عن تزممارت نفسها. وكجل سكان هذه المنطقة المنسية، كان بوتو ينحدر من أسرة فقيرة جداً. ورغم ذلك فقد تمكّن من إكمال الطور الأول من دراسته الثانوية في مدينة الراشدية ثم التحق بعد ذلك بثانوية طارق بن زياد في أزرو لإتمام الطور الثاني. ونظراً إلى فقره المدقع وذكائه اللماع تكفل بإيوائه ومساعدته رهبان دير «تومليلين» إلى أن أحرز على شهادة البكالوريا سنة 1967. فالتحق مباشرة بالأكاديمية العسكرية في مكناس، حيث تخرّج منها ضابطاً في سنة 1969 ثم عُيِّن مُدرِّساً في ملحق مدرسة أهرمومو المتواجدة في مدينة صفرو. ولأنه كان يود الرفع من مستوى أسرته المعيشي، فقد كان يرسل كل أجرته لوالده من أجل بناء منزل لائق تستقر فيه عائلته. فكانت هذه التضحية الكبيرة تحرمه من كل ما كان يتمتع به أترابه وترغمه على ملازمة المدرسة دائماً مكتفياً فيها بالقليل. واتفق ذات مساء، مباشرة بعد أخذه لأجرته الشهرية، أن استطاع أحد رفقاء فوجه ـ علي الفاسني، وهو ضابط كان مشهوراً بلطفه وظرفه ـ أن يقنعه بالخروج معه للترويح عن نفسه لحظة بعد ذلك الحرمان المطلق الذي دام شهوراً طويلة. فنعمنا بليلة رائعة تمرد فيها توتو على تقشفه تمرداً عنيفاً. فكان كلما أنفق قدراً من المال، هتف

لصديقه مازحاً بلهجة من يقول لنفسه: «فلا نزل القَطْرُ»:

- هذا ثمن باب قد ذهب مع الريح.. هذا ثمن نافذة قد تبخر.. هذا ثمن زليج قد طار.

فلما أكملا السهرة ورجعا في أخر الليل إلى الثكنة، قام بوتو بحساب كل ما أنفق داندهش وقال لنفسه وهو يهز رأسه متحسراً:

- كارثة دهماء.. لقد غرر بي هذا الماكر. لن أعود إلى مثل هذا أبداً..

في سجن القنيطرة، اعترف بوتو لصديقه بكثير من المرارة:

- لك الحق ألا تأسف أنت على ما فاتك، أما أنا فآه وألف آه.. لو أني كنت أعلم ما تخبئه لي الأقدار، لتمتعت ولو قليلاً بما كنت أجمعه.

لقد كان بوتو يتميّز بطيبوبة لا حد لها وبروح سمحة ميالة دائماً إلى المزاح. وقد كان فوق ذلك أبياً شريف النفس مطبوعاً بطباع الصحراويين المتسمة بالإنفة والقناعة بالقليل حرصاً على صون الكرامة. من أجل ذلك كان محترماً محبوباً من كل أصدقائه.

وقد عانى في تزممارت معاناة شديدة من قرحة معدية خبيثة ومن إسهال حاد مزمن. فوهن وخارت مع مرور الأيام قواه، ودخل أخيراً في الدوامة السعيرية المفجعة التي لا محيد عنها لكل هالك في تزممارت.. دوامة الموت الطويل، البطيء. فنقل عند صديقه عبد الله الفراوي بعد أن اجتاحت المياه الحارة الملوثة زنزانته على إثر اختناق قنوات الصرف في مرحاضه.

وذات ليلة من ليالي تزممارت العاتية، نادى على صديقه الداودي فقال له بصوت متهدج خائر:

- وداعاً أيها العزيز.. إني راحل قريباً عن هذه الدنيا.. وإني

والله لست عليها بنادم، فليتغمدنا الله جميعاً بواسع رحمته. ثم طلب بعد ذلك من رفيقه في الزنزانة، عبد الله الفراوي، أن لا يكف من قراءة القرآن عليه. وظل يصارع سكرات الموت طوال تلك الليلة الصقيعية الشيباء إلى أن أسلم الروح إلى بارئها ورأسه مسند إلى فخذ صاحبه.

الملازم المحجوب الياكدي (حكم بعشرين سنة وتوفي في 12 شباط/ فبراير 1978)

كان مولاي المحجوب ـ كما ألفنا مناداته ـ مراكشياً من قاع قيعان مراكش الحمراء. بمعنى أنه كان متطبعاً بطباع أهل هذه المدينة الساحرة التي يتميّز أهلها بخفة الروح وسرعة النكتة وغزارة الأمثال وبراعة اللعب بالكلمات. وقد كان ينحدر من أسرة طيبة متواضعة متعددة الأفراد، فكان يمثل بالنسبة إليها أملها البسام ومستقبلها الزاهر. حين أكمل دراسته وحاز على الدبلوم التقني المغربي، التحق بالأكاديمية الملكية العسكرية في مكناس سنة 1967، حيث تخرج منها ضابطاً في 1969 وعُيِّن مدرّساً في مدرسة أهرمومو العسكرية. ونظراً إلى أنه أطاع تعليمات الكولونيل اعبابو الذي أمره بمعية الملازم عبد السلام حايفي بالاستيلاء على مقر وزارة الداخلية، فقد حكم عليه بعشرين سنة سجناً نافذة. ولم ينج حتى هذا الحكم من مزاحه وسخريته، فقد كان يعلق عليه قائلاً:

ـ إن عشرين سنة هي بمثابة الدولار أو الدوتش مارك. . إنها عملة صعبة لا يتعامل بها إلا الأقوياء الميسورون ممن هم على شاكلتي، أما ثلاث وخمس سنوات فهي هباء. . إنا عملة ضعيفة يتعامل بها الضعفاء أمثالكم ممن يثيرون الرأفة والشفقة.

منذ سنته الأولى في تزممارت، شلت أعضاؤه السفلى، فضل

طريح الفراش لمدة طويلة، ثم شُفِيَ بكيفية غريبة مبهمة. وبقيت معنوياته كما كانت مرتفعة عالية لا يرقى إليها ضعف أو وهن. فكان يمازح أصحابه في كل مرة قائلاً:

«الموت بين الرجال نزاهة».

فكان بوتو يرد على مزاحه بمزاح مماثل قائلاً له:

ـ إو تنزه مع راسك حتى تشبع.. الوقت طويل قدامك باش تتنزه مزيان..

عاوده المرض بحدة أكثر، فبذل الملازم عبد السلام حايفي ـ الذي أسكنوه معه ـ كل ما في طاقته للتخفيف عنه. غير أن حايفي كان هو بنفسه في أمس الحاجة للمساعدة لأنه كان فاقداً لعقله منذ أمد بعيد.

وفي صبيحة رهيبة مشهودة من أصابيح تزممارت المروعة، توفي المساعد اعماروش الكويين بعد معاناة شديدة مهولة تجرع فيها موتاً بالتقسيط على امتداد فترة طويلة من الزمن. وبعد ساعتين من دفنه في ساحة السجن، اندهش الحراس ولم يصدقوا أعينهم حين رجعوا في المساء ليكتشفوا أن مولاي المحجوب قد فارق الحياة بدوره. صعق السجناء كلهم من هول المفاجأة. وظنوها بادئ الأمر مزحة سمجة من صديقهم الياكدي الذي كان قبل حين يتناقش معهم بهدوء حول وفاة المرحوم أعماروش.. ولكنهم سرعان ما سلموا بالأمر الواقع لما رأوا الحراس يلفون صديقهم في غطائه ويحملونه إلى الساحة لمواراته في التراب وهم يتذمرون من عمليتي دفن في يوم واحد..

هكذا إذاً، رحل أحد الثمانية الذين توفوا في تلك السنة المروعة.. انطفأ في صمت وسكينة من دون أن يزعج أحداً أو يشتكي من أي شيء.

المساعد محمد العايدي (حكم بثلاث سنوات وتوفي في 20 شباط/ فبراير 1978)

كان محمد العايدي رجلاً يتسم بالاستقامة والجدية والطيبوبة. ورغم أنه كان قليل الكلام، فإنه ساهم بحظ وافر في الترفيه عن أصدقائه، وذلك بقص أحسن الأفلام والقصص عليهم. وقد كان غير محظوظ منذ البداية حين رماه القدر في أقصى زنزانة من الزاوية الشمالية للعنبر الثاني. فكانت مشكلته المزمنة التي أدّت به إلى الهلاك هي اختناق قناة الصرف في مرحاضه. لقد كانت قنوات الصرف كما سبق لنا وأن رأينا ضيقة للغاية، فكان من الطبيعي جداً أن تختنق من حين إلى آخر من جراء إصرار الحراس على عدم مدنا بما يكفي من الماء. وكانت إرادة السجناء تتغلب على المشكل لما كان في طور بدايته، أما وقد تفاقم واستفحل مع مرور السنين، فقد أصبحت أرضية الزنازين بدرجات متفاوتة عبارة عن برك ملوثة من المياه الحارة. فاضطر الحراس إلى ترحيل كل السجناء القاطنين عن يمين باب مدخل العنبر وشماله، عند أصحابهم الساكنين في الجهة المقابلة. ولما أصبحت حالة العنبر الثاني تفوق حدود الكارثة، أُرغم الحراس الذين قهرتهم الروائح النتنة أن يجدوا للمعضلة حلاً فورياً. ولكنهم عوض الاستعانة بوحدة متخصصة من الهندسة العسكرية، حاولوا تدبر أمرهم بأنفسهم فزادوا الطين بلة حين بدأوا الحفر فكسروا خطأ كثيراً من القنوات.. ولما تجاوزتهم الأحداث واستعصى عليهم الحل، تركوا الأمور على ما هي عليه شهوراً طويلة. وهكذا انقلبت الزنازين إلى مسابح نتنة يطفو فوق سوادها العكر ركام لا حصر له من الغائط الحائل. وتسرب ذلك إلى الدهليز فغطاه إلى آخره. فعصف بالمكان إعصار من الروائح الكريهة أتلفت الأجهزة التنفسية لكل السجناء، وجعلت أعينهم وأنوفهم لا تكف عن السيلان..

وأثار هذا المشهد الرهيب سعادة جيوش جرارة من جميع أشكال الحشرات الزاحفة والطائرة، فكان بذلك السعير.. سعير فظيع لن ترقى أبداً لوصف بشاعته جميع مفردات البشاعة الفائحة بالنتانة في جميع قواميس الخبث والخبائث.. فليس عجيباً إذاً أن يموت في هذه السنة ثمانية سجناء..

وفي معمعة هذا المصاب الجلل، نادى أحد السجناء رفيقه فقال له مداعباً بمزاح أسود:

ـ كثيراً ما كنت تحلم بمدينة فينيسيا، ها هي ذي فينيسيا يا عزيزي فتمتع بها هنيئاً مريئاً..

وفي هذه الظروف بالذات، دخل محمد العايدي هارباً من زنزانته عند الداودي وكانت بينهما صداقة ومحبة، فتبادلا هذا الحوار المهذب الذي استطاعا أن يقتلعاه من بقايا إنسانيتهما القديمة وهما في وضع أحط درجة من درجة الفئرات الموبوءة:

ـ لقد نزلت في ضيافة الله وضيافتك يا داوود..

فرد الداودي متأثراً وعيناه تشرقان بالدموع:

ـ كم كان بودي أن أستضيفك يا صاحبي في مكان غير هذا.. ولكن.. تفضل على كل حال.. تفضل، فأنا سعيد جداً لرؤية وجهك لأول مرة في حياتي بعدما لم أكن أعرفك طوال كل هذه السنين إلا بنبرة صوتك.. خذ مكانك، فأنت هنا في «بيتك»..

كان العايدي ـ على حسب ما رواه لي الداودي ـ رجلاً مديد القامة، أسمر اللون، جميل المحيا، دائم التبسم. غير أن المصائب التي كابدها في زنزانته أخذت منه مأخذها فأوهنته وجعلته لا يقوى على الحركة إلا بشق الأنفس. وكان الداودي في حالة مشابهة، فنظما أنفسهما وتساعدا بكيفية متقنة.

ـ لقد كانت أحسن أيامي في تزممارت ـ يحكي الداودي ـ هي التي قضيتها مع صديقي العايدي.

ـ فقد استطاع أن ينسيني الجحيم مدة طويلة وهو يغوص بي في ذكرياته الجميلة التي كانت في الولايات المتحدة الأميركية. وقد كان الفلك الذي تدور حوله حياته هي زوجته وبنتاه سناء وهند.. لقد كان يحبهن إلى درجة الجنون ولا يكل من الحديث عنهن متحسراً دائماً على تلك السعادة المطلقة التي كان يعيش فيها وإياهن قبل أن تنزل عليهم جميعاً كف القدر.

ولم تمضِ سوى شهور معدودة، حتى جاء الحراس وأمروا العايدي أن يغادر الداودي ليستقر في زنزانة المرحوم موحا بوتو الخاوية. فأثر فيه ذلك تأثيراً بليغاً. وما إن قضى فيها أياماً معدودة حتى تدهورت صحته تدهوراً خطيراً، فخرج من صمته ذات ليلة صادفت ليلة عيد المولد النبوي الشريف، واندهش أصدقاؤه وهم يسمعونه يغني في جوف الليل بصوت واهن حزين مقطعاً من مقاطع قصيدة الأطلال للسيدة أم كلثوم، مركزاً بإلحاح مثير على كلمة «السناء»، اسم بنته التي لم يطق على فراقها صبراً:

أين مني مجلس أنت به فتنة تمت سناء.. سناء.. سناء.. وسنا.

وأنا قلب هائم.. وفراش حائم منك دنا يا سناء.. يا سناء.. يا سناء..

ثم توجه بخياله إلى زوجته وشرع يناجيها بصوته الواهن الحزين:

ـ هل اشتريت الخزف يا عزيزتي؟ آه ما أجمل عجينة الخزف بين يديك الجميلتين وأنت تدلكينها وتعدلينها لتصنعي بها أبدع المزهريات..

لقد كانت زوجة العايدي ـ على حسب ما أسر به للداودي ـ تبرع في فن الخزف. لهذا ذهب خياله إليها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. فرحل وقد كان آخر ما نطق به هو اسمها..

وفي صباح الغد، يوم عيد مولد الرسول الأعظم، جاء الحارس «باغازي» الملقب بالسرخينطو، وتكفل بدفن المرحوم العايدي وهو يتذمر من هذه المهمة التي قام بها بمفرده بعد أن ذهب جل رفقائه في إجازتهم الأسبوعية.

المساعد الأول محمد أبو المعقول (حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي في 21 نيسان/ أبريل 1978)

كان أبو المعقول معروفاً في أهرمومو بلقب «الخضير» وقد كان صهر الكولونيل امحمد اعبابو إذ كان متزوجاً بشقيقته التي كان له منها عدة أبناء. وقد كان يشغل في أهرمومو وظيفة حساسة هي وظيفة ضابط التموين.

كان الخضير رجلاً وسيماً أبيض اللون متحفظاً قليل الكلام. وقد كان خدوماً جداً ويتميّز بأدب جم وحسن في المعاملة جعلا منه إنساناً محترماً من كل السجناء. جرح في أحداث الصخيرات، وظل يشكو كثيراً من رصاصة استقرت في ساقه الأيمن فلم يجد إلى استئصالها سبيلاً. وتضاعفت محنته في تزممارت لما اشتد بها البرد، فانهارت معنوياته وتراجعت صحته إلى أن خارت قواه نهائياً فنادى ذات مساء على صهره عبد العزيز اعبابو وقال له باللهجة البربرية:

فشْلغْ آ أُوما.. (لقد انهرت يا أخي..).

توفي أبو المعقول أياماً قليلة بعد ذلك، تاركاً وراءه ذكرى طيبة لرجل طيب انطفأ في صمت وشرف.

الرقيب الأول عبد العزيز اعبابو (حكم بخمس سنوات وتوفي بعد الخضير في سنة 1978)

كان عبد العزيز اعبابو، الأخ الأصغر لمدير المدرسة، شاباً في الثلاثين من عمره تقريباً متزوجاً وأباً لطفل واحد. وكان اجتماعياً بطبعه وأكثر تفتحاً من كل السجناء ذوي الأصل الريفي، الشيء الذي مكنه من ربط علاقات طيبة مع كل جيرانه. وقد كان سباقاً إلى مساعدة أصدقائه قدر مستطاعه والوقوف بجنبهم كلما دعت ضرورة إلى ذلك. ونظراً إلى تسرب مياه الأمطار إلى زنزانته في فصل الشتاء، رحله الحراس إلى الزنزانة التي توفي فيها المساعد اعماروش. فلبث فيها يصارع المرض بشجاعة ورباطة جأش إلى أن خانته قواه تماماً فلم يعد يقوى على الحركة. وهنا تطوع الملازم عبد العزيز بين بين والرقيب عبد السلام الرابحي فبذلا من أجله المستحيل وشرعا يتناوبان على الدخول عنده لمدة بالطعام والتخفيف عنه. وذات مساء من أماسي شهر رمضان المبارك، وبينما هو صائم كسائر أصدقائه، دخل عليه صديقاه كالعادة، فصعقا لما وجداه جثة هامدة..

مات عبد العزيز في صمت وشرف موتة هادئة نظيفة فاجأت بسرعتها الجميع.

الرقيب عبد الله الفراوي (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي سنة 1983)

ازداد عبد الله سنة 1953 في دوار قشبلات في ضواحي قرية با محمد. وقد كان واحداً من أصغر ضباط الصف سناً وأكثرهم طيبوبة وسذاجة بحيث إنه لم يسبق له طوال سنين الأسر كلها أن تلفظ ولو بكلمة نابية واحدة. وقد كان متديناً قوي الإيمان، فلما حصل جاره المباشر عبد العزيز الداودي على مصحف للقرآن الكريم بواسطة

الحارس الطيب محمد الشربداوي، سلمه إياه مع بضع شمعات. فشرع من فرط فرحته يسهر قسطاً كبيراً من الليل يحفظ فيه سوراً كاملة من القرآن الكريم ثم يحفظها لأصحابه في الغد. وهكذا استطاع جل نزلاء العنبر الثاني بفضل جهود هذا الشاب المثالي استظهار الذكر الحكيم في فترة وجيزة امتدت ما بين سنة 1974 و1976. ولما قدم الإخوة بوركات إلى تزممارت في سنة 1981، كان من بين السجناء الذين رُحّلوا من العنبر الثاني إلى العنبر الأول. فسكنت نفسه هناك ولقي راحة كبيرة بعد أن كان على وشك الانزلاق في متاهات الحمق والجنون.

وذات مرة، سأله أحدنا معاتباً بعدما لاحظ كثرة صمته وانزوائه:

ـ ماذا تفعل يا عبد الله؟ ألا يؤثر عليك هذا الصمت الثقيل؟

فأجاب ببساطته المعهودة وهو يسخر من فراغ تزممارت القاتل:

ـ كنت منشغلاً بعدّ ثقوب الجدار.. أول أمس كانوا سبعة عشر، وبالأمس بقي عددهم كما كان سبعة عشر، واليوم حسبتهم فوجدتهم لا زالوا سبعة عشر.

سنتان بعد مجيئه إلى العنبر الأول، أرجعه الحراس إلى العنبر الثاني فنزل ذلك في نفسه نزول الصاعقة. وما إن قضى هناك بضعة أشهر حتى تمكن منه سعال حاد مزمن مزق رئتيه تمزيقاً ولم يرحمه إلا بعد أن أطفأ فيه نور الحياة.

عاش هذا الشاب الوديع حكيماً ومات في صمته حكيماً..

المساعدة الأول رشيد لمين (حكم بثلاث سنوات سجناً وتوفي في سنة 1984)

درس رشيد في «لافليش» مدرسة ضباط الصف العسكرية في فرنسا. كان متزوجاً وأباً لطفلين: جمال ونادية. وكان من ذلك النوع

النادر الذي يدخل تلقائياً في قلوب الناس منذ أول لقاء به. فقد كان شاباً طيباً حباه الله وسامة وجمالاً وزينهما بخلق كريم لم يكن عليه إلا من تربى في وسط شريف فاضل. إضافة إلى هذا، فقد كان مثقفاً ومتمكناً تمكناً كبيراً من اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وهذا ما جعله محترماً ومحبوباً من كل أصدقائه.

بدأت محنته في تزممارت لما أصيب مبكراً بمرض البواسير. وعلى غرار ما عانى منه صديقاه العايدي والكوري، فقد تفاقمت مشاكله بسبب اختناق قنوات الصرف في مرحاضه. غير أنه لم ينهر ولم يستسلم، بل ظل يقاوم بصبر وثبات مدارياً معاناته الحديث المتواصل مع جيرانه.

وفي سنة 1981، أرغمه الحراس هو والرقيب الأول عبد الصادقي الملقب «بمانولو» على مغادرة زنزانتيهما للسكن معاً في زنزانة المرحوم إدريس باح باح الخاوية. ومع مرور الأيام، بدأ رشيد يشعر بانهيار شديد لم تنفع معه إرادته القوية شيئاً.. فتدهورت صحته تدهوراً خطيراً انتهى به إلى فقدان الحركة تماماً. فظل طريح الفراش ليل نهار، يساعده «مانولو» قدر مستطاعه وقد كان بدوره منهوكاً خائر القوى، إلى أن جاء يوم مشهود.. أحس «مانولو» ذات صباح وهو واقف على رجليه بانسحاب بقايا قوته منه، فأدرك أن أجله قد اقترب. فنادى على أصدقائه يودعهم الوداع الأخير ثم اندفع نحو رشيد المسجى بلا حراك على ظهره فوق الدكة، فهوى عليه بنصفه الأعلى وعانقه بحرارة الموت عناقاً عنيفاً خرجت فيه روحه.. وظلت يدا مانولو اليابستان وهو واقف ملتويتين بإحكام على عنق رشيد تخنق أنفاسه خنقاً.. وقد كاد الميت أن يقتل نصف الحي الذي لم يجد الجهد للتخلص من تلك الضمة الشديدة لولا مجيء الحراس في الوقت المناسب، وسماحهم لأحد السجناء بإغاثته.. وهكذا ظل

رشيد مشلولاً في زنزانته يواجه مصيره المروع وحيداً.

وحدث ذات يوم أن سقط من فوق الدكة على أرضية الزنزانة، فلما أذن الحارس «السرخينطو» لسجينين بإرجاعه إلى مكانه، اغتنم رشيد الفرصة وقد كان على حال بشع يذيب الأكباد ألماً، فطلب منه دواء يسكِّن به أوجاعه، فما كان من الحارس الوحش إلا أن صفق الباب وراءه بعنف شديد ثم تولى وهو يزمجر زمجرة عجل غاضب.

تطوع الرقيب بوشعيب سكيبا لمساعدة رشيد إلى أن فارق الحياة في صمت وشرف. وقد كان محظوظاً يوم موته حين خالف الحراس التعليمات الحمقاء، فأذنوا لكل من بين بين وسكيبا وعاشور بغسله والصلاة عليه قبل مواراته التراب..

الملازم بوجمعة أزندور (حكم بخمس سنوات سجناً وتوفي في 1986)

كان بوجمعة ينحدر من قبيلة مغراوة الواقعة بضواحي أهرمومو. ولما حاز على شهادة البكالوريا من ثانوية المعتمد بن عباد في مراكش، دخل إلى الأكاديمية الملكية العسكرية في مكناس سنة 1976 وتخرج منها ضابطاً سنة 1969، ثم عُيِّن بعد ذلك مدرِّساً في مدرسة أهرمومو. وقد كان شاباً مسالماً ودوداً وعاطفياً يتميز ببسمة حزينة ساحرة كثيراً ما كانت تشبه في كآبتها بسمة الأطفال المشردين..

رمته الأقدار في الزنزانة 57، حيث كان صنبور الماء مثبتاً في جدارها الخارجي. وقد يبدو هذا التفصيل تافهاً جداً، ولكنه شكل خطورة كبيرة على أزندور عندما ساهم مع مرور الوقت في ملء زنزانته كلها برطوبة قاتلة أدّت في نهاية المطاف إلى شل جزئه الأسفل شللاً تاماً. فظل في فراشه مقعداً يتكفل أصدقاؤه بمدّه بالماء والطعام. وقد

عاني معاناة شديدة من موت بطيء ـ طويل إلى أن كان يوم أحس فيه باقتراب أجله، فتوجه إلى أصدقائه جميعاً بهذه الكلمة المؤثرة:

ـ أيها الأصدقاء الأعزاء، إني راحل عنكم قريباً. وأرجو من الله تعالى أن يلهمكم مزيداً من الصبر والتحمل حتى تتابعوا المقاومة في هذه الجحور الصقيعية الرهيبة. كما أتضرع إليه تعالى من شغاف قلبي أن يكون أخوكم بوجمعة هو آخر قربان يقدمه طغيان مسؤولينا على مذبحة تزممارت.. إني أرى الخلاص آت بعدي، وأرى مروحيات ستحط في ساحة السجن لتنقلكم إلى أهلكم وذويكم، فطوبى لكم بهذا اللقاء.. ادعو وصلوا من أجلي إذا ما أغمضت عيني إلى الأبد، وقولوا جميعاً:

رحم الله بوجمعة وتغمده برحمته الواسعة، وشكراً لموته الحاني العطوف الذي خلصه من عذابه المفجع الطويل.

الملازم عبد السلام حايفي (حكم بعشرين سنة سجناً وتوفي في سنة 1989)

ينحدر عبد السلام من مدينة تاونات. وقد كان شاباً وسيماً أشقر الشعر، طلق المحيا، خفيف الروح، خدوماً ودوداً يتميّز بأخلاق عالية وقلب كبير. دخل إلى الأكاديمية سنة 1966 وتخرج منها ضابطاً سنة 1968 ثم عُيِّن بعدها مدرِّساً في مدرسة أهرمومو العسكرية.

كان عبد السلام يبدو في ظاهره جلداً قوي الشكيمة، غير أنه في اللحظة التي رمي فيها في إحدى زنازين تزممارت، صدم صدمة قوية ارتج لها عقله ارتجاجاً عنيفاً فظل بعدها يحادث أشباحاً كان يتوهم أنه يراها، فبقي على ذلك الحال إلى أن لقي ربه. والمدهش الغريب، هو أن هذا الشاب الذي حافظ على طبعه المسالم حتى بعد فقدان عقله، استطاع أن يعيش تلك السنين الطويلة بلا طعام تقريباً.. فقد

كان لا يأكل إلا في النادر القليل. . لقيمات محسوبة كان يلتهمها على حذر كلما مزقت أحشاؤه نهشات الجوع، إذ كان يتوهم أن طعام تزممارت محشو كله بالسم، لذا كان يقضي وقته في نهي أصدقائه عنه.

وقد كانت مأساته الكبيرة تكمن في عزلته، فلما رحّله الحراس مع بعض رفقائه من العنبر الثاني إلى العنبر الأول سنة 1981، تحسن حاله كثيراً سيما بعدما أصبح يسكن مع صديقه محمد المجاهد في الزنزانة نفسها. وقد كان المجاهد هذا بغض النظر عن صداقته المعروفة مع حايفي، رجلاً من أطيب خلق الله إطلاقاً. فبذل من أجل صديقه ما لا يمكن أن تبذله إلا والدة المرحوم لو كانت معه لا قدر الله. كان حايفي يتوهم أن ساكن الزنزانة رقم 8، محمد العفياوي ـ السجين الصامت دائماً وأبداً ـ هو ضابط التموين. فكان ينادي عليه من حين إلى حين قائلاً:

ـ أخاي محمد. . الله يخليك. . باركة علينا من البيصارة. . واش ديما البيصارة، البيصارة، البيصارة؟ أصاحبي فهم راسك شويا، راك عيقتي بزاف. . دور معنا بشويا ديال الخضيرة أو اللحيمة. .

فكان العفياوي، وهو جبلي مثل حايفي، يضطر أن يخرج من صمته فيجيبه بصوته المبحوح الذي كانت فيه الحبال الصوتية قد تراخت من كثرة تعطلها عن العمل:

ـ واخا أولد بلادي. . غير تهانا. . دابا نعطي الأوامر. .

مكث حايفي سنتين مع المجاهد. ولما بدأ يتماثل إلى الشفاء، أرجعه الحراس إلى جحيم العنبر الثاني، فتراجعت صحته من جديد إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة ذات يوم في صمت وسكينة، وهو على حال مفجع لم يكن له به أدنى وعي أو إدراك، فكان بذلك من

المحظوظين. أو لم يكن الخبل في هذه الظروف ملاذاً رحيماً من جحيم أحمق صنعته عقول مجنونة خرقاء؟

النقيب عبد الحميد بن دورو (آخر ضحية في تزممارت، حكم بعشر سنوات سجناً وتوفي في 5 آذار/ مارس 1991)

كان القبطان بن دورو واحداً من رفقاء فوج الكولونيل اعبابو. فقد دخل إلى الأكاديمية الملكية العسكرية سنة 1956، وتخرج منها ضابطاً في السنة نفسها ثم عُيِّن في الدرك الملكي وظل فيه أمداً طويلاً إلى أن نُصب الكولونيل أبو الحمص رئيساً للدرك، فأحاله على سلاح المشاة في سنة 1970 ليرسل بعد ذلك مباشرة إلى مدرسة أهرمومو العسكرية.

كان «سي حميد» كما ألفنا أن ننادي عليه، ينتمي إلى أسرة رباطية عريقة. وقد كان رجلاً وسيماً أبيض اللون، طويل القامة، يتميز ببنية قوية مدهشة وبطبع متحفظ كان ينطوي على سلم وسذاجة. وقد كان متزوجاً وأباً لثلاثة أطفال كانت فيهم لبنى، ابنته البكر، هي عشقه وولهه ودنياه. وقد كانت هذه الطفلة الجميلة محبوبة من كل الضباط في المدرسة. فكان أحدنا كلما أراد أن يقضي له سي حميد حاجة ضرب على وتر لبنى ليسارع الرجل بالقبول والإيجاب وهو يبتسم ابتسامة تقول:

ـ عرفت مكمن الضعف في قلبي أيها الخبيث..

ولإبراز قوة بنية سي حميد، حدث ذات مرة أنه كان يتدرب على حلبة الملاكمة في المدرسة، فقدم عنده ضابط صف كان يشتغل مدرباً للرياضة وكان معتداً كثيراً بقوة جسمه فقال لسي حميد وهو ينوي أن يختبر قوته:

ـ أتريد يا مون كبطان أن أخوض معك مبارة في الملاكمة حتى يمكن لك أن تقوم بتسخين جيد لجسمك؟

فاستجاب له سي حميد معتقداً بسذاجة أنها مجرد حصة للتسخين فقط. ولكن ضابط الصف اندفع مهاجماً بجدية وكأنه في مبارة حقيقية، فسدد لكمة عنيفة لرئيسه الذي تقبلها ظاهراً بروح رياضية وباطناً باستغراب وعدم رضا. . فلما رأى بيقين أن ضابط الصف يبحث عن فجوة في دفاعه ليزيده اللكمة الثانية، حسم الأمر سريعاً وبدون لعب، فسدد لغريمه على الفور لكمة هائلة طرحته أرضاً وأفقدته وعيه. وبينما كان عدد كبير من التلاميذ والأطر متجمعين في باب المصحة، إذا بسي حميد يقدم وهو يدفع بكلتا يديه منقلة كان الجنود يسخرونها لنقل أكياس الإسمنت، وعلى متنها جسم ضابط الصف الغارق في الضباب، فقال لأحد الممرضين ببساطة:

ـ عليكم بهذا. . أعيدوه إلى وعيه.

في تزممارت، غرق سي حميد في عزلة شاملة مُفَرِّطاً في نفسه ومُفْرطاً في تعبد متواصل كان يقضيه في حفظ القرآن وإقامة الصلاة وذكر الله مع صيام الدهر. وقد أثر هذا الصيام المتواصل على صحته كثيراً، سيما وأنه دأب على الإفطار بطعام أدى به مع مرور الأيام إلى إتلاف جهازه الهضمي. ومع تلاحق السنين، بدأ نوع من الوهن العقلي يظهر على هذا الرجل الشجاع الذي كان يأنف أن يظهر ضعفه لأي كان. فشرع يخرج عن صمته متحدثاً بصوت عال مع أشباح كانت تخرج من خياله المريض. .

وفي سنة 1981، جيء به من العنبر الثاني إلى العنبر الأول ضمن السجناء الذين رحلوا غداة مجيء الإخوة بوريكات. فأسعده ذلك كثيراً بعدما وجد هنالك أصدقاء كان يطمئن إليهم كثيراً. فتحسنت أحواله كثيراً خصوصاً بعدما وجد من بين أصدقائه من يقنعه

عن التخلي عن صيامه المتواصل والاكتفاء بصوم الاثنين والخميس. فاندمج معنا وشاركنا حفظ بعض الأحاديث النبوية الشريفة وبردة الإمام البصيري ونظم ابن عاشر. وكم ضحكنا من الأعماق ذات يوم لما نادى عليه حشاد، جاره الأيمن، وكان لا يكل من سرد أحلامه على كل من يريد سماعة، فقال لسي حميد الذي تماثل بالإنصات إليه تأدباً علماً بأنه كان قد فقد قدراً كبيراً من حاسة سمعه:

ـ سي حميد! وا.. سي حميد! وا.. سي حميد! هل تسمعني؟ طيب..

لقد رأيت في ما يرى النائم هذه الليلة والعياذ بالله، كلباً شرساً مسعوراً أسود اللون، انقض عليّ وهو في قمة هيجانه، فغرز أنيابه الطويلة في لحمي وشرع يفتك بي وهو ينبح نباحاً متواصلاً ويعضني في كتفي وفي.. وفي.. وأسهب حشاد في سرد كابوسه الطويل الذي لم يسمع فيه سي حميد شيئاً. ولما فرغ ولاحظ أن سي حميد لم يعلق عليه ولو بكلمة وجيزة، نادى عليه من جديد ليطلب رأيه وهو يحس بنوع من الإهانة، فقال سي حميد بلهجة متضرعة وهو يعتقد أن كابوس صاحبه رؤيا صالحة:

ـ إنها لرؤيا عظيمة.. وإني لأسأل الله أن يحققها لك قريباً يا أخي..

في سنة 1983، رجع سي حميد مجبراً إلى العنبر الثاني، فتراجعت صحته ووهنت عزيمته ثم أصيب بالاكتئاب بعد أن أصبح عاجزاً عن مواصلة صيامه. وبما أنه كان من ذلك النوع من الرجال الذين يكرهون إزعاج الناس وإقلاق راحتهم، فقد رفض كل مساعدة من أصدقائه مفضلاً أن يواجه مصيره المحتوم بمفرده. غير أن رفيقه الداودي اهتدى إلى إقناعه بكيفية ذكية حين أكد له بأن المدير نفسه هو الذي أمره بمساعدته وأنه لا مناص من تنفيذ هذا الأمر إن كان يريد له

خيراً. ولم يكن الداودي في هذا الظرف العصيب بأحسن حال من سي حميد. فقد كان لا يقوى على الحركة إلا بالاتكاء على عكازين، وذلك بعد أن نخر الروماتيزم مفاصله وجعل خطواته الثقيلة المتعثرة أشبه ما تكون بخطوات ربابنة الفضاء وهم يمشون على سطح القمر. ورغم ذلك لم يقصر في جهد ولا وقت للتخفيف من آلام صديقه المحتضر. وقد كان السلوان الوحيد في آخر أيام سي حميد البئيسة، هو دخول الداودي عليه ذات صباح وهمسه له بهذا الخبر.

ـ سي حميد.. أتدري مذا جرى؟ لقد مات رئيس زبانية الجحيم هذا اليوم.. مات الحارس الرهيب بن دريس.. (السلك.. الوايرمان..).

ارتسم طيف ابتسامة حزينة على الوجه الشاحب الوسيم، وتذكر ساعتها قساوة ذلك الحارس السادي المجنون الذي عاقبه ذات مرة بحرمانه من الماء والطعام أربعة أيام متتالية، وقال له في اليوم الخامس بصوت يقطر كراهية ومقتاً:

ـ هنا ستموت يابن دورو.. هنا سأقبرك.. وإن لم تكف عن رد الكلام، فسأفعل بك ما لا يمكن أن تتصور بشاعته أبداً..

في بداية شهر آذار/ مارس سنة 1991، وبينما سي حميد يحتضر احتضاراً بطيئاً فظيعاً بعدما لم يبقَ من جسمه القوي الصحيح إلا حزمة من عظام نخرة، استغرب السجناء لما رأوا شخصين غريبين يدخلان عنده ويقدمان نفسهما له كطبيبين معالجين.

وبدون أن يفحصاه سلما للداودي كيسين صغيرين من مسكن «أكطابولجيك» وقالا له:

ـ امزج هذا الدواء بشيء من الماء وأَشرِبه إياه.

فرد الداودي مستنكراً وقد أعطته هذه الزيارة الغريبة بصيصاً من الأمل:

ـ ولكن.. ليس هذا بالدواء الذي سينقذه.. ينبغي أن تنقلوه إلى المستعجلات حالاً.. إنه في حالة ماسة إلى السيروم.. إن الرجل يحتضر..

فأجابه الرجلان بيقين العارفين:

ـ افعل ما نأمرك به ولا تجزع غداً سترى أن حالته قد تحسنت بكيفية مدهشة..

وفي الغد، تحسنت فعلاً حالة سي حميد نهائياً حين رحمه الله فأخذه إلى جواره واضعاً بذلك حداً لمعاناته الطويلة.. ومن حسن الحظ في ذلك اليوم الحزين أن كل حراس العنبر الثاني كانوا في إجازة. فخلفهم حراس العنبر الأول برئاسة الحارس النبيل محمد الشربداوي الذي ساعد الداودي وسكيبا في غسل جثمان رفيقهم الراحل، ثم مدهم بكفن نظيف وبما يكفي من الماء والصابون. ثم صليت عليه بعد ذلك صلاة الجنازة في الدهليز، شارك فيها إضافة إلى السجناء كل من الحارسين، محمد الشربداوي وحارس يسمى حسن، كان حديث التعيين في تزممارت.

وهكذا أسدل الستار على هذه المجزرة الحمقاء المجانية البشعة.. وما كان له أن يسدل لولا رحمة الرحمان الذي مد لنا يداً منقذة من خلال مبادرات المنظمات الحقوقية الغربية التي جاءت في وقت دقيق كان فيه بعض ما تبقى منا قد وضع الرجل الأولى في حفرة القبر.

حمامة تزممارت

سيظل يوم 2 آب/ غشت 1991 يوماً مشهوداً في تاريخ تزممارت الأليم، يوماً مشرقاً مميزاً في بحر تلك الظلمات العمياء الرتيبة التي قطعناها كما تقطع غواصة تائهة أحشاء يم عميق متجمد. لقد كانت الأحداث البارزة قبل هذا اليوم ـ باستثناء قضية الملازم الطويل ـ كلها حزينة مفجعة تدور حول موت هذا الصديق أو احتضار ذاك. ولكن هذا اليوم حمل لنا في طياته أخيراً حدثاً سعيداً. . إنه مجيء «فرج» أو حمامة تزممارت. .

فقبل شهور قليلة من هذا الحدث، قدم سرب من حمام الجبال إلى السجن على حين غرة، ولما راقه هدوء المكان وخلوته، سكن في السقف الذي يغطي زنازين أتعس خلق الله إطلاقاً. وهكذا باض وفرخ إلى أن أصبح شعباً يعج فوقنا بالحركة والحياة. تضاربت آراؤنا حول مجيء هذا الحمام عندنا. فالمتشائمون منا وما كان أكثرهم، رأوا فيه طالع شؤم علينا مؤكدين بأن الحمام لا يسكن إلا في القبور المهجورة والأماكن الخربة، وادعوا إضافة إلى ذلك أنه سيجر علينا جيشاً من الأفاعي الجائعة التي ستسعى حتماً إلى التقوت من فراخه اللذيذة الطرية.

أما بعضٌ آخر، فقد هلل واستبشر ورآى فيه رسول سلام جاء يبشرنا بفرج وشيك، فقال مدافعاً عن رأيه:


B.RACHDI

ـ أوَلم يتخذ الناس الحمام رمزاً للحرية والانطلاق؟ أو ليس الحمام هو ذلك الطائر المسالم الوديع الذي حمل البشرى إلى سيدنا نوح بغصن زيتون في منقاره الجميل؟

ظل النقاش حول الحمام بضرب أطنابه إلى أن كان صباح نادانا فيه رفيق فقال:

ـ أما لاحظتم شيئاً غريباً في حركة الحمام هذا الصباح؟

فرد عليه آخر:

ـ فعلاً منذ طلوع الفجر وهم يصفقون بأجنحتهم بكيفية غريبة جداً.

فعلق رفيق آخر على ذلك قائلاً:

ـ أعتقد أن فرخ حمام قد خرج من عشه فحاول أبواه رده إليه، فهذه أول مرة أرى فيها حمامة تطل عليّ من ثقب السقف وكأنها تبحث عن شيء معين.

لما كنت في السجن المدني في القنيطرة، عشت قصة حب رائعة مع قط صغير كنت قد ربيته تربية فاضلة، فكنت كلما خرجت للقاء أسرتي في ردهة السجن حملته فوق كتفي، فاشتهرت بذلك بلقب «أبو القطيط». لكني رغم ذلك كنت أحلم وأنا في زنزانتي بتربية فرخ حمام. وقد وعدني به سجين من الحق العام فكنت على وشك تسلمه منه، لكننا اختطفنا ونقلنا إلى تزممارت أياماً قليلة قبل ذلك.

وبينما نحن نتحادث ذلك الصباح في تزممارت عن حركة الحمام الغريبة، إذا بنا نسمع وقع شيء يسقط من السقف ويرتطم بأرضية الدهليز الوسخة، محدثاً صوتاً أخرس ذكرنا بسقوط الأفاعي التي شرفتنا مراراً بزيارات مفاجئة كانت تطارد فيها بعض الفئران الهاربة. سارع الأصدقاء الذين كانوا يقوون على الوقوف إلى نويفذة الباب يستطلعون الخبر. واستطعت بدوري أن أفتح نويفذة بابي فإذا بي ألمح

أمامي في ظلام الدهليز الباهت بقعة صغيرة بيضاء. فقلت لأصدقائي أطمئنهم:

ـ لا تجزعوا! إنه لا شك شيء من الجير الذي أتى به الحراس بالأمس لوضعه في مرحاض الزنزانة رقم 7 الخاوية. ولما تعبت من الوقوف وهممت بالرجوع إلى الدكة لالتقاط أنفاسي، سمعت أحد جيراني يصرخ ملء رئتيه وقد كان مشتهراً بيننا بخوفٍ مرضي من الأفاعي:

ـ احذروا! إن البقعة البيضاء تتحرك وتزحف نحو الزنزانة رقم 10.

فعلق أحدنا ساخراً: «على حسب علمي الواسع، لا توجد عندنا في المغرب أفاعي بيضاء».

في هذه الساعة بالذات، انفتح باب العنبر، ودخل الحارس «السر فر» بمفرده. فشرع يفتح الأبواب من دون أن يغلقها مظهراً لنا بذلك تعاطفه معنا. فما إن تجاوزني وأولاني ظهره مستعداً لفتح الزنزانة 9، حتى تقدمت إلى حيث كانت البقعة البيضاء، فإذا بي أمام فرخ حمام صغير مكوم على نفسه. فأخذته من دون أن يفطن بي الحارس، ثم رجعت إلى زنزانتي بالسرعة التي سمحت لي بها مفاصلي المتورمة..

ـ فرخ حمام.. إنه فرخ حمام..

سرى الخبر همساً من زنزانة إلى أخرى كما تسري النار في الهشيم. ربما كان الطائر الصغير في أسبوعه الأول، لأن جسمه كان عارياً إلا من رويشات قليلية نبتت في ذنبه وأطراف جناحيه، بينما كسي جزء من عنقه وظهره بزغب ناعم أشقر. وكم كان واهناً ضعيفاً هشاً وهو يرتعش في يدي كورقة في مهب الريح ويصرخ بذعره

الصامت بدقات قلبه الصغير التي كانت تخبط بقوة وسرعة على كفي وكأنها كانت تستجديني العطف والرحمة. .

آه كم كان حاله أشبه بحالنا لما رمينا لأول مرة في هذه المغارات المظلمة. دلى المسكين رأسه على صدره كمحكوم بالإعدام سلم رأسه للمقصلة، وثنى رجله اليمنى المنتفخة على إثر السقطة من السقف العالي فبدا لي كئيباً مستسلماً متوجعاً وكأنه في حال من يشكو إلى الله همه وبلواه. مررت بسبابتي اليمنى برفق على ظهره ورأسه فقلت له وهو متربع في راحة كفي الأيسر:

ـ لا تقلق يا عزيزي الصغير. . أقسم لك بالله أنني سأفعل من أجل إنقاذك المستحيل.

ثم توجهت إلى أصدقائي بعد أن خرج «السر فر» وقلت لهم بلهجة من يلقي خبراً يهم مصير أمة بأسرها:

ـ إخواني الأعزاء. . إنه لشرف عظيم أن أخبركم بأنه منذ اليوم لم نعد أربعة وعشرين سجيناً في هذا العنبر وإنما خمسة وعشرون. . لقد انضاف إلينا هذه المرة رفيق جديد بعد أن كنا قد تعودنا على فقدان رفيق في كل مرة. . لقد رمى القدر إلينا بفرخ حمام ليشاركنا مصيرنا المؤلم. سأسميه «فرج» تيمناً بفرج قريب إن شاء الله.

احتد النقاش وتضاربت الآراء حول مصير الوافد الجديد. فقال أحدنا:

ـ ينبغي أن ترجعه إلى أمه.

فرد عليه آخر:

ـ وكيف السبيل إلى ذلك؟ من الأحسن أن تسلمه للحراس ليعيدوه إلى عشه:

فعارض ثالث بحدة قائلاً:

ـ هل جننت؟ إنهم سيشوونه حتماً أو سيطبخونه بالبصل والزبيب في طاجين شهي لذيذ.

فقال آخر متأثراً وهو يوظف في كلامه آية من القرآن:

ـ يا عباد الله، ردوا الفرخ إلى أمه كي تقر عينها به ولا تحزن. ألا ترون أن المسكينة تحاول الدخول إلى الدهليز من خلال الشباك لتسترجعه؟

يعلق رفيق آخر بلهجة من يريد حسم هذا النقاش العقيم:

ـ لا وسيلة لإرجاعه إلى أمه بدون مساعدة الحراس. لهذا فأنا أقترح عليكم أن تسلموه لي كي آكله نيئاً.. فمنذ أمد لم تسقط في بطوننا مضغة لحم أيها الرفاق! آه للحم أفراخ الحمام..

استلقيت على ظهري والزنزانة بل الدنيا كلها لا تسعني من فرط السعادة. وبدون إبطاء، شرعت أفكر في الكيفية التي سأنقذ بها هذا الطائر التعس. كنت أدرك أنها مسألة شبه مستحيلة نظراً إلى اشتداد الظلمة وقلّة القوت وضيق المكان وتلوث الهواء. فالتجأت إلى الله وتضرعت إليه في تأثر وخشوع وكأن الأمر كان يتعلق بمصير روح بشرية:

ـ اللهم إني أسألك عونك وسندك في إنقاذ هذا البائس المسكين.. اللهم اجعل في فرجه فرجنا وخلاصنا من هذه القبور الضيقة.

سكبت شيئاً من الماء في صحني وقدمته لفرج، فمد رأسه إليه بسرعة وأخذ يرتشف منه بنهم كبير. لا شك في أن جوف المسكين كان قد جف من شدة الخوف والهلع. ولكن عندما فتت شيئاً من الخبز وقدمته إليه لم يأخذ منه شيئاً لأن منقاره كان لا زال بعد رخواً ليّناً. فكان عليّ إذاً أن أتدبر أمر إطعامه إلى أن يشتد عوده. استلقيت على ظهري، ونشرت خرقة على صدري فوضعت فوقها «فرج»، ثم

بدأت أداعبه بلمس خفيف على ظهره ورأسه وتحت منقاره لأبث في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة. بيد أنه كان كلما سمع نداء أمه اليائس الآتي من فوق السقف، صفق بجناحيه وأجابها بزقزقة عالية كنت أعلم أنها طلب استغاثة ونجدة. منذ ذلك اليوم المشهود، انقلبت حياتي رأساً على عقب، فغيرت كل برامجي الخاوية ليصبح همي الوحيد مركزاً على طائري العزيز. وقد كانت أصعب مهمة بالنسبة إليّ هي طريقة إطعامه. فكنت أفرك بيدي قطعة من الخبز بعد تبليلها بقطرات من الماء، ثم أجعل منها كويرات صغيرة على شكل حبات الزرع وأدعها إلى إن تيبس فآخذ بسبابة شمالي وإبهامه رأس الطائر من الوراء فأفتح منقاره برقة وألقمه الحبات بيمناي. وكان كلما ابتلع منها ثلاثاً أو أربع، صفق بجناحيه وزقزق بصوت عال مطالباً بالمزيد، فكان أصدقائي يردون عليه من الزنزانات المجاورة قائلين له بدعابة:

- شهية طيبة يا فرج.

ومن أجل إغناء قوته، كنت آخذ من طعامي حبات من الفول واللوبياء والعدس فأغسلها جيداً وأجففها ثم أناولها إياه. وأقتسمت معه في كل صباح نصيبي من الشاي فأصبح به شديد الولع. وهكذا برمجت له ثلاث وجبات غذائية في اليوم. ولما لاحظت ازدياد جشعه زدته رابعة ثم خامسة. وقد كان الأصدقاء يرتعشون خوفاً من فكة هلاكه، فكانوا يتنافسون في التضحية من أجله ويرسلون إليه كل ما كانوا يعتقدون أنه كان مغذياً من طعامهم البئيس. ودخل الملازم امبارك الطويل إلى المعمعة، فأرسل له علبة من «الكرطون» كي تكون له وكراً، ثم أخذ يرسل إليه كلما سنحت له فرصة شيئاً من البصل والبطاطيس المقلية. فكنت كلما هممت بإطعامها إياه، أغمضت عيني واستنشقت ملء رئتي لأشحن خياشمي برائحة ذلك الطعام الشهي

الذي كان يخيّل لي آنذاك أنه عبق فاتح من مائدة أصحاب اليمين في الجنة. كان فمي يتحلب من شدة الحرمان، ولكني لم أبخس قطُّ طائري حقه، فكنت أكتفي بالرائحة والرائحة فقط.. وبعد كل وجبة غذائية كان يأخذها طائري، كنت أعود فأستلقي على ظهري ثم أضعه فوق صدري وأبدأ بمداعبته ناقراً بإصبعي على ظهره ورأسه ومنقاره، فكان يرد لي الصاع صاعين بنقرات لطيفة على ذقني وجوزة عنقي الناتئة. وعندما كنت أحس أن النوم قد بدأ يداعب أجفانه، كنت أضعه في عشه الذي هيأته له من بقايا طربوش مبطن قديم، فكان يرخي منقاره على صدره المنفوخ فينام قرير العين.

وفي الصباح، لما كنت أشرع في المشي على الخط المنحرف لأرضية الزنزانة، كنت أضعه فوق كتفي وأغني له أجمل ما كنت أحفظه من الأغاني القديمة. وعند دخول الحراس إلى العنبر، كنت أخبئه تحت علبة الكرطون وأزيد عليها خرقته البالية. وكان ذلك أكرَه ما كان يكرهه إذ كان يعرب عن قلقه بنقر «الكرطونة» نقراً عنيفاً. ومن حسن الحظ أنه لم يكن يزقزق، ولو فعل لكان أمره حتماً مقضياً.

وهكذا مرت الأيام سراعاً، فاشتد عوده وشب، فإذا بزغبه ينقلب إلى ريش رمادي ناعم، وإذا بالبقعة البيضاء على ظهره قد تدورت وارتسمت بشكل جميل رائع، وإذا بمنقاره الرخو يغدو قوياً صلباً، وبرجله المريضة قد برئت تماماً وبدت وكأنها مخضبة بالحناء. فأصبح يأكل طعامه وحده ويبحث عن الماء كلما عطش، ويتسكع مزهواً بنفسه على أرضية الزنزانة قافزاً منها إلى الدكة ومن الدكة إلى الأرض. وكم كان تأثري عظيماً ذات صباح حين صفق بجناحيه فطار وحط على كتفي وهو يهز رأسه ويميل به مطلاً عليّ بعين واحدة ولسان حاله يقول:

ـ ما رأيك يا أبتاه؟

أحسست ساعتها فعلاً بتأثر الأب حين يرى ابنه البكر قد بدأ يمشي على رجليه بعد حبو عمَّر طويلاً. وشاركني الأصدقاء هذا الحدث، فتعالت أصواتهم مهللة مهنئة. ومن هنا بدأنا نشعر بالخطر، إذ كيف لمن له جناحان أن يقنع بالضيق والحرج وهو الذي خلق ليطير ويسبح في فضاء الله الواسع العظيم؟

وهكذا عقدنا اجتماعاً طارئاً على غرار ما تفعله حكومات الدول الديمقراطية عندما تضعها الأحداث أمام أمر خطير. فتدارسنا قضية فرج، وخرجنا بعد سلسلة من المشاوارات الطويلة بقرار يقضي بإخراجه من نويفذة الباب لكي نعطيه فضاء أوسع يتدرب فيه على الطيران. وقد كنا ندرك أن ذلك قد يشكل عليه خطراً محققاً. ولكننا اضطررنا إلى ذلك اضطراراً في غياب حل أفضل.

وذات صباح، وقف فيه أمام النويفذة كل من كان يقوى بعد على الوقوف من الأصدقاء، وهم يترقبون بشوق كبير وتأثر عميق عملية إطلاق الحمامة في الدهليز. أخرجت فرج بهدوء ثم أطلقته ببساطة في الهواء. حط أمام باب زنزانتي وقد ظهر عليه نوع من الفزع والاندهاش، فنظر لحظة يمنة ويسرة مستكشفاً سعة المكان، ثم طار فجأة وحلق في الدهليز تحت تصفيق حار وهتاف جذلان لسجناء وقفوا يتابعون تحليقه بأعين منبهرة وأفواه مفتوحة وكأنهم أطفال سحروا أمام لعبة خارقة عجيبة.. وكأنما انعكس هذا الانفعال الشديد على فرج، فظل يذرع الدهليز بطيرانه جئية وذهاباً منتشياً بفرحته العارمة. وبعد لحظة حط قرب الزنزانة 29، فناداه ساكنها، القبطان حشاد، ثم مد له من خلال نويفذة بابه يده. وبدون تردد، طار وحط على يده. فناديته بكل ما أوتيت من جهد وكأني أعيش حلماً وردياً رائعاً:

«كُتْكُتْ.. كو.. تكت كو.. تكت».

التفت برأسه الصغير جهتي، وكتلميذ نجيب فهم مراد معلمه، طار طيرة واحدة وحط كوردة على يدي. لقد كان ذلك أكثر مما كنا نتوقعه، كان نجاحاً باهراً فاق كل التوقعات المتفائلة. واحترازاً من قدوم الحراس على حين غفلة، أدخلت «فرج» إلى الزنزانة ساعة قبل الوقت الذي اعتادوا أن يقدموا فيه. وما إن كادوا يخرجون بعد الغذاء حتى تسارع الأصدقاء إلى الأبواب وهم يصرخون بانفعال شديد:

ـ ماذا تنتظر؟ هيا. أطلق فرج!

وكما فعل في المرة الأولى، شرع فرج يغدو ويروح طائراً مصفقاً بجناحيه، ثم اختار يداً من بين الأيادي الكثيرة الممدودة إليه فحط عليها وصاحبها يصيح ويقهقه ضاحكاً من فرط سعادته. ولا شك أن غريزة هذا الطائر الذكي قد أفهمته أن هذه الأشباح الظلامية الغريبة المطلة عليه بأسمالها البالية القذرة، وهياكلها العظمية المشعرة تحبه كثيراً وتتوق لتقبيله. فطفق يقفز من كف إلى أخرى محملقاً باستغراب في وجوهها المستغربة.

ومنذ ذلك اليوم، أصبح «فرج» في تزممارت بهجة عمرنا ومبعث سعادتنا، فأحببناه وأحبنا، وتحملنا بسببه قدوم الموت بمعنويات أفضل. واكتتبنا من أجله فجمعنا قدراً من المال اشترينا له به بواسطة الحارس «السر فر» الذي صارحناه بقضيته كمية من الزرع الخالص، فملأ حوصلته بها فازداد قوة ونشاطاً وعافية. وفي الوقت الذي بدأت أفكّر فيه بحيلة أطلق بها سراحه، سقط المسكين مريضاً. انتفخ منقاره وأنفه فلم يعد قادراً على الأكل. مذا حصل؟ هل ارتطم في طيرانه بالجدار الأحرش أم أعطاه أحدنا عن حسن نيّة شيئاً فأكله فأضر به؟

أحزن مرضه كل الأصدقاء بدون استثناء، فبدأوا يتلاومون ويتعاتبون محملين بعضهم بعضاً نتيجة ما جرى. فقد أصبح فرج ملكاً عمومياً لنا، بل قطعة نفيسة منا. كان كل واحد منا يحرص عليها

حرصه على نفسه. وقد بادر بعضٌ منا مسبقاً بالتشديد على عدم إطلاق سراحه زاعماً أنه ليس أولاً وآخراً سوى طائر كسائر الطيور، وأن الله أرسله إلينا ليخفف عنا شدة المعاناة، فقدره إذاً هو أن يبقى معنا. رجعت إلى إطعامه على النحو الذي كنت أغذيه به لما كان فرخاً صغيراً. ورغم أني أشربته حبة من الأسبيرين وأخرى من فيتامين «س» كان الطويل قد أرسلهما له، فقد ازدادت صحته مع الأيام تدهوراً. فارتأيت أن أعجل بإطلاق سراحه قبل أن يموت كما نموت نحن في الصمت والظلام. وقلت لنفسي متفائلاً:

«سيتدبر أمره بمفرده، وسيشفى لا شك من مرضه حين يعانق جمال الطبيعة ويحلق في فضاء الله الفسيح..».

ثم رأيتني وأنا أتيه في أحلام مستحيلة: «ماذا لو ربطت في إحدى رجليه رسالة استغاثة فبلغها إلى أمي كما بلغ الهدهد خطاب سليمان إلى بلقيس؟» أضغاث أحلام.

في اليوم التالي سنحت الفرصة بواسطة رفيقي عبد الكريم الشاوي الذي أمره الحارس «بابا حمد» أن يساعده بعد أن قدم ذلك الصباح إلى العنبر بمفرده. فثبَّت له بابي فغامر وتسلق فوقها في غفلة من الحارس، فأخذ فرج وأخرجه من شباك الدهليز وألقى به فوق سطحه. لما أنجزنا العملية بنجاح ورجعت إلى زنزانتي، شعرت وكأنني ممزق بين إحساسين متناقضين: فرحة عارمة لإنجاز وعد وإطلاق سراح سجين مريض، وحزن دفين لفقدان ابن بار وصديق عزيز. لما انصرف الحارس ومرّ وقت طويل على خروجه، نفد صبر الأصدقاء فطالبوني بإخراج فرج إلى الدهليز كالعادة. لكني اعتصمت بالصمت؟ فتكفل الشاوي بنشر الخبر الذي نزل على السجناء نزول الصاعقة.. فران لمدة طويلة صمت ثقيل كالرصاص، فإذا برفيق يفقد الزمام وينفجر صارخاً:

ـ ليس من حقك أن تفعل ما فعلت. . كان عليك أن تستشيرنا على الأقل. لقد كسرت قلبي فلن أغفر لك هذا أبداً.

مرّ علينا ذلك اليوم كئيباً صامتاً حزيناً، واستبد بنا الشعور نفسه الذي كان يعصر مهجنا كلما رحل عنا صديق عزيز، فرجع عنبرنا بدون حمامتنا كما كان قبراً بارداً بلا حماس ولا فرحة ولا أمل ولا روح. وفي الصباح التالي، وبينما أنا منشغل بجمع غطائي الممزق، إذا بالملازم الطويل ينادي عليّ بصوت جذلان مستغرب متعجب:

ـ لم يرحل فرج. . يبدو لي أنه قضى ليلته فوق سقف الزنزانة رقم 1. انظر جيداً إنه يبحث عن زنزانتك.

ألقيت نظرة من خلال نويفذتي إلى حافة سقف الزنزانة المقابلة فدق قلبي وأنا أراه يواجهني ويطل برأسه الصغير جهتي. . فلما رآني صفق بجناحيه وحاول التسلل إلى الدهليز عبر الشُّباك لكن بدون جدوى. لقد كان البليد عوض أن يقدم رأسه ويضم جناحيه للتسلل من خلال مربع من مربعات الشباك، يفعل العكس فتمنعاه جناحاه المبسوطتان من الدخول. ولما قدم الحراس، انقبضت قلوبنا لعلمنا أنه ينبغي أن تحدث معجزة هذه المرة كي لا يفطن بوجوده أحد. وفعلاً حدثت المعجزة حين أمر حارس متعب رفيقنا الشاوي بتفريق الخبز علينا. وهكذا لما وصل إلى مستوى الزنزانة 10، دفعت باب زنزانتي إلى أن أوقفه الجدار، ثم ثبّته له بيدي ورجلي فتسلقه كما فعل في المرة الأولى بعد أن اغتنم لحظة سهو من الحارس، فدس يده من خلال الشباك وأخذ «فرج» ثم مده لي. . مرت تلك العملية بدون أدنى صعوبة تذكر. والفضل كله يرجع إلى الشاوي الذي غامر بحياته لينقذ تلك الحمامة البئيسة. فلو قدر له وزلقت إحدى رجليه فسقط من فوق الباب وهو على ذلك الهزال الشديد، لكان أمره حتماً مقضياً. لما انصرف الحارس، أخذت طائري وأشبعته لمساً وتقبيلاً ثم أطعمته

وسقيته وأخرجته بعد ذلك إلى الدهليز للقاء أصدقائه المتشوقين الذين خصصوا له استقبالاً حماسياً حاراً.

وبعد مرور أيام قليلة، عاودت الكرة فأطلقت سراحه من جديد بواسطة مكنسة قديمة وضعته فوقها وسربته بها من خلال الشباك في لحظة كان فيها باب زنزانتي نصف مشرع وقت تفريق الطعام. ومرة أخرى، جاءت الاحتجاجات عنيفة من بعض الأصدقاء، فقال لي أحدهم معاتباً:

ـ لمذا تعاند وتصر على طرده وهو الذي اختار عن طواعية أن يشاركنا هذا المصير؟

فقلت مدافعاً عن حرية طائري:

ـ إن عظة الجوع هي التي أرجعته.. كونوا منطقيين، هل يوجد في هذا الكون مخلوق واحد يؤثر السجن على الانعتاق؟

في ذلك اليوم، سمعنا حركة غير عادية للحمام فوق سطح الدهليز: تصفيق أجنحة، وهديل مزمجر، وارتطامات هنا وهناك، ثم ريش أبيض تطاير ودخل علينا بعضه من الكوات الموجودة في سقف الزنازين. لقد رفض شعب الحمام الساكن فوق السطح حمامة أجنبية فيها رائحة الآدميين نزلت بجوارهم، فهاجموها وطردوها شر طردة. أي حظ عاثر خبأته لك الأيام يا فرج؟ لقد رفضك أبناء ريشك كما رفضنا نحن أبناء جلدتنا. ناديت طائري أؤازره وأرفع من معنوياته وقد هالني أن تكون تلك العدوانية حتى في الحمام، فقلت كمن يخاطب إنساناً فوق السطح:

ـ اثبُت يا صغيري اثبُت.. دافع عن نفسك بكل ما أوتيت من قوة واعلم أن كفاحك من أجل حريتك وكرامتك لن يكون سهلاً هيناً. الصمود يا عزيزي الصمود.

مرّ يوم وليلة دون أن نرى لفرج أثراً. فتصدى لي أحد الأصدقاء غاضباً وقال معاتباً:

ـ قد تكون حمامتنا ماتت من الجوع والعطش، أو لربما قتلها الحمام الساكن فوقنا، وفي كلتا الحالتين، فأنت المسؤول الأول عن مصيرها المؤلم الحزين..

وفي الصباح التالي، وعلى حين غرة، ظهر فرج على حافة السطح قبالة باب زنزانتي كما فعل في المرة الأولى. فشرع يحاول يائساً أن يرجع إلى الزنزانة. فانتظرنا حتى قدم الحراس. ومرة أخرى خاطر عبد الكريم الشاوي فأرجعه إلى داخل الدهليز ثم سلمه لي.

كانت حمامتي المسكينة مريشة مجروحة جائعة عطشانة متعبة. فقد بذلت جهداً كبيراً للتأقلم مع أبناء جنسها ولكنهم رفضوها ثم طردوها بمناقرهم الغاضبة..

ومن يدري؟ فقد يكون والداها اللذان تألما لفقدانها هما أول من ساهم في ذلك الهجوم الغاشم.

أسبوع بعد ذلك، كانت المحاولة الثالثة الناجحة لإطلاق سراح فرج.

مرت أربعة أيام سراعاً فطال عليّ الأمد ولم يظهر هذه المرة لحمامتي أثر. فتمنينا من الأعماق أن تكون قد تصالحت مع أهلها ووجدت سبيلها أخيراً إلى حياة طبيعية سعيدة. كنا ونحن في أحلام اليقظة، نجد نشوة كبيرة حين كنا نغمض أعيننا ونتخيل أنفسنا حماماً يطير كما يطير فرج.. آه.. ما أجمل التحليق في فضاء الله النقي الواسع الشاسع تحت نور الشمس الذهبية الدافئة وفوق بساط أخضر من غابات مترامية الأطراف. ما أروع ذلك العالم الخالي من الحواجز والحدود والأسوار والشبابيك والأقفال والجلادين والضغائن

والأحقاد. أي سعادة سيشعر بها فرج حين سيكتشف هذا الفضاء اللانهائي الذي يمتد أمامه شفافاً شاسعاً فسيحاً مفرطاً في الروعة والجمال؟ لا شك في أنه سيدرك ساعتها كم كان تعساً بائساً مغبوناً شقياً في ضيق تلك الزنزانة الباردة المظلمة التي كانت إلى حين قريب هي كل عالمه ودنياه. تلك الزنزانة الحزينة التي ترك فيها روحاً شقية كم كان بودها لو ملكت مثله جناحين بهما تطير.

وفي مساء اليوم الرابع، سمعنا محمد العفياوي يصيح وهو الذي عودنا ألا يتكلم إلا في المناسبات النادرة جداً:

ـ أيها الأخوة، لقد عاد فرج.

تسارعنا إلى نويفذة الباب وأنفاسنا متلاحقة لمشاهدة العائد الأحمق. فقلت له وأنا أراه أمامي يغدو ويروح فوق شباك الدهليز محاولاً التسلل إلى الدهليز:

ـ ماذا تريد؟ أيها الأخرق العنيد؟ هل جننت إلى الحد الذي أصبحت فيه تفضل العيش في الضيق والعتمة مع هؤلاء الأشباح على حياة الحرية والانطلاق؟

طال الوقت وباءت محاولاته كلها بالفشل الذريع، فشرع الأصدقاء يتحدثون إليه مشجعين ومقترحين عليه الحلول وكأنه بشر مثلنا يدرك ويعي ويفكر:

ـ تشجع يا عزيزنا الصغير. . لا تبدأ كعادتك بإدخال رجليك في المربع. أدخل رأسك أولاً واضمم جناحيك إليك وسينتهي الأمر بسرعة.

وكأنما الشقي انتهى بفهم نصائح أصحابه، فأدخل رأسه بين القضبان، وبكيفية انتحارية ألقى بنفسه في خواء الدهليز، فحط بسلام على عتبة الزنزانة رقم 10 تحت تهليل وهتاف كل السجناء المتأثرين. لقد كان المسكين متعباً محطماً ففشل مرّات عديدة قبل أن يحط على

يدي الممدودة إليه من خلال نويفذة الباب، تأثر بعضنا تأثراً بليغاً لذلك فسمعت أحدهم وهو يجهش خفية بالبكاء. وهكذا رجع فرج إلينا مرة أخرى، فتابعنا معه مسيرة الحياة في ذلك الجحيم ونحن في غمرة من سعادة أنسانا فيها أنفسنا وما كنا عليه من شظف العيش وشقاوة الحال. فإذا به يتمرد ذات يوم تمرداً خطيراً في الدهليز حين أبى أن يدخل إلى زنزانتي ساعة قبل قدوم الحراس، وقد كان يقضي كعادته سويعات في مداعبة السجناء والطيران الجذلان. لم يعد فرج يطيق تلك اللحظة التي كانت أخبئه فيها تحت علبة «الكرطون» ساعة وجود الحراس في العنبر. وقد حاولت معه بكل الوسائل من دون جدوى. وسلمته ذات مرة إلى أحد جيراني لأفهمه أن مصلحته تقتضي تخبيئه في ساعة معيّنة وأن الأمر سيان في هذه الزنزانة أو تلك. أفلحت بشق الأنفس تلك المرة أن أسترجعه. لكني قررت على الفور أن أطلق سراحه في أقرب فرصة ممكنة سيما وأنْه كان قد استرجع عافيته وأصبح ينفخ صدره مزهواً بفحولته مفتخراً بجماله. وقد كان أخوف ما كنا نخاف عليه هو سذاجته الكبيرة وثقته المطلقة بالبشر. فمذا سيحصل لو عامل الناس كما كان يعاملنا وحط ببراءته المعهودة على كتف أول عابر سبيل؟

وفعلاً، سنحت الفرصة ذات صباح، فلمست بحنو وحنان ريشه الجميل وقبلته قبلات حارة ملتاعة ردها لي بنقرات على ذقني وجوزة عنقي ثم وضعته فوق المكنسة القديمة وسللته من بين قضبان الشباك خارج الدهليز، وقلت له بحزن من يودع ابناً مهاجراً إلى المجهول:

ـ حظ سعيد يا صغيري العزيز.. وداعاً يا فرج.

ـ في الأيام الآتية عشنا ترقباً فظيعاً ونحن نتوقع رجوعه من حين إلى آخر. لكن بعد مرور أسبوع تيقنا أنه رحل عن معتقل الموت إلى الأبد. وتلاحقت مسيرة الأيام الحزينة برتابة دقات الساعة، فمر شهر

من الزمن، وذات يوم لن أنساه من عمري أبداً، سمعت صديقي عبد الله أعكاو، يصرخ مبتهجاً وكأنما أخبر بإطلاق سراحه:

ـ لقد عاد فرج.. أتسمعونني أيها الأخوة؟ والله لقد عاد فرج.

عاد طائري العزيز كما عاد في المرات السابقة.. ولكنه لم يكن وحيداً هذه المرة: حط كعادته على حافة السقف قبالة الزنزانة رقم 10، ونظر إليّ طويلاً ليثير انتباهي إلى حمامة جميلة هيفاء برأس صغير وريش رمادي لماع وقفت بجنبه ولسان حاله يقول:

ـ هذه حبيبتي فباركها لي وباركني لها يا أبتاه.

كبر فرج وامتلأ وكسب ثقة وزاد بهاء. لم يحاول أن يدخل كما كان يملي عليه ذلك حمقه القديم، بل وقف وقد انتفخ صدره فرحة وسعادة وخيلاء وهو ينظر إليّ طويلاً ثم يحرك رأسه يمنة ويسرة فيعود لينظر إلي. ولما اشتد صخب الأصدقاء وهم في غمرة فرحتهم ينادون من كل جهة عليه، خافت خطيبته فطارت، وبقي هو معنا هنيهة قبل أن يطير ليلتحق بها. فقلت له وأنا أودعه:

ـ بارك الله قرانك يا عزيزي.

بنى فرج عشه مع رفيقته الجميلة قبالة الزنزانة رقم 10. فباضا وفرخا ثلاث مرّات. ورغم الذهول العظيم والتأثر العميق اللذين أحسست بهما يوم الأحد 15 أيلول/ شتمبر 1991 وأنا أغادر الزنزانة التي قضيت فيها ما يزيد على ثمانية عشر سنة، لم أملك نفسي وأنا أرفع رأسي إلى السقف وأغمغم بصوت مختنق:

ـ وداعاً يا صغيري العزيز.. وشكراً.

لا شك أن الحراس الذين كانوا بجنبي وقتئذٍ اعتقدوا أنني جننت.

(نشر هذا الفصلُ باللغة الفرنسية في مجلة «لطون موديرن» عدد 565-566، آب/ غشت ـ أيلول/ شتمبر 1993).

الخروج من تزممارت

في شهر حزيران/ يونيو من سنة 1991، روج بعض الحراس إشاعة مفادها بأن بعض نزلاء العنبر الأول سيرحلون إلى العنبر الثاني ليتكافأ عدد السجناء بين العنبرين. قضت مضجعنا هذه الإشاعة وزرعت في نفوسنا الرعب والهلع. فاحتمال وقوع هذه المصيبة كان معناهً بالنسبة إلينا، موت بشع محقق في ذلك العنبر الذي كنا نسميه بحق آكل اللحوم البشرية. لقد كنا منذ أمد بعيد على علم مدقق بالكارثة التي حلّت بأصحابنا في العنبر الثاني. لهذا كنا على استعداد كامل لو كان الأمر بأيدينا للتنازل عن كل ما بقي لنا من الحياة لكي لا نغادر زنازيننا. فقد كان يخيّل إلينا أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كياننا. فهي التي كانت مسرحاً لمحنتنا، وتشبعت جدرانها بأنيننا وتوجعاتنا بل وحتى بقهقهاتنا، وتناثرت على أرضيتها قطرات دمائنا وحبات دموعنا وعرقنا، وكان الشاهد الصامت على كل معاناتنا، وإذا كنا لا بدَّ ميتين فلنمت إذاً فيها. ولكن الله سلم. . ففي إحدى الأمسيات الصيفية الحارة، زف الحراس إلينا بشرى سعيدة وضعت لترقبنا الرهيب حداً، وذلك حين أخبرونا بأن كل نزلاء العنبر الثاني سيرحلون على عكس ما كان يروج إلى العنبر الأول. فكانت الفرحة فرحتين، فرحة البقاء في أماكننا والنجاة من جحيم العنبر الثاني، وفرحة اللقاء بأصدقاء أعزاء بعد فراق دام ما يقرب من عقدين من

الزمن. في ذلك اليوم، قرر الحراس بالإجماع فتح أبواب كل الزنازين والسماح لنا بالتجول في جنبات الدهليز الطويل. وقد كان هذا امتيازاً نادراً لم نكن لنحظى به إلا في مرّات قليلة حين كان الحارسان الطيبان محمد الشربداوي والعربي أمزيان يأخذان مبادرة منحنا إياه كلما سمحت لهما به الظروف. كان بعضنا يطلق رجليه ويمشي متكئاً على الجدار مشية مشوهة كانت أقرب إلى زحف الدينصورات منها إلى مشي آدمي، وبعضنا الآخر لم تسعفه رجلاه فاكتفى بالجلوس على عتبات الزنازين معلقاً على الحدث. أما نصف لمشلولين من الذين كانوا مرشحين للموت، فقد بقوا مسجين على دكتهم يتحدثون بصوت مرتفع لتكسير جدار الصمت الحائم حولهم.
كنا نبدو حقاً كأشباح تائهة في مغارات مظلمة يرجع تاريخها إلى ما قبل التاريخ، بل لربما كأموات بعثوا فجأة من قبورهم الرطبة الباردة، فانتشروا يبحثون عن شيء من دفء آدمي يسكنون به أوجاع عظامهم المسوسة. من كان يصدق آنذاك أن عقارب الزمن كانت تسارع الحقب في سباق محموم لتعانق رقم 21 من عمر القرون التي انفرطت بعد ميلاد المسيح؟ بلغ الترقب منا مداه حين قدم الحارس «السر فر» يجري طالباً منا شيئاً من الصمت. وفجأة، ظهر على عتبة مدخل العنبر شبح. شيخ قصير محدودب الظهر، مجعد الوجه برأسه صغير أصلع، وفم أدرد كفم الرضيع، وعينان غائرتان ناطقتان بالرعب، كان بياضهما الملوث يبعث القشعريرة في الجسم كلما مال مع نظراته الزائغة شمالاً ويميناً. كان الشبح يتقدم إلينا متكئاً على عكاز رقيق رقة ذراعيه المعروقتين اليابستين ويحمل فوق ظهره المقوس لحافاً قذراً كوم فيه كل أسماله المهترئة الموروثة من العنبر الملعون. تحلقنا جميعاً حوله وشرعنا نحملق في وجهه باستغراب وكأنه مخلوق عجيب قُذف إلينا من كوكب بعيد. ولما عجزنا أن نعطيه اسماً من بين أسماء

السجناء الذين بقوا على قيد الحياة في العنبر الثاني، دهشنا ونحن نراه يبتسم لنا فجأة ويقول لنا بصوت واهن:

ـ السلام عليكم. . مساء الخير أيها الأصدقاء.

صاح صوت من بيننا:

ـ إنه الداودي أيها الأخوة. . الداودي عبد العزيز.

رد أحدنا مكذباً:

ـ أبداً، يستحيل أن يكون هذا هو الداودي.

ولكن الندبة التي كانت على أرنبة أنفه والتي عرفناه بها منذ القديم لم تدع لنا أي مجال للشك. نطح الشاوي الجدار برأسه كمداً ثم غطى وجهه بيديه وأجهش بالبكاء وهو الذي كان يعد من أقوى السجناء شكيمة. وتسارع الأصدقاء يضمون الوافد الجديد إلى صدورهم وأعينهم تفيض دمعاً حارقاً. أي مسافة شاسعة وهوة سحيقة تفرق بين الشاب الوسيم ذي القامة المديدة الذي كأنه الداودي وهذه المومياء القادمة إلينا من مستودع أموات الفراعنة؟ قال صاحبنا برنة افتخار وكأنه لم ينتبه للوقع الذي خلفه في أعماقنا منظره المشوه:

ـ ألا ترون؟ لقد صمدت يا إخواني. نعم، صمدت في وجوه الجلادين القتلة. وها أنتم ترون أني قد استطعت القدوم راجلاً من العنبر الثاني إلى هنا. أما أصدقائي المساكين فهم في حالة مزرية من الوهن الشديد.

أطل الشبح الثاني على عتبة الباب خائراً منهوك القوى وقد تدلت رجلاه في الهواء وهو يتكأ بإبطيه على أكتاف حارسين: إنه عبد العزيز بين بين. تعرفنا إليه منذ الوهلة الأولى. فرغم شحوبه المهول وكثرة تجاعيده العميقة لم يفقد محياه من ملاحته القديمة شيئاً. ولكنه لم يعد سوى جسم مشوه بركبتين مثنيتين دائماً وصدر مدفوع إلى الأمام لا يقوى على الوقوف إلا متكئاً بيده على عكاز. كان الشيب قد كسى

فوديه وبدت عيناه الغائرتان نصف مغمضتين وكأنهما كانتا تتعرضان لضوء قوي باهر. وظهر الشبح الثالث. كان أشبه ما يكون «بالمهاتما غاندي» مع زيادة في الهزال وكثافة في الشعر وطريقة مغايرة في اللباس. فقد كان يرتدي سروالاً ممزقاً قديماً قص أكمامه بكيفية رديئة فبدا وكأنه تبان مهترئ أخرجه من ركام مزبلة عتيقة. أحدث منظره في قلوبنا صدمة أخرى مزلزلة.

إنه بوشعيب سكيبا.. كانت مشيته المبعثرة المشتتة مشية دينصور أعرج. فقد كان يسير راكعاً بخطوات صغيرة متعثرة كانت تتحرك فيها كل أجزاء جشمه بكيفية غريبة غير متناسقة، بينما كان نصفه العلوي يشكل مع نصفه السفلي زاوية قائمة تدلت قبالتها لحية طويلة كثة وشعر كثيف مهول كاد يلمس من شدة طوله الأرض لمساً.

وجاء دور الشبح الرابع والأخير. إنه غاني عاشور، أكبر المعتقلين سناً. كان الشيخ العجوز ينظر حوله متوجساً مذعوراً وهو يبدو على خلاف أصحابه الثلاثة منفوخاً كبالون من شدة البرد الذي سكنه. انتفخت قسمات وجهه، وظهرت مقدمة رأسه عارية براقة من أثر الصلع الذي أكل شعره ولم يترك منه سوى خصلات حليبية طوقت قفاه وغطت أعلى أذنيه.

كان الأربعة الناجين من جحيم العنبر الثاني في غاية التعب والوهن، ولكن كم كانت ملامحهم الشقية تشرق بالسعادة العظيمة والحبور العميق وهي تعانق هذه الوجوه المتعاطفة التي غابت عنها ما يقرب من ثمانية عشرة سنة مع أنها لم تكن سوى على بعد أمتار قليلة منها. بعد خمس دقائق من هذا اللقاء المثير، جاء الحراس وأدخلوا القادمين الجدد إلى الزنازين الفارغة ثم أمرونا أن نرجع إلى أماكننا وأغلقوا جميع الأبواب ثم انصرفوا.

في ساعة مبكرة من الصباح التالي، استيقظنا مذعورين على

صخب أحدثه سجين اتخذ من الباب دفاً فشرع يضرب عليه بإيقاع موزون وهو يغني بصوت مرتفع ويطلق زغاريد ملعلعة مقلداً بها أجواء الأعراس والأعياد. إنه القادم الجديد بوشعيب سكيبا الذي أسكنه الحراس في زنزانة المرحوم الديك الجيلالي فتابع نشاطاً كان قد واظب عليه في العنبر الثاني. كان بوشعيب قد صدم بفعل ما عاناه صدمة قوية ارتج لها عقله ارتجاجاً كبيراً. وكان صعباً علينا أن نجعله يلتزم منذ البداية بقانون صارم كنا قد فرضناه على أنفسنا في العنبر الأول فرضاً، فتحلينا بالصبر وعاملناه بالحسنى حتى اندمج معنا مع مرور الوقت اندماجاً كاملاً.

أنزلنا أصحابنا الأربعة منا منزلة متميزة جداً. فكان الجميع يسارع إلى إرضائهم والتعبير لهم عن تضامنه ومودته واضعاً نفسه رهن إشارتهم في أي خدمة يطلبونها أو رغبة يظهرونها. وكان يسعدهم كثيراً ويدفئ قلوبهم ويجعلهم يحسون بأنهم تركوا الأسوأ والأقبح وراء ظهورهم وجاؤوا لينعموا معنا بالسيء القبيح. وكم كنا نتحسر على الإخوة بوركات الذين عزلهم المدير في العنبر الثاني ظلماً وعدواناً ونود لو أنهم كانوا معنا حتى نؤازرهم ونخفف من معاناتهم سيما وأنهم كانوا جميعاً على شفا جرف هار.

في الأسابيع التالية، كنا نقضي وقتنا في الاستماع إلى أصدقائنا الأربعة وهم يقصون علينا مسلسل المصائب التي ألمت بهم. فحكى لنا «بين بين» كيف قضى ما يزيد من عشر سنوات وهو يعيش في فصل الشتاء مستنداً إلى باب زنزانته الحديد البارد، بعدما كانت تسربات الأمطار تكسو أرضية زنزانته ولا تترك منها سوى تلك الرقعة الصغيرة بمحاذاة الباب. كم من مرة توسل إلى الحراس أن يغلقوا شقوق السقف؟ وكم من مرات توسل إلى السفاح فريح أن يرحله من ذلك المسبح العكر؟ ولكن كل توسلاته كانت تذهب مع الريح سدى.

وحكى لنا الداودي من جهته أنه رغم صحته المتردية، أرغمه واجب التضامن أن يتوسل إلى الحراس ليرحلوه إلى زنزانة صديقه «بن دورو» الذي كان يحتضر وحيداً في الصمت واللامبالاة.

فقال لنا وهو يصف محنة رفيقه:

ـ أتتصورون كيف انقلب حال القبطان «بن دورو» أيها الأخوة؟ القبطان القوي الوسيم الصحيح الذي كان له جسم الملاكم محمد علي كلاي؟ لقد استحال في آخر أيامه في حزمة عظمية ملفوفة في كيس جلدي متعدد الثقوب بفعل حروشة الأرض. ففي اليوم الذي لقي فيه ربه، (5 آذار/ مارس 1991)، استرجع لهنيهة قصيرة رشده، وطلب مني أن أحمله من أرضية الزنزانة إلى الدكة. وبعد مجهود كبير قمت به وإياه، انهارت قواي فجأة في اللحظة التي لم تكن تفرقني عن وضعه فوق إسمنت الدكة سوى سنتيمترين أو ثلاثة، فسقطت أنا الأول، وسقط هو فوقي، وبقينا على ذلك الحال إلى أن جاء حارس فأعانني على تلبية طلب رفيقي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة هنيهات بعد ذلك.

مآسٍ يومية مروعة عاشها أصدقاؤنا التعساء المساكين في اللحظة نفسها التي كان فيها المدير السكير يعيش غير عابئ بلياليه الحمراء الماجنة في مقر سكناه المريح الموجود على بُعد عشرات الأمتار فقط من جحيمهم الدنيوي.

مرت بضعة أسابيع على قدوم أصدقائنا الأربعة، فإذا بالحراس يفتحون الأبواب علينا ذات صباح ويأمرون أن يفترق الطيارون من المشاة بشكل يجعل هؤلاء يسكنون على صف واحد في الجهة الشرقية وأولائك في زنازين الجهة الغربية المقابلة. أثار فينا هذا الأمر كثيراً من الشكوك، خصوصاً بعدما لاحظنا تغيُّراً طارئاً في تصرفات الحارس. فرجحنا جانب التفاؤل واستبشرنا خيراً. وكيف لا

وقضية تزممارت كانت حديث الساعة في كثير من المحطات العالمية، وبالخصوص، إذاعة فرنسا الدولية التي بدأت تخصص لها حيّزاً مهماً في كثير من نشراتها. فقد أصبحنا من كثرة الإدمان على هذه المحطة نعرف كثيراً من أسماء مذيعاتها كموربيل بونبون وكارمن بادر وسانطرو وغيرهن. إضافة إلى ذلك، كنا قد سمعنا بكثير من التأثر صوت الكاتب الفرنسي جيل بيرو وكريستين السرفاتي وهما يدافعان عنا بحرارة منقطعة النظير. وقد أدَّت هذه الأخيرة دوراً حاسماً في قضيتنا إلى درجة أنها جعلت من إطلاق سراحنا مسألة مصيرية بالنسبة إليها. وينبغي أن أعترف هنا بكثير من الامتنان بأننا إذا كنا ننعم اليوم باستنشاق الهواء النقي، فالفضل كل الفضل يرجع إلى الله أولاً وإلى كل الشرفاء ثانياً من المدافعين عن حقوق الإنسان خارج الوطن وداخله.

تسبب لبعضنا هذا الرحيل داخل العنبر في مشاكل عديدة، بينما نزل على بعضنا الآخر برداً وسلاماً. فكان منا مثلاً من بدأ الحفر بمجرد نقله إلى زنزانة صديقه ليصنع لنفسه مخبأ يخفي فيه «نفائسه» وجهاز ترانزستوره. في حين وجد صديقه الكسول كل الأمور معدة في زنزانته الجديدة. ومنذ ذلك الحين، تلاحقت الأحداث بسرعة مفرطة. فقد أعطت الشرارة الأولى تلك الرسالة التاريخية المفتوحة التي كتبها المناضل أبرهام السرفاتي ورفاقه من سجن القنيطرة يطالبون فيها بإطلاق سراحنا. لقد كانت أمراً عجيباً حقاً.. معتقلون في سجن بثلاثة نجوم يطالبون بالإفراج عن أموات أحياء في مغارات منسية لا نجوم لها ولا تصنيف في المعتقلات الوطنية، بينما المترهلون ذوو البطون المندلقة والعجائز المشحمة يصرون على أن تزممارت لا وجود لها إلا في خيال أعداء وحدتنا الترابية. ثم جاء إطلاق سراح أبرهام السرفاتي نفسه مع رفاقه ليملأ قلبنا بشحنة قوية من الفرحة

والأمل. تبعه بعد ذلك الإفراج عن عائلة الجنرال محمد أوفقير.. فلم يبق إذاً سوى نحن مع عدد من المفقودين ومجهولي المصير. غير أن تفاؤلنا سرعان ما كان يتلاشى عندما كنا نسمع تصريحات قاطعة من بعض المسؤولين الناكرين لوجود تزممارت.

ولا زلنا إلى اليوم نذكر جواب السيد فيصل الخطيب، أحد البرلمانيين المغاربة، حين سأله صحافي في إذاعة صوت أميركا عن تزممارت فقال:

«هذا المعتقل المزعوم لا يوجد إلا في خيال أعداء ديمقراطيتنا».

بيد أنه في يوم الأحد 15 أيلول/ شتمبر 1991، وبينما نحن نتهيأ لاستقبال يوم حزين بئيس ممل كسائر السبعة آلاف وأربع مئة وثلاثة أيام التي قضيناها في السجن، وبينما آلة الموت الفتاكة تشحذ سكاكينها البتارة استعداداً لقطع أعناق ثلاثة أصدقاء كان المرض قد رشحهم رسمياً لحفر الجير، إذا بالحراس يدخلون علينا كما دأبوا أن يدخلوا قرابة خمس قرن من الزمن، ولكن عوض أن ينصرفوا بعد تفريق الماء والطعام، لازموا العنبر على غير عادتهم فتوجه أحدهم إلينا بصوت عال وقال ببساطة مدهشة:

ـ اجمعوا حوائجكم ولا تتركوا أي شيء يسقط على الأرض. من أجل مصلحتكم ومصلحتنا جميعاً نهيب بكم أن تحطموا كل شيء مشبوه ينهى عنه القانون.

دقت قلوبنا بسرعة طبول الحرب. وأحسسنا بانفعال عنيف أضرم النار في كل ذرة من كياننا وجعل أدمغتنا تدور بسرعة الصاروخ في دوامة غامضة من أحاسيس مبهمة متناقضة: هل سيكتب لنا أخيراً أن نجتث من هذه القبور الباردة لنعانق الحياة، أم أننا سنخرج منها لنعانق الفناء بعد أن تتم تصفيتنا في الصمت والخفاء؟

كيفما كان الحال فالأمر سيان. اليوم هو يوم خلاصنا.. حتى ولو افترضنا أننا سنعدم، فالموت الفجائي نعمة سابغة وبذخ كبير في تزممارت.

كان أول ما فعله الحارس مولاي الطّا، أو السّر فّر، هو أنه اغتنم الفوضى التي كانت تعم في الدهليز، فبدأ يقفز من زنزانة إلى أخرى متوسلاً إلى السجناء أن ينفحوه بالأوراق المالية التي كانوا يخفونها في مخابئهم. كان الطماع البئيس وهو على حالته تلك، يثير فينا السخرية والشفقة. فرغم تلك اللحظة الدقيقة الحساسة التي كنا نعيشها بجوارحنا المتحفزة، استطاع أن يغتصب منا بسمة متشنجة وهو يعترف لنا بوقاحة مضحكة: «والله إنها لمصيبة. لست أدري ما أنا صانع بعدكم؟».

فرحة قوم عند قوم مصائب.. كان السر فر على صواب فعلاً.. فبعد شهور قليلة من إطلاق سراحنا، أدخل إلى السجن لإصداره شيكات بدون رصيد.

ومن أجل إبداء نوع من التعاطف المنافق، تشجع بعض الخبثاء من الحراس على غير عادتهم وهمس في أذن بعضنا بأنهم بصدد انتظار قدوم لجنة عسكرية مهمة ستتكفل بنقلنا من تزممارت إلى جهة غير معروفة. عج الدهليز بالحركة، وعرف ذلك الصباح المشهود نشاطاً محموماً. كان السجناء غير مصدقين.. يغدون ويروحون كأشباح مذعورةٍ وهم يحملون ركام حوائجهم القذرة ليلقوا بها في زنزانة خصصت لهذا الغرض. وبعد لحظة، شرع الحراس يسلمون كل واحد منا بذلة عسكرية جديدة مع قميص وأحذية رياضية بيضاء. ولما حان الزوال، دغدغ أنوفنا المحرومة عبق طعام لذيذ أعلن عن قدومه من بعيد.. قطعة لحم كما لم نحلم بها إلا في هلوسات جوعنا الأزرق، وقطع كثيرة من البطاطيس مع كمية هائلة من الزيتون الأخضر

المجرد من العظم. مائدة سقطت علينا من السماء، فالتهمناها بسرعة فائقة كما تلتهم الكواسر الجائعة فريسة غضة طرية. وبعد الغذاء مباشرة، واصلنا إخفاء «مكتسباتنا» البئيسة تحسباً لكل الطوارئ. فالتجربة علمتنا ألا نتوقع إلا الأسوأ. وفي حدود الساعة الثالثة بعد الزوال والأبواب علينا موصدة، سمعنا وقع أقدام غريبة علينا تدخل إلى العنبر، وبأصوات أشخاص تهمس أكثر مما تتكلم وكأنها كانت تتشاور في أمر خطير. أصخنا بسمعنا كالهرر المتحفزة المستنفرة، وركزنا حواسنا كلها على أدنى ذبذبة تصدر عن هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا ليقرروا مصيرنا.. تلاحقت أنفاسنا.. جفت حلوقنا.. دقت قلوبنا ونحن ننتظر حكم القدر علينا..

وفجأة.. احتدم الترقب واشتدت الإثارة ونحن نسمع صوتاً مرعداً فيه علو وغطرسة يصرخ بلهجة باترة:

ـ افتحوا هذا الباب!

ـ جعجع باب الزنزانة المتصدئ ممزقاً رداء الصمت الذي كان جاثماً فوق صدورنا كأطنان من الحجر:

ـ تقدم هنا.. ما اسمك أنت؟

ـ...

ـ رتبتك؟

...

ـ بكم حكم عليك؟

ـ...

ـ هيا، اخرج من هنا.

كان الصوت المرعد صوت العقيد الدركي «فضول» ذي القاع والباع في معالجة ملفات الأقبية والسراديب..

جاء ليأخذنا من تزممارت وهو برتبة عقيد بعدما رمانا فيها ولم

يكن سوى برتبة ملازم. بعد تفتيش دقيق للقبطان عبد اللطيف بلكبير الذي كان أول من دشن هذا المسلسل المثير، سمعنا الصوت المرعد يزداد هيجاناً وهو يلاحظ أن صديقنا لا زال يلف حول خصره حزاماً مبطناً ممضياً بيد «المعلم» حميدة، أحد مصممي الأزياء المشهورين في تزممارت.

ـ يا جماعة الأنذال! ألم أقل لكم بأني لا أريد أن تحتفظوا بأي أثر لتزممارت؟

أخذ الحراس يركضون مذعورين في كل الاتجاهات، ثم شرعوا يتوسلون إلينا همساً عبر النويفذات المفتوحة كي نمتثل لأوامر العقيد. ولكن التخلص من هذا الحزام كان يمثل بالنسبة إلينا جميعاً خطراً كبيراً محققاً، وكيف لا وهو الذي كان يمد أحشاءنا المريضة بشيء قليل من الدفء. وبعبارة أوضح، لو سافرنا بدونه فهات يا قيء وهات يا إسهال. وهكذا بدأ السجناء يغادرون زنزاناتهم الواحد تلو الآخر. فكانت كلما فتحت زنزانة تصدر العقيد القصير تلك الجماعة من الغرباء، وسلط ضوء مصباحه الكهربائي القوي الكشاف على وجه السجين فيبهره ثم يثبت نظراته الثاقبة على عينيه نصف المغمضتين ويطرح عليه الأسئلة نفسها. وقد كان الآخرون من ورائه يكتفون بالحملقة الممتعضة، رافعين حواجبهم تارة وماطين شفاههم أطواراً أخرى معبرين بذلك عن تقززهم العميق من منظرنا.

وبعد تفتيش دقيق من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، اقتادونا واحداً بعد آخر إلى عتبة باب العنبر حيث عانقت عيوننا للحظة خاطفة من الزمن، رقعة عريضة من سماء زرقاء كانت في منتهى الصفاء والبهاء. بعدها مباشرة ألبسنا الحراس جلباباً عسكرياً ثم عصبوا أعيننا بإحكام ووضعوا القيود في أيدينا، وزادوا فغطوا رؤوسنا «بالقب» حتى كادوا يخنقون فينا الأنفاس، ثم أخرجونا إلى الساحة حيث

أصعدونا أربع أو خمس درجات لنأخذ مكاننا على كراسي خشبية صلبة في شاحنتين للدرك، جلس فيهما كل سجين محاطاً بدركيين مسلحين. أما من كان لا يستطيع الحراك منا كالإخواة بوريكات، فقد مددوهم على ناقلات ووضعوهم بين صفي الراكبين في وسط الشاحنتين بعد أن عصبوا أعينهم وقيدوا أيديهم وألبسوهم مثلما ألبسونا، وكأنما كانوا يخشون من هؤلاء المشلولين أن يلوذوا بالفرار. منتهى السخافة. دامت هذه العملية المضنية ما يقرب من أربع ساعات لم نكن نسمع فيها إلا صوت «فضول» المرعد وهو يزرع الرعب في قلوب الدركيين والجنود بأوامره الشاتمة. وقد تأسى به أحد الدركيين ونحن في الشاحنة حين سأله أحدنا أن يخفف عنه عقدة العصابة المشدودة بقوة على مؤخرة رأسه فقال له شاتماً:

ـ سكوت لدين مك ولا نوريك.

انتهى عذاب الانتظار أخيراً وبدأ عذاب الرحيل في زوبعة من أصوات المحركات التي لم تستطع أن تحجب رغم ضجيجها الكبير صوت فقيه «الدوار» وهو يأذن لصلاة المغرب.

ـ الله أكبر! الله أكبر!

ـ فعلاً، الله أكبر، الله أكبر تكبيراً لا حدّ له ولا عد ولا بداية ولا نهاية.. فأي كبير أكبر من هذا العظيم الرحيم الذي فتح علينا هذه القبور الباردة المنسية بعدما أريد لنا أن نسام فيها محنة لا يُقضى علينا فيها فنموت ولا يخفف عنا من عذابها شيئاً؟

ـ قرأت في سري كل الأدعية التي كنت قد حفظتها فارتحت وأنا أردد دعاء نبوياً شريفاً وجهته تحية وداع إلى تزممارت:

ـ يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله منك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك.. في هذه الساعة بالذات، ذهب خيالنا مباشرة إلى أصدقائنا الراحلين الراقدين تحت ركام الجير على

بُعد أمتار قليلة من الشاحنات. نبعت من قلوبنا صلوات خاشعة ودعونا لهم بالرحمة والمغفرة في الوقت الذي تحركت فيه القافلة خارجة من ساحة الجحيم بأزيز محركاتها الذي ضاعفت صداه أسوار تزممارت الخرساء.

في الكيلومترات الأولى من السفر، تعذبنا عذاباً مبرحاً من جراء الاختناق والجمود والاهتزازات الكثيرة للشاحنتين اللتين قطعتا مسافة غير قصيرة في طريق غير معبد مليء بالحفر والأحجار. وقد كانت تلك الاهتزازات المتواصلة تتسبب في احتكاك عظامنا المجردة من اللحم بخشب السيارة الصلد فحاولنا أن نداري ذلك بقراءة القرآن وبتمنية أنفسنا بإطلاق سراح وشيك، ولكن الألم كان أكبر من صمودنا فتعالى الأنين وارتفعت التوجعات وأصبح بعضنا على وشك فقدان وعيه في تجاهل تام لرجال الدرك. ولما اندفعت القافلة أخيراً في الطريق المعبد، أحسسنا براحة نسبية لم تكن تعكرها سوى مرور العجلات بين الفينة والأخرى على حفرة أو مسنم. وفجأة، وبسرعة غير متوقعة، زاغت الشاحنة عن الطريق يميناً ثم شمالاً ثم يميناً ثم شمالاً وهي تهدد بالانقلاب في كل ثانية. في رمشة عين، اختلط رجال الدرك بالسجناء، فسقط أولائك بأسلحتهم وجثثهم الضخمة على هياكل هؤلاء العظمية فكادوا يسحقونها بثقلهم سحقاً. أما من كانوا ممددين على ظهورهم فوق الناقلات فقد أحسوا وكأن السقف قد خر من فوقهم لما هوى الجميع عليهم. في تلك اللحظة الدقيقة الخطيرة، كان أول ما تبادر إلى أذهاننا هو أننا سننتهي في قاع واد سحيق تحت غطاء حادثة سير مفتلعة يطوى بها ملف تزممارت بكيفية نهائية. غير أن السائق استطاع أن يسترجع السيطرة على شاحنته بعد لحظة من التخلخل ويعيدها إلى الطريق، فتابع طريقه وكأن شيئاً لم يكن.

ـ ماذا وقع؟

لم أعرف السبب إلا بعد سنة أو يزيد، وذلك حين التقيت بالمسؤول الدركي الذي كان راكباً بجوار السائق، فأخبرني بأن هذا كان متعباً من جراء السفر الطويل فغلبه النوم وكاد أن يأخذنا معه جميعاً إلى نوم أبدي. .

ترى؟ لو قدر لنا وهلكنا في تلك الحادثة؟ أوَما كان ذلك سيكون منتهى السخافة والغبن؟ نجونا من تزممارت بعد ثماني عشرة سنة من صراع متواصل لنموت في دقيقية واحدة بسبب حادثة سير تافهة؟

كانت الصدفة الغريبة تجعلنا ونحن نتابع سفرنا ذاك، نصادف في كل مدينة أو قرية قطعناها موكب عرش بطبوله ومزاميره وزغاريده المختلطة بمنبهات السيارات المتواصلة، فاستبشرنا بذلك خيراً. .

وأخيراً. . وبعد ليلة كاملة قضيناها في ذلك السفر الشاق الرهيب، ليلة ليلاء طالت وتمددت فبدت لنا وأنها الأبد، خفضت الشاحنات من سرعتها وعرجت يميناً لتندفع مرة أخرى في طريق قصير غير معبد، فتوقفت في نهايته ثم أطفأ سائقوها المحركات. في التو واللحظة، سمعنا صوت العقيد فضول وهو يعطي الأمر بالشروع في النزول. بسرعة البرق، كشف الدركيون غطاء الشاحنات، ثم بدأوا في إنزالنا واحداً تلو آخر ونحن نحس أن أجسامنا الواهنة لم تعد سوى قطعة من نار مستعرة. أصعدني الدركيان اللذان كنت أتكأ عليهما بضع درجات، ثم ساقاني إلى مكان وأجلساني على شيء رخو جداً أحدثت نعومته دغدغة لذيذة في مجلسي ثم سرت كالتيار في كل جسمي. اقترب مني شخص مجهول وهمس في أذني بصوت متعاطف:

ـ الحمد للّه على سلامتك. . اطمئن يا أخي، لقد نجوت أنت وأصدقاؤك. . هنا سيتم إنقاذكم وعلاجكم.

في تلك اللحظة، كنت متعباً خائر القوى فلم أدرك مدى ذلك التصريح وبُعده. لما نزعوا العصابة عن عيني والقيد من يدي، وجدت نفسي لأول مرة في حياتي منذ فجر يوم الثلاثاء 7 آب/ غشت 1973 في غرفة مضاءة بكيفية طبيعية. في البداية لم تشاهد عيناي سوى كتل مختلطة كثيفة من الضباب. وجدت صعوبة كبيرة في فتح عيني، لكن مع مرور الوقت، أخذت الرؤية تتضح رويداً رويداً وإن كانت المرئيات قد بقيت ترتعش باستمرار أمام ناظري.

أجلت بصري في الغرفة فوجدتها كبيرة مستطيلة بجدران صبغت حديثاً. كان بابها في مواجهة دهليز طويل محروس، بينما ربض المرحاض مع صنبور الماء في إحدى الزوايا المستوردة بجدار صغير. وقد كان كل أثاثها فراش من نوع «سيمونس». غمر الغرفة فيض دافئ من شمس الصباح، فأدركت ساعتها أننا قضينا الليلة كلها في السفر. وبعد ساعة من الجلبة والضوضاء، سكن المكان فأصبح الهدوء فيه شاملاً لا تسمع فيه إلا خطوات خافتة لثلاثة حراس كانوا يلبسون صدارات زرقاء على غرار ما يلبسه عمال السكك الحديد، وكانوا يغدون ويروحون في صمت وقد علت محياهم علامات الاندهاش والاستغراب وهم يلقون من حين إلى آخر إطلالة على هذا السجين أو ذاك. وما هي إلا لحظة مرّت فإذا بشاب أسمر اللون، رياضي القوام، يدخل عليّ فجأة وقد حسبته من الوهلة الأولى يابانياً، إذ كانت عيناه منفوختان ومشدودتان من جانبهما على شاكلة عيون الآسيويين. وقد كان لابساً بذلة الطباخين بقبعة كبيرة بيضاء وهو يحمل في يده طبقاً كبيراً من الطعام. تقدم نحوي فوضع الطبق على ركبتي وهو يغرس نظراته في عيني مشيراً إلي بإيماءة من رأسه أن آكل.

ألقيت نظرة على الطبق فذهلت.. قهوة وحليب وزبد وجبن ومربى وكعك.. كل ما حلمت به طوال سنوات المجاعة الرهيبة.

نقلت بصري غير مصدق بين الصحن والطباخ وكأني أردت بذلك أن أنبهه أنه لربما أخطأ في الزبون المقصود بكل هذا، فمن المستحيل أن تكون هذه النِّعم كلها لي أنا وحدي.. نظر الشاب إليّ طويلاً وكأنه قرأ أفكاري، فضغط بكلتا يديه على حافتي الطبق وأومأ ليّ بالأكل. جحظت عيناي وتحلب فمي فأوشكت أن أنقض على تلك النِّعم السابغة لولا بقية من كرامة ذكرتني أنه مهما كان هول السغب الساكن في أحشائي فعلي أن أضبط نفسي كي لا أظهر بمظهر الوحش المفترس أمام هذا الطباخ الآسيوي. ولكن ما إن أولاني ظهره وانصرف، حتى هويت على الطعام أحشوه في فمي حشواً وألوكه مرتين أو ثلاث ثم أبلعه بسرعة كمن يخوض مباراة في الأكل السريع. اندفعت في سباق محموم مع الزمن بنية الإجهاز على كل شيء قبل أن يفاجئني الطباخ برجوع مباغت ليقول لي: معذرة، هذا الطعام ليس لك. وفي وقت قياسي كان الطبق قاعاً صفصفاً..

في الغرفة المجاورة، لم يملك رفيق نفسه من شدة المفاجأة السارة وهو يتسلم ذلك الفطور الشهي، فانطلق يعبّر عن فرحته مغنياً بصوت مرتفع لحناً ساخراً أثار به ضحك الحراس والسجناء على السواء.

حوالي الساعة العاشرة، فرق الحراس علينا إزاراً وأغطية جديدة. وفي الزوال، دخل عليّ رجلان يدفع أحدهما أمامه طاولة بعجلات حملت صحوناً ملئت بكل ما لذ وطاب..، وضع أحدهما على ركبتي صحناً كبيراً وانصرف من دون أن ينبس ببنت شفة. كان الطعام وافراً متنوعاً غنياً شهياً: خبز ساخن محمر. سلاطة رائعة. لحم جيد مطهي باتقان. بطاطيس مقلية. جبن طري. علبة من اليايورت. موزة كبيرة. إجاصة جيدة تبرق إثارة وإغراء، كنت كمن يعيش حلماً وردياً جميلاً أكثر من اللازم..

مرة أخرى، انقضضت بسرعة القوارض ألتهم ما قدّم ليّ وأنا أحمد الله الذي جعل المكان خالياً إلا مني.. فقد أخللت بآداب الأكل إخلالاً أقل ما يُقال عنه أنه كان سافراً. وأعتقد لو أن كاميرا خفية بثت على الفضائيات صورنا ونحن على ذلك الحال، لضحك العالم وبكى وهو يرى كيف أفلح الجلادون في مسخ إنسانيتنا وطمس آدميتنا وجعلنا قردة خاسئة تأكل بسرعة خاطفة وهي تلقي حولها نظرات مذعورة، متوجسة في كل لحظة أن يأتي من يخطف لها قوتها الشهي.

جاء الحلاق في المساء، فقرأت في عبوس وجهه تقززاً وامتعاضاً وهو يحلق لحيتي وما عفا عنه الصلع من زغب خفيف تسور كالهلال حول قفاي. ولأول مرة بعد تلك المحنة الطويلة سنحت لي الفرصة كي أرى وجهي في المرآة تحت ضوء النهار الكاشف. كان شحوبي مهولاً، وكانت التجاعيد مرسومة كالأخاديد على جبهتي وتحت عيني وعلى جنبي أنفي، وبدا لي جلدي الأصفر الباهت كجلد تينة قديمة يابسة. صفعتني المرآة صفعة قاتلة، وكفاني منها ثواني معدودة لكي أحيط بحجم الخسارة الفادحة التي ألمت بي طوال هاذين العقدين من العذاب.. هكذا إذاً سوف أكون عمراً بلا شباب.. ضاعت زهرة عمري الفواحة البيضاء في السراديب والأقبية والمغارات بعد أن قطفها جلاد وداسها برجله الغليظة كما تُداس عقب السجائر في عرض الطريق.

في نهاية المساء، عاد الحراس فأخذوا منا بذلة العمل العسكرية وعوضونا بها بذلة نوم مع ثياب داخلية وفوطة وكيس احتوى على كل أدوات النظافة. بعد ذلك جاء دور الحمام. سيق بكل واحد منا إلى «الدوش» مرفوعاً بحارسٍ عهد إليه أمر مساعدتنا. كان مرافقي مقطباً غير راض عن هذه المهمة المهينة. لذا كان يشيح بوجهه عني متفادياً

أن تصطدم نظراته بعيني. تعريت.. فإذا بي هيكل عظمي واقف. كان الحارس بجنبي يوهم رؤساءه أنه يساعدني. أطلقت الماء، فانهمر ساخناً لذيذاً مدغدغاً. أحسست فجأة وكأنني شبه إنسان.. طليت عظامي جيداً بالصابون، ولكني لم ألاحظ أي رغوة. عرضت جسمي ثانية للماء المرشوش، فإذا بي أرى على مربعات الزليج الأبيض سائلاً بنياً ينزل مني كالوحل المائع. حككت جلدي بقوة فإذا بالطين يخرج على شكل كويرات صغيرة تناثرت على جدران الدوش البيضاء كحبات مطر أسمر. لم يطق الحارس صبراً فخرج متقززاً.. قلت له: معذرة، فلم يجبني.. طلبت الصابون مرة ثانية وثالثة ورابعة.. فابتسمت وأنا أرى الماء قد بدأ ينزل من جسدي صافياً. رجعت إلى غرفتي وأنا أحس من فرط خفتي وسعادتي كأني طائر يطير. هكذا تعاقبت الأحداث السعيدة بسرعة لم تترك لي أي وقت للالتقاط أنفاسي وجمع شتات أفكاري كي أستوعب ما هو حاصل لي. وجاءت وجبة العشاء. يسبقها ريحها المثير كما يسبق الحسناء شذى عبقها المسكر.

ولما سكن الليل ولف الدنيا بصمته الثقيل، وجدتني أسائل نفسي هل ما أعيشه حقاً أم أن عقلي طاش في تهويم من تهاويم الخيال.

في صباح الغد، مباشرة بعد طعام الفطور، جيء لي بطاولة وكرسي. وما هي إلا لحظات مرّت فإذا بنفر من الأطباء يقتحم عليّ الغرفة. اختصاصيون في كل الأمراض، يرافقهم طبيب نفساني، وطبيب في جراحة الأسنان مع الاختصاصي الماهر في التعذيب، العقيد فضول. كان الهدف من هذه الزيارة، هو الشروع الفوري في عملية الترقيع. ترقيع صحتنا طبعاً وإعطائنا الشكل الآدمي. كانت أول عملية قام بها أحدهم هي أخذ وزني في ميزان حساس. وقف المؤشر دون رقم 50 بقليل. عشرون سنة قبل هذا اليوم، كان وزني يتأرجح بين 75 و80.

لما عبروا قامتي وجدوا طولي متراً و81سم. فتبيّن لي أن قصرت بسنتيمترين. وكان ذلك طبعاً لا يساوي شيئاً مقارنة مع بعض رفقاء المحنة كالداودي مثلاً أو الأخوة بوريكات الذين فقدوا ما يزيد على عشر سنتيمترات. ثم بدأ الفحص الدقيق، فقُيدت بعده النتائج والملاحظات في ملف خاص. ومنذ ذلك الصباح، أصبحت زيارات الأطباء لنا منظمة، ومراقبة الممرضين لنا في كيفية استعمال الدواء مشددة. انطلقت عملية التعليف والتسمين بالفيتامينات والحقن والحث على أكل أكثر كمية ممكنة من الطعام، وجيء لنا بأستاذ في الرياضة ليساعد عضلاتنا اليابسة ومفاصلنا المعطلة على المشي السليم. وباستثناء الطبيب النفساني وطبيب الأسنان اللذين كانا لطيفين في معاملتهما لنا، حيث كانا يقبلان من حين إلى آخر دردشة حذرة، فجميع الأطباء الآخرين كانوا كأسوار تزممارت الصامتة. لا شك في أن جعبتهم كانت ملأى بالأسرار الرهيبة. كانوا يشتغلون في برودة ولا مبالاة لا تصدران إلا عن أشخاص بلدتهم الروتينية. غير أنهم كانوا يتفقون جميعاً على لازمة واحدة كانوا يوصوننا بها كلما فرغوا من مهمتهم:

ـ كلوا كثيراً وامشوا طويلاً.

ومرت الأيام على هذا المنوال، وأبواب غرفنا مفتوحة لا تغلق إلا في الليل أو ساعة القيلولة. فكبر أملنا في النجاة كما يكبر الجنين في بطن أمه.

وذات مساء، أغتنم أحد الحراس خلو الدهليز من أي رقيب فوقف أمام باب غرفتي وحدق في وجهي طويلاً ثم حياني هامساً وسألني:

ـ ألست أنت هو أحمد؟

قلت مستغرباً: «نعم».

ـ ألا تذكرني؟

ـ وجهك يذكرني فعلاً بشخص ما.

هز الحارس رأسه بمرارة من يذكر شيئاً جميلاً ولى إلى الأبد ولن يعود ثم قال:

ـ ما أصغر العالم يا أخي.. كنت يافعاً ومليحاً في ذلك الزمان.

ـ نعم. في ذلك الزمان.. ولكن، خبرني من أنت؟

ـ هل تعدني بحفظ السر؟

ـ أعدك. على كل حال، أنت ترى أنه ليس معي أحد أتكلم معه في هذا المكان.

ـ هل تذكر عمارة «صارميطو» في حي السباتة في مكناس؟

ـ نعم.

ـ طيب. هذا يدل على أنك لست..

ـ أحمق؟ لا. ليس بعد. أعتقد أني لست «زَنْزانْ».

ـ مدهش.. رغم كل المآسي التي عشتها.. أتدري أن بعض أصدقائك أصبحوا يتصرفون تصرف الأطفال لأن عقولهم لا تدور كما يرام؟

ـ ربما.

ـ هل تذكر فرقة «الإسماعلية» لكرة السلة في مكناس، حيث كان أخوك عبد اللطيف أحد نجومها الكبار؟ تلك الفرقة التي كان يدربها «خلوق» وكان كل عناصرها من أطر مدرسة الدرك الذين كانوا يسكنون جميعهم في عمارة «صارميطو».. ألا زلت تذكر جيجي، وعزمي، وجريد، والراحي، والعلوي، والحفراوي، وغيرهم؟

في طرفة عين، طارت ذاكرتي إلى الوراء محلقة فوق السنين، ثم حطت في هذه الحقبة من الزمن وشرعت تعرض عليّ وجوهاً كثيرة

إلى أن خرجت من بين الضباب صورة الواقف أمامي. سألته بنوع من الأسى:

ـ أهذا أنت يا..؟

قال وهو يهز رأسه مبتسماً بمرارة:

ـ نعم، هذا أنا. لقد تعرفت إليك منذ اللحظة الأولى التي انتشلوك فيها من تزممارت. كانت لحظة رهيبة حقاً. هل تذكر؟ الذي همست في أذنك بتلك الجملة المطمئنة لما وصلنا إلى هذا المكان.

ـ هل لا زال شقيقي عبد اللطيف على قيد الحياة؟

ـ نعم. إنه بصحة جيدة. وابن عمتك عبد الحق فارس، إنه بصحة جيدة كذلك.

رقص قلبي طرباً لسماع هاذين الخبرين السارين. فقلت لمكلمي متحمساً:

ـ هل يمكن لي أن أكتب لهما ولو كلمة قصيرة؟

رد عليّ متأسفاً:

ـ مستحيل. هل تعلم؟ لقد أخذوا عناصر من دركيي مدينة فاس، وآخرين من دركيي الرباط، ثم أركبونا في شاحنات عسكرية من دون أن يعطونا أي فكرة عن الوجهة التي نحن مولوها.. وأنت تعرف الباقي.. والمصيبة هي أننا اعتقدنا بأن هذه المهمة المجهولة لن تتعدى ثماني وأربعون ساعة، فبنينا على ذلك ولم نترك لزوجاتنا وأولادنا أي مصروف. والآن، ها نحن بلا أدنى خبر عن أهلنا بعدما حُجزنا معكم هنا إلى حين إيجاد حل لهذه القضية القذرة.

ـ لماذا أرغموكم على لبس هذه البذلة الغريبة؟

ابتسم الحارس بخبث وتماثل بعدم سماعي ثم قال لي قبل أن ينصرف:

ـ سيأتي لزيارتك أصدقاء آخرون من فوجي وفوج أخيك، تعرفهم طبعاً ويعرفونك. وعلى فكرة، إذا أحسست برغبة لمزيد من الطعام، فلا تتردد بإشعاري. ولا تنسَ أني لا أعرفك ولا تعرفني.

ومرّ شهر وتلته أسابيع. فطال الوقت وتمدد. وبذل الأطباء كل ما في وسعهم لأعطائنا الشكل الآدمي المرغوب. وتحرك مؤشر الميزان ليتقدم في كل وزنة ببعضة كيلوغرامات. . لقد أخذ التعليف السريع يعطي ثماره المرجوة.

ظل مُولد الكهرباء الذي يشغل أدوات طبيب الأسنان يطرطر ليل نهار بدون انقطاع. . فقد أصبح الطبيب المسكين متجاوزاً من كثرة العمل. وبدا مرهقاً يثير الشفقة وهو يخلع ما تبقى من جذور أسناننا المسوسة وأضراسنا المقيحة. وجاء الحراس فأخرجونا ثلاث مرات للتشمس سعياً منهم في تخفيف شحوبنا المهول.

وذات مساء، مباشرة بعد طعام العشاء، جاء حارس وأخبرني بأن لجنة مهمة ستقدم لزيارتنا وأنه ينبغي عليّ أن أظل مستيقظاً. في حدود الساعة العاشرة ليلاً دخل عليّ نفر من أشخاص مجهولين لم أعرف منهم سوى الطبيب النفساني وطبيب آخر متخصص في الطب العام، يتصدرهم كالعادة، العقيد فضول، الحاضر دائماً وأبداً. وقد بدا لي من هيأتهم وطريقة حديثهم أنهم بدون شك أمنيون كبار. أجلسوني على حافة الفراش، وتحلقوا قبالتي في شبه دائرة، فأخذ الكلمة فضول وربت على كتفي ملاطفاً، فابتسم لي ابتسامة مداهنة، استنكرتها منه وأنا أطيل النظر في تلك الجلدة التي تستر إحدى عينيه العوراء، فقال وهو يحاول أن يؤدي دوراً لا يلائمه بالمرة، دور الصاحب المتودد الحنون:

ـ حسن جداً. أنت اليوم أحسن مما كنت عليه بكثير.

هش الجميع في وجهي وتكلفوا ابتسامة صفراء متعبة. واسترسل العقيد في كلامه فقال:

ـ طيب. لقد جئنا جميعاً لنزف إليك أحلى وأجمل خبر يمكن لسجين مثلك أن ينتظره. لقد أصدر في حقك عفو مولوي. سنطلق سراحك قريباً وستعود إلى أهلك. نحن نعلم أنك تعذبت كثيراً، ولكن لا يهم. كل شيء يمر. عليك ألا تفكر في الماضي بعد اليوم أبداً. انتهى كل شيء.. فكر بالأحرى في الغد المشرق الذي ينتظرك. سيكون لك كل ما تتمناه. في هذا ينبغي أن تفكّر فقط. نعم، ألح عليك بشدة كي تكون قطيعتك مع الماضي قطيعة نهائية. إياك أن تتكلم لأي شخص عنه، حتى ولو كان ذلك الشخص أمك، سنعود إلى هذا الموضوع بالتحديد في ما بعد. منذ هذه الساعة، يمكنك أن تعتبر نفسك ضيفاً عندنا. ولكني أريدك أن تكون معترفاً ممتناً بهذه الالتفاتة الرحيمة. أليس كذلك؟

هز الحاضرون رؤوسهم موافقة مع كل ما قاله العقيد، وأكدوا بالخصوص ضرورة نسيان الماضي والتعبير عن الامتنان بنعمة العفو. وقد دفع أحدهم المجاملة إلى أقصى مداها حين وضع يده على كتفي وأخذ يقص عليّ نكتة بائخة ليكرهني على الابتسام. ولكني لم أبتسم. كنت أحملق فيهم ببلادة وأنا أحس بما يحس به الملاكم المصروع بالضربة القاضية. مدوا إليّ جميعاً أياديهم مصافحين فتركوا على كفي بقايا عطر يوحي بالسلطة والجبروت، ثم انتقلو إلى غرفة سجين آخر ليتلوا على مسامعه الخطاب المحفوظ نفسه عن ظهر قلب.

تمددت على ظهري تلك الليلة المشهودة من عمري، وبقيت إلى بزوغ الفجر مشدوهاً شارداً أحملق في الظلام ببلاهة مدمن أخذ كمية عالية من مخدر قوي فتعطلت كل أجهزة عقله عن التفكير. في صباح اليوم التالي، مرّ عليّ صديقي الحارس بسرعة فقال ينصحني:

ـ ينبغي أن تظهر لهم بأنك في منتهى عافيتك. المهم، هو أن تضمن حريتك قبل أن يغيروا رأيهم. أنت أعلم بالسرعة التي تتغير فيها التعليمات عندنا من أوامر إلى أوامر مضادة. إلى اللقاء.

أياماً بعد هذا الحدث، رجع عندي العقيد فضول مرتين، فطلب مني أن أوافيه بأكبر عدد ممكن من عناوين أفراد أسرتي، وبطبيعة العمل الذي أرغب أن أمارسه بعد إطلاق سراحي. ومرّت أيام أخرى.. طويلة طويلة كعمر الأبدية.. وتأخر الميعاد أو تخلف، وبدأ السجناء والسجانون يعيشون على السواء حالة من الهستيريا من شدة الترقب ولوعة الانتظار.

هل أنت قادمة فعلاً أيتها الحرية؟

الرجوع إلى الدوار

في صبيحة يوم الثلاثاء 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1991، قدم عندي العقيد فضول وأمرني بجمع أمتعتي في كيس من البلاستيك وبلبس البذلة المدنية التي كان قد سلمها لي في الأيام القليلة السابقة. دق قلبي بعنف شديد، وأخذني هلع مفاجئ وأنا لا أفكّر إلا في شيء واحد: ينبغي أن أحذر من العطس أمامه كي لا يحجزني أياماً أخرى في المعتقل. فقد كنت مصاباً بزكام حاد اجتهدت في إخفائه عنه.

كيف يمكن لبشر مهما كانت سعة خياله ودقة وصفه ورهافة حسه أن يعبّر عن إحساسات إنسان مثلي في تلك الساعة الخالدة؟ إنسان عاش العذاب الشديد على امتداد عقدين من الزمن، ساعة بساعة، ويوماً بيوم، وشهراً بشهر، وعاماً بعام، ثم تأتي لحظة يُقال له فيها بمنتهى البساطة:

ـ اجمع أمتعتك إنك راحل إلى أهلك.

أعتقد بتجربة من عاش الحدث، أن تلك الفرحة القوية العارمة لا يوازيها لربما إلا قول الملائكة لعباد الرحمان في يوم الفصل: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾. مع فرق واحد ووحيد، هو أن الذي ألقى إليّ بالبشرى لم يكن ملاكاً.

كانت أكمام سترتي وسروال بذلتي الرمادية الفاتحة قصيرة ببضع سنتيمترات، وكانت ياقة قميصي على النقيض من ذلك أعرض بكثير

من عنقي النحيف جداً. أما رجلاي الطويلتان فكانتا مضغوطتان بشدة في حذاء كان أصغر من مقاسي برقمين. لم أشك لحظة في أن مظهري كان يشبه مظهر بهلوان جائع مريض. ولكن هل كان ذلك يهمني في شيء؟ فلو كانوا قد طلبوا مني وقتئذٍ أن أخرج عارياً إلى أهلي لخرجت. نعم، لخرجت ولكن بصدر منتفخ وهمة عالية. رجع فضول نصف ساعة بعد ذلك مصحوباً بأشخاص مجهولين، وأمرني أن أجلس على حافة الفراش وأن أستمع ملياً إلى آخر تعليماته:

ـ سجل جيداً في مخك ما سأقوله لك: سترجع قريباً إلى أسرتك لأنك قد متعت بعفو مولوي كريم. لقد كنت محظوظاً جداً لأنك لن تعرف المصير الرهيب الذي عرفه أصدقاؤك. إضافة إلى أننا سنتكفل بك وسنمتعك بكل ما لا يمكن أن يدور في خلدك. سيكون لك سكن لائق وشغل مناسب وتطبيب مجاني ومساعدة مادية سخية. ولكن في مقابل هذا، ينبغي أن تسد فمك. أكرر: ينبغي أن تسد فمك. حذار أن تسرب في عرض أحاديثك مع الناس أدنى معلومة أو كلمة طائشة، لهذا يجب أن تتحلى بالحذر الشديد في كل ما ينطق به لسانك. سيأتي لزيارتك كثير من الفضوليين ذوي النوايا السيئة، وسيحاولون طبعاً انتزاع بعض المعلومات منك. فإن سألوك فقل لهم: كنا محتجزين في ثكنة عسكرية لأن المصلحة العليا للوطن اقتضت ذلك. وقد عوملنا طوال هذه المدة معاملة حسنة جداً. كنا نأكل جيداً ونمارس الرياضة باستمرار، واستطعنا أن نحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولا تتردد في إشهار المصحف الذي أعطيناك في وجههم. وإن عاودوا الكرة وألحوا عليك بأسئلتهم الخبيثة، فارفض كل حديث معهم، وقل لهم بكل بساطة: لقد طوينا هذا الموضوع إلى الأبد. وإياك أن تنسى بأن يدنا طويلة جداً وأننا سنكون على علم تام بكل ثرثرة ستكون لك مع أحبابك. خذ عني هذا بيقين صادق. سنترك لك شهراً لتلتقط فيه

أنفاسك، وسنتصل بك لإنجاز كل الوعود التي وعدناك بها. وللمرة الأخيرة، أنصحك بأن تلجم فمك. كما أود أن أؤكد لك بأنه ليس من مصلحتك بتاتاً أن يلقي بك قدرك بين يدي مرة أخرى. ستكون عاقبتك سيئة جداً لو قدر لك أن تراني بعد اليوم. ألا هل بلغت؟

جاء صاحب الملامح الآسيوية، الضابط الدركي الذي تنكر في زي طباخ فحسبته كذلك، فعصب عيني وقال لي بلهجة متأدبة:

ـ معذرة. ستكون هذه آخر مرة.

ألبسني الجلباب العسكري وغطى رأسي «بقبه» وجاء دركيان فاقتاداني إلى شاحنة كان قد سبقني إليها بعض من أصدقائي. انطلقت الشاحنة بسرعة كبيرة، وما إن قطعت مسافة قصيرة حتى أخذني دوار مفاجئ، فإذا بي أقيء كل ما في جوفي على الجلباب اللعين. وبعد ساعة تقريباً، وقفت الشاحنة في مكان بدا لي خالياً من شدة الصمت المحيط به. أنزلوني وأركبوني مباشرة في المقاعد الخلفية لسيارة أحسست بها مريحة فارهة. أصخت السمع، فإذا بأوامر وتعليمات تخصني تعطى لأصحاب السيارة. انطلقنا ببطء فتبين لي من خلال الاهتزازات الكثيرة أننا كنا في طريق غير معبد. لما اندفعت السيارة أخيراً في الطريق الرئيسي، سمعت صوتاً دافئاً يأتي من المقاعد الأمامية ويسألني بأدب:

ـ كيف الحال يا «مون ليوطنان»؟ هل معنوياتك بخير؟

أجبت باقتضاب شديد:

ـ الحمد للّه.

كنت تلك أول مرة أسمع فيها أحداً ينادي عليّ برتبتي العسكرية القديمة. كان محدثي هو النقيب قائد الدرك الملكي لمدينة تونات. عرفت ذلك سريعاً من خلال المكالمات اللاسلكية المتكررة التي كانت تجري بينه وبين العقيد فضول الذي كان يطالبه في كل مرة

بتحديد المكان الذي وصل إليه. بدأ الضابط معي حديثاً طويلاً استمر إلى أن وصلنا إلى غفساي. وكان حديثه شيقاً لبقاً متأدباً، غير أنه كان يكثر من طرح أسئلة بعينها ولكن بأساليب مختلفة. فقلت له لأكفيه عناء البحث وقد فهمت مراده:

ـ مون كبتان، أعتقد أن عقلي يدور جيداً، وأن الفضل في ذلك ليس فضلي وإنما هو فضل الله عزَّ وجلَّ.

قال كمن يحدث نفسه:

ـ إنها حقاً لمعجزة.

ثم عرج حديثنا بعد ذلك على الأكاديمية العسكرية التي درسنا فيها سوياً ولكن في فترات مختلفة. واكتشفت أن أحد مدربيه كان من أصدقاء فوجي. فضاعف الرجل بعد ذلك من طيبوبته، وقدم لي سيجارة فرفضتها لأني كنت قد قررت عدم الرجوع إلى التدخين. ودفع تأدبه معي بعيداً حين استأذنني في إشعال سيجارته. فاغتنمت الفرصة واستأذنته بدوري في الوقوف هنيهة بعد أن أحسست مرة أخرى بالغثيان وبرغبة ملحة في التقيؤ.

لما رجعنا إلى السيارة وتابعنا الطريق، وضع فجأة يداً متوددة على كتفي وقال لي بصوت هامس:

ـ لقد أخذت تعليمات صارمة كي لا أنزع عنك الجلباب والعصابة إلا بمحضر باشا دائرة غفساي، وبما أني متقزز من هذه التعليمات، فسوف أتجرأ على خرقها بكل بساطة لأني أجدها في منتهى السخافة، ولأني أود أن أعرب لك عن تعاطفي الكبير ولو بهذه الالتفاتة الصغيرة.

وقفت السيارة من جديد، فساعدني دركيان على خلع جلبابي ثم أزاحوا عن عيني العصابة. أحسست بضوء الزوال الباهر يدمع عيني وكأن إبراً خفية كانت تشوكها بقوة، فتألمت وأنا أغمضهما نصف

إغماضة، ولما شرعت في فتحهما بحذر، لم يصطدم بصري بحاجز أو جدار.. تاه في اللاحدود العريض كطائر تحرر فجأة من قفص رهيب، فأطلق جناحيه ليسبح في فضاء الله الفسيح. كانت تلك أول مرة ألتقي فيها بالطبيعة منذ تموز/ يوليوز 1971.

في هذه اللحظة المشهودة، تيقنت بأن الدنيا حلوة خضرة رائعة خلابة جميلة لا مدى لها ولا حدود، وأن حماقة الإنسان وحدها هي التي تقلصها إلى فضاءات ضيقة مظلمة حرجة بحجم المغارات والزنازين. لم أشهد في حياتي منذ يوم ولدت منظراً أسحر وأبهى وأروع من ذلك الذي رأيت. إن البشر يبحث عن الفردوس وهو ساكن فيه. فكثرة العيش في الجمال يمسح عن العين رواء الجمال. ولا يقدر نعمة الله إلا من فقدها. انتفخ قلبي ساعتها سعادة وحبوراً، وارتعشت كل ذرة في كياني طرباً وأنا أحس بنفسي غصناً يابساً يهدهده نسيم عطر يحمل في أنفاسه عبق غيث قريب. التفت النقيب إليّ وقال لي باسماً:

ـ أتعرف هذا المكان؟

قلت: كلا.

قال مستغرباً:

ـ ولكنها بلدتك.. هذا النهر الذي تراه هو وادي «أولاي» وهذه القرية التي وراءنا هي قرية «أورتزاغ».

في هذه اللحظة، مرة بجوارنا جماعة من أطفال المدرسة وهم يحملون على ظهورهم حقائب أدهشتني ضخامتها مقارنة مع أجسامهم الصغيرة. وقفوا ينظرون متهيبين إلى الدركيين، ثم ركزوا نظراتهم المتطلعة إليّ، وبدا لي وكأنهم كانوا يجهدون عقولهم الصغيرة لتخمين سبب اعتقالي. أثارتني براءتهم، فابتسمت لهم، فإذا بهم يردون لي البسمة بأحسن منها. كان الدركيون الثلاثة يدخنون سيجارتهم منتظرين

أمر النقيب بمتابعة الطريق، فجرني هذا برفق وأبعدني مسافة عن مرؤوسيه ثم قال لي:

ـ اسمع يا مون ليوطنان! إن تعاطفي معك يحثني أن أوضح لك نقطة في غاية الأهمية، خذها مني نصيحة أخ يريد أن يتشرف يوماً بزيارتك، ولا تأخذها تعليمات ببغاوية سخيفة مجترة مكررة: كن حذراً جداً. . سيما في الأول، ولا تفتح قلبك لأي أحد. المخبرون والوشاة في بلدتكم هذه بعدد الذباب. فبغض النظر عن المخبرين الرسميين وشبه الرسميين، هنالك صنف خطير آخر. . إنه صنف «المحسنين» الذين يخبرون من أجل التزلف أو من أجل المتعة فقط. تصور أن بعضهم يوقظني أحياناً في عز الليل ليخبرني بأن فلاناً فعل كذا وفلان كذا. هكذا. . مجاناً وبدون أدنى مقابل، فيجعلني محتاراً بين أحد أمرين إما أن أقوم بتحقيق فأضبط ذلك البائس الذي تضطره الفاقة إلى إتيان المحظور من أجل إعالة جيش من الأطفال، وإما أن أغمض عيني وأخاطر بمستقبلي علماً مني بأن ذلك الواشي المتطوع سيطرق كل الأبواب حتى يبيض بيضته. فما العمل في مثل هذه الأحوال؟

ضربتني في الصميم صراحة هذا الضابط وإن كنت قد استوعبت الخطاب الذي كان يسعى إلى تمريره. فقلت محدثاً نفسي:

ـ هذا إنسان جدير بالاحترام. . الناس ألوان وأشكال في تنفيذ الأوامر. فالسجان الذي يغلق عليك الباب برفق ويطلب منك المعذرة وهو يبتسم لك ابتسامة متأسفة هو أحسن ألف مرة من سجان يصفق الباب وراءك وحواجبه مقطبة معقودة.

وبحكم تجربتي، فأنا على يقين صادق بأنه لو سمح لمحكوم بالإعدام أن يختار جلاده من بين عشرة لاختار أقلهم قساوة وأخفهم بطشاً.

ألح النقيب علي فقال:

ـ عندما ترتاح من عناء سفر هذه الرحلة الجهنمية الطويلة، فأنا أعول عليك كثيراً كي تزورني في تونات.

ولكن النقيب المسكين لم يكن يعلم وهو يتحدث إليّ في تلك اللحظة أن أيامه كانت محسوبة. فبعد شهور من هذا اللقاء، حصده موت مباغت في حادثة سير قاتلة.

تابعنا السير إلى غفساي في طريق ضيق وعر محفر. فبدا لي وكأن الزمان في قبيلتي المسكينة، قبيلة بني زروال، يرجع القهقرى بخطوات عملاقة. فباستثناء التشجير المكثف الذي خفف من إحساسي بالمرارة، كان كل شيء فيها ينطق بالتهميش والإهمال والضياع واللامبالاة. فبعد مسافة كيلومترات قطعناها وسط غابة شاسعة قصيرة الأشجار، بدت لي على اليمين والشمال، بمنتهى الروعة والجمال، غابة واسعة من أشجار العرعار السامقة، تربعت في نخوة وشموخ على تلك المرتفعات الخالدة التي شهدت معارك ضارية خاضها أبناء بلدتي من أجل الاستقلال والعيش الكريم. وفجأة، أطلت علينا «بوعجول» من بين غابة زيتون. . قريتي الحبيبة الصغيرة. تسارعت دقات قلبي وأنا أنقل بصري بين دورها الطينية المتناثرة على ذلك المترفع المطل على وادي أولاي ووادي خيزران. لم يتبدل فيها أي شيء. ظهرت لي وكأن موكب الزمان مرّ بجانبها فلم يلتفت إليها بجديد أو تجديد. ثم استقرت عيناي وتسمرت على منزلنا الكبير. مسقط رأسي الذي سكن خيالي طوال كل هذه الغيبة الطويلة. بدا لي باهتاً حزيناً بعد أن فقد بريق بياضه القديم. ثم أثار انتباهي شيء في منازل قريتي فسألت النقيب:

ـ هل أصبحت سقف تلك المنازل من القرميد الرمادي؟

ابتسم الدركيون لسؤالي فأجابني النقيب مفسراً:

ـ طبعاً لا . . منذ بضع سنين فقط، أخذ الناس في هذه البادية يسقفون بيوتهم بصفائح القدير بدل «الدوم» والقش. . ألا ترى أن بعضاً من تلك السقف الجديدة تبرق شيئاً ما تحت وهج الشمس؟

واصلنا قطع الكيلومترات الأخيرة صعوداً عبر طريق حلزون يشق في التواءاته الكثيرة غابة رائعة من الزيتون. ولما عرجنا يميناً واستقمنا أخيراً على قمة السفح الذي تتربع فوقه غفساي، عاصمة قبيلة بني زروال، ظهر لنا على اليسار في قاع السفح منظر بديع خلاب لوادي أولادي وهو يلوب في السهل الصغير كحية تسعى فوق الرمال. كان المنظر مدهشاً حقاً وكأننا كنا نراقبه من فوق طائرة سابحة في الفضاء. . في مدخل القرية، تجلت لنا منازل «الديوانة»، حيث كان يسكن الجمركيون في وقت الحماية. لا زلت أذكر أن هذه المنازل الخشبية المركبة كانت في ذلك الزمن الغابر تبرق نقاوة ورونقاً وجمالاً. أما في هذا اليوم، فقد بدت لي جدرانها كالحة وقرميد سقفها باهتاً وكأنها أعلنت على نفسها حداداً غير محدود. ومرة أخرى تيقنت بأن الزمان في بلدتي البئيسة يمشي عكس اتجاه عقارب الساعة. في مدخل ذلك الحي، شدت نظري لوحة معدنية مستطيلة معوجة كتب باللون الأسود على صباغتها البيضاء المقشرة: (مدينة غفساي ترحب بكم).

هكذا إذاً، أصبحت غفساي في نظر الإدارة مدينة. . لكني لم أرَ من مظاهر المدينة في تلك الساعة سوى اسم غفساي المصلوب بمسامير التخلف على تلك اللوحة المرجومة بأحجار جهل الرعاة الصغار. . مرت السيارة تحت قوس نصر أعلن عن وصولنا إلى المدينة ـ القرية. شرعت أعبأ نفسي تحسباً للأحداث الجليلة القادمة. عرجت السيارة على الشمال لما وصلت إلى مفترق الطرق. بدأت تهبط المنحدر المؤدي إلى «البيرو»، أو مقر السلطات المحلية الذي

كان في يوم ما مكتباً للكومندار «دو شاريط»، الحاكم العسكري في عهد الحماية.

توقفت السيارة. جاء «مخازني» يهرول نحو القبطان المتأهب للنزول. أدى التحية العسكرية وقال باحترام:

ـ مي رسبي مُون كابطان.. منذ بداية الصباح والباشا والقائد مع الشخصيات المرافقة لهما ينتظرون قدومكم. إنهم يتناولون الآن طعام الغذاء. تبع القبطان المخازني فغاب ما يقرب من نصف ساعة. أجلت نظري في «البيرو» أو مركز السلطات المحلية، فإذا به رغم طلائه بالجير يصرخ بالإهمال والتردي. كانت جدرانه منفوخة بالرطوبة، ونوافذه راشية متآكلة، وقرميد سقفه باهت حزين. أين ذهب «البوكانفيلي»؟ أين اللبلاب المورد الذي كان يعرش على الواجهة الأمامية للمركز فيكسو مدخله شمالاً ويميناً ببساط زاه أحمر؟ أين العشب الأخضر الذي كان يصان كما تصون الحسناء رواء وجهها الفاتن؟ أين ممرات العرعر القصير المشذوب على شكل مكعبات متناسقة خلابة رائعة؟ وأين ذهبت حقول الورد التي كانت تسحر الأبصار بتعدد ألوانها وتسكر الأرواح بأريج عطرها؟

رحل كل شيء برحيل أصحابه ذوي الورد، ثم مات والماء أمامه زلال سلسبيل. وانمحى اللبلاب الضاحك وضاعت الممرات الفيحاء، ولم يبقَ من العشب سوى هذه النتف الصفراء النابتة هنا وهناك كجزر صغيرة نجت من مد بحر مفسد متلف.

أخرجني من تأملاتي صوت دركي حانق وهو يقول لأصحابه:

ـ لقد تأخر صاحبنا.. لا شك في أنه صادف عند الباشا خروفاً مشوياً.

فأجابه آخر بمرارة:

ـ لهم المآدب الشهية، ولنا الانتظار المرير.

عاد النقيب أخيراً وطلب مني أن أنزل وأن أتبعه. كان الصمت الرهيب مخيماً على مركز القيادة وما حوله وكأن سكان الحي هجروا المكان بأمر آمر. وعلى نقيض هذا، كان مكتب الباشا ممتلئاً بالناس عن آخره. قام هذا فمد لي يده مصافحاً ثم طاف بي ليقدم لي الأشخاص الخمسة عشر الواقفين بصمت وراء كراسيهم. دعاني للجلوس على كرسي قبالة باب مكتبه، ثم أخذ الجميع مكانهم وغرقوا في صمت ثقيل نزل على القاعة كجبل من الرصاص. كانوا جميعهم ينظرون إليّ خلسة وكأني كائن عجيب نزل من الزهرة أو المريخ.. بدا واضحاً أنهم كانوا ينتظرون قدوم شخص ما، لم أشك طبعاً في أنه أحد من أفراد أسرتي. دق قلبي بشدة. توترت أعصابي. أحسست بنوع من الانهيار وخيالي المحموم المستعر يسابق الأحداث ويقدم لي وجوه أحباب شتى.. أيهم مات وأيهم ما زال على قيد الحياة؟ من سيكون القادم الأول؟ أمي؟ هل لا زالت على قيد الحياة؟ بذلت جهداً عظيماً للسيطرة على نفسي وحدثتها مشجعاً:

ـ ليس هذا وقت الضعف والانهيار. في مثل هذه الظروف تُقاس قوة الرجال يا أحمد.

مل الباشا من كثرة الانتظار وبدا عليه نوع من النرفزة، فقال لأحد مرؤوسيه الذي لم يتوقف عن الدخول والخروج لمراقبة القادم المجهول:

ـ أوف.. أين ذهبت هذه الأسرة إذاً؟ هل أنتم متيقنون بإشعارها كما أمرتكم؟

رد المرؤوس منحنياً ويداه وراء ظهره:

ـ نعم آس. منذ ما يقرب من أسبوع، وباكراً في هذا الصباح.

اللقاء مع الأسرة

بعد انتظار خانق دام ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، دخل علينا فجأة رجل طويل نحيف أصلع بشوارب غليظة ووجه مجعد يابس، فظننته أول الأمر رجلاً من رجال المخابرات قدم إلى اللقاء متأخراً. لكنه عوض أن يجلس على الكرسي الوحيد الشاغر، أجال في الحضور نظرة مذعورة سرعان ما تسمرت علي. جحظت عيناه وأنا أراه يقترب مني بخطوات سريعة مرتبكة وكأنه كان فريسة لهلوسة محمومة. شهق شهقتين ثم انفجر باكياً وهو يرتمي عليّ ويحضنني بعنف كاد به أن يصهر عظامي الهشة. صرخ بصوت متحشرج رهيب وفمه المبلل على أذني:

ـ أخي.. أخي.. أحمد؟ أهذا أنت فعلاً يا أحمد؟

قلت له مرتبكاً وأنا أرتعش من شدة الانفعال كعصفور يحتضر.

ـ عفوك أخي.. أي أخ من أخوتي أنت؟

ـ أنا أخوك عبد الوهاب.. ألم تتعرف إليّ يا أحمد؟

فعلاً.. ما كان بإمكاني أن أتعرف إليه أبداً لو كنت قد قابلته مصادفة في الطريق أو سافرت معه مسافة طويلة في عربة قطار. لشدة ما تبدل ذاك الصبي الذي كان في ذلك الزمان وسيماً.. ولولا شمس البادية التي لفحت منه الوجه واليدين لقلت إن هذا الكهل كان معي في تزممارت سجيناً.

في تلك اللحظة المثيرة، كانت شفتاي تحترقان بسؤال ملح

أحجمت عن طرحه مخافة جواب صادم ينكشف بعده ضعفي أمام هؤلاء المبحلقين الباحثين بين تجاعيد وجهي عن سراديب تزممارت المرعبة.

ـ هل أمي لا زالت على قيد الحياة؟

جلس أخي يشهق بجواري وهو يشرب تقاطيع وجهي ويسائلني بين دموعه المنهمرة عن أحوالي وصحتي. وبدون إرادة مني، انفلت السؤال الحارق وكأن شخصاً يسكنني هو الذي تكفل بطرحه:

ـ كيف حال أمنا يا أخي؟

ـ الحمد للّه على كل حال.. حين أخبرناها بقرب إطلاق سراحك صعقت حتى أشرفت على الحمق والخبال.. ومنذ تلك اللحظة لم يغمض لها جفن. إنها كالحمقاء، لا تصدق أنها ستلقاك حياً.

قلت وقد اجتاحتني عاصفة من الفرحة العارمة:

إنها إذاً على قيد الحياة؟

ـ أجل.. كن مطمئناً بذلك.. إنها كما عهدتها، صابرة صامدة محتسبة، وهي الآن توجد في منزل شقيقنا سي محمد في الرباط.

اقترب أخي من أذني وأكمل كلامه بصوت هامس:

ـ لقد مرّ أسبوعان على إخبارنا بخروجك، ومنذ تلك اللحظة ونحن نعيش الحيرة والعذاب الشديد. لقد موهوا علينا حين أكدوا لنا بأن تسليمك إلينا سيتم في الرباط، وهاهم ذا قد فعلوا العكس.

وقفت سيارة أخرى أمام مركز القيادة، وتعرفت بدون جهد إلى الرجل الأنيق النازل منها. إنه ابن عمي، وزوج أختي، وأول معلم تتلمذت عليه في حياتي في مدرسة غفساي. دخل علينا الحاج سي الحسن فزعاً مروعاً بوجه شاحب يردد بصوت متأثر:

ـ الله أكبر. الحي يرتجى.

بينما تبعته سيدتان مجهولتان كانتا تهرولان أكثر مما تمشيان. كانت كل واحدة منهما تلبس جلباباً تقليدياً وتستر وجهها بنقاب تطل من فوقه عينان مذعورتان مجللتان بالدمع. وما إن رأوني حتى صرخوا باسمي وأجهشوا جميعاً بالبكاء ثم فتحوا أذرعهم يعانقونني ويمطرونني بقبلات مبللة بدمعهم الصبيب وهم يحدقون في وجهي بأعين تنطق بالحسرة والشك والألم. ضبطت نفسي بصعوبة شديدة وأحسست بالحرج وأنا أسأل أخي عن السيدتين. دهشت إحداهن فأخذت وجهي لحظة بين يديها، ثم شرعت تفتح إحدى عينيّ محدقة فيها بعيون مروعة ثم صرخت:

ـ ألم تتعرف إلينا أخي الحبيب؟ إلهي.. إنه لم يعد يبصر.. كل الإشاعات التي راجت عنهم كانت إذاً حقاً.. نحن أختاك شقيقي العزيز، هذه نجاة وهذه أنا، أختك ربيعة..

وكما كان الشأن مع أخي عبد الوهاب، صعب عليّ أن أقبل أنهما أختاي. لشدة ما بدلتهما الأيام. ولكي يضع الباشا حداً لهذا اللقاء الرهيب الذي بدا له أنه قد طال كثيراً، أمر الجميع بلحظة صمت ثم أخذ الكلمة وقال:

ـ من فضلكم. اسمعوني جيداً.. أولاً، يسرني أن أبدأ بتهنئة السيد أحمد على إطلاق سراحه، كما يسرني كذلك أن أهنئ أسرته على استرجاعه إليها. ولكني أرى من الضروري أن أذكركم جميعاً باحترام التعليمات التي أعطيت له. هذا الرجل كان في عهد ما ضابطاً في الجيش، وهو يعرف بهذا حق المعرفة ما معنى التعليمات. أعتقد بأني لست في حاجة إذاً لتذكيره بالكيفية التي ينبغي أن يتصرف فيها. من فضلكم. أرجوكم أن تلزموا الصمت والحذر. لا نريد صخباً ولا هرجاً ولا مرجاً. وأعتقد أنه من مصلحته أن يخلد للراحة والهدوء.. على كل حال، سنلتقي في ما بعد.

حدجنا الباشا بنظرة ذات معنى، فهم ابن عمي مغزاها فتقدم وألقى كلمة مسهبة شكر فيها السلطات على النعمة السابغة التي تفضلت بها علينا، معرباً لها عن عميق امتناننا وعظيم عرفاننا على مساهمتها في إظهار الحق وإزهاق الباطل.. وجاء دور شقيقي فألقى هو الآخر أمام الحاضرين كلمة مماثلة. بعدها التفت الباشا إليّ ودعاني بنظرة صامتة إلى الكلام. وضعت أختاي يدهما على كتفي وعيونهما تتوسلاني أن أقول شيئاً. كانتا تتوهمان أن عدم اللهج بحمد السلطات معناه الرجوع الفوري إلى تزممارت.. طال الصمت ورجل السلطة واقف ينتظر. ما من شك في أنه كان يريد أن يسمعني إهانة أخيرة ويلحق بي كسراً موجعاً أمام أسرتي بعد أن يستدرجني إلى القفز معه كبهلوان فاشل فوق حبال كلمات منافقة كان هو من المجيدين في المراوغة بها.. أجل.. كان يتمنى أن أتصرف في آخر دقيقة من اعتقالي ككلب حقير يلحس أقدام السلطة ويلهث بكرمها المدرار.. كرمها الذي جاد عليّ بخمس عشرة سنة فوق السنين الخمس، ثم تفضل فعفا عني بعد أن فشل في قتلي كما تقتل الفيران الموبوءة في قنوات المياه الحارة. قطع الباشا حبل الصمت وهتف:

ـ أيها السادة، يمكنكم الانصراف.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع زوالاً في ذلك الثلاثاء المشهود من شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1991، حين خطوت أول خطوة لي نحو الحرية والانعتاق. تركت وراء ظهري ليلاً طويلاً دام خمس قرن من الزمن، وها أنذا الآن أخطو أول خطواتي تحت نور الله الدافئ الرحيم بلا عصابة ولا قيد ولا سب ولا حراس ولا ركل في الخلف ولا عواء مزاليج ولا تصفيق أبواب ولا فرقعة أقفال.

على عتبة باب المركز، انفرد الباشا هنيهة بابن عمي وهمس له في أذنه شيئاً. علمت في ما بعد أنه أمر الأسرة أن تقتادني إلى منزلنا

في قريتي الصغيرة «بوعجول» الموجودة على بُعد سبعة كيلومترات، بدلاً من بقائي في منزلنا بغفساي، حيث راح أن بعض المتعاطفين من أهل البلد كانوا ينتظرون قدومي بصبر نافذ ليخصصوا لي لقاءً حاراً، في حين كان الباشا يصرّ فيه أن يمر هذا اللقاء بدون أن يثير انتباه أحد:

ـ لا أريد حفلات ولا زغاريد ولا أجواء عيد. ينبغي أن يمر كل شيء في كامل السرية والهدوء.

أركبني أخي عبد الوهاب مع أختيَّ في سيارته العائلية القديمة «فياط 131» ثم انطلق بها وهي ترتعش من شدة الوهن بينما كان كل ركابها يرتعشون من شدة الفرح. هبطنا المنحدر الملتوي التواء حية هاربة، فتوهمت أننا كنا من شدة السرعة والاهتزازات نتدحرج في ذلك الطريق الوعر أكثر مما كنا نسير. كنت أبدو ساعتها كرهينة استرجعها أهلها ففروا بها هاربين وهم يتوجسون في كل لحظة أن يدركهم المختطفون.

توقفت السيارة بعد لحظة قرب المدرسة الابتدائية القديمة التي كنت قد تعلمت فيها أول حروفي الأبجدية، ففتح أخي الباب لمجموعة من التلاميذ الصغار كانوا يتسابقون نحونا بعيون ضاحكة تلمع بالتطلع والفضول، ثم أشار إلى فتاة جميلة كانت تبحلق في وجهي بعيون رمادية وابتسامة مشرقة فقال برنة اعتزاز:

ـ ابنتي بثينة.. إنها بكر أخواتها.. على فكرة. لم أقل لك بأني تزوجت بنت عمنا سنة 1978 وأني اليوم أب لخمسة أطفال.

تدخلت أختي ربيعة مصححة كلام أخينا وهي تضحك:

ـ والسادس في الطريق إن شاء الله.

عانقتني بثينة بحرارة وقالت مبتهجة:

ـ على السلامة يا عمي أحمد. أوحشتنا كثيراً.

تأثرت لحرارة استقبال بنت أخي التي لم أرها قبل هذا اليوم والتي أدهشني منها تصرفها التلقائي المتفتح المخالف تماماً لتصرفي المتزمت الخجول لما كنت في عمرها نفسه. فقلت لنفسي: لا شك في أن العالم قد تغيّر كثيراً.

لما تابعنا الطريق، نزل عليّ فجأة طوفان من المعلومات والأخبار. كان أخي وأختاي يتكلمان في وقت واحد محاولين في هذا السفر القصير تلخيص كل الأحداث التي مرت في غيابي طوال هذين العقدين من الزمن. لكن ذاكرتي الراقدة المعطلة كانت عاجزة في تلك اللحظة عن التركيز والاستيعاب، فكنت أكتفي بالإيماء كالتلميذ البليد الذي يوهم معلمه بهزات رأسه أنه فهم وعقله شارد في فلك آخر. لما وصلنا إلى «الدوار»، ترك الناس أشغالهم وتهافتوا رجالاً ونساء وأطفالاً لاستقبالي.. انهالوا عليّ تقبيلاً وضماً وتهنيئاً وأنا أمر بينهم كالعود اليابس من حضن إلى حضن. كم كانت رائعة تلك الحرارة الآدمية الفوارة المنبعثة من أعماق أولائك البسطاء الطيبين الذين أطلقوا وقتئذٍ لمشاعرهم العنان. قادني أخي إلى منزله المواجه ببضعة أمتار لبيت الوالدين. فلاحظت بمرارة أن هذا الأخير الذي كان يعد أجمل بيت في الدوار، قد استحال إلى شبه أطلال. لما تزوج إخواني وأخواتي ثم بنوا أعشاشهم، بقيت الوالدة وحدها بعد وفاة الوالد في ذلك البيت الكبير. وقد بذلت جهداً فوق طاقتها لصيانته، ولكنها أرخت يديها في النهاية مستسلمة لما قهرتها وطأة السنين. تنازل لي أخي عن غرفة نومه، فتمددت على الفراش وأنا أحس بتعب كبير. تمنيت ساعتها لو كان بمقدوري أن أغرق في نوم ثقيل، ولكن الناس كانوا يتقاطرون عليّ أفراداً وجماعات، فكنت أضطر من باب الأدب أن أخرج إليهم بين لحظة وأخرى. تناولت أول غذاء لي في عهد الحرية، فلم أستسغ ما أكلت من شدة التوتر والعياء

والتأثر. وتابع الناس توافدهم على منزل أخي فركبني العجب وشككت في ما كنت أعيشه. أصدق ما كنت أراه أم هلوسة من صنع خيالي المريض؟ كنت أسائل نفسي مستغرباً:

ـ من أنا حتى أستحق كل هذا التعاطف والتضامن والاهتمام؟

كنت ساعتها وما زلت موسوماً بميسم تزممارت. كنت نتاج معاملة وحشية رسخت في عقلي أنني لم أعد سوى فأر آدمي قدره ألا يثير في الناس سوى الطرد والتقزز والاشمئزاز. رغم التعب والألم الشديدين اللذين كنت أحس بهما من جراء انعكاس وهج الشمس في عيوني الذابلة، صمدت وقاومت وأنا أتجاوب مع هذه الجموع الطيبة الغفيرة التي أصبحت الأن تفد على المنزل في شكل أمواج.

بعد ساعات من قدومي، جاءت مجموعة من الفقهاء وحفظة القرآن ودخلت إلى «الغرفة»، تلك الحجرة العالية في بيتنا القديم، حيث كان أبي يستقبل ضيوفه في أيام عزه الزاهية. وما هي إلا لحظة حتى تعالت الأصوات تشق عنان السماء بقراءة جماعية لآيات بيّنات من ذكر الله الحكيم، كانت تقطع بدعوات صالحة وبشكل خالص عميق لمعجزة الله التي أعادتني إلى الحياة بعد أن كنت في عداد الموتى نسياً منسياً. في هذا الجو المتحمس الهائل المشحون برائحة الند والبخور وكؤوس الشاي، كان أخي متوتراً لا يستقر على قرار. يخرج من الغرفة ثم يعود إليها ليحيطني بآخر أنباء الأسرة:

ـ لقد أخبرت أمنا وشقيقنا سي محمد في الرباط بنبأ خروجك. سيأخذون الطريق إلينا بعد قليل. أمنا المسكينة لا تصدق أنك لا زلت على قيد الحياة. لقد قالت لي وهي تستعطفني باكية في الهاتف: «ارحموني يا أبنائي.. كفاني ما قاسيت ولا تزيدوني عذاباً بهذا الكذب».

أما أختنا ثريا فقد فقدت وعيها لما علمت بالخبر وهي في

مكناس. أخونا عبد اللطيف موجود في أكادير، وقد ألقى بنفسه في أول سيارة أجرة للالتحاق بنا. وعبد العزيز، أخونا الصغير الذي يشتغل محامياً في مدينة خنيفرة، اندفع بسيارته ماراً على ثريا في مكناس لأخذها معه. تلاحقت الساعات بسرعة هائلة لم أفطن بها وأنا كالسكران الغارق في خمرة ذلك الحلم الوردي المدهش. لم أشعر إلا والليل يرخي سدوله على «بوعجول»، قريتي الصغيرة المنسية المهمشة الخارجة عن إطار الزمان لوجودها في رقعة بئيسة من رقع المغرب الفقير غير النافع. بقيت كما تركتها. قرية على هامش الحضارة. بلا مدرسة ولا مستوصف ولا مكتب بريد ولا كهرباء ولا ماء شرب، اللهم إلا ذاك الماء الذي دأب أهلها على شربه من الآبار في الصيف الحارق، تماماً كما كان آباؤهم وأجدادهم يشربونه في الأصاييف الغابرة. مكتسب واحد تحقق وشكل بذلك استثناء بارزاً: الطريق غير المعبدة التي شقت بعزيمة ابن عمي عبد الخالق وأخي عبد الوهاب اللذين عرفا كيف يشحذان العزائم ويعبئان السواعد.

بدأت النساء في إشعال المصابيح البترولية كما كانت تفعل جداتهن في بداية القرن. ثم استعنَّ بعشرات الشموع لإضاءة أكبر مساحة ممكنة من المنزل. كان عليهن أن يسهرن تلك الليلة والليالي الكثيرة التالية لإعداد الطعام للناس. فقد ذبحت حسب الأعراف الجارية بقرة سمينة تحسباً لقدوم الوافدين من الأماكن القاصية.

بعد تناولي لطعام العشاء مع المقرئين، انسحبت من «الغرفة» وتوجهت إلى بيت أخي وأنا في غاية الإرهاق والتوتر. كنت أتمنى أن آخذ قسطاً من الراحة حتى أتهيأ نفسانياً للِّقاء الموعود. اللقاء الذي كان جميع أفراد أسرتي ينتظرونه بتوجس كبير وصبر نافد. لقائي مع أمي الحبيبة الذي كنت أتخيل فصوله مسبقاً فينصهر قلبي رقة وتأثراً وتذوب مهجتي إلماً وإشفاقاً. غلبني النعاس فدشنت بذلك أول غفوة

لي في عهد الانعتاق. كان نوماً متقطعاً تعاقبت فيه أحلام وردية وكوابيس مزعجة.

وفي كبد الليل، استيقظت مرعوباً على شيء غريب حدث لي وأنا أعتقد أني لا زلت في زنزانتي القديمة في تزممارت. شيء يستدعي تفسيره رجوع حتمي إلى السجن الرهيب:

في السنين الأخيرة من الأسر، تعودت النوم في كيس كنت أغلقه من الداخل بحبل كان يمر من بضع حلقات ويعقد في الجانب، وذلك لعلمي بأن النفس يشكل طاقة مهمة للحرارة. فكنت وأنا أغط في نومي العميق، أفتح العقدة تلقائياً وأذهب بدون أدنى وعي مني إلى المرحاض، ثم أعود وأغلق علي الكيس من جديد لأتابع نومي وكأني جنين مكوم في بطن أمه.

وذات ليلة وأنا أجر الحبل، انزمت العقدة فوقعت في الفخ كأرنب أبله. أفقت من نومي مذعوراً وشرعت أتخبط كمن به مس من الجنون، فمزقت الكيس بشق الأنفس وقد كنت على وشك الاختناق. ومنذ ذلك اليوم، هيأت نافذة للإغاثة، وحرصت أن تكون العقدة مفتوحة نوعاً ما.

في تلك الليلة، ليلتي الأولى وأنا خارج السجن، فعلت في نومي بكيفية آلية الحركات نفسها، فإذا بي أنطح برأسي دولاباً كبيراً سقط عليّ فأحدث ضجة أيقظت كل من كان في البيت.

في حدود الساعة الثالثة صباحاً، أيقظني من نومي المضطرب صوت محرك سيارة يقترب من المنزل. بسرعة البرق، استيقظت كل حواسي وتحفزت وكأنها حواس هر استشعر بقربه خطراً داهماً.. كان حدسي يصرخ في داخلي وأنا أنتصب واقفاً بأن أمي وصلت ومعها سي محمد، أخي الأكبر، الدبلوماسي البارز الذي تضررت حياته المهنية بسببي والذي أصبح يتحمل مسؤولية رئاسة الأسرة بعد وفاة

أبي.. هرولت عندي مجموعة من أفراد أسرتي لتخبرني بوصول أمي ولتتوسل إليّ أن أربط جأشي وأن أكون في مستوى الحدث. على كل حال، لقد كنت مصمماً على أن ألقاها بابتسامة عريضة كي لا أزيد في إرهاق قلبها المنهوك بشدة الألم وطول الانتظار، كما كنت أود أن أبرهن لها بأنني لا زلت كما كانت تريدني دائماً أن أكون: صابراً محتسباً أبياً. ولكن قلبي بدأ يدق دقات قوية سريعة سحبت من رئتي الهواء. لقد كنت في هذه اللحظة أشبه ما أكون بطفل صغير ضائع يُرد إلى أمه بعد غياب طويل مسح اليأس فيه من قلبها كل بارقة للأمل. كنت أحس بنفسي هشاً واهناً ضعيفاً متخاذلاً سيما بعد أن فاجأتني دمعتان قفزتا إلى عيني ولبدتهما بالضباب. لكني في انتفاضة كبرياء، قمعت أحاسيسي وخرجت للقاء أمي. استقبلتني نفحات من نسيم الفجر الوليد المحملة بعبق أوراق الخريف، فمسحت على وجهي في رقة وحنان. وبدت لي قبة السماء حين رفعت عيني إليها بحراً ساطعاً متوهجاً بشموع وقناديل بيضاء خيل إليّ وكأنها كانت تلوح لي وتضحك. تجمهر الرجال والنساء عن يميني وشمالي وتزاحموا بالمناكب وهم يضيئون لي الطريق المؤدي إلى شجرة التوت الهرمة المنتصبة في نصف مسافة بين منزل أخي ومنزلنا. في الجهة المقابلة، كانت جماعة بحجم جماعتنا تتقدم نحونا بخطوات بطيئة. جرى نظري بين أفرادها جريان الزئبق الملسوع بالنار، فإذا به يستقر في وسطها على وجه نحيف شاحب مروع لامرأة مسنة بجلباب أبيض. كانت تتقدم نحوي بخطوات مرتبكة مذعورة وكأنها تساق لمشاهدة ميت سينفتح عليه القبر بعد قليل ليقفز أمامها واقفاً على رجليه وقد نفخت فيه الروح. إنها المسكينة أمي. تعرفت إليها منذ الوهلة الأولى فانعقدت حنجرتي وأحسست بجفاف في حلقي.

إلهي.. لشدة ما تبدل ذلك الوجه الحنون الجميل.

تكالب الزمان عليه بضروب المحن والعذاب فرسم فيه لوحة باكية تحكي تجاعيدها العميقة بفصاحة صامتة عن مواسم الانسحاق المرعدة الممطرة التي حلت به. لما تواجهنا وأصبح كل واحد منا على مرمى خطوة من الآخر، وقفتُ. ووقفت. فتحت عينيها تنظر إلي كالمصعوقة. حاولت أن أبتسم، فجمعت شتات عقلي وقلت في دفعة واحدة بصوت خرج مبحوحاً من شدة الاختناق:

ـ حبيبتي أمي. كيف أنت؟

صرخت المسكينة صرخة واحدة جرحت من شدة حدتها أذن الفجر المتنفس، وهتفت وهي تشهق منصهرة في بكاء مثير ملتاع:

ـ ولدي.. ولدي.. أحمد..

ارتمت في أحضاني وعانقتني بكل ما أوتيت من قوة وهي تنوح وتئن وتتوجع غير عابئة بتوسلات إخواني وهم يناشدونها باكية أن تثوب إلى رشدها كي لا تزيد في محنة قلبها. ظلّت ملتصقة بي هنيهة طويلة كالتصاق الغريق بزورق النجاة، بينما وقف أخي سي محمد وأختي ثريا وأبناؤهما ينتظرون دورهم بدمع منهمر وشوق حارق.

وأخيراً، استطاع أخي عبد الوهاب أن يفصل أمي عني فسارع شقيقي الأكبر لعناقي وتلته أختي ثريا، أمي الثانية، تلك التي حضنتني هي وزوجها ابن خالي سي أحمد طوال دراستي الثانوية في مدينة مكناس. ثم تعرفت بعد ذلك إلى أبناء إخواني وأخواتي وبناتهم الذين لم يسبق لي أن رأيتهم باستثناء قلّة قليلة جداً تركتها وعمرها لم يتعد بضعة أعوام أو بضعة شهور. فاض الحنان والعطف عليّ من كل جهة، فأصبحت في رمشة عين محبوباً مدللاً مشمولاً بعناية الجميع وكأني وارث عرش أطل على الدنيا أخيراً بعد أن ذابت مهجة والديه من طول الانتظار. بقيت أمي الحبيبة آخذة بتلابيبي، تمسح بيدها الحانية على وجنتي وتكسو كل وجهي بقبلاتها الحارقة وهي تحملق

في قسمات الميت الذي كنته، غير مصدقة ما تعيشه وتراه. التفتت إلى الناس وهي في أوج انفعالها لتشهدهم على حالي فقالت برنة تقطر مرارة وكمداً:

ـ انظروا يا أسيادي.. انظروا وتفرجوا على ما فعله المخزن بولدي..

ولما تعالت الأصوات من كل الجهات تنصحها بالسكوت، تحدت الجميع وتابعت وكأنها تحدث نفسها:

ـ أما الآن وقد رأيته ولمسته وشممت رائحته، فليكن ما يكون. أغلى حلم في حياتي قد تحقق.. فلن أخشى بعد اليوم أحداً.

بدأت النقاشات والتعاليق والاستغرابات والتهاني تضرب أطنابها حولنا، فكانت اللازمة التي ترجع دائماً على أفواه المثقفين من الحضور هي: «الحي يرتجى.. سبحان من يحيي العظام وهي رميم..».

طلع النهار من دون أن نشعر، وامتدت أشعة الشمس الدافئة إلى قمم مرتفعات بوعجول المشجرة لترشحها بأقراس الذهب المذاب. رفض قسط كبير من هؤلاء السكان الطيبين الذهاب إلى حقولهم. وبالعفوية التي لا توجد إلا عند أهل البادية البسطاء، وضعوا أنفسهم رهن إشارة الأسرة ليشاطروها فرحتها وليساعدوها في ما هو آت. استأذنت أمي وأسرتي وانزويت في بيت أخي محاولاً أن أنام. لما احتواني صمت رحيم، رميت قناع كبريائي، وفسحت المجال لدموعي فانهمرت على خدي حارة سخية هادئة محررة مريحة. أحسست بنوع من الافتخار لأني رفعت التحدي حين استطعت كبح مشاعري وتماثلت بالهدوء والثبات. يمكنني الآن إذاً أن أنام قرير العين مرتاح الضمير.. فبعد ساعات ستبتدئ مرحلة جديدة من عمري.. سنتي الأولى في أحضان الحرية.

أول سنة في الحرية

مضى ما يقرب من شهر وأسرتي مجندة صباح مساء تستقبل الزائرين الوافدين من كل القبائل المجاورة. ونزولاً عند أوامر الباشا، لم تكن هنالك طبول أو مزامير أو زغاريد تبشر بأجواء عيد. غير أن هذا الحضور المهول المكثف كان خير معبر عن الصدى العميق الذي خلفه إطلاق سراحي في قلوب سكان المنطقة. فقد كانوا يتقاطرون وحداناً وزرافات، راجلين، وعلى ظهور البهائم، أو محمولين في شاحنات السفر الصغيرة والكبيرة، وفي بعض الأحيان، كانوا يتوافدون في العربات التي تجرها الجرارات الفلاحية. لم يدر في خلدي قطُّ حتى في أحمق تهاويم خيالي المريضة بتزممارت، أنني سأحظى يوماً بهذا اللقاء الحماسي الرائع.. لم أشك في أن شخصية المرحوم أبي ـ أقول هذا بدون تشدق ولا ادعاء ـ كان لها ضلع كبير في هذا التعاطف العظيم. فقد كان الرجل يتمتع بشعبية كبيرة واحترام عميق في أوساط القبيلة نظراً إلى خصال إنسانية لا زال المسنون من السكان يشهدون له بها بكيفية تلقائية. وقد حكى لي إخواني وأخواتي أنه لم يطق على فراقي صبراً سيما وأنه كان مريضاً بداء السكري، فلم يعمر بعد اختطافي سوى سبعة أشهر. فارق بعدها الحياة في 3 آذار/مارس 1974. غير أنه علاوة على هذه السمعة الطيبة، فإن تحليلاً هادئاً وموضوعياً يؤكد أن ذلك التضامن الكبير والتعاطف الشديد لم

يكونا سوى رد فعل لذلك الاستنكار العميق الذي أحس به الناس حين تبين لهم بالملموس بأن تزممارت لم تكن وهماً في خيال أعداء المغرب كما كان يروج لذلك عُبّاد السلطة، وإنما كان، يا للخزي والعار، مختبراً أجريت فيه وصفات الموت البطيء على أبناء فقراء هذا الوطن. وإن نسيت من تلك الفترة الخالدة التي أرعاها في ذاكرتي بكثير من الامتنان والعرفان لأبناء بلدتي، فلن أنس أبداً مثالاً رائعاً كان يجسد ذلك التعاطف الكبير بكثير من العفوية والتلقائية:

كان يزورني من حين إلى آخر رجل من قرية «تازغادرة» يسمى أحمد امريزق وكان في منتهى الكرم والأريحية. لم يكن لديه شيء لأن فقره كان مدقعاً. غير أنه كان يتدبر في كل مرة ما يشتري به موزاً أو تفاحاً ثم يأتيني به راجلاً من غفساي في بوعجول ليقدمه لي بابتسامة ساحرة ما كان أشبهها بابتسامة طفل سعيد. كنت أتأثر وأنا أرد له الهدية مؤكداً له بأن الله قد منّ عليَّ بكل النعم. ولكنه كان عنيداً ملحاحاً يحملني على أخذها حملاً. فكنت وأنا في حرج شديد من أمري أقبلها خوفاً من خدش كرامته:

ـ كل يا أخي. كل. ينبغي أن تسترجع قوتك. . إني أتصور أي بشاعة تعرضت لها. ليس على هذه البسيطة مخلوق أشد قسوة وهمجية من الإنسان.

فكنت أجيبه في نفسي متأثراً: «ولكن أمثالك هم الذين ينقذون الوجه الآخر للإنسانية».

حقاً. ما أنبل الكرم حين يأتي من فقير معدم لا يملك من قوت يومه ما يسد به الرمق، وما أفظع الجشع حين يصدر من غني ميسور إن وُهب ما على الأرض من ذهب لطمع في كنوز السماء ولما تنازل لسواه عن حبة خردل.

هكذا مرت الأيام سراعاً وأنا بين الأحضان الدافئة، تلبي رغباتي وتستجيب لنزواتي وتهدهدني كما يهدهد الطفل الرضيع في مهده. وبين فينة وأخرى، كنت أتشرف بزيارة نخبة مكوّنة من محامين ومن أطر التعليم في غفساي، منهم من عرف الاعتقال، ومنهم من نجا منه بأعجوبة، وجميعهم كانوا متسيسين وعلى مستوى عال من الثقافة والوعي. كنت أقضي بحضرتهم وقتاً ممتعاً وهم يفكون لي رموز أحداث كانت غامضة بالنسبة إليّ لما كنت في السجن، بينما كانوا هم ينصوت إليّ باهتمام بالغ وتشوق كبير وأنا أفضح لهم مآسي تزممارت.

وذات مساء، قدمت عندي مجموعة من مناضلي الجمعية المغربية لحقوق الإنسان فرع غفساي، فسلمت لي أعداداً كثيرة من جريدة «التضامن» وقدمت لي هدية رمزية رائعة ومعها رسالة كان قد كتبها أحد سجناء تزممارت ليصف فيها ما آلت إليه أحوال أصحابه بعد أن رحل نصفهم. وقد كانت الرسالة منسوخة على الحسوب، فلما تصفحتها وجدتها تبتدئ بهذه الآية الكريمة: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾.

وما إن ابتدأت في قراءة الجملة الأولى حتى شدهت حين تيقنت أنها رسالتي وأنا كاتبها في الزنزانة رقم 10 على وهج شمعة صغيرة من صنع يدي، وأن الفضل في تسريبها إلى الخارج يرجع إلى القبطان محمد غلول وإلى أسرته التي تكفلت بتسليمها إلى منظمة العفو الدولية وإلى منظمات حقوقية أخرى. وبعد مرور أسابيع عديدة، بدأت الأمور في وسط أُسرتي ترجع إلى مجراها الطبيعي، الشيء الذي جعلني أتطلع إلى مستقبلي بكثير من الشك والحيرة. فالسلطات التي وعدت بربط الاتصال بي بعد شهر لم يظهر لها أثر. والمرة الوحيدة

التي أستدعي فيها أحد إخوتي إلى «البيرو» كانت من أجل دق ناقوس الخطر وإخطاره بأني قد جاوزت بثرثرتي كل الخطوط الحمراء، وأنه عليّ أن ألجم فمي وإلا سيكون الباشا مضطراً لإشعار السلطات العليا. ذعرت أسرتي واستعطفتني ألا أعود أبداً إلى ذكر ذلك الاسم الملعون في قاموس المخزن، اسم تزممارت. فقد كانت تعتقد أن ذلك سيعرقل عملية التعويض الذي سأصبح بعده من الأغنياء الميسورين. لذلك كان بعضهم يملي عليّ رأيه وهو يتخيّل أن السلطات ستخبرني قريباً بين كثير من النعم:

ـ اختر رخصة نقل لحافلة تربط بين غفساي والدار البيضاء.

ـ لا. لم يعد النقل يدر الأرباح كما في الماضي، في رأيي، أطلب مالاً كثيراً ثم سنرى بعد ذلك..

ـ أما أنا فأعتقد أنه بالإضافة إلى الرخصة والمال، ينبغي أن تطلب منصباً كبيراً. ألا ترى أن عامل مدينة تاونات لم يكن سوى ضابط صف رجع من جبهة البوليساريو برتبة «لاجودان شاف»؟ أما أنت يا أخي فقد كنت في جيشنا ضابطاً».

كنت أبتسم وأنا أنصت إلى هذه الاقتراحات من دون أن أبدي أي تعليق. وفي نفسي، في أعماق نفسي، كان حدسي يؤكد لي بأن مشوار العذاب لا زال أمامي شاقاً طويلاً وأن المخزن لن يغفر لي ولأصحابي خروجنا من تزممارت نصف أحياء. وهكذا وجدتني أتساءل والمستقبل يتراءى لي كنفق ضيق حالك مظلم:

ـ ما العمل؟ أي مصير يمكن أن ينتظره رجل منبوذ مثلي؟ رجل منهوك مطارد ملعون متابع مريض مسن بدون شواهد وبدون موارد ويجرجر وراءه فوق كل هذا عشرين عاماً من التخلّف والتبليد؟

أحسست بالمرارة الشديدة وأنا أسترجع في ذاكرتي قولاً مأثوراً لحكيم تزممارت، صديقي محمد الزموري:

ـ إذا كنا سنخرج من هذا القبر لنعيش في الذل والمهانة ولنشحذ شفقة الناس ورحمتهم، فأحرى بنا ألف مرة أن نموت هنا في الصمت والكرامة.

أحسست فجأة أني أغوص في يم يأس قاتل أسود. ولكني سرعان ما تداركت الأمر واتهمت نفسي بالنكران والجحود: «ألم يكن أقصى أملي هو أن أعيش شهراً واحداً بعد تزممارت؟ وها هو ذا ربي يحقق لي أكثر مما كنت به أحلم: رعاية وحب وهواء ونور ودفء وشمس ومطالعة وأكل وشرب وحرية..» ولكن الإنسان لا يقنع أبداً بما هو تحت يديه لأنه مجبول دائماً على الطموح والاستزادة مما هو أفضل، فكل مملوك مهان كما يقول المثل. وهنا تذكرت قول النبي صلّى الله عليه وسلّم:

ـ لو أوتي ابن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب:

وبعد فترة من التذبذب، هيأت برنامجاً يومياً فحاولت أن أطبقه حرفياً رغم ما كنت أعهده في نفسي من خمول ومن تمرد على صرامة النظام. وهكذا قسمت وقتي بين المشي والمطالعة والنشاط الفرحي الذي لا يستدعي جهداً كبير كصيانة الورود. كنت أستيقظ باكراً وأقصد غابة صغيرة تبعد عن منزلنا بكيلومتر تقريباً تسمى «صفصافة»، ثم أبدأ بحصة استنشاق عميق لذلك الهواء الصباحي الطري الذي كنت أشتم منه رائحة الروابي العطرة. بعدها كنت أقوم بحركات تسخينية حذرة وأنا أغتنم فرصة الانفراد لأغني ملء حنجرتي أغاني خفيفة مرحة، كان الصدى يرجعها إليّ من السفح المقابل مقلداً ما كنت أغنيه. واتفق ذات صباح أن ضبطتني على ذلك الحال جماعة من الرعاة الصغار، فجلسوا قبالتي ينظرون إليّ متحسرين وتقاطيع وجوههم الصغيرة تنعتني بالجنون. ابتسمت لهم متحرجاً ثم سلمت

عليهم لأدرأ عن نفسي تهمتهم الصامتة، لكنهم غضوا الطرف عني إتقاء ما قد يطرأ بعد رد السلام. بعد طعام الفطور، كنت أجد متعة عظيمة في صيانة الغرس والأشجار: كنت أشذب وأُقلِم وأروي وأنزع الأعشاب الطفيلية بشغف كبير. وقد سجعتني هذه الهواية على إعادة غرس وترميم حديقة بيتنا التي أهملت كثيراً بعد وفاة والدي. وهكذا قطعت بفضل مستخدم شجرتي التوت الضخمتين وعوضتهما بشجرتي ليمون وثلاثة أشجار برقوق ثم سيجت الحديقة المستطيلة الشكل بزرب من الورد الأبيض والأحمر والوردي وغرست في الوسط أحواضاً من الخضر والنعناع الجيد الذي لا يحلو شاي بدونه في البادية. أما المساء فقد كنت أخصصه كله للمطالعة. كانت مجاعتي الفكرية لا تقل عن مجاعتي الغذائية. عطش حارق للأدب، للأخبار، للفن، للرسم، للسياسة، للفلاحة لكل شيء.. كنت أندفع في سباق محموم مع الزمن محاولاً استدراك ما لا يمكن أن يدرك. وفي هذا التهاتف المجنون، كنت كالجالس على جمر، لا أستقر على قرار، أقفز من كتاب إلى جريدة ومن جريدة إلى مجلة ثم أعود إلى الكتاب فأرميه بعد لحظة لأبدأ آخر. وفي خضم هذه المطالعة الفوضاوية، كنت أقيس بلا وعي ضخامة جهلي وعمقه فأحس بقلبي وهو ينصهر كمداً ومرارة. كان العقدان اللذان بُترا من عمري أشبه شيء بشريط «فيديو» فارغ. إن شغلته فلن ترى منه على الشاشة سوى حبات مبهمة لا كنه ولا معنى. ماذا كان سيخسر سجانوناً لو تركونا نملأ ذاك الشريط بما هو نافع؟ وعلى ذكر «الفيديو»، فلا زلت أذكر أن أول مرة رأيته مع التلفزة بالألوان كانت في بيت أختي نجاة خلال مأدبة عشاء أقامتها مع زوجها على شرفي: كان اليوم يوم سبت، وكانت الإذاعة الوطنية تبث سهرة غنائية متنوعة شارك فيها فنانون مشارقة ومغاربة. أخذت مكاني في الصالون الكبير الممتلئ عن آخره بأفراد الأسرة،

فتسمرت عيناي منذ الوهلة الأولى على شاشة التلفزة وهي تعرض أنهاراً من الصور الملونة البديعة. وفجأة، دارت بي الأرض دورتين لما جاء دور فنانة شرقية جميلة وقفت تغني بفستان ساطع يكشف عن نصف صدرها ويبرز مفاتنها بكيفية صارخة. غضضت طرفي على مضض حياء من الحاضرين. وتظاهرت بالسعال لحظة ثم شرعت أحك رأسي بيد بينما تماثلت بالبحث باليد الأخرى عن قلم مزعوم سقط على الأرض. كنت أعتقد أن أحداً سيقفز على التلفزة ليطفئها أو ليحولها إلى قناة أخرى. ولكن، كم كانت دهشتي عظيمة واستنكاري كبيراً لما رأيت عيون الحاضرين تنظر إلى التلفزة بهدوء واهتمام من يتابع نشرة أخبار بالغة الأهمية. ثم جاء دور مجموعة من «الشيخات» فشرعن يرقصن على إيقاع «بنذير» رنان وعواء كمان متوجع رقصاً فاضحاً اهتزت فيه الصدور والتوت الأرداف وتحركت فيه البطون صعوداً وهبوطاً بكيفية جعلتني أرخي رأسي على صدري من الارتباك والحرج.

ما الذي تغير؟ المجتمع أم أنا؟ ماذا كان سيحدث لو أن أبي وعمي كانا حاضرين معنا في هذه السهرة؟ أنا على يقين قاطع بأن جميع الحاضرين كانوا سيلوذون بالفرار قبل أن تحل بساحتهم صاعقة عتاب أليم. التفت إليّ محمد العربي، أحد أبناء عمي الذين أعزهم كثيراً، فقال لي مداعباً وهو يضرب على فخذي وقد فطن بحرجي الشديد:

ـ لقد تبدلت الأحوال يا ضفدعي الجميل.

كهل في الثانوية ثم الجامعة

كنت أتمنى وأنا في تزممارت أن أخرج إلى الحياة وأنا متمتع بكل طاقاتي العقلية. فقد كان حلمي الكبير هو أن أتابع دراستي وأحصل على إجازة إما في الأدب أو في الحقوق.

حين كنت أبوح بهذه الأمنية لأصدقائي، كان بعضهم يجاريني مجاملة وتأدباً، أما بعضهم الآخر فكان يناوشني ويسفه حلمي بالمداعبة تارة وبالسخرية أطواراً أخرى. وكان أشدهم مزاحاً وتهكماً رفيق كانت تفصلني عنه ثلاث زنزانات. فكان يقلد ضابط صف «كومي» اشتهر في أهرمومو بشكه الكبير في كل شيء، وكانت له طريقة فريدة في إظهار ذلك، إذ كان يغمز محدثه بعين ويهز له رأسه ماطاً شفتيه وقائلاً له بفرنسيته الرديئة:

ـ وي.. وي.. جي كُوني موا.. جي كوني بيان.. (نعم، نعم، أنا أعرف. أنا أعرف جيداً). شيّد لك من القصور في أوهامك ما حلا لك ما دام الحلم مسموح لك به في تزممارت..

ـ سترى بأم عينك يا صاحبي لو فرج الله عنا.

ـ هب أني سايرتك في تخريفك. فينبغي أولاً أن تحصل على شهادة البكالوريا قبل الوصول إلى الجامعة.

ـ أنت تعلم أني خضت امتحان البكالوريا مع بعض الأصدقاء في

سجن القنيطرة، وعوض منحنا الشهادة، منحونا تزممارت. . سأذهب إذاً إلى مدير السجن لأطالبه بالشهادة.

لنفرض جدلاً أنك نجحت في الامتحان، فهل تعتقد أن المدير سيسلمك الشهادة؟ إن تلك البهرجة التي عشتموها لم يكن الهدف منها سوى التمويه على الرأي العام الدولي فقط.

ـ في هذه الحالة سأعيد اجتياز امتحان البكالوريا.

ـ كما ستكون مضحكاً حقاً وأنت تخوض الامتحان مع أطفال في سن أصغر أبنائك لو كان لك أبناء، لا سيما وأنت بهذا الرأس الأصلع اللماع وذاك الوجه الشاحب الذي يشبه وجه حفّار القبور.

ـ لا يهمني ذلك بتاتاً.

ـ أتعلم أن الإذاعة الوطنية تتنقل عادة بين بعض الثانويات لتبث في نشرات أخبارها لقطات للتلاميذ وهم يخوضون الامتحان؟

ـ وبعد؟

ـ ستجعل منك عدسة الكاميرا هدفاً رائعاً ستثير به ضحك المغاربة قاطبة.

ـ ربما. . ولكن سيوجد من بين المشاهدين من سيعجب بهذه الجرأة. . فليس هنالك سن محدودة لأخذ العلم والمعرفة.

ـ طبعاً. . ولكن خيالنا في تزممارت كثيراً ما يختلط بواقعنا اختلاطاً كاملاً يستحيل علينا أن نميّز فيه هذا من ذاك.

ـ سترى يا صاحبي سترى.

ـ وي. . وي. . جي كوني موا. . جي كوني بيان.

في دراستي الابتدائية، كنت أعد واحداً من أنجب التلاميذ في القسم. ومرد ذلك، كما أعتقد، إلى عناية والدي الذي كان يُحسب على تلك الصفوة القليلة في البادية التي حظيت بمتابعة دراستها في جامعة القرويين بعد أن تجشمت من أجل ذلك المشاق والصعاب.

غير أن الذي كان يجبرنا على أن نتفوق على أنفسنا ونعمل بالليل والنهار بدون تهاون ولا انقطاع هو ثلاثي حديدي: معلم العربية الوحيد في المدرسة وأول مربي آنذاك في القبيلة كلها، ابن عمي وزوج أختي الذي كان مجرد ذكر اسمه بين التلاميذ يثير الذعر والهلع: فقد كان الحاج سي الحسن رجلاً مستقيماً كفؤاً فاضلاً موهوباً نذر حياته للتعليم فأعطاه عصارة عمره، تحدوه في ذلك وطنية حارة ملتهبة وجهاد عميق صادق في محاربة الجهل الذي كان آنذاك مخيماً على تلك المنطقة كقطع الليل الكثيف المظلم. لقد كان يعتبر كل تلامذة المدرسة أبنائه، وكانت أسمى أمنية تدور حولها حياته كلها هي أن يجعل منهم قدوة تبز في استقامتها واجتهادها جميع تلامذة المنطقة بما فيها فاس، عاصمة العلم نفسها. من أجل ذلك كان يطبق المبدأ التعليمي الرائج آنذاك: «العصا لمن عصى».

لم يكن سي الحسن ليرحم كسولاً أو ليتجاوز عن متهاون سيما وأن السلطات الفرنسية كانت قد خولت له صلاحيات مطلقة في إنجاز مهمته، إضافة إلى ذلك، كان آباء التلاميذ يكنون له احتراماً عميقاً ويرددون له كلما سنحت الفرصة مقولتهم المشهورة:

ـ أنت تذبح ونحن نسلخ.

ورغم إنجازنا لتمارينناا وحفظنا لدروسنا فقد كان الواحد منا كثيراً ما يأخذ منه الخوف مأخذه فيبلل سرواله وهو يسمع أمر معلمه:

ـ هيا.. قم إلى السبورة..

كان الشخص الثاني أشد وأنكى من معلم المدرسة. إنه فقيه الكتَّاب أو (الجامع) الذي كان يتكفل بتحفيظنا القرآن الكريم. لقد كان الرجل في كلمة موجزة جلاداً من الطراز الرفيع. وأعتقد أن فضله الكبير عليّ هو أنه هيأني فأحسن تهيئتي لتزممارت. أما الشخص الثالث، فكان هو عمي سي لحسن، والد معلمي الذي كنا نناديه بـ:

«بابا سيدي» لأنه كان يكبر والدي بسنتين وكان له عليه نفوذ كبير. كان المرحوم عمي ظاهرة طبيعية من حيث قوة الجسم وصلابة البنية. وكان له بهذا في تاريخ قريتنا زمن استشراء «السيبة» بطولات وملاحم برز بها في الذود عن حمى أهله وعشيرته، ولهذا فقد بقي مهاب الجانب من السكان رغم تقدمه في السن. وأعتقد أن سر ذلك كان راجعاً إلى يسراه القوية الشديدة التي حافظت على فعاليتها الكبيرة وحساسيتها المفرطة. فكان الويل كل الويل لحنك أخطأ صاحبه فهوت عليه. وقد كان للرجل في الحياة حِرَف عدة، فهو علاوة على حفظه للقرآن الكريم، تجده مرة فلاحاً ومرة نجاراً ومرة صياداً ومرّة أخرى بنّاء. وفي أوقات فراغه، كثيراً ما كان يأخذ على عاتقه إرغام الكبار على مداومتهم لصلاة الفجر وقراءة «الحزب» مرتين في اليوم. أما الصغار، فكان يراقب بانتظام حضورهم اليومي إلى الكتّاب لحفظ القرآن الكريم. كان يوقظنا كل صباح باكراً قبل آذان الفجر بقليل، ثم يذهب بنا إلى المسجد حيث كنا نحفظ القرآن إلى غاية الساعة السابعة إلا ربعاً. وبعد تناولنا سريعاً لطعام الفطور، كنا نأخذ حقائبنا ونقطع راجلين سبعة كيلومترات عبر طريق وعر ملتوٍ يمر بين السفوح والوديان لنصل في الوقت المحدد إلى المدرسة كي لا نكون على موعد مع مسطرة المعلم. وفي عودتنا إلى المنزل في المساء، كنا نأخذ طعاماً خفيفاً ثم نتوجه تواً إلى الكتاب لإتمام حفظ ما كنا قد بدأناه في الصباح. وكانت ساعة الخلاص لا تدق إلا مع آذان صلاة العشاء. وفي فجر الغد، كان البرنامج الجهنمي يتواصل بصرامة لا تعرف هوادة ولا رحمة. ولم تطو هذه الصفحة العصيبة من حياتي إلا بعدما أحرزت على الشهادة الابتدائية ونجحت في الدخول إلى الثانوية. وبما أن غفساي لم تكن فيها ثانوية آنذاك، فقد اضطررت مع صديق طفولتي عبد اللطيف الشاوني أن نرحل إلى قرية «با محمد» التي تبعد

عن غفساي بستين كلم تقريباً لمتابعة دروسنا في ثانويتها الوحيدة. ونظراً إلى عدم توفرنا على المنحة الدراسية فقط اضطر والدنا أن يكتري بيتاً طينياً قرب الثانوية. وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة مجبرين على تدبر أمرنا بمفردنا لمواجهة الطبخ والغسيل وما يتبعهما من الأشغال المنزلية التي لم نكن قد هيئنا لها سلفاً. ولكن في مقابل ذلك، كنا نطير فرحاً من كثرة السعادة ونحن نرى أنفسنا أحرار طلقاء.

وبعد مرور ثلاثة أشهر، اضطر والدي أن ينقلني إلى ثانوية مولاي رشيد في فاس نظراً إلى النقص الكبير الذي كانت تشكو منه ثانوية القرية على مستوى الأساتذة. فوجدتني ألتحق بأخي عبد اللطيف الذي كان يدرس في ثانوية مولاي إدريس الشهيرة ويسكن مع بعض من أبناء عمي الذين كانوا يدرسون العلوم الدينية في جامعة القرويين. أبهرني جمال المدينة وأسكرتني الحرية وعدم المراقبة فرسبت تلك السنة. وفي السنة التالية لم أنجح إلا بشق الأنفس. فعوض أن أراجع دروسي كما كنت أرغم على ذلك في الماضي، أغرمت بالسينما غراماً ملك كل شيء فيَّ، فاقتفيت بذلك سكة أخي عبد اللطيف الذي كان يتفوق في معرفة أسماء ممثلي وممثلات هوليود أكثر مما كان يعرف أسماء أساتذته. وفي بداية سنة 1962، غادرت ثانوية مولاي رشيد إلى ثانوية مولاي يوسف في الرباط، حيث قضيت قرابة ثلاثة أشهر هناك لأكمل السنة بعد ذلك في ثانوية «بويميرو» في مكناس. فقد حدث أن تزوج أخي الأكبر، ولما استقر في الرباط، ارتأى أن يخفف العبء الضاغط على والدي الذي كان يتحمل مسؤولية ستة أبناء قاصرين. فأخذني وأختي ربيعة معه للدراسة في العاصمة، غير أن ظرْوفاً قاهرة حالت دون ذلك، فرأيتني أحط الرحال في منزل أختي ثريا وزوجها ابن خالي الذي كان يشتغل معلماً

في إحدى مدارس العاصمة الإسماعلية. وهنالك نعمت بالدفء والاستقرار أخيراً بعد تلك التنقلات الكثيرة المتعبة.

في سنة 1964، أحرزت رغم تقاعسي الكبير الشهادة الثانوية. ولكن ليس في كل مرة تسلم الجرة، فقد رسبت في السنة التالية بكيفية فظيعة. وفي السنة التي تلتها وجدتني أغادر الدراسة بكيفية نهائية. في السنة نفسها، تقدمت لامتحان الدخول إلى مدرسة غراسة البساتين الفلاحية في مكناس فنجحت. غير أني سرعان ما عزت صفوف الكسالى منذ البداية بعد أن آنست من نفسي إعراضاً عن الدراسة. فوقع المحذور وطردت من المدرسة شر طردة. وقد كان هذا الفشل الجديد ضربة قاضية لوالديَّ اللذين قاطعاني مدة طويلة نظراً إلى الصدمة العميقة التي أنزلتها بهما. غير أني لم أستسلم ولم أرخ يداي حين تقدمت في السنة نفسها لمبارة الأكاديمية العسكرية بنجحت. وبعد سنتين من التدريب، وسنة من التمرس على مهنة الضابط، تميّزت خلالها بعدم انضباط كبير جعلني أحصل على أعلى رقم من حيث عدد أيام العقوبة المقضية في السجن، تخرجت ملازماً ثانياً كسائر أصدقاء الفوج، ثم أرسلت إلى مدرسة أهرمومو العسكرية. كان هذا هو المشوار الدراسي الذي قطعته قبل أن أصل إلى مدرسة أهرمومو. وهكذا لما نقل الكولونيل اعبابو وقتئذٍ بعض الضباط إلى وحدات أخرى، احتفظ بي من جملة من احتفظ بهم من الضباط الجدد بإيعاز من أحد قدمائي الذين لم يكونوا ينتظرون سوى تلك الفرصة السانحة لإيجاد من يخلفهم كي يرحلوا بعيداً عن تلك المدرسة. والحقيقة هي أنني لو كنت قد بقيت آنذاك وفياً لطباعي المتمردة، لكنت من بين الأوائل الراحلين عن تلك المدرسة. ولكن صرامة المدير الشديدة، جعلتني أجنح إلى الانضباط خوفاً من تعيين تأديبي في تخوم الصحراء، وهو احتمال مرعب كان يقظ مضجعنا

جميعاً نحن الضباط الشباب الحالمين بمباهج مدينة في الداخل. وبعد أحداث الضخيرات، حين أصدرت المحكمة العسكرية حكمها، وجدت في السجن فائضاً من الوقت لقراءة أجود القصص العربية والفرنسية التي كانت أسرتي وبعض من أصدقائي يمدونني بها.

وفي صيف 1973، سمحت لي إدارة السجن المدني في القنيطرة خوض امتحان شهادة البكالوريا مع بضعة أصدقاء. وفي الوقت الذي كنا ننتظر فيه أن نساق إلى ثانوية من ثانويات المدينة، جاء أمر معاكس ينص على أن الامتحان سيجرى في إحدى قاعات السجن المعدة لهذا الغرض. وأرادت الصدف الغريبة أن يكون من بين حراس الامتحان أستاذين كانا رفيقين لي في الدراسة لما كنت في ثانوية مولاي إسماعيل في مكناس. كان الأول فاسياً جمعتني به في الماضي صداقة ومودة، فاعتقدت أنه سيسعد بلقائي وسيتهافت لعناقي كما كان يفعل في الماضي، لكنه خيب طني كثيراً حين تجاهلني ونأى بجانبه ولم يحيني إلا في نهاية الحصة. تحية متعالية جرحني بها في الأعماق حين وقف ورائي مشبكاً يداه على صدره وهو يتظاهر بقراءة ما كنت أكتب، بينما كان لسان حاله يشعرني بالفرق الشاسع الذي أصبح بين الأستاذ الذي كان يمثله والتلميذ السجين الذي كنته. تصرف غريب لم أفلح قط في فكّ رموزه أو معرفة دواعيه. أما الأستاذ الثاني، أستاذ اللغة الإنجليزية، عبد الرافع بن حلام، فقد تصرف تصرف الكرام النبلاء. فبمجرد أن رآني قصدني وقد بدت على أساريره علامات الاندهاش والتأثر، فعانقني بحرارة وسرَّى عني كثيراً. وفي المساء، عاد ومعه رزمة من علب السجائر وأشياء أخرى قدمها لي وهو يلح عليّ إن كانت لي حاجة يقضيها: الناس طوب وحجر كما يقول المثل العامي السائد.

مرّ الامتحان الكتابي والشفوي على أحسن حال. وأكد لنا الأخ

بن حلام بأن نسبة النجاح بيننا ستكون لا شك مرتفعة. غير أن الإدارة الكريمة، بدل أن تزف لنا بشرى النجاح اجتهدت فقدمت لنا عوضها مفاجأة تزممارت. كان المكتسب الوحيد الذي حققناه في ذلك المعتقل الرهيب هو حفظنا للقرآن الكريم مع مئات من الأحاديث النبوية الشريفة إضافة إلى نظم ابن عاشر وبردة الإمام البصيري. أما ما عدا ذلك، فقد كانت جامعة تزممارت بحق مفخرة في علوم التبليد والتهويس والتحميق. شهران بعد إطلاق سراحي، فكرت في التقدم لامتحان البكالوريا رغم صحتي المتردية. لكني وجدت مِن سوء حظي أن وقعت التسجيل قد فات. وفي السنة التالية، كنت في الموعد المحدد فقدمت ملف ترشحي لمندوبية التعليم في سلا. وقد كان لي أبناء إخوة انقطعوا عن دراستهم فكانوا يمازحونني كثيراً وهم يعتقدون أن حماسي مجرد سحابة عابرة سرعان ما ستتلاشى مع مرور الأيام.

وفي شهر شباط/ فبراير من سنة 1993، تسلمت استدعاء الامتحان، فرأيتني واقفاً ذات صباح أمام باب ثانوية «الطيب العلوي» في سلا وقلبي يخفق في صدري كقلب عاشق مراهق يدشن أول موعد غرام له في قصة حبه العذري العاصف. اندهشت من كثرة عدد التلميذات والتلاميذ الذين وقفوا يدردشون بوجوه مترقبة شاحبة وهم ينتظرون حلول الساعة الثامنة. من كان يستطيع منهم أن يصدق بأن هذا الكهل الأصلع ذا الوجه اليابس والعيون الذابلة هو أحد الناجين من جحيم تزممارت؟ أحد الثمانية والعشرين الخارجين من مغارات العصور الحجرية. جاء ينافسهم بعد أن انقطع عن دراسته رفع قرن من الزمن ليعود إليها وهو في عمر أبيهم؟

لما رن الجرس، اندفعت أمواج بشرية يافعة إلى ساحة الثانوية، فبدوت وأنا في وسطها لحناً نشازاً كان يستره إلى حين هدير الدردشة

الصاخبة. وعندما حددت القسم الذي سأخوض فيه الامتحان، ترددت لحظة قبل أن ألجه. شعرت بحرج شديد يجتاحني فجأة وبصوت ملح بداخلي يأمرني أن أرجع أدراجي قبل أن يبد الامتحان:

«اعترف بأن الركب قد فاتك وأن زمان الامتحانات بالنسبة إليك قد ولى بدون رجعة.. غادر هذا المكان وكرامتك مصانة قبل أن تصبح مهزلة يتندر بها هؤلاء الصغار..».

ولكن الحماس الذي كان يتقد في أعماقي مدني بالجرأة الكافية ودفعني إلى داخل القسم دفعاً. تطلعت إليّ عيون التلاميذ بفضول وقد ظنوني لا شك حارساً أو مديراً للمؤسسة. بحثت عن رقم مكاني فإذا بي أجده من سوء حظي واضحاً بيننا في مقدمة أحد الصفوف الوسطى. لما جلست، تناهت إليّ ضحكات خافتة انفلتت من هنا وهناك، فأحسست بالدم يتصاعد حاراً إلى وجنتي.. إنها والله لورطة. تذكرت مزحة رفيقي في تزممارت لما قال لي ساخراً:

ـ ستجعل منك عدسة الكاميرا هدفاً رائعاً ستثير به ضحك المغاربة قاطبة. وي.. وي.. جي كُوني موا.. جي كوني بيان.

لقد بدأ تنبؤه يتحقق.. ولكن من حسن الحظ أنه لم تكن هناك كاميرا لتصوير المشهد. جاء الحراس وشرعوا يوزعون أسئلة الامتحان. توقفوا لحظة، ثم تبادلوا نظرة ذات معنى قبل أن يسلموني الأوراق. سقط صمت ثقيل على القسم حين جحظت العيون وهي تستطلع فحوى الأسئلة. تحولت الأنظار عني والحمد للّه. أصبح الآن لكل امرئ شأن يغنيه.. شعرت بالارتياح إلى حين، فاسترجعت هدوئي وأنا أركز بدوري على نقط الاستفهام الفاغرة فاهاً في ذيل كل سؤال. بدأ الحراس يتجولون بين الصفوف وهم يمشون بخطوات لا تكاد تسمع. ومن حين إلى آخر، كان بعضهم يتوقف هنيهة وراء هذا أو ذاك لقراءة ما كان يكتب. قصدني حارس شاب بدا لي على عتبة

الثلاثين فوقف ينظر إلى ما كنت أحرره بفضول كبير، ثم مال عليّ وهمس في أذني:

ـ هل أنت موظف؟

ـ لا..

ـ تشتغل إذن في القطاع الخاص؟

ـ لا.. أنا عاطل.

رد عليّ وهو يرفع حواجبه مستغرباً:

ـ عاطل؟

استدركت لأقلل من استغرابه فقلت:

ـ نعم عاطل.. ولكني أتعاطى من حين إلى آخر لبعض الأنشطة الفلاحية.

ـ آ.. أفهم.. اسمك ليس غريباً علي. لكني لا أذكر أين ومتى..

ابتسمت له تأدباً فرد لي بسمتي وهو يهز رأسه كمن ينفض عن ذاكرته الغبار ثم همس لي مرة أخرى:

ـ إذا ما استعصى عليك شيء فلا تتردد في مناداتي.. قد يكون في ميسوري مساعدتك.

في هذا الوقت بالذات، كان النقل يضرب أطنابه في القسم. تلامذة كثيرون كانوا يتبادلون الأوراق الصغيرة المطوية تحت أنظار الحراس المتعامية ويتواصلون بحديث يكاد يكون مكشوفاً. بيد أنه لما كانت الوشوشة تبلغ حداً غير معقول كان بعضهم يتدخل بعنف وهو يفتعل الغضب ليرجع الغش إلى الحد الذي يبقى فيه معقولاً. ذهلت كثيراً وأنا أرى انعدام الصرامة لدى الأساتذة وقلّة الاحترام لدى التلاميذ. في زماننا، كان الأستاذ قدوة حسنة في هندامه وسلوكه وتصرفاته، فكان التلاميذ ينظرون إليه بعين الإكبار والإعجاب

ويتنافسون في احترامه والتأسي بأخلاقه. أما اليوم، فقد رأيته على العموم رجلاً باهت الحضور فاقد الهيبة، يتجاسر عليه تلامذته فيطأطئ الرأس ولا يحرك ساكناً. والأدهى والأمرُّ هو أني لاحظت في بعض الحالات بكثير من الحسرة والألم تلامذة أحسن هنداماً من أساتذتهم، وأساتذة يشحذون السجائر من تلامذتهم. وأعتقد أنه لا يسوغ لأحد أن ينحي باللائمة على هؤلاء المجاهدين الذين كادوا أن يرفعوا إلى مصاف الرسل بقدر ما ينبغي أن تلقى المسؤولية على الدولة التي جعلت من رواتبهم المتدنية طريقاً سياراً يفضي إلى الفاقة وشظف العيش.

مرت الدورة الأولى من امتحان البكالوريا بسلام. ولكن النتيجة كانت بالنسبة إليّ خذلاناً كبيراً وفشلاً ذريعاً. وقد زاد من مرارتهما سخرية أبناء إخوتي اللاذعة. وفي الأيام التالية، أعلنت للجميع بأني استسلمت وتخليت عن طموحي في متابعة المشوار. ولكني كنت مصمماً في أعماقي على تحقيق حلمي القديم ولو كلفني الأمر خوض الامتحان عشرات المرات. كان العناد الشديد والعطش الكبير للعلم يمداني بالطاقة اللازمة للاستمرار إلى النهاية. وهكذا هيأت لنفسي على بعد شهر من الدورة الثانية برنامجاً صارماً وشرعت أجتهد في الخفاء بعيداً عن أي ضغط نفساني. ومرت الدورة الثانية. فعشت بعدها توتراً غريباً كالذي عاشه المتبارون المراهقون وهم ينتظرون إعلان النتائج. وعندما لاحظت صمتاً من طرف الإدارة، تيقنت بأني منيت مرة أخرى بفشل أنكى من سابقه. والمشكل هو أني كنت أجهل بأن النتيجة النهائية لا ترسل في ظرف بريدي إلى المتبارين كما كان الحال مع نتيجة الدورةِ الأولى وإنما تعلق على سبورة في الثانوية. التحقت بالمؤسسة بعد مرور شهر على إعلان النتائج. فلما سألت عنها المدير الذي وجدته يتأهب للسفر من أجل قضاء إجازته الصيفية

مع أسرته، بدت على ملامحه علامات الاستغراب ثم صحبني إلى القبو حيث رميت السبورات. رأيت اسمي لا زال مكتوباً في أحد الأعمدة. لقد نجحت.. غمرتني فرحة عارمة فشعرت وكأني طائر يجنح في الأعالي محلقاً فوق الجبال والبحور.

في صباح اليوم التالي، وبدون أن أخبر أحداً، ذهبت إلى أكاديمية الرباط فسحبت دبلومي. لقد رفعت التحدي.. وربحت المعركة الأولى.

في الجامعة

لا زلت أجهل إلى اليوم لماذا وجدت معارضة شديدة من طرف بعض موظفي إدارة الجامعة في تسجيلي بكلية الحقوق. ولكني توصلت إلى مبتغاي في نهاية المطاف بفضل إصراري الشديد، وبمساعدة أحد أصدقائي المتمرس على دواليب الإدارة. مباشرة بعد التسجيل، رجعت إلى غفساي وقدمت طلباً للاستفادة من المنحة، فحصلت عليها بدون عناء بواسطة محامٍ كان يوماً ما رفيق أخي عبد اللطيف في الدراسة ثم أصبح في ما بعدُ رئيساً للمجلس الإقليمي في المنطقة. وهكذا وجدتني ذات صباح من أيام تشرين الثاني/ نونبر 1993 أضع رجلي لأول مرة كطالب في كلية الحقوق في جامعة السويسي 2 في الرباط. كنت خجولاً مرتبكاً وأنا أحاول الاندماج في تلك الجموع الشابة الغفيرة ذات الوجوه المشرقة بالطراوة والحماس. وكانت أمنيتي آنذاك هي أن لا أثير انتباه أحد حتى أنعم بالسكينة وهدوء البال. غير أني رغم جلوسي في مؤخرة المدرج الممتلئ إلى التخمة بالطلبة والطالبات، أحسست بالنظرات وهي تحاصرني من كل جهة، لأني كنت بدون منازع في سن أكبر آباء هؤلاء الشباب عمراً. اجتاحتني آنذاك وحشة غريبة وأنا أقيس الهوة السحيقة التي تفرقني عن

هؤلاء اليافعين الخارجين حديثاً من طور المراهقة. غير أني لاحظت بعد مرور وقت قصير بأن الفضول الذي أثرته في الجامعة كان أقل حدة من ذلك الذي عانيت منه في امتحان البكالوريا. ففي حقيقة الأمر لم يكن حضوري سوى نشاز تبيحه الكلية من حين إلى آخر بين صفوف طلابها. فالكل يعلم أن بعض الموظفين المسنين نسبياً يلتجؤون أحياناً إلى الجامعات لانتزاع إجازة يحسنون بها وضعيتهم في السلم الإداري. كما أن صنفاً آخر من هذه الفئة تتفتح شهيته للدراسة في مرحلة ما من عمره فيقبل على الجامعة بدون أدنى مركب نقص. وقد حكى لي أحد الضباط السامين بأنه كان رفيقاً لابنه وبنته في الدراسة طوال أربعة سنين، وحاز إياهما على الإجازة في السنة نفسها. وهكذا بدأ حرجي يخف مع الأيام رويداً رويداً ولكن من دون أن يزول نهائياً. فقد كنت في أعماقي أتألم ألماً مبرحاً من جراء عاهة نفسانية مستديمة. عاهة ترتبت عن الشباب الذي لم أعرفه ولم أعشه لأني تركته مدفوناً ورائي في ظلمات الزنزانة. لقد كان إحساسي العميق بهذا النقص يجعلني شكاكاً حساساً أفسِّر كل نظرة وأؤول كل بسمة خطأ معتقداً بأن كل من حولي لا يكن لي في نفسه سوى الرفض والاحتقار. لهذا وجدتني أنكمش على نفسي متألماً لعدم قدرتي على التجاوب مع رفاقي في الدراسة. لقد كانت الجامعة بالنسبة إليّ عالماً يعج بالمتعة والخيبة والتناقضات. فالمتعة كنت أستقيها من شعوري بالظفر على هذا المخزن الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا استعملها من أجل تحطيمي. كما كنت أجدها كذلك في إحساسي الرائع بأني كنت أسترجع الشباب المسلوب وأنا أعيشه في الاتجاه المعاكس الذي تدور فيه عقارب الزمان الهارب. أما الخيبة فكانت تأتي من الإحساس بذلك البون الشاسع الذي كانت ألمسه بين طلبة جيلي وطلبة هذا الجيل. فالسواد الأعظم من طلبة ذلك الزمان كانوا

متسيسين ومتعطشين للثقافة ويحملون فوق ذلك في قلوبهم هموم بلادهم مستعدين للانتصار لها والتضحية من أجلها بالغالي والرخيص. أما طلبة هذا الجيل ـ أقول هذا بدون تعميم ـ، فقد رأيتهم مدجنين باردين يميزهم طابع اللامبالاة والإعراض الكلي عن السياسة وكل ما يمت إليها بصلة وكأن مرادفها في قاموسهم معناه: الخطر المؤكد. إضافة إلى كل ذلك، فقد أذهلني فيهم مستواهم الثقافي الضعيف وتخليهم عن بعض القِيم التي كانت في الماضي تاجاً على هامات طلاب العلم. وأعترف بأن هذا الحكم قد يكون قاسياً وربماً جائراً لأنه حكم إنسان تخلف عن مجتمعه عقدين من الزمان فاحتفظ في ذاكرته بنماذج قديمة أكل الدهر عليها وشرب. أما التناقضات، فقد رأيتها في الفرق الصارخ بين الطبقات الاجتماعية: فهذه فئة قليلة من أبناء المترفين الميسورين «تغنغن» بفرنسية متبجحة تتبرأ من كل ما يمت إلى العرب والإسلام بصلة، وتتهادى في ردهات الجامعة بآخر صيحات الموضة الباريسية، وتقدم إلى الكلية محمولة على أفخر السيارات التي يقودها سائقون مهندمون أو يسوقونها بأيديهم الرخوة. وتلك فئة تشكل الغالبية العظمى من أبناء الشعب، تلبس لباساً بسيطاً لكنه نظيف وتقدم إلى الجامعة إما راجلة إن كانت من المستفيدات ببيت في الجامعة وإما في الحافلات أو على الدراجات النارية أو الهوائية. وبوعي أو بدون وعي، كان أفراد الفئة الأولى يجتمعون في ما بينهم ويتصاحبون على شاكلة الطيور التي لا تقع إلا على أجناسها، وكأن المال المتوفر عند هؤلاء والغائب عند أولائك قد رسم بين الفئتين حدوداً بالكهرباء والأسلاك الشائكة لم تكن تقطع من جهة إلى أخرى إلا في الحالات القليلة النادرة.

كان بيتي الصغير يوجد في حي من أكثر أحياء مدينة سلا بعداً وشعبية. وكانت المسافة الفاصلة بينه وبين جامعة السويسي 2 مسافة

طويلة جداً تقتضي أخذ أربع حافلات في الذهاب والإياب، هذا بغض النظر عن مسافة طويلة أخرى كنت أقطعها راجلاً من بيتي للوصول إلى المحطة. وذات يوم وأنا في الجامعة، قدم عندي واحد من أكبر الطلبة سناً بدا لي وكأنه تجاوز الثلاثين بقليل. فقدم لي نفسه وقال بأنه موظَّف في وزارة البريد. كان الشاب في منتهى الطيبوبة والكياسة فارتحت إليه كثيراً ونمت على إثر ذلك بيننا صداقة متبادلة استغللناها في تعاون مثمر بيننا في الدراسة. فكان كلما غاب أحدنا حضر الآخر وسلّم لصاحبه تسجيلاً لما فاته من الدروس. وبفضل هذا الشاب، تعرفت إلى كثير من الطلبة نظراً إلى السهولة الكبيرة التي كانت له في التواصل معهم. غير أني لاحظت أن بعضهم كان يعرض عني وعنه بدون أن أعرف لذلك سبباً. وذات صباح، وبينما أستاذ القانون الدستوري السيد عبد اللطيف المنوني يلقي درسه بالفرنسية، إذا بكلمة تند عنه، فاستوقفه أحد الطلبة سائلاً عن معناها.

كان السيد المنوني أستاذاً قوي الشخصية، اشتهر في الجامعة بالكفاءة والجدية فكان بذلك محترماً مهاب الجانب. وقد كان أكثر ما يقلقه ويثير أعصابه هو ذاك المستوى المتدني بين الطلبة في اللغة الفرنسية. من أجل ذلك، توجه إلينا ذلك الصباح وعلامة التوتر بادية على وجهه فقال:

ـ أيكم يفسر لصديقه معنى كلمة: «آتيبيك»؟

ران في المدرج صمت ثقيل.. فأعاد الأستاذ السؤال مرة ثم مرتين من دون أن يحير أحد جواباً. وبخجل شديد، رفعت إصبعاً مترددة فأسمعت صوتي لأول مرة في المدرج، صوت خرج مرتعشاً مبحوحاً فأنكرته أذناي:

ـ أعتقد يا سيدي أن «آتيبيك» هي نقيض «تيبيك» بمعنى شيء خارج عن القاعدة، شاذ، أو لانموذجي.

انبسطت أسارير الأستاذ ارتياحاً فغمغم:

ـ طيب. . هو كذلك.

التفتت الرؤوس في حركة واحدة واشرأبت الأعناق لتنظر إليّ وكأني «فولتير» أصلع بعث ثانية إلى الوجود. ومباشرة صوب الأستاذ نحوي سبابته وسأل: بما أننا بصدد الحديث عن الأحزاب السياسية وعن الانتخابات، هلا شرحت لأصدقائك، أنت الذي سبق لك وأن انتخبت مراراً، كيف تمر الانتخابات التشريعية في المغرب؟

ـ لم يسبق لي أن أنتخبت في حياتي أبداً.

رد الأستاذ باستغراب:

ـ ولِم إذن؟

ـ ليس بإمكاني أن أجيبك الآن يا أستاذ.

ـ آه. . فهمت. . فهمت.

انفلتت ضحكات من هنا وهناك ولم يدر بخلدي آنذاك أن الطلبة قد أساءوا تأويل جوابي. في نهاية الحصة، توجهت إلى طالب ملتمساً منه بعض النقط التي كان قد سجلها في درس سابق لم أحضره، فحدجني بنظرة محتقرة ثم ابتعد عني بدون أن ينبس ببنت شفة ليتابع دردشته مع صديق له. أحسست بالإهانة الشديدة، فابتعدت بدوري وأنا أتساءل مستغرباً عن هذا التصرف المشين. ولم ألبث طويلاً حتى جاءني التفسير المهول من فتاة كانت قد تابعت كل شيء عن كثب:

ـ لا عليك يا سيدي. . سأعطيك ما طلبت على الرغم من كونك مخبراً أمنياً مدسوساً بيننا.

صعقت لحظة قبل أن أجيب الفتاة مستنكراً:

ـ أنا مخبر؟ هذا والله لمنتهى الغبن يا آنستي.

ـ آسفة جداً يا سيدي. . يعز عليّ أن أكذبك، ولكن المعلومات

المتوفرة لدينا تؤكد بما لا يقبل مجالاً للشك أن مخبراً يوجد بيننا في هذا المدرج. على كل حال، إن لم تكن أنت فسيكون صاحبك الذي يلازمك كظلك.

قلت محتجاً:

ـ لا أنا ولا صديقي يا آنستي.. فهو يشتغل موظفاً في وزارة البريد، بينما أنا أحد الناجين من سجن تزممارت.. هل سمعت يوماً بسجن تزممارت؟

ـ ربما.. أعتقد أني سمعت أبي يتكلم عنه يوماً.

ثم بدلت الفتاة موضوع الحديث بسرعة ومدت إليّ الدرس قائلة:

ـ اسمي هو حنان العوفير. أسكن في مدينة سلا. من اليوم فصاعداً إذا كانت لك حاجة بدرس ما فتوجه إليّ بدون تردد. على فكرة، لم يعجبني تصرف ذلك الطالب، ولكن لا تؤاخذه، لقد تصرف كذلك بدافع الخوف.

وفت تلك الطالبة الطيبة بوعدها انطلاقاً من ذلك اليوم وساعدتني مساعدة لا زلت أذكرها لها بكثير من الامتنان. في صباح الغد، حكيت الحادثة لصديقي الذي كان متغيباً. ولكنه عوض أن ينفجر ضاحكاً كما كنت أتوقع، تكهرب وجهه فجأة ونظر يمنة ويسرة ثم قال لي وقد بدا عليه الحرج الشديد:

ـ أنا آسف جداً لأني كذبت عليك. أنا فعلاً ضابط شرطة. وما حملني على إخفاء هويتي إلا طمعي في ضمان مساعدة الطلبة عند الاقتضاء.. أنت تعلم أنهم يحذرون كثيراً من رجال الأمن.

ـ هكذا إذاً.. كنت تضرب عصفورين بحجر واحد. تتابع دراستك وتراقبني في الوقت نفسه.

ـ أبداً.. أقسم لك بأن تعارفنا كان بمحض الصدفة. أنا هنا

بفضل كفاءة الحقوق التي أخذتها عن جدارة واستحقاق في السنة المنفرطة وليس بتدخل من وزارة الداخلية كما قد يتبادر الآن إلى ذهنك.

ـ الأمر سيان.. سواء كان تعرفك إليّ صدفة أو مفتعلاً فتيقن بأني لا أخفي أسراراً ما دمت قد أفرغت ما في جعبتي للصحافة. وإن شئت حكيته لك الآن بحذافيره. رغم هذا الحادث العابر، ظلّت علاقتنا ممتازة متميزة لأن الرجل كان طيباً خدوماً وكان تعاونه معي مثمراً جداً. وقد تبادلنا فوق ذلك الزيارات، فقدم عندي ذات يوم وزارت والدتي زوجته، وتعرفت شخصياً إلى كثير من أصدقائه. وقبل أيام قلائل من الامتحان، سقطت صريع حمى عنيفة كان يتخللها هذيان وتخريف متواصلين.. رجعت كل مخلفات تزممارت بحدة اعتقدت أن أجلي معها قد اقترب. فقد كنت أرى في كوابيسي الكثيرة أني رجعت إلى معتقل الموت بمفردي وأن الجلادين قد عادوا جميعهم ليعذبوني تارة بالبرد وتارة بالنار.. بن دريس، فريح، حمو، با غازي، بوكبش، علي. حضروا كلهم بتشكيلاتهم الرسمية وهم يفركون أيديهم غبطة وتلذذاً بما هو آت. لما كنت أثوب إلى رشدي، كنت أتألم كثيراً وأنا أفكر في حظي العاثر الذي رماني فريسة للحمى أياماً قليلة قبل الامتحان. وقد كان الطبيب الذي زرته جازماً:

ـ لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تغادر فراشك. وإلا فالنزلة التي أصابتك قد تجر معها عللاً أخرى قد لا يكون من الممكن علاجها بسهولة.

وجاء يوم الامتحان.. فسقط على رأسي قاسياً عنيفاً كمنطوق حكم المحكمة العسكرية في القنيطرة. كنت وحيداً في المنزل، وكان أخواي الساكنان في سلا والرباط يتناوبان على المجيء عندي ثلاث مرّات في اليوم. استيقظت ذلك اليوم المشهود في الساعة الخامسة

صباحاً وجربت رجلاي لأعلم إن كانتا قادرتين على حملي إلى الجامعة، ولكن هيهات هيهات. أخذني دوار عنيف وشرع قلبي يخبط بقوة وكأنه يهدد بتوقف مفاجئ. وبعد ساعة أعدت التجربة فأحسست بتحسن نسبي. فما كان مني إلا أن بذلت جدهاً جهيداً فلبست ثيابي وأخذت حوائجي ودوائي ثم توجهت بدون فطور إلى محطة الحافلة وأذناي تصفران من فرط الحمى صفيراً رهيباً متواصلاً. لما وصلت إلى الجامعة، كانت حالتي تبعث على الرثاء حقاً. ولكني جاهدت نفسي جهاداً كبيراً وكتبت طوال ساعة من الزمن في أحد مواضيع القانون الدستوري الذي تخصص له ثلاث ساعات. ومع بداية الساعة الثانية، انهرت تماماً فأرغمت على مغادرة القسم.

يومان بعد ذلك، بدأت من حسن الحظ أتماثل للشفاء، فأصبحت المواد المتبقية عبارة عن شكليات فقط. وهكذا نجحت في السنة الأولى بدون أدنى مشكل يذكر.

بدأت السنة الثانية بكثير من التفاؤل. فذات يوم وأنا مدعو عند أسرةٍ فرنسيةٍ صديقةٍ تدعى «لي فاسور»، كانت تؤازرني معنوياً وتشجعني كثيراً على متابعة الدراسة، إذا بي ألتقي بأستاذة في القانون الجنائي الخاص بكلية الحقوق في أكدال، السيدة ميشال الزراري. لقد جاءت هذه الأستاذة النبيلة للتعرف إليّ بعدما استقت أخباري من بعض معارفها فأرادت أن تعرض عليّ مساعدتها. كان ذلك يبدو غريباً بالنسبة إليّ. . فلأول مرة منذ إطلاق سراحي، رأيت شخصاً من المجتمع المدني يلتفت إليّ متأثراً بما سمعه عني ويكلف نفسه عناء البحث عني ليعرض عليّ خدماته. هكذا، في سبيل الله. أما في الجامعة، فقد أصبحت علاقتي ممتازة مع الطلبة بعدما تحدثت بعض الصحف بإسهاب عن الاختطاف الجديد الذي تعرضت له. لم أعد في نظرهم ذلك المخبر الخطير الذي يخشى جانبه، فتهافتوا عليّ

يعرضون عليّ مساعدتهم وصداقتهم ودعوات بعض أقاربهم لزيارتهم في بيوتهم. وهكذا استقامت لي الأمور بفضل جماعة من أصدقائي الشباب الأوفياء. برز منهم على الخصوص شاب اسمه شكيب بن جلون، كان قويم السلوك، لطيف المعشر إلى حد جعلني وأنا أحضر وإياه للامتحانات، أندمج معه كلياً وأعود بعمري القهقرى محطماً حواجز الزمن لألتقي بعمره وكأننا نعيش سوياً شباباً واحداً. وفي نهاية السنة الثالثة، وعلى غير انتظار، رسبت في الامتحان رسوباً مشبوهاً رغم توفري على الكتب النفيسة التي كان صديقي إنباس دال قد أمدني بها. فاستوعبت الدرس جيداً وقررت في السنة التالية أن أقلل من حضوري في الجامعة خوفاً من إقصائي في الامتحان عقاباً لي على ذلك التعاطف المتصاعد الذي بدأت أحظى به من الطلبة.
وفي السنة الرابعة، هيأت بحثاً تحت أشراف مشجعتي الأستاذة ميشال الزيراري تحت عنوان: «المعاهدة الدولية لمناهضة التعذيب والقانون المغربي». وقد تكلفت بنسخه في الحاسوب وتقديمه في حلة رائعة، السيدة ماريون برترولد، وهي صديقة فرنسية أخرى معروفة في الميدان التطوعي، لم تتوقف عن مساعدتي منذ أن عرفتني سنة 1994.
وهكذا. حققت حلمي الكبير وأخذت الإجازة في القانون الخاص في الدورة الثانية بميزة مستحسن. وكان فرحتي فرحتين لأني كنت قد التقيت بالرجاء.. أقصد، زوجتي رجاء التي دخلت وإياها القفص الذهبي أسابيع قليلة قبل ذلك. ولم أكن وحدي في هذا الإنجاز. فقد حققه وتعداه رفيقي في المحنة وجاري في الزنزانة رقم 11 الأخ إدريس أشبرق. كان هذا الصديق أحسن مني تنظيماً واجتهاداً وسرية إذ لم يعلم أحد بأخبار دراسته إلا وهو في السنة الرابعة حين حصل على الإجازة في اللغة الفرنسية بأحسن معدل في مدينة القنيطرة وما جاورها. أليس هذا برهان قاطع على أن مستوى الدراسة في جيلنا

كان أحسن حالاً من مستوى هذا الجيل؟ ولكن مع الأسف الشديد، كم كان إحباطناً كبيراً وخيبتنا عميقة في (حكومة التناوب) التي كنا نتوقع منها كل شيء إلا هذه المعاملة. فلا صديقي إدريس سمح له أن يكون أستاذاً ولا أنا محامياً. وذلك بسبب قانون وضع ليقطع الطريق على كل من كان عمره يتجاوز 40 سنة لامتهان هاتين المهنتين. لم تكن إذاً إجازتنا التي سهرنا من أجلها الليالي الطوال، وتجشمنا في سبيل تحصيلها جميع المشاق والصعاب لضمان عيش كريم، سوى ورقة شكلية تشهد لنا بأننا كنا كهلين مجتهدين. وقد كتب في شأني الأخ عبد الإله بن عبد السلام عن الجمعية المغربية لحقوق الإنسان الوزير الأول السيد عبد الرحمن اليوسفي فأبدى موافقته الصريحة على الترخيص لي استثنائياً بخوض مباراة المحاماة. ولكن أحد وزراء السيادة عارض في ذلك بدعوى عدم السماح لأي كان بخرق القانون. ألم يخرق القانون بكيفية صارخة في تزممارت؟

مشاهد من الحياة اليومية

بعد خروجي من السجن بأسابيع قليلة، كان أول سفر قمت به هو ذاك الذي زرت فيه مدينة مكناس، تلك المدينة الساحرة التي حضنت مراهقتي ورعت جزءاً صغيراً من شبابي ودوّنت أسوارها العتيقة أجمل ذكريات عمري. أرغمتني أسرتي أن أمر على القائد كي آخذ منه ترخيص السفر. فقد سبق له أن أشعرهم بأن أدنى تحرك مني يجب أن يكون بإذنه. كان الرجل شاباً في الثلاثين من عمره، قصير القامة أدهم البشرة، شاحب الوجه، متكبراً بالقدر الكافي الذي يشعرك به أنك تحت إمرته. طرح عليّ أسئلة بوليسية تتعلق بالوجهة التي أنا موليها وبمدة السفر وسببه وعنوان الإقامة. بلعت غيظي حينئذٍ وأنا أجيبه. ولكني في مرة لاحقة أحسست بالمهانة الشديدة فسألته:

ـ من فضلك. . أريد أن أعرف إن كانت عندك تعليمات من فوق ترغمني أن أستاذنك كلما أردت السفر؟

أُخذ رجل السلطة على حين غرة وهو المتعود أن يسأل لا أن يجيب، فقال:

ـ أبداً. . إنها مجرد احتياطات من أجل ضمان سلامتك.

ولكن عند مدخل مدينتي فاس ومكناس لاحظت مع أخي أن سيارتنا كانت مراقبة بشكل واضح. ومنذ وصولي إلى منزل أختي، تناوب على مراقبتي شرطيان بزي مدني كانا يلاحقاني أينما حللت

وارتحلت. وحينما كنت أغادر المنزل للذهاب إلى السينما مع زوج أختي مثلاً، كان أحدهما يتبعني كظلي بينما كان الآخر يدق باب أختي بمعية شرطي ثالث ليطرحا عليها أسئلة سخيفة كانت تهدف إلى إشعارها بأنني أينما توجهت فسوف أجد الأيادي الأخطبوطية بالمرصاد. مباشرة بعد رجوعي إلى قريتي بوعجول، سررت كثيراً لزيارة لم تكن لي قط في الحسبان. زيارة رفيقي في المحنة عبد الرحمن صدقي الذي قدم عندي مع أسرته ليشكرني على الدعم المعنوي الذي قدمته له في معتقل الموت. وهكذا تعاقبت الأيام والشهور من دون أن يظهر للمسؤولين أثر. فأدركت بأن محنة تزممارت لن تنتهي بهذه السهولة وأنها ستستمر لا شك في شكل آخر يتميّز بالطرد والتهميش. وجدت نفسي ساعتها أمام اختيارين: إما أن أستقر في بلدتي فأنخرط في مسلسل تبليد مؤكد عبر التعاطي لأنشطة فلاحية عقيمة، وإما الدخول في صراع مجهول العواقب مع السلطة في محاولة لانتزاع حقوقي المشروعة. اخترت الحل الثاني طبعاً فوجدتني أستقر ببيت صغير مكوّن من غرفتين في حي من أكثر الأحياء شعبية بمدينة سلا، وهو حي الرحمة. تكفل شقيقي الأكبر بتأدية ثمن الكراء، بينما ساهمت أمي في تأثيثه ببساطة كنت أراها آنذاك مقارنة في تزممارت غاية في البذخ والرفاهية. كان جاري الفوقي يشتغل ساعياً للبريد بينما كان التحتي يتاجر في الصوف. وبعد أسبوع من استقراري في ذلك البيت، جمعني الملاك وقد كان قبطاناً في الجيش مع جاريّ في غرفة مستقلة يسكن فيها جندي بسيط كان القبطان يستعمله لجمع أثمنة الكراء من المكترين. وبعد أن قدم لنا شيئاً من المرطبات توجه إلينا قائلاً:

ـ من فضلكم، أرجوكم أن تنصتوا إليّ جيداً. . لقد أصبح من عادتي أن أجمع المكترين جميعاً كلما رحل واحد وعوضه آخر.

أولاً، لكي نتعارف أكثر، وثانياً، لكي نوضح الأمور حتى لا يبقى بيننا أدنى غموض. أنا ضابط في الجيش برتبة قبطان. وبعبارة أخرى، أنا إنسان صارم ولكني نزيه مستقيم. وأملي الكبير هو أن تكونوا بمثل الذي أنا عليه من استقامة ونزاهة.. فالذي يهمني بالدرجة الأولى هو أن تؤدوا لي مستحقاتي في نهاية كل شهر بانتظام وبدون أي مشكل. لا أريد بتاتاً أن أجري وراءكم كما يجري الصياد وراء الأرانب.. نحن لم نمضِ بيننا أي عقد، ولكن تيقنوا بأنه في حالة إخلال أحدكم بتعهده فسوف أكون مضطراً لاتخاذ الإجراءات اللازمة.. هذا العسكري الذي يسكن بجواركم في هذه الغرفة هو الذي سيتكفل باستخلاص ثمن الكراء.. ثم التفت الضابط إليّ وقال:

ـ لقد لاحظت في نسخة بطاقة تعريفك بأنك غير متزوج رغم بلوغك هذا السن وأنك فوق هذا بدون عمل.. بماذا تعيش إذاً؟

ـ أتعاطى لبعض الأنشطة الفلاحية، وقريباً جداً سأجد عملاً. كن مرتاح البال في ما يتعلق بمستحقات الكراء. أعطيك على ذلك كلمة الشرف.

كان من مصلحتي أن أخفي هويتي.. فأي صاعقة كانت ستنزل به لو صارحته بأني حديث الخروج من تزممارت وأني ضابط متخرج من الأكاديمية العسكرية، بينما وصل هو إلى رتبة ضابط من أسفل سلم الجندية؟ وبدون أن أضيع وقتاً، شرعت في تحرير رسائل عديدة إلى جميع المنظمات الحقوقية العالمية، كمنظمة العفو الدولية، شارحاً فيها خطورة ما آلت إليه أوضاعنا بعد تزممارت. وفي الآن نفسه، بدأت أكثف من ربط الاتصالات ببعض أصدقاء المحنة الذين استوعبوا بدورهم ضرورة متابعة النضال لإسماع صوتنا للرأيين الدولي والوطني. وهكذا شرع يتوافد على ذلك البيت الصغير أصدقاء عديدون: أعكاو، الزموري، غلول، بين بين، الوافي، بوحيدة،

العفياوي وآخرون. ولكن عبد الله أعكاو على الخصوص، كان يتميّز بإرادة قوية وتصميم كبير على مواجهة أسوأ المخاطر من أجل انتزاع حقوقنا المسلوبة. فترك قريته «سيدي بطاش» الواقعة على بعد أربعين كيلومتراً من الرباط، واستقر في العاصمة لنكون سوياً ثنائياً متناغماً ضاعفنا به الجهود وكثفنا المساعي. وكان من بين الأشخاص الذين تعرفنا إليهم منذ البداية، السيدة خديجة الشاوي، زوجة رفيقنا محمد الرايس الذي أفرج عنه من تزممارت ليزج به مع غاني عاشور في سجن القنيطرة المدني بدعوى أن حكمهما بالمؤبد قد خفف إلى السجن المحدد. كان لهذه السيدة شبكة واسعة متداخلة من المعارف في المجتمع المدني. وكانت بحكم المحنة الكبيرة التي تحملتها في سبيل تربية أبنائها امرأة تساوي في نظرنا سبعة رجال أشداء إن لم نقل عشرة.. فقد كانت شجاعتها اللامتناهية وذكاؤها الكبير لا يثنيانها عن فعل أي شيء ولو كان يبدو للناس مستحيلاً. ولإبراز ذلك، يكفي القول إنها أنقذت زوجها من الإعدام حين استطاعت أن تلعب بكل أجهزة حراسة الملك الحسن الثاني في مكان وزمان لم يتوقعه أحد، فألقت بنفسها بين رجليه متوسلة إليه ألا ييتم ستة أطفال لم يكن لهم من معيل غير أبيهم. وفعلاً، تحول الحكم بالإعدام بعد أيام قليلة إلى الحكم بالمؤبد. بفضل هذه السيدة الشجاعة تعرفنا إلى شخصيات كثيرة قدمت لنا دعماً لا مشروطاً. وذات يوم أخبرتني السيدة خديجة بأن زوجها يخضع للعلاج في الطابق الأخير لمستشفى ابن سينا في الرباط. فزرته مع عبد الله أعكاو وسرينا كثيراً عنه. ولم يلبث إلا وقت قصير بعد ذلك فأفرج عنه بتدخل كريم من المستشرق الفرنسي الشهير جاك بيرك الذي كانت أم الرايس تشتغل عنده. شهراً بعد ذلك، أفرج عن غاني عاشور بتدخل من منظمة العفو الدولية. وقد ساهمت السيدة كريستين السرفاتي بنصيب وافر في ذلك. وعلى ذكر

منظمة العفو الدولية، فقد التفتت إلينا مرتين. ففي المرة الأولى أرسلت إلى كل واحد منا شيكاً بمبلغ 5,000 درهم، وذلك في وقت حساس كنا قد بدأنا فيه نشكل عبئاً ثقيلاً على أسرنا. وفي المرة الثانية، نفحتنا بشيك ثان قدره 10,000 درهم صرفناهما جميعاً في مقر «وفا بنك» في الدار البيضاء.

ورغم حاجتنا الماسة إلى المساعدة، فلم يكن من السهل إقناع بعض الأصدقاء بقبول هذا المبلغ المهم من المال. فقد كان بعض منهم لا زال تحت وطأة الصدمة يخشى على نفسه من العودة إلى تزممارت. لذا، كان بعضهم يقول لصاحبه متوسلاً:

- امض الشيك عوضاً عني وهاتني بالمال وسأعوض لك مصروف التنقل.

وكان آخر يقول:

- لست في حاجة لأي مساعدة ما دمت أتنفس الهواء النقي ملء رئتي، وما دامت الشمس لا زالت بعد بالمجان في هذا البلد.

وقالت خطيبة لخطيبها التزممارتي وهي تهدده:

- إن شيك آمنيستي هدية مسمومة.. فإذا كانت تنوي الزواج بي حقاً، فأنا أشترط عليك أن تنس تزممارت، وحقوق الإنسان، وحتى أصدقاءك وكل ما يذكرك بماضيك الأسود.

وقد أدّت السيدة الهولندية الجنسية والفرنسية الأصل إيفلين فان كينيكن، وقد كانت عضواً مهماً في آمنيستي فرع هولندا، دوراً ريادياً في قضية المعتقلين السياسيين في المغرب. واستطاعت وهي تراسل الكثير منا أن تقنع بعض الأصدقاء بقبول تلك الهبة. أما بخصوصي أنا، فقد كان لي معها اتصال مستمر ومكثف بالبريد وبالهاتف. فعلاوة على الرسائل المطولة، كانت تتصل بي عبر الهاتف في حانوت بقال مرتين كل أسبوع لتبقى على علم مدقق بأحوال صحتنا من جهة،

ولتطلعنا على آخر المبادرات والمساعي التي تقوم بها المنظمة لصالحنا من جهة أخرى. وقد أقامت هذه السيدة الدنيا وأقعدتها لما علمت بحالتي نصب واحتيال تعرض لهما صديقين من بيننا. فقد أغتنم إثنان من أقارب هذين المعتقلين تشابه اسميهما بأسماء أبناء عمهما فلم يتورعا عن تصريف الشيك لصالحهما في «وفا بنك» عوضاً عن المستفيدين الحقيقيين.. لم ترحم إيفلين هذين اللصين، وظلّت تكاتبهما مهددة إياهما بالمتابعة القضائية وبالفضيحة المنكرة. فاستطاعت أن تقنع أحدهما بإرجاع المال لصاحبه وأخفقت في إقناع الآخر لأنه كان مسؤولاً أمنياً يحظى بحصانة المخزن. وبغض النظر عن هاتين الحالتين، تجدر الإشارة بأنه لم يفلت أي واحد منا من شرك النصابين والمحتالين. فقد كنا نمثل بسذاجتنا وتخلفنا فريسة سهلة للثعالب والذئاب الآدمية التي وجدناها قد تناسلت تناسل الذباب في مجتمعنا المريض. مجتمعنا البئيس الذي فقد كثيراً من مقوماته الروحية والأخلاقية فأصبحت فيه الغايات المادية تربب الوسائل القذرة وإن كانت هذه الوسائل تقتضي المشي على جماجم الضعفاء والمهمشين. لم تعد للقرابة حرمة، ولا للصداقة قدسية، ولا للعهد ذكرى.. الكل يتبارى بروح رياضية عالية في غابة مسعورة قاعدتها الجوهرية: افترس قبل أن تُفترس. والطامة الكبرى، حسب ما حكى لي بعض الأصدقاء، هي أنهم كانوا عند تكرر تعرضهم لسرقة أو نصب يضطرون أحياناً إلى بلع غبنهم والالتزام بالصمت خوفاً من تأكيد ما كان المعتدون عليهم يروجونه عنهم من سفه وحمق وسوء ظن بالناس. ومن حسن الحظ، أو من سوئه، فقد هرع كثير من الأجانب لوضع المراهم على قلوبنا المشروخة. ففي خضم هذا الإهمال المطلق الذي عانيناه من مجتمعنا، وفي غياب أي التفاتة معنوية من أحزابنا السياسية، امتدت إلينا أيادي التضامن والتعاطف

حارة مؤاسية من جميع أقطار الدنيا. شتاء من رسائل وبطاقات بريدية ظلّت تتقاطر على صناديقنا البريدية بالمآت وعلى امتداد سنة أو يزيد.

كاتبنا الناس من سويسرا، من بلجيكا، من هولندا، من ألمانيا، من السويد، من النرويج، من الدانمرك، من النمسا، من إنجلترا، من كندا، من الولايات المتحدة الأميركية وخصوصاً من فرنسا. أما من المغرب، فبغض النظر عن بعض أقرب المقربين من أسرنا، فلم يلتفت إلينا أحد. ولا مجال هنا للحديث عن البلدان العربية طبعاً، لأن لها هي الأخرى من المآسي ومن الخروقات السافرة لحقوق الإنسان ما يغنيها عن التفكير في شأن كشأننا.

أعربت لي إيفلين عن رغبتها في المجيء إلى المغرب مع طبيب من منظمة «يوهانس فير» الهولاندية لمعاينة حالتنا الصحية. ولكنها اشترطت ألا تذهب إلى الفنادق خوفاً من إثارة انتباه السلطات. وبمعنى آخر، فقد أوكلت إلينا أمر إيوائها لمدة أسابيع عديدة. ولم يكن هذا المشروع هيناً كما قد يتصور. فبعض الأصدقاء كانوا يسكنون في دواوير نائية، أما بعضهم الآخر فكان من الصعب الاتصال به إما للضغوطات التي كانت تفرضها عليه أسرته أو لأنه كان لا يرغب هو نفسه في أي اتصال مهما كان نوعه. وجاء يوم قدومها، فذهبت للقائها في مطار الرباط ـ سلا ووجدت في استقبالها كذلك مناضلين من الجمعية المغربية لحقوق الإنسان الذين كانت حديثة التعرُّف إليهم. ولكننا لم نستطع جميعاً أن نعثر عليها من بين المسافرين رغم اسمها المكتوب على لوحة مشهرة كانت في يد أحد المناضلين. أخذت إيفلين سيارة أجرة والتحقت بمنزل صديقنا صالح حشاد الذي كانت زوجته صيدلانية معروفة في القنيطرة ومناضلة في المنظمة المغربية لحقوق الإنسان. أكرمت تلك العائلة مثواها ورحبت بها ترحاباً حاراً. وكذلك كان الشأن لما انتقلت إلى منزل صديقنا محمد غلول حيث

آوتها أسرته وقدمت لها كل المساعدة لإنجاح مهمتها. وبعد هذا الاتصال مع الإخوة الساكنين في القنيطرة، انتقلت إيفلين إلى بيتي المتواضع جداً في حي الرحمة في سلا فاستقرت فيه طوال شهر واتخذت منه مركز قيادة. ثم التحق بنا طبيب نفساني هولندي، كان موسوعة في المزاح وفن التنكيت، قدم من أمستردام ثم عاد إليها في الأسبوع التالي بعد أن فحص عدداً من الأصدقاء وعبأ استمارة تركها لزميلته لمتابعة المهمة. بعد هذه المرحلة، صحبت إيفلين إلى الدار البيضاء ثم مكناس ثم فاس ثم خنيفرة وأخيراً بني ملاك، حيث ساعدها وسهل مأموريتها الطبيب المغربي المتطوع السيد فارس. وحيثما حلّت وارتحلت، وجدت هذه السيدة الإنسانية الرائعة من أسرنا تجاوباً كبيراً ومساعدة مطلقة. فعائلات أصدقائنا غلول وحشاد وبلكبير وبين بين وأعكاو والمجاهد والساعودي والصفريوي والزموري والداودي والشاوي كلها لم تقصر في وقت ولا جهد لإنجاح المهمة.

وبعد شهر من رجوع إيفلين إلى هولندا، أصدرت منظمة «يوهانس فير» التي مولت هذا المشروع، تقريراً مفصلاً وفاضحاً للحالة الصحية المزرية التي يعيش عليها المعتقلون السابقون في سجن تزممارت. وقد أثر ذلك تأثيراً بالغاً وعميقاً في نفوسنا جميعاً ورفع من معنوياتنا، سيما وأن بعض الأصدقاء منا أجريت لهم عمليات جراحية دقيقة بتمويل من المنظمة المذكورة. كما أن بعضهم الآخر استفاد من أدوية باهظة الثمن. في هذا الوقت بالذات، وبينما نحن نصارع الأمراض والطرد والتهميش، وبينما بعض الأجانب يمدون لنا من وراء البحار أيادي التضامن والمواساة، كنا بالنسبة إلى مجتمعنا الغافل أو المتغافل عبارة عن نفايات آدمية مرمية في عرض الطريق، ينظر إليها المارون ويلوون رؤوسهم امتعاضاً وتقززاً. وقد حاولنا تسليط الأضواء علينا لهز الضمائر النائمة والقلوب الغافلة، فطرقنا كل الأبواب، واتخذنا كل

السبل، بما في ذلك القيام بحملات تحسيسية ولقاءات متكررة مع بعض الشخصيات السياسية النافذة، ولكن كان كل ذلك كالصيحة في الوادي السحيق. ظلّت نزممارت لاصقة على جلودنا كلعنة مزمنة تصيب عدواها كل من لامسنا أو اقترب منا. فماذا كنا نساوي في نظر الشخصيات السياسية المتنافسة على مراكز السلطة حتى تغامر بمستقبلها في سبيل شرذمة من العسكريين المنبوذين المضطهدين؟ لا شيء.. نعم، لا شيء. لقد كنا غائبين تماماً عن حسابات السياسيين الانتهازيين الذين كانوا لا يتقربون من دائرة حقوق الإنسان إلا إذا كانت صافية من كل الشوائب وسليمة من جميع المخاطر. وإن ننسى فلن ننسى أبداً موقف تلك الشخصية السياسية البارزة التي تعد اليوم أسطوناً من أساطين المدافعين عن الحقوق الإنسانية. لقد استمعت إلينا ملياً ونحن نفسّر لها أوضاعنا المزرية، حتى إذا ما أتممنا بعد ساعة حافلة بذكر المآسي والنكبات، أجابتنا وهي تفتعل التأثر:

- مساكين.. أنصحكم أن تذهبوا إلى المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان.

قلنا لها مستنكرين:

- ما قصدناكم إلا بعد طرقنا أبواب جميع المجالس والمؤسسات الآدمية في المغرب.

صرفتنا ولسان حالها يقول:

- خلصوني من مشاكلكم واذهبوا على جناح السلامة إلى الجحيم.

ومن حسن الحظ، من حسن الحظ كثيراً، أننا وجدنا استثناء بارزاً في رجال رائعين سكنوا قلوبنا إلى الأبد لأنهم عانقونا بالأحضان وبذلوا الغالي والرخيص من أجل إدخال قبس من الدفء إلى أفئدتنا المتجمدة. فالأستاذ عبد الرحمن بن عمرو، رئيس الجمعية

المغربية لحقوق الإنسان، الرجل الخير الذي ثبت على المبادئ نفسها التي عرفناه بها في محاكمة الصخيرات، أبدى لنا منذ البداية اهتماماً بالغاً حين وضع مقر جمعيته رهن إشارتنا ونظم لقاءات تحسيسية للتعريف بقضيتنا وذهبت شجاعته إلى أبعد الحدود حين أقام دعوة قضائية ضد الدولة متهماً إياها بالاختطاف والتعذيب. إضافة إلى هذا العمل الجبار، فقد عرض علينا أحد جراحي الأسنان المنتمين إلى الجمعية، الدكتور الطيب عمر بن عمر، خدماته المجانية واللامشروطة لترميم ما تبقى من أسناننا المتآكلة.

أما الأستاذ عبد العزيز بناني رئيس المنظمة المغربية لحقوق الإنسان، فإضافة إلى جعل مقر المنظمة رهن إشارتنا وتنظيم ندوات صحافية تحسيسية لفائدتنا، فقد ركّز كل مجهوداته على الجانب الصحي. وهكذا عبأ بعض الأطباء المتطوعين الذين تكفلوا بتمريضنا وتقديم الدواء المجاني لنا، كالدكتور محمد الناصري الذي أقام لنا مشكوراً بعض الفحوصات الطبية ثم وضع نفسه رهن إشارتنا بعد أن أمدنا بكثير من الدواء. وكذلك الشأن بالطبيب النفساني السيد عبد الله زيوزيو الذي دأب على المجيء من الدار البيضاء إلى مقر المنظمة في الرباط مرة كل شهر، وذلك على امتداد سنين طويلة بقصد تنظيم حصص للعلاج النفساني. وكانت هذه الحصص علاوة على منافعها الكبيرة فرصةً نادرة لاجتماعنا وتمتين روابط الاتصال بيننا. ومع مرور الأيام، اتسعت هذه الندوات فشملت عائلات المتوفين في تزممارت ثم المعتقلين السابقين بقلعة مكوّنة وأكدز ثم المعتقلين الصحراويين لتتوسع بعد ذلك وتنقلب إلى جمعية غير رسمية تضم كل ضحايا القمع في بلادنا. وسوف أكون في منتهى الجحود والنكران إذا لم أذكر في هذا المقام جنوداً مجندة للدفاع عن حقوق الإنسان، يعملون في الصمت والخفاء دون تصنع ورياء. وقد لا يستغرب المرء إذا ما

لاحظ أن غالبيتهم العظمى من الذين حملوا هموم بلادهم في قلوبهم فعذبوا من أجل ذلك تعذيباً وحشياً مبرحاً. فأينا مثلاً يستطيع أن ينكر فضل هؤلاء المناضلين الأفذاذ الذين خلقوا من طينة خاصة، فتميزوا بعمق إخلاصهم وقوة وطنيتهم وحسن أخلاقهم تميّز التبر النادر على التراب الكثير. أسماء مشرقة تقفز إلى ذاكرتي فأعرضها كما هي.. عبد الإله بن عبد السلام، فؤاد عبد المومني، إدريس بن زكري، الصديق الأحرش، نور الدين الأثير، الدكتور توفيق بوسلامتي، وطبيب القلوب حقاً البروفيسور الرائع عبد المجيد بوزبع، وآخرون أيضاً كالمحامي الشهير الأستاذ عبد الرحيم برادة والمناضل الكبير العربي معنينو، أستاذ الرياضيات في فرنسا الذي جشم نفسه كم من مرة عناء زيارتنا والبحث عنا، وذاك الرجل الوديع الكريم الصامت سي محمد فرج الذي التقيت به مصادفة في منزل الصحفي إنياس دال، ففتح لي باب قلبه وداره حتى أصبحت مع الأيام واحداً من أسرته. فكم هم الأشخاص الذين يعملون على هذا النحو وهم لا يرجون جزاء ولا شكوراً؟

كورال الرباط

كنت محظوظاً حين تعرفت في منزل الصحفي إنياس دال على زوجين فرنسيين رائعين يدعيان جويل وجان فاسور. نمت سريعاً بيننا صداقة كبيرة، فأصبحا يدعواني كلما نظما سهرة حميمية في بيتهما الأنيق بحي الأوداية العتيق المطل على نهر أبي رقراق الجميل.

وذات مساء قدما لي صديقة من أعز صديقاتهما تسمى ماريون بيرترولد، وهي سيدة نبيلة نذرت عمرها كله لفعل الخير. كانت ماريون هاته رغم الوقت الكبير الذي كانت تخصصه لمهنتها بوصفها معلِّمة، تجد بفضل تنظيمها الدقيق ما يكفي من الهامش الزمني لإدارة

جمعية خيرية للأطفال المعوقين من جهة، وللذهاب إلى كورال الرباط للغناء من جهة أخرى. وبتشجيع منها سجلت نفسي في هذا الكورال وأنا لا أملك أدنى فكرة عنه. اكتشفت في ما بعد أنه ملتقى لهواة الغناء الجماعي. كان يضم رجالاً ونساء من مختلف المهن والمشارب والطبقات والجنسيات، يلتقون جميعهم مرة واحدة مساء كل ثلاثاء ليقضوا ساعتين في الغناء تحت إشراف الموسيقار السيد لويس بيرودان. هنالك تيقنت بالملموس بأن الموسيقى هي فعلاً لغة كونية. فقد كانت تلك الأصوات الجماعية المتناغمة وهي تشدو صاعدة هابطة، أشبه شيء بهدير بحر غاضب تارة، وهادئ مستكين تارة أخرى. بحر جياش بالأحاسيس الإنسانية الخالصة، كان المرددون والمرددات ينسون فيها همومهم ومتاعبهم وهم يغوصون في ذبذباتها المتماوجة، منصهرين في لحن واحد اسمه النشوة. وقد كان يزيد من ترابط تلك الجوقة، الأستاذ الموسيقار لويس بيرودان الذي كان يدعونا من حين إلى آخر إلى منزله ليهنئنا على تفوقنا في إعادةٍ، أو ليذهب بنا لسماع أشهر المقاطع الموسيقية كلما قدمت إلى المغرب جوقة عالمية معروفة. ولكن، إذا كان ذاك الجو الذي عشته في الكورال شاعرياً وموسيقياً حقاً، فإن بعض الأجهزة البوليسية التي كانت بالمرصاد، لم تكن لها مع الأسف الشديد أذن مرهفة حساسة للموسيقى حت تفهمه كذلك..

المضايقات

في سنة 1993 بدأت الملاحقات البوليسية تتعقبني بشكل واضح. فبعدما مللنا من المواعيد الكاذبة، ارتأى بعض منا أن يلتجأ إلى الصحافة لتحسيس الرأي العام بوضعيته. ولكن.. أي صحافة في ذلك الوقت كانت ترضى بالالتفات إلينا ونشر مقالاتنا؟ يومية واحدة،

وأسبوعية واحدة هما اللتان فتحتا لنا أعمدتيهما بدون قيد ولا شرط، ولو على حساب احتجاز محتمل لها. كانت الصحيفة الأولى هي «أنوال» لسان منظمة العمل الديموقراطي الشعبي التي أصبحت بالنسبة إلينا عبارة عن ناطق شبه رسمي، وذلك حين تعبأ كل صحافييها فشنوا حملة تحسيسية لنصرة قضيتنا انتهت بإثارة أعصاب المسؤولين كثيراً. فقد كان كل مقال يكتب عنا وكل رسالة تصدر منا ينشران في الصفحة الأولى بأحرف بارزة لافتة للنظر. أما المناضل الكبير السيد محمد بن سعيد أيت إيدر الكاتب العام للمنظمة، فقد كان واضحاً كل الوضوح حين استقبل مجموعة منا وصرّح لها بدعمه المطلق واللامشروط. ولم يكن هذا الموقف غريباً على رجل وطني شجاع واجه عواصف الخصوم والأصدقاء على السواء فطرح سؤالاً عن مصير معتقلي تزممارت في برلمان كان المستريحون فيه يعتقدون من شدة الخوف أن السقف سيخر من فوقهم خراً. أما الصحيفة الثانية فكانت أسبوعية «النشرة» الناطقة باسم الشبيبة الاتحادية. وقد تميّز من بين صحافييها النشطاء، الأخ المناضل أحمد ويحمان الذي اجتهد بحماس منقطع النظير لإبراز أوضاعنا المزرية، وهو الصحفي المعروف بشجاعته في اقتحام المواضع الحساسة التي لا تجر للمتحدثين عنها سوى المتاعب والمنغصات. انتهت هذه المقالات والرسائل المعززة بالصور «بدغدغة» أعصاب ساكني وزارة الداخلية، فلم يلبثوا كثيراً حتى أرسلوا لنا جماعات من زوار الليل ليخدرونا تارة بالوعود المعسولة ويوقظوننا أطواراً أخرى بالتهديدات الصريحة..

ملاك غريب

لما نشرت جريدة «أنوال» إحدى رسائلي مرفوقة بصورتي، قدم عندي القبطان صاحب المنزل الذي أسكن فيه، وطلب مني أن أرحل

سريعاً بدعوى أنه سيبيع المنزل كله قريباً. استغربت لما سألت جيراني فأخبروني بأن الأمر لا يتعلق إلا بي أنا فقط. ولما طلبت توضيحاً شافياً من القبطان، انفجر في وجهي غاضباً بدون سبب وهددني برمي حوائجي في الشارع إن أنا لم أنصع لأمره. وبعد أيام من ذلك، عاد المالك ومعه عسكري عملاق برتبة مساعد وأربعة جنود شداد بلباس الحرب جاؤوا جميعهم على متن شاحنة عسكرية كانت تتبع سيارة القبطان. لو كان سيلفيستر ستالون حاضراً ومعه صديقه القوي الصحيح رونالد شوارزنيكر مؤازراً لما استطاعا صد هذا الكوماندو الصادم المتأهب لإعلان الحرب على من؟ على تزممارتي مسكين أخفى هويته من أجل إكتراء غار يستقر فيه. نادى عليَّ القبطان من الشارع في الوقت الذي قفز فيه العمالقة من الشاحنة إلى الأرض وقال:

ـ أوَلم أنذرك؟ ستؤدي إذاً ثمن عنادك غالياً.

هل كان الرجل متهوراً فعلاً إلى تلك الدرجة التي سولت له فيها نفسه التصرف على ذلك النحو الفاضح، أم أن الأمر كان مجرد مسرحية للتخويف فقط؟

كان التكهن صعباً للغاية. شرع بعض الفضوليين يتجمهرون حولنا وهم يتزاحمون بالمناكب تفادياً لتفليت أي حركة من حركات ذلك الصراع الوشيك. أحسست ساعتها بشعور حارق من الغبن والاستنكار والمهانة، فتوجهت إلى المساعد العملاق ذي الشوارب المفتولة قائلاً له:

ـ اسمع جيداً يامون آجودان. لكي تزيحني من بيتي، ينبغي أولاً أن تمر على جثتي. ثانياً، ليكن في علمك بأني ضابط سابق في الجيش ومتخرج من الأكاديمية، وفي ضوء هذا، أنصحك أن ترجع حالاً إلى ثكنتك إن كنت تحرص فعلاً على متابعة مشوارك العسكري.

ثم التفت إلى الجنود قائلاً:

ـ وأنتم؟ هل انخرطتم في الجيش لخدمة مصلحة الوطن أم لخدمة المصالح التجارية لهذا الرجل؟

ارتبك العمالقة وقد بدا أن كلماتي أصابتهم في الصميم. فانقلبت هيأتهم من وقفة المتأهب للهجوم إلى وقفة المتفرج المحايد. ازداد القبطان هيجاناً فقال يسبني وبصاقه يتطاير من فمه:

ـ سأريك من أنا أيها الخائن الحقير.

ثم تماثل بالدخول إلى بيتي لتنفيذ وعيده. فقلت له ساخراً:

ـ أكررها لك ثلاث مرّات: أنت في نظري لا شيء.. والخائن الموغل حقاً في الحقارة يا صديقي هو أنت لأنك تستغل لمصلحتك الدنيئة جندياً تؤدي الدولة راتبه ليخدمها لا ليخدمك. إضافة إلى ذلك، فأنت الآن وعلى رؤوس الأشهاد متلبس بالشطط في استعمال السلطة لأنك تستخدم جنوداً ومعدات عسكرية لمصلحتك. سنرى إذاً أمام المحكمة العسكرية أينا الخائن؟ هيا.. ماذا تنتظر؟ ارم حوائجي إلى الشارع؟

رجع الرجل الهائج على عقبه وهو يلهث من شدة الحنق واقترب مني حتى لم يصبح بيني وبينه سوى سنتيمترات قليلة ثم نظر في بياض عيني وكأنه كان يختبر عزيمتي، فتدخل المساعد العملاق بيننا وقد كنا على وشك الالتحام. فقال لي وهو يحس في معمعة الورطة والمهانة بضرورة إيجاد مخرج ينقذ به ماء وجهه:

ـ سأعود إليك قريباً يا أصفر الوجه.

ثم ركب سيارته وانطلق بسرعة جنونية بعد أن أمر رجاله بالانصراف. في اليوم التالي، دق بابي. فلما فتحت له، وجدت رجلاً مغايراً تماماً لرجل الأمس. بادرني بالسلام ثم مد لي يده مصافحاً وهو يبتسم في تودد:

ـ أتسمح لي بالدخول يامون ليوطنان؟ لقد جئت لأعتذر لك. أعترف بأنني كنت بذيئاً بالأمس ويحق لك أن تحقد علي.

ارتحت كثيراً وأنا أرى الرجل قد بدل من استراتيجيته. فدعوته للجلوس وقدمت له فنجان قهوة. وما لبث أن صارحني قائلاً:

ـ أنا حديث الترقية إلى رتبة قبطان، وأعترف لك بأنني لا أريد مشاكل بسببك.. لو كنت مدنياً لما تصرفت بهذا الشكل.. افهمني من فضلك.. ارحل سريعاً أرجوك. وأنا أعفيك من ثم كراء شهر.

قلت له بنوع من المرارة:

ـ ما كنا لنصل إلى هذا المستوى الدنيء لو أنك كلمتني هكذا منذ الأول. شكراً يامون كابتان.. أنا لا أقبل أن تعفيني من تؤدية ثمن شهر كراء. أعاهدك على أنني سأخلصك من مشاكلي بمجرد إيجاد مكان أضع فيه حوائجي. أنا بدوري من النوع الذي لا يريد مشاكل لنفسه وللناس.

انقض على الفرصة فقال لي وقد بدا له الخلاص قريباً:

ـ في انتظار ذلك، يمكنك أن تضعها مؤقتاً في غرفة العسكري «البلانتون».

أياماً بعد ذلك، سلمت له مفاتيح الشقة ـ الغار، فاستغربت وأنا أرى الرجل يسلم عليّ بحرارة غير متوقعة. شد على يدي بقوة وابتسم ابتسامة غامضة ثم قال لي وهو يضغط على اسمي الشخصي:

ـ الوداع يا أحمد.. أرجو ألا تؤاخذني.

بعد ذلك بشهر ونيف لاقى الرجل المسكين مصرعه في حادثة سير أليمة. لم أعلم بالخبر المفجع إلا عرضاً في السنة المنصرمة.. فهل أصابته هو الآخر لعنة تزممارت؟

سميناه كذلك لأنه دأب على لبس البلغة كلما قدم إلى العنبر لمراقبة الحراس في أول عهدنا بتزممارت. إنه مديرالمعتقل، محمد القاضي الذي تفنن في تجريعنا السم الزعاف على امتداد ما يزيد عن 18 سنة. صورة ناطقة لإبليس. أو بالأحرى، إبليس صورة ناطقة له. فبعدما أدى مهمته على أكمل وأحسن وجه، نودي عليه فوشُح صدره بالنياشين ورقي من درجة كومندار إلى درجة ليوطنان كولونيل، ثم أحيل على القيادة الجهوية العسكرية في مكناس لكي يخلد إلى الراحلة إلى أن تخلق بالظروف تزممارت جديدة. وفي انتظار ذلك، كان يقضي سحابة يومه متنقلاً بين المنزل والحانة محمولاً على متن سيارة عسكرية وضعت بسائقها تحت تصرفه.

وذات يوم وأنا في مدينة مكناس مع رفيقين في المحنة، إذ التفت إليّ أحدهما وقد كان معروفاً بيننا بخفة الروح وقوة الذاكرة، فقال لي ببساطة من يطلب سيجارة:

ـ هل تريد أن ترى «لوم أبابوش»؟

أوقد هذا السؤال البسيط في ذاكرتي شعلة حارقة من الذكريات اللاهبة فأجبته تلقائياً أن نعم. كان المنطق يفرض عليّ أن أقول لا، لأن الضحية عادة ما تهرب من رؤية جلادها تفادياً لإنكاء الجراح القديمة. ولكنني أحسست برغبة عارمة للتحديق الطويل في ذلك المخلوق لتسجيل قسماته وحركاته وسكناته. كنت أود أن أغوص بنظراتي في أعماق عينيه لأعرف أي صنف من الرجال هو؟ ومن أي مادة متحجرة صنعت أعصابه حتى يعيش مرتاح الباب باثنين وثلاثين ضحية صارخة بالليل والنهار في ضميره؟

الضمير؟ أنا أخرف.. فهل مثل هؤلاء يملكون ضميراً؟

لما وصلنا قرب الحانة، أشار صديقي إلى سيارة سوداء واقفة قرب الباب وقال:

ـ إنها سيارته. سيأتي السائق في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ليقوده إلى منزله. وفي الساعة الرابعة زوالاً سيرجعه إلى الحانة. هذا هو برنامجه دائماً وأبداً.

ثم أبدى صديقي جدية في لهجته وتابع:

ـ هذه هي الحانة كما ترى حانة صغيرة لا يرتادها إلا المتعودون عليها. لهذا فكل قادم غريب سيثير الانتباه سريعاً. سندخل، وسنأخذ مكاننا بقربه بعد أن نطلب مشروباً، ولكن إياك أن تبحلق في وجهه منذ الوهلة الأولى، إنه شديد الحذر. أدنى شك منه فينا سيرغمه على مغادرة الحانة. سيكون لك الوقت الكافي للنظر إليه من طرف خفي.

ـ ولكني لا أخمر.

ـ لا يهم.. أطلب مشروباً غازياً.

رفض الصديق الثاني أن يدخل معنا، فقبع وجهه إشارة للذكرى التي أثارها اسم المدير في ذاكرته وبقي ينتظرنا في الخارج. لم يكن في الحانة إلا أربعة أشخاص.. جلس كل زوج منهم ينادم صاحبه على الطرف المقابل للزوج الآخر وقد حملوا رؤوسهم المثقلة بضباب العربدة على إحدى يديهم المتكئة على طاولة هلالية الشكل. أخذنا مكاننا في الوسط وطلبنا مشروبين غازيين بدا شربهما نشازاً في ذلك المكان. أشعل صديقي سيجارة وهو يتظاهر باللامبالاة ثم همس لي باللغة التزممارتية بين سحابة من الدخان المنفوث:

غُوجَبانْ سْلُوبًّا إينْ لا إسْكيبْردا.. (صاحبنا يوجد على شمالنا). استرقت نظرة حذرة فإذا بعيني تصطدم بعينين كانتا مسلطتين عليّ منذ دخولي إلى الحانة. هل تعرف الشيطان إلينا؟ لا.. مستحيل.. فطوال سنوات الأسر، لم يسبق له قط أن فتح على أحدنا الباب وخاطبه

وجهاً لوجه. ولو افترضنا أنه تصفح ملفاتنا في السجن، فلا يمكن له بتاتاً أن يضع وجهاً للمقارنة بين ما كناه وما نحن عليه الآن. لم أشأ أن أواجه نظرته فغضضت طرفي لكي أحول اهتمامه عني. . وحاولت ثانية فإذا بي أراه ساهياً في غمرة عربدته. دققت النظر إليه فإذا بي أراه شيخاً في السبعين من عمره بقميص وسروال كاكيين. كان طويلاً يابس العود ولكن بحركات متيقظة وثبة. وكان خفيف الصلع، تقدح عيناه الصغيرتان القويتان شراً وكأنهما عيون نسر جائع، بينما نتأت عظمتا وجنتيه بشكل أبرز أنفه الطويل المستقيم وأضمر شفتيه الرقيقتين الماضيتين المتراكبتين كشفرتي حلاقة أكلهما الصدأ. بدا لي مطمئناً وهو ينفجر ضاحكاً مع كل كلمة كان يقولها صديقه العجوز ذو الوجه المجعد المربد. كانا يشربان الجعة بإفراط كبير وكأنهما كانا يفرغانها في ثقب ما له من قرار. ركزت أذني على صوته فجاءني عميقاً مبحوحاً. هل كان يشرب على ذلك النحو الرهيب لينسى جرائمه أم أنه كان يغرق فراغه في الخمرة بعد أن ضاعت منه حبيبته تزممارت التي صنعت مجده المرعب وصيته الدموي؟

قال لي صاحبي:

ـ استمع جيداً إلى حديثهما.

كان فعلاً حديثاً ساقطاً قذراً بذيئاً يدور حول البطن وأسفل البطن. الرجل يستحق شهرته ما في ذلك شك. والحراس لم يكذبوا عليه قطُّ حين رووا عنه أساطير الشذوذ والشبق. هذا الشيطان العجوز المستهتر السكير الضاحك أمامي قتل اثنين وثلاثين رجلاً وعذب من لم يمت منا ستة آلاف وتسع مئة وسبعة وأربعين يوماً وليلة. . وها هو ذا الآن حر طليق معزز مكرم لا يستطيع أحد أن يلمسه ولو بقلامة ظفر لأنه يحظى بالحماية واللاعقاب. . ألم يكتفِ بالقول للملازم أمبارك الطويل بأنه مجرد منفذ للأوامر؟

موا جي ني سوي كان سامبل إكزكُوطا. فعلاً، لم يكن سو إكزكُوطا.. ولكن من النوع الممتاز الذي جد واجتهد وبرع في تنويع واختراع وصفات الموت البطيء..

في هذه اللحظة بالذات، استعدت قصة غريبة وقعت أحداثها في هذه الحانة وحكاها لي صديق دركي فقال:

ـ كنت أرتاد الحانة نفسها التي يخمر فيها «القاضي» كلما عاد إلى مكناس ليقضي إجازته، وبصفتي دركياً قديماً، عرفت أنه يدير سجن تزممارت. فارتأيت أن أتقرب إليه لأسأله عنك. والخمرة كما تعلم حبيبة السكارى. تؤلف بين قلوبهم وتنسج بينهم بسرعة البرق علاقة قد تدوم عمر كأس أو عمر إنسان. فشرعت أغدق عليه من الشراب إلى أن شعرت أنه اطمأن إليّ كثيراً بعد أن استمرأ كرمي المغشوش. وذات ليلة، سقيته فيها إلى أن أصبح عاجزاً عن الوقوف على رجليه. فاغتنمت الفرصة وهو يتأهب للرجوع إلى بيته وسألته:

ـ مون كومندار.. أريد أن أطلب منك خدمة صغيرة لو سمحت.

فرد عليّ في حنان:

ـ أي خدمة يا ابني؟

ـ لي صديق في تزممارت اسمه كذا. أرجوك أن تخبرني إن كان لا زال على قيد الحياة.

انطفأت فجأة بسمته الحانية، فقفز وكأنما لسعته أفعى ثم أخذ بتلابيبي وقد انقشع ثمله سريعاً فقال لي مهدداً:

ـ أمن أجل هذا كنت معي كريماً أيها اللئيم؟ أقسم لك بالله. لولا شفاعة هذه اللحظات الجميلة التي عشتها وإياك لألقيت بك معه في تلك الحفرة حتى تهترئا معاً. إن لقيتك في طريقي بعد هذا اليوم فسوف تندم على اللحظة التي ولدتك فيها أمك.

تذكرت هذه القصة وأنا أتابع النظر من طرف خفي إلى هذا الغول متسائلاً عن ردة فعله لو تقدمت عنده وقلت له من نحن. لقد تمنيت في هذه اللحظة أن أبغضه بكل مقت الكارهين لكني لم أستطع. لا أقول هذا تجملاً لكي أظهر أمام الناس بمظهر ملاك أو قديس، حاشى للّه. ولكنها الحقيقة المجردة. إنه لا يستحق بغض أحد. . البغض كثير عليه لأنه اعتراف به وتشريف له. فهل يسوغ لأحد مثلاً أن يحقد على الكلب لأنه يعظ أو على الأفعى لأنها تلدغ. فكل ميسر لما خلق له. وهذا كان ميسراً بكل بساطة لتزممارت. لما رأيته على ذلك النحو المخزي. . أي، شيخاً هرماً طبع الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة وهو غارق في سكره المطبق، أيقنت أنه لا يمكن أن يكون إلا بائساً شقياً. فتذكرت قول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ صدق الله العظيم.

لقد بدأ الشيطان يؤدي الثمن في انتظار لقاء الله. خرجت من الحانة وأعطيت لمصور مئة درهم كي يأتيني بصورته. ولكن مسعاي خاب. لأنني لم أرَ بعد ذلك اليوم لا صورة ولا مصور.

في سنة 1998، مات القاضي كما تموت الخفافيش في الليل، فدفن كما يدفن المجرمون في مزبلة التاريخ.

مراوغات وزارة حقوق الإنسان

لما أنشئت وزارة حقوق الإنسان سنة 1994، استفسرنا مسؤوليها عن مآل ملفنا فأجابونا جواباً فضفاضاً غامضاً. قالوا إن وزارتهم لا زالت بدون مقر رسمي وبدون ميزانية، وبالتالي فإنه ليس في إمكانهم فعل أي شيء يذكر في تلك الساعة، اللهم إلا إذا أردنا أن يتوسطوا لنا في الحصول على بعض الإسعافات الأولية أو تدبر فرص للشغل تتراوح أجورها بين 1500 و2000 درهم. هذا طبعاً إذا ما التزمنا التزاماً صريحاً بقطع كل علاقة لنا مع الصحافة. في ذلك الظرف بالذات، كنا قد التقينا مصادفة في مقر الجمعية المغربية لحقوق الإنسان بالصحفي إنياس دال، رئيس الوكالة الفرنسية للأنباء الذي كنا قد تعرفنا إليه سنة قبل ذلك لما سلمته مع عبد الله أعكاو ومحمد الرايس بلاغاً طلبنا منه نشره. استمع إنياس إلينا جيداً ونحن نوافيه بملخص عن تزممارت، فراعه كثيراً ما حكيناه، وتأثر لذلك تأثراً بالغاً، ومنذ ذلك اليوم، نمت بيننا صداقة عميقة لم تزدد مع الأيام إلا متانة وقوة. ولم تكن مراسلة إذاعة فرنسا الدولية بالمغرب آنذاك سوى زوجة إنياس، السيدة منى البنة. وهي سيدة لبنانية من أسرة عريقة خبرت النضال لما اجتاحت الجيوش الصهيونية أرض لبنان سنة 1982. وهكذا أصبح إنياس ومنى يدعواني دائماً إلى فيلتهما الجميلة بحي السويسي كلما نظما سهرة أو استقبالاً. وكان

عبد الله أعكاو يصاحبني كلما سمحت له ظروفه بذلك. وفي هذه اللقاءات، تعرفت إلى مغرب آخر.. مغرب يوجد بينه وبين مغرب «بوعجول» و«حي الرحمة» مسافة تقدر ببعد المشرقين. أو قلك مسافة سنوات ضوئية كثيرة.. فقد كان يخيل لي أحياناً كلما انتهت سهرة وعدت إلى «غاري» الصغير في سلا أني فأر تجارب عائد من كوكب بعيد ليخلد إلى الراحة في جحره المظلم بعد تجربة ناجحة في الأجواء العليا. وهكذا وجدتني في معمعة ما يطلق عليه بـ «الهاي سوسايتي» أو الوسط الراقي، أتعرف إلى شخصيات عالية من مختلف الميادين: ساسة، وصحافيون، وأدباء، وممثلون، ورجال أعمال، ودبلوماسيون، وأساتذة جامعيون، كلهم أعطوني بطاقات عناوينهم وأرقام هواتفهم. وبتوسط من إنياس لدى السفارة الفرنسية، وبموافقة متعاطفة من السفير السيد دي كونياك، قام سكرتيرها الثاني السيد إيف أودان بمعية الملحقة الثقافية السيدة مارتين حمادي ومدير المركز الثقافي الفرنسي لمتابعة دراستنا بالمجان. وهناك عشت مع صديقي عبد الله أحسن أيامنا بعد خروجنا من السجن. فقد كان جو الدراسة رائعاً جداً. استفدنا فيه من لقاءات كثيرة وندوات قيمة وتتلمذنا على أكفأ أستاذات للفرنسية آنذاك، وهما السيدة الجزائرية الموهوبة وحيدة رزيق والسيدة الطيبة ماريز بيريتي. وبفضل حدب هاتين الأستاذتين الرائعتين وتشجيع الدارسين والدراسات معنا، استطعت أن أحصل على الدبلوم المعمق في اللغة الفرنسية.

وفي شهر شباط/ فبراير من سنة 1994، وبعد تنقل مكثف بين مختلف المنظمات الحقوقية ووكالات الأنباء الصحافية ووزارة حقوق الإنسان، استدعانا على وجه السرعة لأول مرة المسؤول الأول عن هذه الوزارة استدعاء رسمياً ملحاً: كان السيد عمر عزيمان، أول وزير يعين على رأس تلك الوزارة الجديدة، أستاذاً مشهوراً في الأوساط

الجامعية آنذاك بنزاهته وكفاءته واستقامته. وقد سبق له أن كان قبل ذلك رئيساً للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان. فاستبشرنا خيراً بتلك الدعوة، فلم يخب ظننا حين قال لنا وعلامة الفرح بادية على وجهه:

ـ أيها السادة، أنا سعيد جداً لإخباركم بأن صاحب الجلالة قد تكلم معي شخصياً وأمرني أن أجد حلاً شاملاً ومرضياً لقضيتكم. لهذا أبشركم بأنكم علاوة على التعويضات المادية، ستتمتعون بالسكن اللائق، والتطبيب المجاني، وبالشغل المناسب لكل من آنس من نفسه قدرة على العمل. كما يسعدني أكثر أن أبلغكم سلام جلالته ورضاه عنكم ووعده إياكم بهبة ملكية كريمة ستعطى لكم من ماله الخاص. من أجل هذا ستتشكل في الأسبوعين القادمين لجنة تضم شخصيات مدنية وعسكرية ستكون مهمتها دراسة ملفاتكم واحداً واحداً لإيجاد الحلول المناسبة لها في ظروف شهرين من الزمن. وفي انتظار هذه التسوية النهائية، ستتكفل المصالح الاجتماعية للجيش بمدكم بمبلغ 5000 درهم شهرياً.. ويمكنكم منذ الآن الاتصال بالكولونيل عدول المسؤول عن هذه المؤسسة لسحب راتبكم..

تنفسنا الصعداء وقلنا في أنفسنا:

وأخيراً.. يمكننا الآن أن نتذوق طعم الحياة وأن ننعم بتلك الراحة التي يجدها المقاتل حين يعود إلى بيته بعد أن يكون قد أمضى أجيال طويلة في خنادق الحرب. اجتمعنا في الشارع، وأخذنا نسترجع كلام الوزير حرفاً بحرف ونؤوله جملة جملة والدنيا لا تسعنا من شدة الفرحة، بينما قفز المستعجلون منا في أول تاكسي وتوجهوا قصداً إلى مقر المصالح الاجتماعية للجيش ليتأكدوا بأن كلام الوزير لم يكن تخريفاً أو هذياناً. وجاءت ردود فعل المناضلين في حقوق الإنسان متباينة. وكم كانت خيبتنا كبيرة حين اتصلت بنا السيدة إيفلين فان كنيكن هاتفياً وقالت لنا وهي في حالة من الغضب الشديد:

ـ لقد أضعتم ببشاعة مهولة كل هذا العمل الجميل الذي قمنا به سوياً بعد أن كنتم قاب قوسين أو أدنى من حل جذري شامل.. إنكم مخيبون فعلاً للأمل.. لقد لعبوا بكم كما يلعب بالأغبياء السذج.. لا.. لا.. ثم لا.. ما كان لكم أن تعضوا على الطعم بهذه السرعة وفيه سنارة.. إنها هدية مسممة وستكشف لكم الأيام قريباً بأني على صواب. أما بعض آخر، فقد أبدى رغم حذره الشديد تفهماً كبيراً لظروفنا لأنه كان أدرى الناس بالواقع السياسي المغربي من جهة، وأعلم بالوضعية المزرية التي كانت تعيش فيها غالبيتنا العظمى من جهة أخرى، فقال:

ـ إنه مكسب على كل حال.. فعضة في السلحفاة خير من تركها تنصرف وهي سالمة.

أما الصحافة الرسمية، فلم تفلت الفرصة هذه المرة، فملأت صفحاتها الأولى بهذا الموضوع مشيدة بالتقدم الكبير الذي حققه المغرب في مجال حقوق الإنسان إلى درجة أنها زرعت البلبلة بين بعض قرائها حين أوهمتهم بأننا قد عوضنا وانتهى الأمر. مرّ الشهران اللذان حددهما الوزير فلم يتصل بنا أحد. فتريثنا وقلنا في أنفسنا: «النصبر، فالصبر مفتاح الفرج». فصبرنا شهراً ثالثاً ثم رابعاً ثم خامساً ولكن الفرج عاكسنا وأبى إلا أن يتخلف. ولما رجعنا إلى الوزارة، استقبلنا أحد مسؤوليها الكبار فأوصانا بالصبر كذلك وقال:

ـ لقد أبنتم عن طاقات كبيرة في الصبر طوال عقدين من الزمن، فمذا ستخسرون لو صبرتم وقتاً قليلاً أكثر؟

نزل علينا هذا الكلام كحمام بارد. لقد ناورونا ما في ذلك شك. إذاً، لقد كانت إيفلين على صواب. لكن أنى لنا تطبيق برنامجها وإمكانياتنا ليست كإمكانياتها؟ لقد كنا في مواجهة جهاز عملاق منظم له مفكروه ومخططوه بسلطهم المطلقة وإمكانياتهم

الضخمة، بينما لم نكن نحن سوى غرقى عاجزين في بحر متلاطم الأمواج نستمسك فيه بأوهى قشة طافية أمامنا على السطح.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من السنة نفسها، وخلال ندوة صحفية بثتها القناة الثانية، تراجع السيد عزيمان عن كل ما صرّح به لنا. شهوراً بعد ذلك، أُقِيل من منصبه وعوض بالسيد محمد زيان. لما ذهبنا للقاء هذا الأخير، ألغى جملة وتفصيلاً كل ما وعدنا به سلفه فقال لنا مفتخراً وهو يطفئ في وجوهنا كل بارقة للأمل:

ـ أنا ريفي لا أكذب أبداً.. وكل ما وعدكم به سلفي فهو كذب في كذب. ليس لكم أي شيء.. وعلى كل، فينبغي أن تكونوا سعداء لأنكم لا زلتم بعد على قيد الحياة.

كان ذلك بمثابة إعلان حرب بيننا وبين الرجل. فلم يدر بخلدنا قط أن يكون مسؤولاً من ذلك الحجم، ومكلفاً واحسرتاه بحقوق الإنسان، على ذلك المستوى الهابط من الغلظة والفظاظة. وفي استجواب أجرته معه أسبوعية «ماروك هيبدو» في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1995، لجأ السيد زيان إلى البهتان حين اتهمني بقتل عشرات الأشخاص يوم 10 تموز/ يوليوز مستنداً حسب زعمه إلى الفرنسي «فرانسوا بيدران» الذي ألّف كتاباً حول أحداث الصخيرات. والطامة الكبرى هي أن وزير حقوق الإنسان، المحامي الذي كان من المفروض أن يقف في صف المضطهدين بدل تقمص شخصية المدعي العام، والرجل الذي زعم أنه لا يكذب أبداً، كذب جهاراً نهاراً وعلى رؤوس الأشهاد ثلاث كذبات من دون أن يطرف له جفن من الخجل. فالكذبة الأولى كانت على فرانسوا بيدران نفسه لأن كتابه يباع في الأسواق ويشهد أنه بريء مما نسبه إليّ الوزير الصادق الأمين. والكذبة الثانية كانت عليّ، أما الكذبة الثالثة فكانت على الناس.

وأضاف معاليه الذي لا يكذب أبداً للأسبوعية قائلاً في تبجح كبير:

«هذا الرجل بالذات، هو الذي جاء عندي فقدم نفسه لي في صورة ضحية وتجرأ أن يطالبني بتعويض يقدر بالملايير.. لقد كان في حاجة لصدمة مؤثرة، وأعتقد أنه قد تلقاها».

هل يجدر بي أن أذكر السيد زيان بأن المحكمة العسكرية في القنيطرة لم تكن مؤسسة للأعمال الخيرية لأنها لم تفرق هدايا على أحد، وأنها لم تتردد لحظة واحدة في إصدار الحكم بالإعدام على جنرالات مشاهير، لم تعطهم حتى مهلة الدفاع عن أنفسهم؟ فما بالك بنا نحن أبناء الشعب المستضعفين الذين لو علمت فينا حبة خردل من سبق إصرار لطحنتنا كما تطحن الطماطم في المولنيكس بدون أن تُبالي؟ أم هل أنبهه بدون ادعاء أو تبجح أو تزلف لأي بشر، أنه علاوة على أني لم أطلق رصاصاً فإني سهلت الفرار لأشخاص عزل، بعضهم لا زال ساكناً في العاصمة ومستعداً لتأدية الشهادة لو دعي إليها؟ ولكي أعطي صورة ناطقة على «لباقة الأستاذ زيان وكياسته»، أنقل في هذا المقام بعض ما أجاب به الصحافي المتحيز الذي شعر أنه ذهب بعيداً في تحيزه فأراد أن يدهن سؤاليه الأخيرين بمسحة من الموضوعية الكاذبة:

ـ ولكن تزممارت كانت على كل حال كابوساً غير مقبول؟

ـ لقد كانت وضعية غير مقبولة. ولكنها طويت وأصبحت من الماضي.. من أجل ذلك، فالرجل السياسي يعطي الأولوية لما هو آت.

ـ هل توجد في وزارتكم مصلحة اجتماعية تتكلف بهؤلاء الأشخاص؟

ـ لا.. حقوق الإنسان ليست هي الأعمال الخيرية.

الاختطاف الثاني

كنت أحس دائماً برغبة حارقة للتنديد بالوحشية والفظاعات التي ارتكبت في تزممارت. فهل من المعقول أن يمتثل الإنسان لتلك التعليمات الظالمة المجبرة على الصمت فيساعد الجلادين بسكوته الآثم على الاستمرار في مناكرهم؟ مناكر قد تطال أبناءنا غداً بحكم قانون الوراثة فيكونون لنارها حطباً. الصمت جبن وتواطؤ وتشجيع. الصمت في مثل هذه الحالات خيانة عظمى وعلامة صارخة للخنوع والانبطاح. إنه الشحم الذي يدهن دوالب ماكينة القمع الطاحنة ليزيدها قوة ومضاء وفعالية. فأي جبان رعديد، وأي أناني ممقوت ساكون أنا إن سكت عن معاناة أصحابي المدفونين تحت ركام الجير وأناتهم الملتاعة لا زالت تقرع ضميري كمقامع من حديد؟ ينبغي إذاً أن أرفع عقيرتي عالياً حتى يعلم المغاربة بالحقيقة، كل الحقيقة. لا بدَّ من فقء هذا الدمل المتقيح حتى لا تستشري عدواه فوق سماء المغرب كسحابة ملوثة تنذر بالإمطار في كل حين. أنا مواطن بسيط. لا أدعي عنترية غوغائية ولا أنتفخ أكثر من حجمي كما يفعل الضفدع كلما أراد أن يوهم غيره بقوته المزعومة. ولكني أريد أن أشهد، لأن نار الاستنكار المستعرة في أعماقي هي التي جعلتني أجمح للشهادة من دون حساب أو تقدير لما سيسفر عنه الغد من عواقب. إن الشهادة برهان. وإذا تكاثرت البراهين تساقطت الأقنعة كأوراق التوت في

الخريف وتنامى الوعي بالخطر ثم تحفز المواطنون لوقف النزيف. نزيف الدماء البريئة المهروقة بغير وجه حق إلا لأن أصحابها يقولون: «نريد مغرباً أفضل. نريد مغرباً للجميع».

فقبل أن أتعرف إلى الصحافي إنياس دال، كنت قد بدأت بكتابة بعض الفصول عن مأساة تزممارت باللغة العربية. ولما التقيت به مع أصحابي، تأثر تأثراً عميقاً لما حكيناه له، فنبتت في ذهنه تلقائياً فكرة تدوين هذه القصة في كتاب جماعي يكتب باللغة الفرنسية. وبدون أن نضيع وقتاً شرعنا في العمل. فكنت ألتقي مرة كل أسبوع مع عبد الله أعكاو ومحمد الرايس من أجل هذا الغرض. ولكن ما إن حررنا بضعة فصول حتى غادرنا الرايس لأنه كان على وشك الانتهاء من كتابة مذكراته التي أخفاها عنا. فتابعت كتابتي باللغة العربية، وكنت كلما فرغت من فصل سلمته لإنياس ليبحث له عن مترجم. ولكني لاحظت أن الترجمة لا تشفي الغليل لأنها تفشل عادة في عكس المشاعر والأحاسيس بالحرارة والعمق المطلوبين. فغامرت بالكتابة مباشرة باللغة الفرنسية، وسرني إعجاب إنياس وهو يشجعني كثيراً على الاستمرار في الكتابة بهذه اللغة في الوقت الذي تكفل فيه هو بعملية التصحيح والنسخ على الحاسوب. وكان من حين إلى آخر يسلم نسخة من فصل أو فصلين لمن كان يعتبرهم من نخبة أصفيائه المحسوبين على الصف التقدمي. فوقع المحذور. فحتى في هذه الصفوة المثقفة التي كنا نعتقد أنها صافية من كل الشوائب، كانت فيها العيون اليقظة مدسوسة تراقب، والآذان المرهفة حساسة تصغي وتلتقط دبيب النمل.

في بداية سنة 1995، كنت قد عزمت السفر إلى فرنسا من أجل الاستشفاء، وذلك بتشجيع من بعض المتطوعين الفرنسيين الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية فحصي وتطبيبي بالمجان. وقد كنت أود

كذلك أن أغتنم الفرصة لزيارة أخي الذي أجبر على الانتظار طويلاً قبل أن يعين أخيراً قنصلاً للمغرب في باستيا.

في نهاية شهر شباط/ فبراير حزت على جواز السفر بدون أدنى مشكل يذكر، وقد كان ذلك في الحقيقة مفاجأة لم يستسغها بعض مناضلي حقوق الإنسان. وفي بداية شهر تموز/ يوليوز، منحتني القنصلية الفرنسية التأشيرة، فحدد يوم سفري في 19 من الشهر نفسه، أي بعد يوم واحد من اجتيازي للامتحانات الشفوية للسنة الثانية من الحقوق. وفي يوم 11 تموز/ يوليوز على الساعة الثانية والربع زوالاً وبينما أنا أستعد للامتحان، إذا بباب منزلي يطرق. فتحت فإذا بي أمام شاب مؤدب يقول لي ببسمة متعبة:

ـ أنت هو أحمد المرزوقي؟

قلت:

ـ نعم، اسمح لي أن أسألك بدوري من أنت؟

ـ هل يمكننا أن نبتعد شيئاً ما عن باب بيتك؟ أريد أن أكلمك في شيء يهمك.

لما وقفنا في رأس الدرب، التفت إليّ وقال بدون مقدمة:

ـ أنا من الأمن، وقد أرسلني إليك رؤسائي ليستدعوك إلى مركز الشرطة الرئيسي في الرباط.

ـ هل يمكنني أن أعرف لماذا؟

ـ لا أدري.. مهمتي تنتهي عند استدعائك. أنت مخير بين مصاحبتي الآن أو الالتحاق «بالكوميسيرية» الرئيسية على الساعة الرابعة.

ـ أين توجد «الكوميسيرية» الرئيسية؟

بدا الرجل وكأنه قد أهين.. لم يستسغ أن يجهل معتقل سابق

مثلي مؤسسة مشهورة جداً كالتي يمارس فيها عمله. ابتسم ساخراً وقال:

ـ أتجهلها حقاً ونحن نحسبك يا حسرة من الرباطيين؟

ـ لا . . أنت تعلم أني لست رباطياً.

ـ عفواً. لقد نسيت بأنك جبلي من غفساي. . الكوميسيرية يا سيدي توجد في ساحة بيتري قرب سوق الأزهار. إلى اللقاء.

ساعة ونصف بعد ذلك، وجدته واقفاً ينتظرني في باب الكوميسيرية. قادني إلى المكتب 24 حيث وجدت شخصين مسترخيين على كرسيين يتجاذبان أطراف الحديث وعلامة الملل بادية على وجهيهما. حياني أحدهما ببرودة وأشار بيده إلى كرسي فجلست. ثم تابعا حديثهما وهما يتثاءبان من حين إلى آخر، متجاهلين وجودي تماماً. دخل شرطي فوضع أمامهما إبريق شاي ثم انسحب في صمت. التفت إليّ أحدهما وكأنه فطن أخيراً إلى وجودي في المكان فقال:

ـ لقد طلبنا لك كأس شاي منعنع في انتظار قدوم «المعلم».

بعد نصف ساعة من الانتظار، سمعت جلبة في الدهليز أعلمتني بقدوم الشخص المجهول. قفز الرجلان من مقعديهما وعدلا هندامهما ثم جمعا رجليهما في وقفة عسكرية متحجرة. بصخب متعمد، دخل علينا المكتب رجل بحجم دب كبير مرفوقاً بشرذمة من الأتباع تعكس وجوههم رهبة كبيرة من رئيسهم الدب. استلقى هذا على أريكة وثيرة وراء مكتب كبير، ثم بإشارة من يطرد الذباب، أمر الجميع بالانصراف، فلم يبقَ في المكتب سوى الشخصين اللذين وجدتهما عند قدومي وشخص آخر جلس وراء آلة كاتبة يلقمها ورقة استعداداً لتسجيل محضر. كان واضحاً جداً أن هذا المسؤول الأمني من العيار الثقيل. فقد كان فوق بدانته مكتنزاً شحماً برأس غليظ أصلع وأوداج

منتفخة وعينين جاحظتين فيهما شيء من حول. وقد كان العرق يتصبب من جبهته بغزارة فكان يمسحه بمنديل وهو يحدجني بنظرة متفحصة، فقال لي بلهجة متعالية وكأنه يمنحني هدية سخية:

ـ لا بأس ياسي أحمد؟

كانت تلك أول مرة في حياتي أسمع فيها مسؤولاً أمنياً كبيراً ينادي عليّ باسمي الشخصي ويرفقه بـ: «السي». ذلكما الحرفان اللذان يرسمان في ثقافتنا الشعبية تلك الحدود الفاصلة بين الاحترام والسخرية حسب لهجة المتحدث. لم يبشرني كل ذلك بخير. فأنا لا زلت أذكر أنه طوال مدة إقامتنا في الضيافة الكريمة لإدارة الأمن الوطني، لم يكن ينادى علينا إلا بـ:

ـ آجي أولد القح.. نوض لدين مك.. وهلم جرا.

أجبته وأنا أنتظر ماذا سيأتي بعد السلام:

ـ شكراً. الحمد للّه.

ـ سي أحمد.. أنا أعرفك من بعيد.. أعرف عنك كل شيء، ولكن الفرصة لم تتح إلا في هذا اليوم لرؤيتك أمامي هكذا بلحمك ودمك من أجل الدردشة معك. قل لي.. هل بإمكانك أن تتحدث معي بالفرنسية من فضلك؟

ولو أن السؤال بدا لي غريباً جداً، فقد كنت بعيداً عن الاعتقاد بأنه يحمل في طياته فخاً خطيراً.

وبغباوة كبيرة، ارتميت فيه من دون أن أدري، فقلت له:

ـ إن فرنسيتي ليست من ذلك الطراز الرفيع جداً.. ولكن إذا كنت تلح ذلك عليّ..

فقاطعني بصرامة:

ـ إني ألح..

ثم استدرك ولطف أمره بابتسامة متكلفة:

ـ أرجوك. أبذل مجهوداً.. أريدك أن تتكلم لي عن كل الأنشطة التي قمت بها بعد الإفراج عنك من تزممارت.

ـ هل بإمكاني أن أسألك بدوري عن سبب هذا الاستنطاق؟

ـ إنه ليس استنطاقاً.. إنه مجرد إجراء أمني.

وهكذا شرع سيل الأسئلة يتساقط كرمي مدفعية تبدأ في الأول بقذف الحواشي ثم تعدل رميها رويداً رويداً لتركزه على الصميم. كان واضحاً أن الرجل يحوم حول ثلاثة محاور: إنياس دال، الكتاب حول تزممارت، والسفر إلى فرنسا. غرز «المعلم» نظرة خبيثة في أعماق عيني وكأنه كان يريد أن يخترق بها جمجمتي ليستكشف ما بمخي فقال بصوت ينذر بالخطر:

ـ أوَتدري أنك بصدد تسريب أسرار الدولة إلى أجنبي سيستغلها في التشويه بوطنك؟ أظنك تقدر ذلك، أنت الذي كنت في الجيش ضابطاً. ألا تعتقد مثلي بأنه من الأحسن لنا كمغاربة أن ننظف بيننا غسيلنا الوسخ؟

ولو أن الحياة كانت قد عودتني على كثير من المفاجآت، فقد كان اتهامي بالجوسسة آخر ما كنت أتوقعه..

ـ إذا كنت ترى بأن حديثي عن معاناتي ومطالبتي بحقوقي بعد قضاء ما يزيد على 18 سنة في تزممارت مساس بأمن الدولة، فلك ذلك. ولكني أسألك: هل من المعقول أن يعاتب إنسان يحترق في الجمر إن أطلق صرخته؟ لقد قضيت أزهى سنوات عمري ظلماً وعدواناً في جحيم لا يطاق، والدولة ترفض إلى حد هذه الساعة أن تفعل أي شيء من أجلي لأنها تريد من عذابي أن يستمر.

تجاهل الرجل كلامي وألقى نظرة ذات معنى إلى درج فتحه ثم قال:

ـ لدينا معلومات صحيحة جداً تبرهن بأنك بصدد كتابة مذكراتك عن تزممارت بمساعدة إنياس.

ـ يا سيدي. . إذا أردت أن أكتب كتاباً فأنا لست بحاجة لأي كان، إضافة بأن لي كامل الحق في ذلك. أولاً يضمن دستورنا حرية التعبير؟ ثم بعد هذا، ماذا يمكن لي أن أزيد على ما كتبته كريستين السرفاتي وعلي بوريكات؟ إن تزممارت لم تعد الآن سراً يخفى على أحد.

ـ لقد سلمت لإنياس معلومات تتعلق بالتحضيرات التي سبقت الانقلاب.

ـ إن إنياس صحافي محترف، وهو في غنى عني إن أراد الحصول على مثل هذه المعلومات ما دام كل شيء قد قيل في محاكمة الصخيرات.

ـ ولكن أسرار المحكمة بقيت في المحكمة.

ـ لا يا سيدي. لقد كان هناك صحافيون وطنيون وممثلون عن كثير من وكالات الأنباء الدولية غطوا الحدث بكثير من الدقة.

نظر «المعلم» إلى ساعة معصمه ثم قال كخاتمة لتلك الحصة «الشيقة»:

ـ على كل، أنا أشكرك وأعتذر لك إن أبقيتك عندي طول هذا الوقت.

وقف الرجل ومد لي يده مصافحاً، وبكيفية مفاجئة، جرني عنده وقبلني على شاكلة ما يصافح به المغاربة أصدقاءهم: قبلة على الخد الأيمن وأخرى على الخد الأيسر. وكان ذلك أيضاً آخر ما كنت أتوقعه. ثم أضاف وهو يودعني:

ـ أتمنى أن ألقاك في مكان بهيج غير هذا. هل تريد أن أقودك إلى منزلك؟

قلت له:

ـ لا.. شكراً أفضل أن آخذ الحافلة.

ألقيت نظرة على ساعة معصمي فأدركت أن الاستنطاق دام مئة دقيقة بالتمام. كان الجو في الشارع منعشاً طرياً يفوح بعبق مسكر لا تلتقط شذاه إلا أنوف من قضوا شبابهم في الدهاليز والزنزانات.. إنه عبق الحرية.. عبق الجنة.

في 18 تموز/ يوليوز، أتممت الامتحانات الشفوية بنجاح وشرعت في الاستعداد للسفر. ولكن صديقاً لي هاتفني ليخبرني بأن كل الأسفار المبرمجة إلى فرنسا يومي 19 و20 تموز/ يوليوز قد ألغيت نظراً إلى قدوم الرئيس الفرنسي جاك شيراك في أول زيارة رسمية له إلى المغرب. كان معي ثلاثة من إخوتي جاؤوا مع أسرهم الصغيرة لزيارة الوالدة وقضاء ليلة السفر معي. فقالت لي والدتي ونبرة صوتها تشي بحزن عميق:

ـ كم سيدوم هذا السفر يا أحمد؟

أسبوعين أو ثلاثة يا أماه.. وقت قصير قد لا يكفي للعلاج ولزيارة أخي في باستيا.

ـ لست أدري لماذا أنا متطيرة من هذا السفر. أنا مغتمة جداً وقلبي لا ينبئني بخير. المهم هو أن لا تتغيب طويلاً. وتذكر دائماً يا ابني بأني قضيت عشرين عاماً من عمري في انتظارك.

ـ لا تقلقي يا أماه. أنت تدركين جيداً بأنك كنه حياتي، فلا أحد يستطيع بعد اليوم أن يفرق بيننا لأني أحبك كثيراً وأحب كذلك وطني الذي يستحيل علي أن أتصور الحياة تحت سماء غير سمائه.

في انتظار طعام العشاء، خرجت مع أحد إخوتي وصديق من أصدقاء الطفولة لأخذ فنجان قهوة، فلاحظت أن رجلين يقتفيان أثري

من بعيد. لما رجعت إلى المنزل في حدود الثامنة والنصف، دق أحدهم في بابي فإذا به رجل بدين أدهم البشرة كأغلبية زوار الليل، يحمل على عينيه نظارات، فبادرني قائلاً:

ـ أنت هو أحمد المرزوقي؟

ـ نعم. وأنت من الأمن. أليس كذلك؟

قال وهو يبتسم بخبث:

ـ وهو كذلك. هل يمكننا أن نبتعد شيئاً ما عن باب منزلك؟

الخطة نفسها. . في زاوية من الدرب المظلم قال لي:

ـ أرسلني إليك رئيسي الذي استجوبك بالأمس ليطلب منك أن تسلمه جواز سفرك.

ـ لماذا؟ هل أنتم عازمون إذاً على احتجازه؟

أجابني وهو يحتج بعنف:

ـ أبداً. . أبداً. . إنها مجرد إجراءات شكلية فقط. من أجل طمأنتك، أؤكد لك بأني تلقيت تعليمات صارمة لإرجاعه لك بنفسي يوم السبت. هذا مؤكد. أرجو أن أجدك في بيتك.

ـ السبت؟ ولكني سأسافر إلى فرنسا قبل يوم السبت.

ـ لا عليك، إن رئيسي سيتكفل بتعديل كل هذا، سترى. سترى.

في مساء يوم الخميس 21 تموز/ يوليوز، اتصل بي الشرطي السري بواسطة هاتف الجيران فقال لي:

ـ لقد أخذ رئيسي ما قلته لي بعين الاعتبار. فعوضاً من يوم السبت، سأرجع لك الجواز غداً الجمعة على الساعة التاسعة صباحاً. الزم إذاً بيتك.

في صباح الغد، قدم الرجل فعلاً في التاسعة والنصف ليقول لي:

ـ «إن «المعلم» قرر تسليمك الجواز بنفسه، وهو يود أن يقول لك كلمة بالمناسبة. هل تريد أن ترافقني أم تفضل القدوم إلى الكوميسيرية وحدك؟

ـ أفضل الالتحاق بكم بمفردي.

ـ لا تتأخر إذاً، نحن في انتظارك.

في طريقي إلى الكوميسيرية، قلت لشقيقي عبد العزيز وهو يقودني بسيارته:

ـ اسمعني يا أخي جيداً: إنها الساعة العاشرة إلا عشر دقائق. إذا لم أعد قبل الزوال، فاتصل فوراً بمناضلي الجمعية والمنظمة المغربية لحقوق الإنسان. وبالخصوص، عبد الإله بن عبد السلام، فؤاد عبد المومني، إدريس بن زكري والصديق الأحرش. ها هي ذي أرقام هواتفهم مسجلة على هذه الورقة. ولا حاجة لي بتذكيرك بأنه لا ينبغي بتاتاً أن تحيطوا أمنا علماً بأي شيء في حالة حصول مكروه.

أجابني أخي واثقاً:

ـ أراك تبالغ كثيراً.. هل يعقل أن يمسوك بسوء بعد كل الذي عانيته في تزممارت؟

ـ أكل هذا السيناريو تراه معقولاً من أجل إرجاع جواز سفر إلى صاحبه؟ إن وراء الأكمة ما وراءها.

لما وصلنا إلى الكوميسيرية، هرول إلى عندي الرجل الأدهم مع صاحبه الذي قدم عندي في المرة الأولى وقال لي ببسمة متكلفة:

ـ لقد تأخرت شيئاً ما. من حقنا أن نطالبك بثمن سكرة.

لم تعجبني هذه الإلفة المزيفة، فتظاهرت بعدم سماعها وأنا أقول لأخي:

ـ أنتظرني في المقهى.

فقاطعني الأدهم قائلاً:

ـ لا . . لا تزعج أخاك. أطلق سراحه وسأتكفل أنا بإرجاعك إلى بيتك.

لما انتهينا إلى المكتب 25، فتح الرجل الأدهم الباب ربع فتحة وأطل برأسه في الداخل ثم التفت إلى صاحبه وقال له بصوت منزعج:

ـ يا للمصيبة! «المعلم» غير موجود. لقد مل من كثرة انتظارنا فالتحق ببيته في حي الرياض.

فرد عليه الثاني وهو يبدي قلقاً شديداً:

ـ وما العمل إذاً؟

ـ لا شك في أنه بمنتهى الغضب. ليس لنا من اختيار سوى الالتحاق به سريعاً لأنه كان يحرص أن يرد الجواز إلى صاحبه في تمام الساعة العاشرة.

ـ المشكل العويص هو أن كل السيارات مشغلة ولا توجد ولو واحدة حاضرة في المرأب هذه الساعة.

ـ لا يهم. سنأخذ تاكسي إن اقتضى الأمر، فليس لنا الحق في إضاعة دقيقة واحدة.

ـ انتظر، سأطلب من «الحاج» أن يعيرنا سيارته.

غاب الرجل لحظة ثم عاد وهو يفتعل الانشراح فقال لصاحبه:

ـ هيا بنا! نحن محظوظون جداً فقد وجدته على وشك مغادرة مكتبه.

كان مشهد هذه المسرحية ذات الفصل الواحد جديد بممثلين من الدرجة الثالثة، ولكني أعترف بأني كنت أبعد ما يكون من تصور إخفائه لخدعة خطيرة. لما خرجنا إلى الشارع، وجدنا رجلاً وسيم المحيا غزير الشعر ينتظرنا وراء مقود سيارة بيضاء من نوع ريكاطا. أركبوني في المقاعد الخلفية مع الشرطي البدين الأدهم، بينما ركب الشاب النحيف بجوار السائق الذي انطلق بسرعة كبيرة في اتجاه طريق

زعير. في أثناء الطريق، كان الشرطيون الثلاثة يبدون كثيراً من الانشراح ويتحاكون في ما بينهم نكتاً سمجة حاولوا بها عبثاً إثارة ضحكي. وعلى بُعد مئة متر تقريباً من سوق السويسي الممتاز، عرجت السيارة يميناً وأخذت طريق «بير قاسم». وما هي إلاّ لحظة حتى توقفت فجأة في زقاق خال قرب عملاق ضخم الجثة كان يتصبب عرقاً رغم وقوفه تحت ظل شجرة. قفز الفيل الآدمي بجواري في السيارة بسرعة تتناقض مع هيكله. فوجدتني محاصراً عن اليمين والشمال بملكين حارسين. ولما انطلقت السيارة من جديد، لم أشعر إلا وأربع قبضات فولاذية تنقض على عنقي وقفاي بوحشية غريبة وتضغط على رأسي بعنف إلى تحت. وفي لمح البصر، كانت العصابة على عيني ويداي مشدودتان وراء ظهري. طن صوت الأدهم في أذني كالصفعة وهو يقول:

ـ كن طيعاً إن شئت أن تمر أمورك بسلام.. نحن لا ننفذ سوى الأوامر. إياك أن تأتي حماقة.

انتهى وقت المزاح والنكت. وأصبحت اللهجة الآن مهددة تنذر بحلول كل الكوارث. نزلت الصدمة على نفسي مباغتة قوية فجعلت قلبي يخفق بسرعة قلب أرنب سقط بين مخالب كاسر بعد ملاحقة ضارية شرسة. تابعت السيارة طريقها في صمت رهيب وأنفي مدسوس بين ركبتي الفيل يشتم حموضة رائحة عرقه الخانز. رائحة أشعلت سريعاً في ذاكرتي المصدومة كل كوابيس تزممارت. يا لخيبة الأمل العميقة.. كم كنت مغفلاً ساذجاً حين اعتقدت بأن المغرب قد فتح فعلاً صفحة جديدة في مجال احترام حقوق الإنسان، وأن هذه الممارسات المجرمة قد ولت بغير رجعة.. إلى أين هم ذاهبون بي الآن؟

بعد خمس عشرة دقيقة تقريباً، قللت السيارة من سرعتها ثم

توقفت أخيراً في صمت جنائزي. انفتح باب كبير فعوى شاكياً من كثرة الصدأ. هبطت السيارة في منحدر صغير ثم توقفت نهائياً وأطفأ سائقها المحرك بسرعة. عوى الباب من جديد معلناً عن انغلاقه من ورائنا. تبيّن لي من رجع الصدى الناتج عن تصفيق أبواب بعض السيارات أننا في مرآب تحت ـ أرضي. أعطيت همساً أوامر وأوامر مضادة مرفوقة بفرقعة أصابع. الكلمة الوحيدة الواضحة التي كانت تند عن بعض الأشخاص، هي كلمة «الحاج». لا يخفى على المجربين الذين استوطنوا الزنازين والأقبية والدهاليز أن الجلادين في بلدنا الحبيب لا يتنادون على بعضهم إلا بلقب الحاج كي يظلوا مجهولي الهوية. وأنا على يقين صادق بأن هؤلاء «الحجاج الميامين» على وعي عميق بلا شرعية عملهم. فلا شك في أن بعضهم يعاني أحياناً من الإحساس بالدونية والحقارة رغم يده الطويلة المطلوقة ورغم تمتعه التام باللاعقاب. ولهذا السبب بالذات، تراهم يحرصون جميعاً على ممارسة أفاعيلهم في السرية التامة، مجتهدين في إقناع أنفسهم بأنهم ليسوا في الأخير سوى جنود مجندة لحماية المصالح العليا للوطن. ساعدني شرطيان على صعود بعض الدرجات. فلما وصلنا إلى الطابق الفوقي، أمرني صوت مرعد أن أضع يداي على الجدار. امتثلت. فجردوني من حذائي ومن حزامي وساعة معصمي ومذكرتي ومن مئتي درهم كانت بجيبي. بعد ذلك مباشرة قادوني إلى مكان وأمروني أن أجلس. وما إن فعلت حتى سمعت الباب يقفل عليّ بدورتين. نزل عليّ صمت رهيب كذاك الصمت الذي ينزل على الميت المودع في قبره حينما يتولى عنه دافنوه. لما أزحت العصابة عن عيني، وجدت نفسي في زنزانة مستطيلة الشكل فيها مرحاض نتن مع صنبور ماء. أما الفراش، فكان وسخاً بئيساً تكون عليه غطاء واحد. أعترف أني كنت على وشك الانهيار. فقد يظن الناس أن من

تعود على العيش في الزنازين لا يرعبه أن يرجع إليها. ولكن العكس هو الصحيح في حالة إنسان نجا من الموت بأعجوبة، فلما استرجع حريته وظن أنه قد دخل الجنة من أبوابها السبعة، وجد نفسه في طرفة عين في قاع من قيعان جهنم. كنت كالمضبوع أحاول استيعاب ما حدث لي وقلبي من سرعة خفقانه يهددني بالتوقف. رجعت ذكريات تزممارت لتعصف بي كإعصار كاسح بدأ باقتلاع شرايين قلبي ثم انتهى بإضرام النار في كل خيط من أعصابي. وفجأة، رجعت الغرائز القديمة بسرعة البرق. شرعت أذرع الزنزانة مشياً على الخط المنحرف ذهاباً وجيئة: واحد.. اثنان.. ثلاثة. ثم ثلاثة.. اثنان.. واحد. تماماً كما تفعل الوحوش المنكوبة في حريتها في حديقة للحيوانات. أثارت انتباهي كلمات مكتوبة لا شك بمسمار على حديد الباب المتصدئ. توقفت وقرأت الآية الكريمة:

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾. ثم قرأت عن اليمين والشمال وفوق وتحت، أسماء وتواريخ. فألٌ حسن.. كنت أحلم بباريس وباستيا فإذا بي في الحلقة الثانية من مسلسل تزممارت. إنهم يحيطون علماً حتى بأزهار أحلامنا النابتة بأعجوبة في صحاري ضياعنا فيبادرون بدوسها بأرجلهم كي لا تضوع بالشذى والأمل. قدري إذاً هو أن أعيش سندباداً متجولاً في محيط زنزانات بلادي وما أكثرها. توضأت وصليت ركعتين فإذا بالسكينة تغمرني وبضوء دافئ ينير دواخلي. جلست أرتب أفكاري المبعثرة وقلت مشجعاً نفسي:

ـ أصمد وقاوم يا أحمد.. لقد رموك هنا لكي تصاب بالفشل والإحباط قبل أن يخضعوك لعملية ترهيب. لو اقترفت جرماً يعاقب القانون عليه لسلموك بدون تردد لقاضي التحقيق بتعليمات قاسية. كل شيء واضح الآن. إنهم يريدون إجبارك على عدم نشر الكتاب. ولكن، من هو هذا المحسن الذي تكفل بإخبارهم؟

وفجأة، قفزت إلى ذاكرتي صورة ذلك التقدمي المشبوه الذي يقطر لسانه عسلاً وقلبه سماً.. إنه هو ولا أحد غيره. فتحوا الباب فانتشلوني من هواجسي، وضعوا العصابة على عيني وساقوني إلى مكان فأجلسوني على كرسي:

ـ أحمد المرزوقي؟ أو مرزاق؟ أو امريزق؟ ما هو اسمك الحقيقي؟ أو بالأحرى، لماذا غيّرت اسمك؟ لكي تخدعنا وتحوز على جواز السفر؟ أليس كذلك؟

كان الصوت المجهول شاتماً متغطرساً. حاصرني بأسئلة سخيفة طوال ساعتين من الزمن. عندما لاحظ تعبي، أرجعني إلى الزنزانة وأمر لي بطعام الغذاء. كان البون شاسعاً في هذا المجال بين هذا المكان وتزممارت. قلت لحارس عملاق أسود كان يرافقني وقد بدا في حديثه معي وهو يحثني على الأكل طيباً لبقاً مؤدباً:

ـ لن آكل إلا في بيتي.. أو لأمت. فماذا فعلت حتى أستحق هذه المعاملة؟

ارجعوا العصابة على عيني وساقوني إلى المستنطق المجهول الذي تابع بصوته المتهكم طرح أسئلته السخيفة. وفي المساء، سمعت صوتاً عرفته من الوهلة الأولى وهو يسألني. إنه صوت «المعلم» الذي استنطقني وأبدى رغبته في لقائي بمكان بهيج غير المكتب 24. ها هي ذي رغبته قد تحققت ما دام هذا المكان الذي يجمعني وإياه في منتهى البهجة والجمال.

ـ سي أحمد، كيف الحال؟ معنوياتك بخير؟

قلت باقتضاب:

ـ لا بأس. الحمد للّه على كل حال.

ـ سي أحمد. نحن نعترف بأننا همشناك كثيراً ولم نفعل من أجل تسوية وضعيتك أي شيء. ولكني في هذه المرة أعطيك أنا كلمة

شرف. كلمة تصدر عن مسؤول كبير في جهاز الدولة تؤكد لك بأننا سنرضيك وزيادة. . فعلاوة على تكفلنا بعلاجك وعلاج أمك، سنعمل على تعويضك تعويضاً سخياً. ولكي نبرهن لك على حسن نيتنا سنحولك حالاً من هذا المكان الخشن شيئاً ما إلى مكان آخر.

وكما قال فعل. ساقوني إلى الطابق تحت الأرضي واركبوني في سيارة من نوع «إسطافيط» لم تسر أكثر من خمس دقائق حتى توقفت. قادوني إلى محل وأجلسوني على أريكة رخوة مريحة. وحين نزعوا العصابة عن عيني، اندهشت من جمال المكان. تغيّر الديكور بكيفية جذرية: إنه سجن باذخ. فيلا واسعة جميلة مؤثثة على الطريقة الأوروبية. كانت نوافذها مخططة بقضبان حديدية، تغطيها إلى النصف ستائر خشبية، وتخفف من رهبتها ستائر من القماش النفيس. كانت تظهر من خلالها رقعة واسعة لحديقة معشوشبة مسيجة بأشجار العرعار والأوكاليبتوس. جلس أمامي رجل مجذور الوجه، فعرفت لما تكلم أنه المستنطق صاحب الأسئلة السخيفة. كان أشخاص آخرون يدخلون ويخرجون بلا مبالاة، بينما وقف على عتبة الباب شرطيون مسلحون من «السيمي» (التدخل السريع) وهم يقومون بالحراسة. كانت الساعة على ما بدا لي قد جاوزت الثامنة مساء لما جاؤوا بطعام العشاء. طعام غني متنوع لا يثير في تلك الظروف إلا شهية من لا كرامة له. كان مخاطبي يحرق سيجارة تلو أخرى وهو يحاول مع شرطي آخر إقناعي بالأكل. لمّا يئسا، نادى المجذور على خياط فشرع يأخذ مقاس ثيابي. وبعد ربع ساعة، عاد الخياط بكيس من البلاستيك مده لي فقال المجذور:

ـ أتينا لك ببذلة نوم وفوطتين مع مستلزمات النظافة. إن كانت لك رغبة في أخذ حمام، فها هما ذا حمامان اثنان رهن إشارتك. أما باقي الثياب، فسنأتيك بها غداً.

الحمام! ألا يكفي هذا الحمام البارد الذي نزل عليّ ماؤه كالصقيع؟ والثياب؟ أي ثياب يقصدون؟ زمجر بركان مستعر من الغضب في أعماقي فتأججت فيه أحاسيس متضاربة: تمرد عنيف وعجز شامل واضطهاد صارخ.. كل شيء كان يدل على أن مقامي هنا لن يكون قصيراً. قدم «المعلم» الدب مع «معلم» آخر قصير القامة، معقوف الأنف، يحمل نظارات بيضاء تبرق خلفهما عيون نسر يتأهب للانقضاض.

قال الأول:

ـ أعتقد أنك الآن في وضعية أحسن؟

قلت:

ـ أريد أن أعرف سبباً لهذا الاعتقال؟

عقد الدب حواجبه فقال برنة غضب:

ـ هذا لا يسمى اعتقالاً.

ثم شرع في طرح سيل أسئلته المعادة المكررة:

ـ في أي مكان كنت ستلتقي بإنياس دال؟

ـ من هم الأشخاص الذين كنت ستزوهم في فرنسا؟

ـ هل تعلم بأن إنياس بصدد إنجاز كتاب عن تزممارت؟

ـ لماذا سافر معك إلى غفساي ثم إلى بوعجول؟

ثم جاء دور «المعلم» ذي العيون الخبيثة ليمطرني بأسئلة أخبث وكأنني كنت جاسوساً خطيراً يخفي في زاوية من مخه أسرار القنبلة الذرية. أكل هذا الاستعراض الضخم للقوة والجبروت من أجل تخويف سجين سابق في تزممارت يريد أن يحكي مأساته ويندد بالظلم الذي طاله؟

في ساعة متأخرة من الليل، وقف الشرطيان استعداداً لمغادرة المكان. قال الدب:

ـ هل أنت راغب في شيء؟

ـ نعم. أريد أن أطمئن والدتي. إن قلبها مريض جداً. ولا شك في أنها الآن في حالة من التوتر الشديد وهي تتساءل عن سر غيابي عن البيت في الوقت الذي قدم فيه ثلاثة من إخوتي من مكان بعيد ليقضوا معنا الإجازة الأسبوعية.

ـ هل تعدنا بأنك لن تقول لها في الهاتف إلا ما سنمليه عليك؟

ـ أعطيكم على ذلك كلمة الشرف.

ـ طيب. قل لها بأنك توجد عند أطباء أصدقاء تطوعوا لعلاجك في الدار البيضاء. هل هو كذلك؟

كون الدب رقم جيراني لأنه لم يكن لي في المنزل هاتف، وناولني السماعة وهو يشير لي مهدداً بسبابته أن: حذار. طلبت من الجارة أن تنادي على أمي. فجاء أخي عبد اللطيف مهرولاً وسألني بصوت مروع:

ـ أحمد؟ ماذا جرى يا أخي؟ قل لي أين أنت؟ لا يمكن أن تتصور الحالة الفظيعة التي توجد عليها أمنا المسكينة.

قلت بصوت مرهق:

ـ لم يقل لها أخونا عبد العزيز أي شيء؟

ـ كان علينا أن نجد مخرجاً.. قلنا لها بأنك ذهبت إلى الدار البيضاء عند صديقك الزموري بهدف تسوية قضية استعجالية.

يا للصدفة الغريبة.. خيال البوليس وخيال إخوتي يشتغلان على ذبذبة موجة واحدة.

ـ أين هي الآن؟

ـ إنها تصعد الدرجات. ها هي ذي قد وصلت.

ـ آلو؟ أحمد؟ أين ذهبت يا إبني؟

ـ إلى الدار البيضاء يا أمي. سافرت عند أصدقاء عرضوا عليّ علاجاً بالمجان.

ـ ليس من عادتك يا ابني أن تتغيب هكذا بدون أن تخبرني.. لقد خيبت ظني فيك حين سافرت من دون أن تعير اهتماماً لإخوتك الذين تجشموا عناء السفر لزيارتنا.. ارجع حالاً وحاول أن تصلح هذه الغلطة. نحن في انتظارك يا ابني.

ـ ليس ممكناً هذه الليلة.. سأعود ربما غداً.

ـ ماذا؟ غداً؟ وفوق ذلك ربما؟ يا للعار. يا للإهانة.. لن يرجع إخوتك بعد اليوم لزيارتك أبداً.

أخذ كبير الشرطيين السماعة من يدي وقفل السكة ثم قال لي:

ـ أرأيت؟ نحن نفعل كل شيء من أجل إرضائك، ينبغي إذاً أن تعاملنا بالمثل. ليلة سعيدة وإلى الغد.

ثم التفت إليّ وقال كمن يستدرك شيئاً:

ـ على فكرة. الفيلا كلها تحت أمرك. أنت فيها حر طليق بشرط ألا تتخطى العتبة. وإذا قررت أن تأكلَ فاعلم أن الثلاجة أمامك زاخرة بما لذ وطاب.

جاء العملاق الأسود وقادني إلى غرفة النوم فأشعل مصباح الفراش وقدم لي حزمة من الجرائد وقال:

ـ ها هي ذي الجرائد إن شكوت من الأرق.

فعلاً. كان من المستحيل عليّ أن أنام وأنا على ذلك التوتر الشديد وجزمات الحراس المسلحين لا تتوقف عن ذرع المكان جيئة وذهاباً للتحقق من وجودي. استلقيت على ظهري، وحاولت أن أستعيد في ذاكرتي شريط هذا الاختطاف منذ بدايته. تشابكت الصور واختلطت أمام عيني بفعل التماس الكهربائي الذي عطل خيالي المحموم. تنهدت تنهداً عميقاً وضبطت فمي وهو يتقلص في ابتسامة

مريرة مرارة العلقم. «لا شيء قد تبدل. اليوم كالبارحة. والمستقبل محاصر بالشك والشوك ما دامت هذه الأيادي الخفية الفرعونية المتألهة عناكب خارجة عن الزمان والمكان والقانون، لا هم لها سوى نسج الشُّرُك لخنق وامتصاص أحلامنا الصغيرة البريئة».

في صباح الغد، جاء المستنطق المجذور وتابع طرح أسئلته بدون أن يضع على عيني العصابة. ثم بسط أمامه على الطاولة كل العناوين التي أخذها من مذكرتي ونسخها على الناسخة بكيفية بارزة، فشرع يسألني عن أصحابها واحداً واحداً. وفي الزوال، جاؤوا لنا بالطعام. فلما رفضت الأكل، ألتهم الصحون جميعها بشهية من يعاني من مجاعة مزمنة. بعد ذلك تابع إرهاقي بأسئلته المتناسلة كالجراد، ثم رويداً رويداً، بدأ يركز على الأجانب بالخصوص: كريستين السرفاتي، إيفلين فان كنيكن، صحافيون مشهورون، وأعضاء من منظمة العفو الدولية.

- ماذا فعلت حتى تعرفت إلى هذا العالم الزاخر بالأجانب؟

- لم أفعل أي شيء. هم الذين كلفوا أنفسهم عناء الاتصال بي.

- كيف حصلوا على عنوانك؟

- لست أدري.

- ما طبيعة العلاقة التي تجمع بينك وبين كل من فؤاد عبد المومني، عبد الإله بن عبد السلام وإدريس بن زكري؟

- إنهم معتقلو رأي سابقين ومناضلون في حقوق الإنسان ساعدونا كثيراً.

- هل تتوهم أنك ستحقق غايتك بالضغط علينا؟

- أنا لا أضغط على أحد، وإنما أطالب بحقوقي المشروعة لعلني أعيش حياة كريمة فأريح وأستريح.

ابتسم المِجذور ابتسامة خبيثة وأخذ من بين ركان أوراقه شيكاً فأشهره في وجهي ثم قال بلهجة الواثق المنتصر:

ـ وهذا الشيك؟ مذا يفعل عندك؟

ـ إنه للسيد لويس بيرودان. الموسيقار رئيس كورال الرباط.

ـ لقد وقعه لكم لتستفيد منه. ما هو المقابل إذاً؟

ـ ليس هنالك أدنى مقابل.

ـ هذا غير معقول.. كيف؟ ينادي عليك، ويسلمك شيكاً هكذا في سبيل الله؟

لا. ليس هكذا. السيد بيرودان معروف بطيبوبته الكبيرة. فلما علم بسفري إلى فرنسا بقصد العلاج، أرغمني أن أقبل منه هذه الألف فرنك. إنها مجرد هبة صديق، هل فهمت؟

ـ آه! هبة صديق أم إتاوة كريمة مقابل معلومات؟

إذا كان الأمر كذلك، فماذا تنتظرون إذاً لتقديمي إلى العدالة؟

ـ لست أنت من يقرر ذلك.. قل لي؟ هل تحدثت له عن تزممارت؟

ـ لقد تحدثت عن تزممارت لكل من أبدى لي رغبة في ذلك.

ـ أما فكرت بأنك بهذا تسيء كثيراً إلى سمعة وطنك؟

ـ أعتقد أن الذين بنوا تزممارت هم الذين أساؤوا إلى سمعة هذا الوطن وتاريخه وأبنائه. وإلى أصدقائي وإليّ أنا وإلى كل أسرنا. الشيء الذي لا أستطيع فهمه، هو أنه كيف يعقل أن يعاتب إنسان على شكواه وهو يشوى على جمر النار؟ ضع نفسك مكاني وفكر قليلاً في ما حصل.

شرد لب الشرطي لحظة ثم قال لي بشيء من الرقة:

ـ سأقول لك سراً. إن سني اليوم هو سنك تماماً. وقد كان من

الممكن أن أكون صديق فوجك في الأكاديمية العسكرية لولا ترددي في آخر لحظة وعزوفي عنها في النهاية. ولا أخفي عنك أني قضيت هذه السنين الطويلة كلها في الشرطة وأنا أعاتب نفسي عتاباً موجعاً على عدم اختياري للحياة العسكرية. أما اليوم، فأنا غير نادم بعدما سمعت منك ما سمعت. فقد كان من الممكن جداً أن أكون معك.. أجل إني أضع نفسي مكانك.

في حدود الساعة الثامنة ليلاً نودي على مستنطقي فجأة فخرج إلى الحديقة للقاء أشخاص مجهولين قدموا على وجه السرعة وتحدثوا معه بضعة دقائق. لما رجع إليّ أفرغ بسرعة كبيرة ما بقي في جعبته من أسئلة وعلامات الانزعاج بادية عليه. جاء «المعلم» بمعية صاحب العيون النسرية الخبيثة فقال لي:

ـ سي أحمد. انصت إليّ جيداً: ستعود هذا المساء إلى بيتك. ولكني أريد منك أن تعطيني كلمة الشرف على عدم تسريب أي شيء من هذا اللقاء لا إلى الصحافة ولا إلى المنظمات الحقوقية. وفي المقابل، أعطيك بدوري كلمة الشرف على تسوية وضعيتك ووضعية أصدقائك بكيفية مرضية جداً. كل شيء أصبح الآن رهيناً بصمتك. وفي الحقيقة، اسمح لي أن أقول لك بأنك محظوظ جداً جداً. لا يمكن لي أن أفسّر لك ذلك. أعتقد أن السبب يرجع في الأساس إلى رضا أمك عنك. لقد كنت على وشك السقوط في فخ قاتل، لأن الفرنسيين، وإنياس دال واحد منهم، لا يعطون شيئاً دون مقابل..

فعلاً. لقد كانوا عازمين على توفير العلاج لك، ولكن في مقابل ذلك، كانوا يرغبون في استخراج معلومات دقيقة منك ليستعملوها في تخريب سمعة وطنك».

قلت:

ـ هل تلمحون إلى معلومات عن تزممارت؟

ـ بالضبط. إنهم يسعون بكل الوسائل المتاحة لديهم لتشويه سمعة المغرب.

ـ وإذا عزمت على تأليف كتاب عن تزممارت، هل سترون في ذلك مساساً بأمن الدولة؟ في الحقيقة، أنا لم أهتدِ بعد إلى معرفة الشيء الذي تعاتبونني عليه. هل تلومونني لمعرفة كثير من الأجانب؟

ـ أنت حر في الاتصال بمن تريد، على شرط ألا تنسى بأنك مغربي.

ـ ولكني مغربي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وواع جداً بما يضر بوطني وما لا يضر به.

ـ على كل حال، لكي نبرهن لك على حسن نيتنا، سنبدأ انطلاقاً من يوم الاثنين بضمان العلاج لك ولوالدتك، إلى اللقاء إذاً. ومرة أخرى، أهيب بك أن تنبس ببنت شفة، فأنت أدرى بما سيكلفك ذلك من ثمن.

سلموني حوائجي ووضعوا العصابة على عيني ثم أركبوني في سيارة عائلية. وبعد نصف ساعة تقريباً من السير، توقفت السيارة. تريث الشرطيون لحظة حتى تيقنوا من خلو المكان من أي فضولي أو رقيب، ثم أمر أحدهم صاحبه بنزع العصابة عن عيني ثم توجه إليّ بصوت فظ آمر:

ـ انزل، وسر في الطريق أمامك من دون أن تلتفت إلينا، وإياك أن تكون ذكياً أكثر من اللازم.

خطوت بضعة خطوات ولكني لم أستطع كبح رغبتي في الالتفات. كانت السيارة العائلية بيضاء اللون كمآت السيارات التي تعج بها المدينة ولا تلفت لأحد نظراً. لما فتح لي الباب أخي عبد العزيز، أصفر وجهه وهو يرى على سحنتي آثار أهل القبور. عانقني بحرارة كبيرة ثم شرع يتصفح وجهي بتأثر عميق وقال لي متألماً:

ـ هذه إذاً هي حقوق الإنسان في بلادنا . . ألم تكفهم تزممارت؟

قلت له خائفاً :

ـ آمل أن تكون قد أخفيت كل شيء عن أمنا .

ـ لا . لم أقل لها أي شيء. المشكل هي أنها غاضبة عليك لأنها أولت غيابك على طريقتها .

كانت أمي المسكينة جالسة تنظر إلى الخواء والسبحة في يدها . فلما أخذت كفها لأقبلها ، قفزت مذعورة لأني انتشلتها من سهوها . وحين وعت بحضوري، أشاحت بوجهها عني ثم قالت غاضبة :

ـ والله إنه لخزي هذا الذي صنعته يا أحمد. إذا كنت ترغب حقاً ألا يزورك إخوتك، فقلها بصراحة ولا تلجأ إلى مثل هذه المراوغات. أنا بدوري لن أبقى معك دقيقة واحدة إذا تماديت في هذا التصرف. أتدري أن أخاك عبد الوهاب قد رجع إلى غفساي وهو يتميّز غيضاً؟ إني لأعذره. هيا. كلمه في الهاتف على الأقل واعتذر له.

ـ طيب يا أماه. سأفعل ذلك فوراً. أنا أعتذر لك ولأخوتي جميعاً. هل لا زلت حاقداً عليّ يا عبد العزيز؟

غمزني أخي غمزة متواطئة وأجاب :

ـ لا بأس. . ليس الأمر خطيراً إلى هذه الدرجة. ولكن احذر أن تعود لمثل هذا أبداً.

في هذه اللحظة العصيبة من التحطم والتعب والانسحاق، تمنيت من أعماق قلبي لو كنت طائراً أو حشرة أو حجرة أو شجرة أو أي شيء يمكنني من الهروب من مجتمع الآدميين. .

طار الوهم. واستوعبت جيداً مرة أخرى بأن حقي الوحيد المضمون في شرع هذا البلد هو أن أكون يائساً محطماً إلى الأبد.

هربت من صخب المدينة وهديرها ولذت ببوعجول، قريتي

الصغيرة الحبيبة، أنشد فيها السكينة والأمان، فإذا بفروع الأيادي الأخطبوطية الضاربة خراطيمها في أقصى نقطة من هذا البلد واقفة بالمرصاد. المقدم، الشيخ، الخليفة، القائد، الباشا، المتطوعون «المحسون». أصحاب القاع والباع في التزلف والانبطاح. المهرولين إلى السلطات بأخبار الناس كهرولة كلاب الصيد المدربة على حمل الطرائد المقتولة إلى الصيادين. كلهم كانوا يحسبون خطواتي ويحصون أنفاسي وكأنني بركان مزمجر يهدد مدينة بأكملها بالانفجار.

لما رجعت إلى سلا، قدم عندي ذلك الشرطي الأدهم وأخبرني بأن رؤساءه قد أرسلوه عندي ليتفقد أحوالي ولينظر هل أنا في حاجة إلى شيء من المال. كان الفخ منصوباً بطعم شهي يسيل اللعاب..

قلت:

ـ ما أريده هو جواز سفري والشيك الذي أخذ مني.

ثم عاد شرطي آخر بمغريات ووعود جديدة:

ـ لماذا تعاند هكذا؟ يكفينا منك إشارة واحدة. أتسمع؟ إشارة واحدة لتنال أكثر مما تطالب به:

لا نسألك سوى خبر من هنا. ومعلومة من هناك.. وسترى بأن مشاكلك كلها ستتبدد. على سبيل المثال، هل صحيح بأن الكاتب الأول للاتحاد الاشتراكي، عبد الرحمن اليوسفي، سيلتقي بكم قريباً؟

أحسست بالإهانة الشديدة. جرحت في الأعماق وأنا أسمع صاحب هذا الوجه الزفتي يتلفظ بهذه الكلمات السائلة بأخبث ما في الخبث من تهكم واحتقار.

ـ بهذا الثمن إذاً تأملون تسوية هذا الملف؟ ارجع إلى رؤسائك وقل لهم بأني أفضل الموت ألف مرة في مرحاض زنزانة على أن أنقلب بعد عشرين سنة ضاعت من عمري إلى مخبر خسيس.

في الصباح نفسه، اتصلت بصديقي عبد الله أعكاو وذهبنا سوياً

إلى مقر الجمعية المغربية لحقوق الإنسان حيث حكيت كل ما تعرضت له لعبد الإله بن عبد السلام، مداوم الجمعية، ولمنى البنة، مراسلة إذاعة فرنسا الدولية، ولصحفي من الوكالة الفرنسية للأنباء ومناضلين من الجمعية. كان رد فعل الجمعية والمنظمة المغربية لحقوق الإنسان عنيفاً. وبغض النظر عن الصحف التي كانت في الموعد لأنها اعتادت أن تقف دائماً بجانبنا كأنوال، والنشرة، والتضامن، فإن جريدة «ليبيراسيون» لسان الاتحاد الاشتراكي الصادرة باللغة الفرنسية أبدت اهتماماً كبيراً بالموضوع. وقد كتب بالخصوص، السيد خالد الجامعي، رئيس تحرير جريدة «لوبينيون»، الصحفي المشهور الذي عرف بشجاعته الكبيرة في التنديد بالحيف الاجتماعي، وبجرأته في التصدي لبعض العيارات الثقيلة كوزير الداخلية إدريس البصري، كتب افتتاحية مطولة رائعة جداً عكست مرارته بصدق وعمق كبيرين، أذكر من مقتطفاتها ما يلي:

«ابك يا وطني..

أنا أبكيك يا وطني لأن بعض أبنائك يصرون على تكريس ممارسات متسلطة في مجتمعك المقهور، هي صورة مرعبة ناطقة لمحاكم التفتيش البائدة..

أنا أبكيك أيها الوطن الذي تقف فيه السكيزوفرينيا متربصة دائماً بأبنائك الدوائر. أبناؤك المنشطرة أنفسهم إلى نفسين: طافحة بالأمل نفسه، واثقة بأن شيئاً ما قد تبدل، مصدقة أن البلاد قد أصبحت أخيراً دولة يسودها القانون وتُحترم فيها الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للمواطنين أكثر فأكثر. ونفس ثانية يائسة محطمة مؤمنة بأنها معرضة للذل والمهانة متى شاءت بعض الأمزجة الحاكمة.

لقد ملأتني هلعاً ورعباً تلك الرسالة المفتوحة التي نشرها

المرزوقي، أحد المعتقلين السابقين بسجن تزممارت. رسالة بسط فيها كل ما طاله من اختطاف ومضايفات. قفزت إلى ذاكرتي فجأة وأنا أقرأها ذكريات مؤلمة قديمة ظننتها قد قبرت إلى الأبد. أحسست بنفسي محاصراً بأمواج طاغية من الغم والالتياع. إن رأسي لينفجر. . الزنزانة. . مترين طولاً وستين سنتيمتراً عرضاً. أصوات المفاتيح وفي تتفرقع في الأقفال. . العرق المتصبب. العيون المعصبة. . العجز الرهيب. نعم، ذاك العجز الرهيب.

بالنسبة إليّ، لم يدم ذلك إلا شهوراً. بالنسبة إليه، دام أعواماً. . فلا يمكنني إذاً أن أشعر بما شعر. لا يمكنني أن أقول له: «أفهمك». ولكني لما قرأت رسالته، سالت من عيني الدموع. .

أنا أبكيك يا وطني الذي وصل الزمان به إلى محطة 1995 ولا زالت فيه مثل هذه الممارسات قائمة جارية. أبكيك أيها الوطن الذي كلما اعتقدنا أننا حققنا فيك مكسباً وجدناه في اللحظات اللاحقة قابلاً للمراجعة ولإعادة النظر. أحس بالتعب. لقد دام هذا 25 سنة. ربع قرن من الصراع، والتعب، والدموع، والآمال، والخيبة. ماذا لو حزمت أمتعتي ورحلت إلى آفاق غير هذا الآفاق؟ ماذا لو فعلت ما يفعله الآخرون حين يغادرون هذا الوطن بأرواح ميتة؟ الآخرون الذين يغادرونه وهم يحبونه بالحرارة التي أحبه بها أنا.

هل أهرب؟ إن الإغراء لكبير. . أنا متعب. . أتوق للراحة. أبداً. . لن يتكرر هذا أبداً. لقد قالها صاحب الجلالة بخصوص تزممارت. لأكفكف دمعي إذاً. لكي لا يتكرر هذا أبداً، ينبغي المزيد من التنديد بالخروقات، والمزيد من استنكار التجاوزات. أنا متضامن معك أيها المرزوقي. متضامن معك يا عمر. متضامن معك أيتها المنظمات الحقوقية. هذا التضامن هو السلاح الوحيد الذي نملك. أما الصمت فهو جريمة وخيانة».

بعد هذه الحملة الإعلامية الواسعة، صعدت الشرطة من ملاحقاتها وكأنها كانت تريد بذلك أن تصر على تثبيت حقيقة بدأت تتخلخل شيئاً ما في الأذهان. حقيقة مفادها أن إلاهها هواها وأنها تشتغل غير عابئة بأحد خارج أي نفوذ أو قانون.

بدأ زوار الليل يقصودنني حتى في النهار. في ساعات العمل كما في ساعات الراحة. في كل وقت وحين كانوا يدقون على نافذة غرفة نومي التي كانت من سوء حظي تطل على الشارع وعلى مرمى يد أي عابر سبيل..

ـ طق. طق. طق.

ـ من الطارق؟

ـ أخرج. أحد أصدقاء طفولتك يريد أن يراك.

أخرج وأعصابي متوترة:

ـ ماذا تريدون؟

ـ أرسلنا إليك مسؤولون كبار يودون التحدث إليك. من مصلحتك أن ترافقنا الآن.

ـ أبداً. لقد وثقت بكم فوقع ما وقع. لن أصحبكم إلا إذا سلمتموني استدعاء رسمياً.

ثم بعد ساعات:

ـ طق. طق. طق.

لا أجيب. يبقى الدق متواصلاً بدون انقطاع. أفتح الباب ورأسي ينفجر:

ـ ماذا تريدون أيضاً؟

ـ لا تعاند. إنك بصدد إفلات فرصة العمر. هيا معنا وسترى أن كل مشاكلك ستسوى في رمشة عين.. نحن ننصحك ألا تلعب بالنار.

ـ أي نار أشد من هذه التي تقذفونني فيها؟

في الشارع، كنت ملاحقاً متبوعاً كالظل. شعرت بذلك، وأكده لي بعض المجازين المعطلين، خصوصاً جاري يوسف، المجاز اليائس الذي سينتحر سنين بعد ذلك، كان يعطيني حتى أسماء بعضهم ممن كانوا يسكنون معنا في الحي ويقضون سحابة يومهم واقفين في رأس الدرب يحرسون بابي وهم يتظاهرون بقراءة الصحف. كنت أفضح هذه الممارسات يومياً في الجمعيات الحقوقية. وبالموازاة مع ذلك، كان بعض الصحفيين الشجعان كبن رحو بوزياني في جريدة «أنوال»، وأحمد ويحمان في أسبوعية النشرة، وعلي بوزردة في وكالة روتر للأنباء، يتصدون في كل مرة للتنديد بهذه المضايقات بمقالات أرقت كثيراً أعصاب «أصحاب الحال». وقد ضاعف من إزعاجهم مبعوثة منظمة العفو الدولية السيدة دوناتيلا روفيرا التي قدمت إلى المغرب وأخذت كل التفصيل عن هذه النازلة. قدم عندي مرة زائران وقدما لي استدعاء رسمياً فقال أحدهما ساخراً:

ـ كنت تصرّ على استدعاء رسمي؟ ها نحن ذا نستدعيك رسمياً. ينبغي إذاً أن تكون في كوميسيرية سلا على الساعة التاسعة صباحاً.

كان غد ذلك اليوم هو يوم السبت. أي بمعنى لغة ذلك الاستدعاء: غطسة محتملة في ظلام زنزانة أو صالون معتقل باذخ عمقها الزمني ثمانية وأربعون ساعة. من يستطيع المراهنة على العكس؟ غير أني هذه المرة كنت على شيء من الثقة لأني أخذت جميع الاحتياطات وأشعرت جميع المنظمات الحقوقية وبعض الصحفيين الملتزمين. في الساعة المحددة، وجدت شرطياً في انتظاري بباب الكوميسيرية. ساقني إلى أحد المكاتب، فإذا بي أصعق وأفغر فمي دهشة وأنا أمام مفاجأة من نوع خاص. وجدت شيخاً أوروبياً في السبعين من عمره، طويل القامة، يابس العود، جلس على كرسي خشبي يلعب بأصابعه من شدة التوتر. ما إن رآني حتى قفز واقفاً وقد

بدت على وجهه بدوره علامة المفاجأة الشديدة. مد لي يده مصافحاً بحرارة وهو يرسم ابتسامة مواساة عريضة على شفتيه. إنه السيد لويس بيرودان، الموسيقار رئيس كورال الرباط الذي يهيم حباً بالمغرب وصاحب الشيك ذي الألف فرنك فرنسية. حتى هو لم يعفوه. لم يتركوا لنا وقتاً لتبادل الحديث. المهم هو أنهم حرصوا أن يرى كل واحد منا صاحبه. مناورة بوليسية أخرى مجهولة الأهداف. ساقوني إلى غرفة مجاورة وتركوني أنتظر. أرهفت السمع، فتناهى إليّ صوت السيد بيرودان الجوهري وهو يرد على الأسئلة. لقد بدأوا في استنطاقه. كان الشيخ يبدو من خلال صوته هائجاً قلقاً مستنكراً. كنت أميز من حين إلى آخر مقاطع من أجوبته كلما احتدم غضبه فرفع صوته:

- إني أحذركم بأن لي موعداً مهماً في الساعة الحادية عشرة. إذا لم أكن في الموعد فسوف أقاضيكم.

ثم:

- ليس لديكم أي داع لاحتجاز صديقي.. أطلقوا سراحه فوراً.

ابتسمت بحزن وحدثت نفسي بمرارة:

- في أي قرن سيكون لنا الحق بمقاضاة من يحكون بجبروتهم أنوفنا في التراب بدون أن نخشى ردود أفعالهم القامعة؟ ثم لماذا يكيل هؤلاء دائماً بمكيالين؟ الأجنبي في بلادنا موقر محترم. يتكلمون معه بأدب جم، وينادون عليه بأحب أسمائه إليه. بينما نحن، لا حق لنا إلا في السباب و«الهرمكة». عصاهم التي يسحقون بها من عصاهم.

هل نحن حقاً في حاجة دائمة للوصاية لأننا غير مأهلين للعيش في دولة الحق والقانون؟ أم أن هؤلاء يستمدون صولتهم من استسلامنا الجبان وصمتنا الخانع؟

جاء دوري، فدام الاستنطاق ما يزيد على ثلاث ساعات. وكما كان متوقعاً، تركزت الأسئلة حول علاقتي بكريستين السرفاتي وبعض

الصحفيين الأجانب كسطفن سميث وآخرين لا أعرفهم. وعلى عكس ما جرى مع السيد بيروردان، لم يكن الكوميسير في عجلة من أمره، بل كان يأخذ كل وقته متثاقلاً متمهلاً وكأنه لم يكن له من شغل سواي. كان يعطيني الانطباع بأنه يملك كل الصلاحيات للتصرف في حياتي كيفما شاء. حوالي الساعة الواحدة زوالاً طلب مني أن أقرأ المحضر وأن أمضيه ثم قال:

ـ أنت حر. . ولكن، إياك أن تغادر سلا طيلة هذا الأسبوع.

ساعات بعد ذلك، سافرت إلى الدار البيضاء. وفي يوم الاثنين، استدعيت في الكوميسيرية مرة أخرى. سألوني عن أشياء معادة مكررة تظاهروا بأنهم نسوها في المرات السابقة. طوال هذه المرحلة العصيبة، وقف بعض الصحفين الشرفاء مع مناضلي الجمعية والمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، وبالخصوص، عبد الإله بن عبد السلام، فؤاد عبد المومني، إدريس بن زكري، والصديق الأحرش، وقفة نبيلة متعاطفة متعاضدة لن أنساها لهم ما حييت. ولم تنته هذه الإرهاصات والملاحقات من جهاز القمع المغربي إلا عندما تدخل لدى السلطات الفرنسية العليا، الصحفي الفرنسي المشهور، جان بول كوفمان، الرهينة السابقة في لبنان الذي سبق لي أن تعرفت إليه عند إنياس دال ومنى البنة. فله مني جزيل الشكر. ورغم أني كنت المستهدف الرئيسي لجهاز القمع، فإن بعض أصدقائي نالوا حظهم غير منقوص من هذا العسف اللامبرر. وسأسوق هنا بعض الأمثلة التي قد تبدو غريبة ولكنها حقيقية لا يرقى إليها أدنى خيط من الشك.

مأساة محمد غلول

القبطان محمد غلول رجل صحراوي الأصل، قنيطريُّ النشأة والترعرع، ذكي، لطيف المعشر، خدوم جداً. أدّى دوراً جوهرياً في

تزممارت حين وضع كل ذكائه في مصلحة أصدقائه. وإليه يرجع الفضل في جعلنا نلتقط أهم المحطات العالمية بأجهزة ترانزيستور تباع في أسواق ناحية تزممارت بأثمان بخسة. حكم غلول ـ أو «سي أمين» كما اعتدنا أن ننادي عليه في تزممارت ـ بخمس سنوات سجناً. كان له من زوجته طفل وطفلة صغيران جداً. ولما أطلق سراحه بعد عشرين سنة، وجدهما شابين في مقتبل العمر، لم يتعرف إليهما إلا بعد أن قامت أمهما بتقديمهما له. ولكن مع الأسف الشديد، ما إن عاش مع زوجته بضعة أشهر حتى تبيّن له ولها أن الحياة بينهما أصبحت مستحيلة. تبدلت الزوجة على الزوج، وتبدل الزوج على الزوجة، وأصبحت نظرتهما إلى الحياة دائماً على طرفي نقيض سيما وأن الزوجة كانت موظفة بينما كان هو كان عاطلاً يعيش على أمل وعد كاذب. فانتهى بهما المطاف إلى التوافق على الطلاق. ولكن زوجته التي كانت تشكو من نوبات عصبية حادة سببتها لها المحنة الشديدة، أقامت عليه دعوة تطالبه فيها بتعويض لها ولابنتها وابنها اللذين ربتهما بدونه. والأمر المدهش الذي يعطي فكرة واضحة عن العدالة في بلدنا، هو أن المحكمة الابتدائية حكمت على القبطان غلول بتأدية ما يقارب من مئة وعشرين ألف درهم تعويضاً لزوجته، وعقاباً له على غيابه الطويل عن بيت الزوجية، وإلا فسيكون مآله الرجوع إلى السجن في حالة عدم الأداء. صرخ الرجل في المحكمة وعقله كاد أن يطير من جمجمته:

ـ يا عباد الله.. أيها المسلمون. لقد كنت في تزممارت. أتعرفون ما هي تزممارت؟ لقد حكمت بخمس سنوات سجناً والدولة هي التي اختطفتني وزادتني خمس عشرة سنة. أتسمعون؟ لقد كنت مختطفاً. أنا أحب أولادي وقد حرمت منهم عنوة.

شهوراً بعد ذلك، أكدت محكمة الاستئناف هذا الحكم. في

دقائق معدودة، أوشك الرجل أن يفقد صواباً لم تستطع تزممارت أن تفقده إياه قرابة عقدين من الزمن، غير أن محكمة الاستئناف كانت أكثر إنصافاً وتفهماً لوضعية الرجل المعسر المفلس المعطل حين حكمت عليه بتأدية ذلك المبلغ على أقساط. 1,500 درهماً في كل شهر، بدل تأديته دفعة واحدة. شكراً. . .

لما التقيت به وحكى لي هذه القصة، ظننته في بداية الأمر مازحاً كعهدي به دائماً. ولكن شحوبه الشديد وكآبته العميقة أرغماني على التسليم بمأساته. قلت له:

- كيف؟ ألا تواجه هذا الحيف؟

- مذا بقي لي أن أفعل بعد هذا يا أخي؟

- ولكن هذا منتهى المنكر. هذا كفيل بنسف سلسلة جبال الهيملايا. . ينبغي أن تفضح هذا في الصحافة فوراً.

أياماً بعد ذلك، بعث إنياس دال برقية في الموضوع إلى مركز الوكالة الفرنسية للأنباء، بينما أثارته في أعمدتها بشيء من التفصيل، صحفنا الصديقة: المنظمة والنشرة والتضامن. مباشرة بعد هذا، امتنع غلول عن الاسترسال في تأدية النفقة. ولكن القضية لا زالت معلقة إلى اليوم.

مناورات قائد سيدي بطاش المخجلة

كان عبد الله أعكاو ضابط صف برتبة رقيب في سلاح الطيران لما حكم عليه ظلماً في أحداث 16 آب/ غشت 1973 بثلاث سنوات سجناً. في تزممارت، كان نزيل الزنزانة رقم 5 المقابلة تماماً لزنزانتي. ومنذ الإفراج عنا والصداقة قائمة بيننا والصلة وطيدة نظراً إلى ما عهدته في هذا الرجل من استقامة وشجاعة وطيبوبة ووفاء. ولكي يبرهن عن امتنانه وعرفانه لكل الذين آزرونا من المناضلين

الشرفاء، ارتأى عبد الله أن ينخرط عضواً في الجمعية المغربية لحقوق الإنسان وفي حزب منظمة العمل الديموقراطي الشعبي. سنوات بعد ذلك، طلب منه سكان قرية سيدي بطاس، مسقط رأسه الواقع على بعد أربعين كيلومتراً من العاصمة أن يتقدم للانتخابات الجماعية التي جرت يوم 13 حزيران/ يونيو سنة 1997. وكسائر المرشحين، قام بحملته بدون طبول ولا مزامير ولا تفرقة أموال ووعود. وقد كان واثقاً من النجاح بفضل ما أبداه له السكان من تعاطف وتضامن وتصميم على الفوز سيما وأن غالبيتهم العظمى كانت من تلك الشريحة المسحوقة، شريحة الفلاحين الطيبين البسطاء.

وفي اليوم الموعود، وقبل إعلان النتائج التي كانت مقررة على الساعة السادسة مساء، استغرب الناس وهم يرون الجماعة تحاصر بدون داع من طرف قوات القائد. جاء هذا الأخير، وبدون أن يراعي للقانون حرمة، خرق موقف الحياد ودخل بصحبة المساعد قائد الدرك المحلي إلى الحجرة التي كانت عملية فرز الأصوات جارية فيها فبدأ في مفاوضات مع ممثلي المرشحين لإقناعهم بتعويض عبد الله أعكاو الفائز بـ 371 صوتاً، بمرشح حزب الأحرار الذي لم يحصل سوى على 70 صوتاً. ولما فشل في مهمته، خطف بكل بساطة نتائج الانتخابات وفرّ بها إلى الغابة المجاورة، ولم يظهر إلا بعد مجيء قوات التدخل السريع من الرباط. لما ذاق الناس ذرعاً بهذه التصرفات الخرقاء، تجمهروا أمام مقر القيادة، وأطلقوا لغضبهم العنان منددين بهذه الفضيحة المنكرة، صارخين بملء رئتهم:

ـ أرجعوا لنا أصواتنا.. حسبنا من التزوير في كل مرة.

لم يكن قائد وحدة التدخل السريع ينتظر سوى سبب واه مثل هذا ليعطي الانطلاقة لرجاله. وهكذا بدأت مطاردة الناس في الأزقة والشوارع بالهراوات والركلات وبأعقاب البنادق والقنابل المسيلة

للدموع. كان قمعاً شاملاً أعمى لم يميّز فيه أصحابه بين شيخ كبير وطفل رضيع وامرأة حامل. وقد كانت تلك فرصة ذهبية بالنسبة إلى السلطة لتصفية حسابات قديمة بينها وبين مناضلين من منظمة العمل الديموقراطي ومناضل واحد من الاتحاد الاشتراكي. ألقي القبض عليهم جميعاً وحكموا بسنتين سجناً. لكن محكمة الاستئناف قلصت العقوبة بعد ذلك إلى سنة. وقد أخذ عبد الله أعكاو نصيبه وافراً من هذا القمع حين اعتدي عليه وجرح. وأطرف ما في القضية، هو أن المرشح الذي توج بالقهر فائزاً اعترف بأنه أجبر على قبول هذا الفوز إجباراً.

أما صديق آخر، وهو محمد الزموري، فقد ذهب مع أسرته ضحية ابتزاز مهول، قصته أنه عقد وعد بيع لشراء ضيعة مساحتها 90 هكتاراً تقريباً، فأدى للبائع ثلث المبلغ قبيل إلقاء القبض عليه بقليل. ولما أفرج عنه من تزممارت، وجد أن الضيعة قد بيعت أكثر من مرة. وأن البائع الأول اغتنم فرصة اختطافه فباع الضيعة مرة أخرى بدون أن يرد القدر المالي الذي أعطاه الزموري إلى أهله. ولم تفضِ الدعاوي التي أقامها لاسترجاع حقوقه إلى أي نتيجة لأن المشترين الذين تعاقبوا على ملكية الضيعة كانوا أناساً من العيار الثقيل. وبجانب هذه المآسي التي عشناها بعد تزممارت، كانت هنالك بعض المفاجآت السارة التي أرجعت لنا الثقة في بني البشر: نماذج من النبل والنخوة والوفاء، علمتنا أن الإنسان مهما أناخ الزمان عليه بكلكله وبلغت به قساوة البشر أقصى مداها، فعليه أن يتمسك بثقته في الله وفي الناس. فطبيعة النفس البشرية الأمارة بالسوء، الميالة للشر، أرادت أن يكون الخبيث بين ابن آدم أكثر من الطيب.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ صدق الله العظيم.

وبمعنى آخر، على الإنسان أن يتجنب التعميم لكي لا يسقط في الحقد والتطرف فيعزز بذلك صفوف الخبثاء من حيث لا يشعر فيصبح بين الناس مكروهاً ممقوتاً. فإن كانت فئة من البشر قد عذبتنا وقهرتنا وفئة أخرى قد تنكرت لنا وأهانتنا، فمن الوفاء بالعهد أن نذكر خير فئة ثالثة وقفت بجانبنا وقفة الكرام البررة، فرعت عهدنا وبلسمت جراحنا ومسحت عن قلوبنا الباردة ركام الصقيع لتنفث فيها دفء المحبة والصداقة والأمل. أمثلة عاشها أصدقائي وعشتها أنا. أذكر من بينها بالنسبة إليّ نموذجاً يتمثل في صديق طفولتي وكهولتي أخي عبد اللطيف الشاروني، فبعدما عشت وإياه الطفولة والمراهقة وشرعنا في عيش قسط صغير من الشباب، وقع ما وقع، فبدأ يسافر من مراكش حيث كان عمله في القاعدة الجوية العسكرية، ويأتي لزيارتي في سجن القنيطرة من أجل مؤازرتي ورفع معنوياتي. ولما اختطفت، استمر في المراسلة التي كانت منتظمة بيننا، فكتب لي رسائل بدون جواب طيلة 18 سنة. ولما أفرج عني جاءني بكتاب دوّن فيه الرسائل التي تبادلناها ونحن في السجن، ثم الرسائل التي لم يكتب لي أن أجيب عنها وكانت هدية من أعز ما أفتخر بها في حياتي.

رجوع كريستين السرفاتي

قامت السيدة كريستين السرفاتي بمجهود جبار من أجل إنقاذ معتقلي تزممارت. وإذا كنا اليوم أحراراً طلقاء، فإن قسطاً وافراً من هذا الفضل يرجع إلى هذه السيدة النبيلة التي جعلت من قضيتنا قضية مصيرية بالنسبة إليها رغم أنها لم تكن تعرف قبل ذلك أي أحد منا. لقد سمعنا عنها أول مرة في سنة 1988. ولكن، في 1990، كنا قد اعتدنا على سماع اسمها وهو يتداول بكيفية مستمرة في الإذاعات الدولية حين كانت تناضل من أجل لفت انتباه الرأي العام الدولي إلى مأساتنا.

وذات صباح من أصابيح تزممارت الحزينة، وبينما أنا أحاول الهرب من ذلك الفراغ القاتل بالإبحار على متن أمواج جهاز الترانزيستور الصغير، سمعت صوتاً نسوياً دافئاً وهادئاً يتحدث عن الخروقات السافرة لحقوق الإنسان في المغرب. ألصقت أذني بالمذياع لأحفظ كلمات المتحدثة عن ظهر قلب، فإذا بالصوت يتلاشى ثم يعود. ثم يتلاشى من جديد ضائعاً بين الذبذبات كحركة أمواج تفر تارة إلى الشاطئ ثم تكر هاربة تارة أخرى إلى اللجة. كان استقبال أمواج إذاعة فرنسا الدولية عسيراً في ذلك الصباح. فدق قلبي وتوترت أعصابي وأنا أستجدي الموجة أن تعود. وبأعجوبة، سمعت الصوت وهو يتحدى الحواجز الطبيعية والبشرية ويتسلل عبر القضبان

الحديدية والإسمنت المسلح ليستقر في أذني المنتصبة ساكباً فيها جملاً مقطعة ولكنها محملة بصدق كان يدك الأسوار ويهز الضمائر وينزع عن الجلادين ثيابهم قطعة قطعة ليترك عوراتهم مكشوفة تحت شمس الحق:

«جنود نسيهم العالم بأسره.. يعيشون في ظروف جهنمية.. معتقل يسمى تزممارت.. عشرات الأموات.. ينبغي التدخل سريعاً.. السلطات تنكر.. حسب بعض الرسائل المتسربة».

انفتحت أمامي أبواب السماء. فإذا بي أصرخ في أصدقائي ملء رئتي:

ـ كيكلكيس.. كيكلكيس.. (ومعناها باللغة التزممارتية: أصموتوا وأنصتوا.. خبر مدهش) اسمعوني أيها الإخوة. لقد تكلمت عنا كريستين السرفاتي. لم يكن الاستقبال جيداً ولكني استطعت أن ألتقط نتفاً من حديثها لإذاعة فرنسا الدولية. أعتقد أنها مصممة على القيام بحملة تحسيسية لصالح قضيتنا.

تعالت التهاليل وصرخات الفرحة من كل الزنازين، وانقلب العنبر فجأة إلى خلية من النحل من كثرة التعاليق والتآويل. كنا آنذاك أشبه شيء بغرقى رمت بهم اللجة طول عقدين من الزمن في جزيرة بعيدة نائية، فإذا بهم يرمقون فجأة في الأفق البعيد شراع سفينة بيضاء تتهادى نحوهم بالأمل والخلاص. لقد كان يوماً مشهوداً دقت فيه قلوبنا اليائسة على دفوف الفرحة العارمة دقاً صاخباً فرقصت على إيقاعه السريع أرواحنا رقصاً جذلاناً محموماً. حتى الذين كانوا مرشحين للرحيل دب فيهم دفء الحياة فخرجوا من سكرات الموت وهبوا لمشاركة إخوانهم نشوة البشرى المسكرة. حدث ذلك في ظرف دقيق كانت فيه السلطات المغربية بمساعدة بعض الشخصيات المعروفة في الساحة الوطنية تكثف جهودها لإقناع الرأي العام الدولي بأن

تزممارت لا وجود لها إلا في أوهام أعداء المغرب وحساده.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. إصرار ومكابرة إلى النهاية.

بعد إطلاق سراحنا بشهور، سلمتني السيدة خديجة الشاوي عنوان كريستين. وبدون تردد، كاتبتها لأعبر لها عن شكرنا العميق لما قدمت به من أجلنا. فكان ردها طافحاً بالمودة والحنان. ومنذ تلك اللحظة وروابط الصداقة لا تزداد بيننا إلا متانة. ومنذ عرفتها، عرفت فيها إنسانة بسيطة متواضعة. تعمل الخير من أجل الخير، بدون رياء أو حب للبروز على غرار ما يفعله بعض الانتهازيين الذين يتخذون من الدفاع عن حقوق الإنسان مطية لتحقيق مصالحهم الشخصية. وقد كان كتابها عن تزممارت من بين أوائل الكتب التي قرأتها بعد الإفراج عني. وكم سعدت وأنا أقرأ في نهاية كتابها إحدى رسائلي مترجمة إلى الفرنسية. في تلك الساعة بالذات، استطعت أن أقيس حجم المجهودات الضخمة التي قامت بها بصحبة بعض أفراد من عائلات المعتقلين لتعبئة الرأي العام. وبما أنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس، أغتنم هذه الفرصة لأقف مع أصدقائي وقفة إجلال وامتنان وعرفان للسادة والسيدات: عبد الكبير وخالد بلكبير، خديجة الشاوي وبنتها إلهام الرايس، عائدة حشاد وبنتها الرائعة هدى حشاد، سعيد غلول، نانسي الطويل، دانييل متران وآخرون وأخريات ممن أجهل أسماءهم وأسماءهن وساهموا بقدر قليل أو كثير في تلك الحملة الإنسانية التي انتهت بتخليصنا من مخالب الموت المحقق.

بعد الإفراج عنا، بقيت كريستين على اتصال مستمر بنا، مرة بمكالمة هاتفية، ومرّات أخرى برسائل أو بطاقات بريدية.

وفي سنة 1993، كتبت لأول مرة في حياتي باللغة الفرنسية قصة الحمامة التي ربيتها في تزممارت. ولما أرسلتها إليها تكفلت بتصحيحها وبنشرها في المجلة الفرنسية: «لطون موديرن» (الأزمنة

المعاصرة). وقد وصل القدر المالي الذي أرسلته إليّ إدارة المجلة في وقت مناسب كنت فيه أعاني من ضائقة مادية خانقة. وحين تبيّن لكريستين أن ملفنا لم يبارح مكانه رغم الوعود الكثيرة التي أعطيت لنا، أنشأت بمساعدة السيدة والسيد ماري هيلين وفرانسوا بوجولان جمعية أطلقوا عليها اسم «الإنصاف لتزممارت». فقد علمت كريستين بأن الأمم المتحدة تخصص كل سنة اعتمادات مالية لضحايا التعذيب. فاغتنمت الفرصة، وقدمت باسمنا جميعاً طلباً للاستفادة من هذه الاعتمادات، سيما وأن المنظومة الدولية كانت قد اعترفت بقضيتنا كواحدة من أخطر الخروقات عبر العالم. وهكذا أصبحنا نتمتع بفضل تدخلها بقسط من هذا الدعم، كانت كريستين تضيف إليه قدراً مهماً آخر، تجمعه من هنا وهناك بفضل تطوع بعض الفنانين لإحياء سهرات كان ريعها يذهب إلى هذه الجمعية. ومرة كل سنة، كانت هذه المبالغ ترسل إلى السيد محمد مجيد، ممثل المفوضية السامية لغوث اللاجئين في المغرب ليسلمها لنا. وبفضل 3,500 درهم التي كان سي محمد مجيد قد سلمها لي ذات مرة، استطعت أن أحيي حفلة خطوبتي في سنة 1997. وأقف هنا وقفة طويلة لأحيي هذا المقام الكبير النبيل الذي سابق الزمان فسبقه. وضرب أروع الأمثلة للبرهنة على أن صقيع الشيخوخة الذي يرغم بعض الناس على التقوقع والانكماش قد تنفخ فيه إرادة متقدة ماضية نسمات دفء لتذيبه وتقلبه إلى ربيع يانع متألق يحلو فيه العمل ويطيب النشاط. لقد وقف معنا هذا الشاب الأبدي ذو الثمانين ربيعاً وقفة الأب العطوف والأخ الرحيم، غير متهيب ولا وجلان من يد إدريس البصري الأخطبوطية الطويلة التي كانت ساعتها حجراً أسود يتهافت على تقبيله مريدو الحظوة وحجاج المصالح.

وبعد مرور ثمانية أعوام على إطلاق سراحنا، رجع أبرهام السرفاتي إلى وطنه مع زوجته كريستين. ووقف إدريس البصري هذه

المرة متحسراً عاجزاً مدعناً وهو يرى التاريخ قد بدأ بنفضه كما ينفض المدخن رماد سيجارته في المطفأة.

بإكليل ورد في يدنا، كنت مع غلول وأعكاو والزموري وأصياد والداودي وسكيبا من بين الأوائل الذين قصدوا فندق هيلتون لاستقبال كريستين وأبرهام وتهنئتهما. وجدنا عندهما وزراء وصحفيين وشخصيات من المجتمع المدني. مد لنا بعض الأشخاص من الفئة الأولى والثانية يدهم مصافحين على مضض، بينما أولانا بعضهم الآخر ظهره خوفاً من الشبهة أو تكبراً علينا فقط. ولما انصرف أقوياء هذا البلد بقينا مع صديقنا على انفراد، أطلقنا العنان لفرحتنا. فتمازحنا وتحاكينا نكت السجن وطرائفه. ولكن، عندما تفحص أبرهام صديقنا عبد العزيز الداودي ملياً وقد كان يعطي صورة ناطقة لما كانت عليه تزممارت، وضع رأسه على يده المسندة على كرسيه المتحرك ثم أجهش بالبكاء. شهوراً بعد ذلك، نظم أبرهام وكريستين حفلة رائعة في فيلاتهما التي وهبهما إياها العاهل المغربي في مدينة المحمدية، حضرها إضافة إلى بعض الناجين من تزممارت، السيدة والسيد ماري هيلين وفرانسوا بوجولان اللذان أسسا مع كريستين جمعية: «الإنصاف لتزممارت».

في شهر آذار/ مارس 2000، زارتني كريستين من أجل التعرّف إلى زوجتي وابني ياسين الذي كان في شهره الحادي عشر. وفي المساء رافقتها إلى بيت السيدة نادية ياسين التي تحاورت معها حول موضوع: التسامح في الإسلام. وقد كان حقاً نقاشاً رائعاً وثرياً تميّز باحترام متبادل بين السيدتين.

في اليوم التالي، دقت بابي معرفة قديمة من تلك المعارف التي يقول لها اللسان أهلاً ويقول لها القلب بعداً: جاء مقدم حومة تابريكت، وقال لي بعجرفة لا تتماشى مع رتبته:

ـ من تكون تلك النصرانية التي قدمت عندك بالأمس؟ هل هي فعلاً كريستين السرفاتي؟

قلت غاضباً:

ـ لِمَ هذا السؤال؟

أجاب مرتبكاً:

ـ اسمعني جيداً.. بالأمس، أخبرت القائد بما رأت عيني، فقلت له بأن امرأة أوروبية قد قدمت عندك. ولكنه عاتبني كثيراً لأني لم أقل له بأنها هي كريستين السرفاتي.

ـ وأين يكمن المشكل إذاً؟

ـ بالنسبة إليّ أنا ليس هنالك مشكل، أما بالنسبة إليه هو، فالأمر شيء آخر وإلا ما رأيتني عندك.

ـ ارجع إلى قائدك وقل له بأني لست ملزماً بإعطائه أي توضيح. وإذا كانت معلوماته ضعيفة، فليتأكد بأن كريستين وأبرهام السرفاتي قد رجعا إلى المغرب بقرار ملكي، وأنهما حران لزيارة من يشاءا من الناس ما دام القانون محترماً.

في اليوم نفسه، جرى استنكار هذا المضايقة الجديدة في بيان نشرته جريدة «المنظمة»، بينما توجهت كريستين إلى السلطات المختصة لاستفسارهم عن هذا التصرف الغريب. أياماً قليلة بعد ذلك، نُشر بلاغ للرأي العام يعلن بأن المقدم قد أعفي من مهامه. ولما سكنت العاصفة بعد أسبوع واحد من هذا الحديث، نودي على المقدم ليستأنف عمله من جديد. ولكنه حرص منذ ذلك اليوم ألا يقترب مني.

فهل سنفلح ذات يوم في تغيير هذا الوطن؟

المحتويات

أحمد المرزوقي

تزممارت

لما تواجهنا وأصبح كل واحد منا على مرمى خطوة من الآخر، وقفتُ. ووقَفت. فتحت عينيها تنظر إليّ كالمصعوقة. حاولت أن أبتسم، فجمعت شتات عقلي وقلت في دفعة واحدة بصوت خرج مبحوحاً من شدة الاختناق:

- حبيبتي أمي. كيف أنت؟

صرخت المسكينة صرخة واحدة جرحت من شدة حدتها أذن الفجر المتنفس، وهتفت وهي تشهق في بكاء مثير ملتاع:

- ولدي ... ولدي ... أحمد...

ارتمت في أحضاني وعانقتني بكل ما أوتيت من قوة وهي تنوح وتئن وتتوجع غير عابئة بتوسلات إخواني وهم يناشدونها باكين أن تثوب إلى رشدها كي لا تزيد في محنة قلبها.

مضى ما يقرب عن عقدين من الزمن والسلطات المغربية تنكر بشدة وجود معتقل للموت البطيء على أرضها في تخوم الصحراء يسمى تزممارت. في دياجير تلك الربوع الظلامية الرهيبة، دفن أحياء ثمانية وخمسون ضابطاً وضابط صف لضلوعهم عن غير قصد في محاولتين انقلابيتين فاشلتين (أحداث الصخيرات يوم 10 تموز/ يوليوز 1971، وأحداث طائرة البوينغ الملكية يوم 16 آب/ غشت 1972).

بعد اعتقال مرير في ظروف مروعة جهنمية دامت ما يفوق عن ثمانية وعشرين سنة، ألقت تزممارت أخيراً ما بجوفها، فقذفت بثمانية وعشرين إلى الخارج وهم نصف أحياء، واحتفظت في أحشاء رمالها باثنين وثلاثين ضحية.

الملازم أحمد المرزوقي، ساكن الزنزانة رقم 10 يشهد باسم أصدقائه الناجين والراحلين.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-572-4
9 789953 685724